

مِعالِمْ إِرْبِحُ الْإِنسَانِية

الألفاكتاب الثاني الإشراف النام و بعم ورسوحان و بعم ورسوحان ويست به المناوي ويست به المناوي ويست المناوي المن

محتمدقطب

الإخراج الضش

م ج. ولز مَعالِم الرمخ الانِسَانينة

زیت عبَدالعزیزتونین جَادیْہ

المجلد الشالث فى المستبحثية والابسّلام والعصورٌ الوبسّطى وعصبّ رالنهضسّية

الطبعة الرابعة



هذه ترجمة لكتاب

The Outline of History Being a Plain History of Life and Mankind By

H. G. WELLS.

Revised and brought up to the end of the Second World War by Raymond Postgate.

١ - راجع الطبعة الأولى المرحوم الاستاذ محمد مأمون نجما والأستاذ
 الدكتور عبد الحميد يونس ، وراجع المرجم الطبعة الثانية .

 ٢ - وعاود المرجم مراجعة هذه الطبعة الثالثة ونقحها على أحسدت الطبعات الانجليزية للكتاب١٩٦٣ التي أشرف علها الأستاذ رايموند يوستجيب
 الكاتب والصحفى الانجليزي المعروف

محتويات الكتاب

Take .
محتويات الكتاب
فهر من الموري والخرائط من
كلمة المرجم ك
كلمة المترجم الطبعة الثانية ن
تصدر الطبعة الثاثلة من
تقبله التالية ١٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠
آلكتاب السادس
المسيحية والإسلام
الغصل الثامن والعشرون : قيام المسيحية وسقوط الإمبراطورية الغربية
١ - البودية إبان الحقبة المسيحية ١٠٠٠ البودية إبان الحقبة المسيحية
٢ ~ تماليم يسوع : (عيسي) الناصري ٢٠٠٠
٣ - الديانات العامة إلجديدة ٢٠٠٠
٤٠ - صلب يسوع الناصري ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠
ه - مبادىء أضيفت إلى تعالم يسوع و مبادىء أضيفت إلى تعالم يسوع
٦ - كفاحات المسيحية واضطهاداتها ١٠٠ م ١٠٠ م ١٠٠ ٢١٢
۷ قسلتطون الكير ۷۱۸ م ۷۲۰ م
۸ - تامين الميمية الرحمةهههههههه
١٠ - خلاص العلوم على يد المسيحية ٧٢٠
١٠ - الفن البيزنطي ، به مده مده مده مده مده مده مده مده مده مد
القصرا الطسم المقدرين عادث السائلا أثناء اضلال الاستطار وتنالف تبالينا فالت
الفصل التاسع والعشرون: تاريخ آسيا أثناء انحلال الإمر اطوريتن الغربية والبرنطية
٧ الإمر اطورية الساسائية في قارس ٧
٣ أَ اصْبِحَالُ سُورِيا في هه السامانيين ٢٠٠٠ ٢٠٠٠ ٢٠٠٠ أ. ال
٤ - أول رسالة من الإسلام ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠ ٢٤٨
ه ــــــزرادشت وطافی
۷ - أسرتا و هان وتانج ع بالمين ٧٥٧ ٥٠٠ ٧٥٧
٨ - أغلال السين اللحنية ٢٦٢
٧٧١ - الفن العبني القدم ٩٠٠ - ١٠٠ الفن العبني القدم
١٠ - رحلات يوآن تشوانم ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠

indu
' الفصل الثلاثون : محمد ﷺ والإسلام
١ - بلاد العرب قبل عمد (ص) ١
٢ حياة محمله (ص) حتى الهجرة ١٠٠ ٠٠٠ ٢
۴ - محمد (ص) يصبح تبياً مثافحاً به ١٠٠٠ ۴
٤ تعاليم الإسلام مده مده و ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١
ه ـــ الخليفتان أبو بكر وعمر م. الخليفتان أبو بكر وعمر
٧ - أيام عظمة بني أمية ٩١٠
٧ انحلال قوة الإسلام في ظل العباسيين ٧
٨ - الثقافة المربية ٨
٩ - الفن العرف به ٩
الفصل الحادى والثلاثون : عالم المسيحية والحروب الصليبية
١ - العالم الغرق في أشد دركات تدهوره بيد ١
٧ - نظام الإتطاع ٧
٣ – مُلكة المُبروڤنجين الفرنجية ٢
٤ - تنصير البرابرة الغربيين مده بده مده مده مده مده مده مده مده مده مده م
ه حشر لمان يصبح إمير اطوراً على الغرب مده مده مده مده مده ٨٥٢ مده
٧ - شخصية شرلمان ٩
٧ - الفن والعارة الرومانحكيان ٧
٨ - الشرنسيون والألمان يتم انفصالم مد ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠
٩ - النورمانديون والعرب والحبريونُ والأثراك السلجوتيون ٥٠٠ م. ٨٦٩ م.
١٠ – كيف إستغالت الفسطنطينية بروعا مد ٨٧٧
١١ - الحروب الصليبية ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠
١٢ – الحروب الصليبية اختيار الصيحية ٥٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٥٠٠ ٨٩٣
٣٣ - الإمبر اطور فردريك الثاني ه.٠٠ .٠٠ م٠٠ م٠٠ م٠٠ م٠٠ ٨٩٧
ع المايب البايوية وتحديداتها المايوية وتحديداتها
ه ١ _ قائمة بأسماء البايوات العظام ١٥
١٦ - البارة والفن القوطيان ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠
414

الكتاب السابع

الإمبراطوريات المغولية صاحبة الطرق البرية والإمبراطوريات الجديدة صاحبة الطرق البحرية

سلحة																	
	رية)	إقال	رالطو	(عص	ظيمة	بم الع	وريتم	براط	•وإم	طفاو	انوخ	كيزخ	-	يئون	و الثا	بالثاذ	بصل
111		***		•••			***	***		_	في عشر	ن العا	ة التر	ند نها	آسياره	-	١
															قيام ال		
															رحلاد		
48+		•••	••	***	•••		***	***	•••	2	لتطيئيا	والتس	ئيون	الميًا	الأتراا	-	£
															I ISU		
488	***	•••	***	***	•••	•••	•••	***		•••	ين	ق الم	ومنج	يوان	أسرتا	-	٦
400	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	•••	***	لية	, النيا	، الرو.	رن إلم	يرته	المنوأ	-	٧
4+1	***	***		•••		***	(\	ألروس	(ئيا (وسكو	. س	تى وقي	القيچا	ورية	إمبراء	_	٨
905	***	***	***	***	***	***	***	***	•••	•••		***	•••	41	تيمور		4
100	***	***	***	***	***	***		***		***	:	المنوليا	الجند	لورية	إسراه	- 1	
417	•••	***	***	***			***	***	***	***	***	***	()	(ال	الثجر	~ 1	١
															ئثوا		
410		•••	•••	•••	•••		•••			•••		لشميى	تعليم أ	ية وا	الميا	_	١
441	•••	•••	•••		•••	•••	•••			٠	لثقب	أشعيس تفكير	تمليم ا ز ف ال	ية وا تشر	السيد أوريا	-	١
141	•••	•••				•••	•••	•••	٠	 يا الشيو	لثقم فجر	ئشىپى تىنكىر بزو خ	تعليم ا إ في ال نبور و	ية وا تشرخ إن الك	السيد أوريا الطاعو		1
141	•••	•••				•••	•••		 	 يا الشيو بان	لنفسم فجر الإل	ئشىپى ئىنكىر بزوغ ن مقل	تعليم ا إ في الم نبير و الورة	ية وا تشرخ رن الكا حرر	السيد أوريا الطاعر كيف	1 1 1	4
141								•••	٠٠٠ وية وية د٠٠	 با الشيو بان انثية ا	لنفس فجر الإل والمنا	ئشمپسی تفکیر بزوغ ن مقل اه و بر	تعليم أ إ في ال أبور و الورة الإمر	ية وا تشر إن الك حرر عائلية	المسيد أوربا الطاعر كيف بروت	1 1 1 1	/ * *
141 141 141 141								•••	 مية كدود	 الثيو ان انتية ا	لنفسم فجر الإف والستا	ئشىپى ئىلكىر بىزوغ ئى ھقل ياء وبر سباته	تعليم أ إ في ال أبود و الورة الأعر العن	ية وا تشر ين الك حرر عائلية يستيقة	السيد أوربا الطاء كيث بروت العلم	1 1 1 1 1	' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' '
444 444 444 444 444									 مية لشعود ند.	الثيو الثيو انثية ا	لنفسم فجر الإل والستا ووالستا ية	ئشمهى تفكير بزوغ ن عقل ا، وبر سباته الأورب	تعليم أ إ في ال أبور و الورة الأمر المن لمدن ا	ية وا تشرح ن الك حرر تاللية يستيقة لديد ا	المسيد أوربا الطاعر كيث بروتر العلم الغو ا	1 1 1 1 1 1	' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' '
141 441 441 441 411									 مية مية الثموء 	يا الشيو الثية ا	لنفسم فجر الإل والستا وي	الشعبى تفكير بزوغ أ، مقل إ، وبر سباته الأورب	تعليم أ أورد و الورة الأمر لا من ليدن ا	ية وأا تشرع دن الكا حرو ستاللية يستيقه الادد ا	السيد أوربا الطاء برود العلم الفو ا	1 1 1 1 1 1 1	' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' ' '
141 442 441 414 414 414 414 414								•••	 مية مية لشعوء دد. 	 الثيو الثية ا	لنفسر فجر الإل والستا ووالستا ووالستا ووالستا	الشعبى تفكير بزوغ أ، مقل إ، وبر سباته الأورب	تعليم ا إ في ال الورة الأمر الأمر لل من ليفات ا	ية وا تشرح حرر حرر تاللية يستيقا الادر الفنيا	السيد أوريا كيف برود العلم الغو ا		1 Y Y & & T Y A &
444 444 444 444 444 444 444									 مية د د 	يا الثيو انثية ا	لنفسم فجر الإلـ والستا ية	الشعبى تفكير بزوغ اه وبر الأورب الأورب	تعليم أ إ في ال الورة الأمر الأمر للمن للمن الما	ية وا تشرح دن الك حرر عائلية يستيقط المديد ا الفنيا الفنيا الفنيا	الميد أوربا الطاعر بروت العلم النو ا		1 Y Y & & * 7 Y A \$.
444 444 444 444 444 444 444 444									 مهة د د 	الشيو الشيو التية ا	لنفس فبر الإلـ واست ية	الشعبو بنزوغ بن مقل ا• وبر سباته الأورب العالم	تعليم ا إن الورة الورة الأمن للمن المن للمن التا المر التا	ية وال تشرخ حرو حرو سائلية المديد ا الأدب الفنيا المنا	السيد أوربا الطاع برود العلم الفو ا البضا أمريك أمريك		1 7 7 4 4 7 7 4 4 7
444 444 444 444 444 444 444									 مهة شعوب 	الثيو الثيو ا انتية ا	لنفسر فجر الإلـ والستا ية 	لشعبو عذكار أد مقل إد وبر سباته الأورب العالم العالم	علم أن الما أن الما أن الما أن الما الما الما الما الما الما الما الم	ية واا تشرع حرو ستللية يستيقة الأدبر ا الفنية ماكيالة ية س	الميد أوربا كيف برود العلم القو ا البضا البضا أمريك رأى		1 7 7 4 4

-
(ب) بروتستانت إذا رغب الأمير في ظك ١٠٥٥
(-) التيار السفل الذهني المضاد ٥٠٠ ٠٠٠ ٥٠٠ ٥٠٠ ١٠٥٦
تصویب الأخطاء
فهرست أنجلى للكتاب ورست أنجلى للكتاب
التعريف بالمترجم التعريف بالمترجم الم
1.4.3. 11 .
فهرس الصور والخرائط
P
١٢٠ – خريطة منطقة الحليل والولايات الهيطة جما ١٢٠
١٢١ – خريطة أوريا حوالي ٥٠٠ م ١٢٠
١٢٢ – صورة بالغسيفساء لمستنيان ويلاطه ١٠٠ ١٠٠ ٠٠٠ ١٢٢
١٢٣ – خريطة الإمبر اطورية الشرقية وإمبراطورية الساسانيين ٧٤٠
١٢٤ – خريطة المدن في آسيا الصنوى وسوريا وبلاد بين الهرين (في القرن الأول المسيحي) ٧٤٧
١٢٥ – صورة لملة إلثالية ١٢٠
١٢٦ – خريطة الإمبر اطورية الصينية ومقارنة مساحبًا بالإمبر اطورية الرومانية ٧٦٧
۱۲۷ - و تبين طريق يوآن تشوانج من الصين إلى الهند ۲۲۹ - ۹٤٥
۱۳۸ - « بلاد العرب والبلاد المتاحمة لها
۱۲۹ – و بدايات الدولة الإسلامية
۱۲۱ - و الإمبر المورية الإسلامية عام ۷۵۰ م ٨١٨
۱۲۷ - و أوريا حوالى سنة ١٠٠٠م ١٠٠٠
۱۳۳ - و حدود علتكات الفرنجة في عهد شاول مارتل ١٣٣
١٣٤ - و انجلترة سنة ١٤٠ ميلادية ١٣٤
و المجافرة عند معاهدة ويدمور سنة ٨٧٨ ٨٤٧
١٣٦ - و أوريا عند وقاة شارلمان سنة ٨١٤ م ٥٠٠
۱۳۷ – صورة رسم بارز من قبر شارلمان في إيكس لاشايل رهو يكوس كنيسة للعذراء و ۶۹۲
١٣٨ - خريطة فرنسًا في نهاية القرن العاشر وه. وه. وه. وه. وه. وه. وم. ١٣٨
١٣٩ - و إمبر الحورية أوتو الكيور ١٣٩
٠١٠- و طهور السلاجلة ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠
١٤١ - و الحرب الصليبية الأولى ١٠٠٠ - ١٠٠٠ الحرب الصليبية الأولى
١٤٢ صورة تبر صلاح الدين ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠ ١٠٠٠
187 ه كتيبة القديس مارك بالبندية
١٤٥ ــ عريطة أوريا وآسيا حوالي ١٢٠٠ م

ميقسة																دمج	
44.		***			•••	(1	***	ئة (ته مي	د وفا	ان حا	کرہ	ية جا	بير اطود	ىريىلة إ	127	
177		***		***	پولو	اركو	بت ما	ورسلا	(11	A+	رائى (إلية -	، المفر	ارلايات		-114	
																a- 184	
																169	
																~100	
137	•••	***	•••		***	***		***	***		صوقيا	بائت	نهسة -	اخل ک	سورة ه	101	
																107	
																- 107	
																101	
																100	
111	•••	***	***	•••	***		***	ئاس	پ الت	rzj.	تارج	ية جو	ن طب	مغمة .	9	-101	
														مأرتن لم		-104	
														لويولا		-104	
	•••	•••	***	***	***	***	***			(رألس	س (لية ر	كاتدرا		-104	
1 A	***	***	***		•••			***	400	•••	***		***	جائيليو		-17.	
1-14	***	***			***	***	11	القرن	يا ق	ِ آرر	سية ؤ	ة الرتم	تجاري	الطرق ا	مريطة	111-	
. 44																-177	
1.44	***	***	***	***	***		***	***				يرو	بك و	الكـــــ		-175	
1+64	***	***		***	***	***	***	4	لمرات	ق وا	م اللو	نے آہ	ة توة	لسريسر		- 116	
1.67	***	***	***	***	***	***	***	0 0 0	***	U	"القام	قارل	ي حهد	اوریا و		-110	
1-4V	***	000	900	***	***	***	***	***	***	•••	ناس	ر ق ۱۰۱ ،	رر شاء ده	لإمار اطو * أن	ښورة ا	137	
1.44	***	***	•••	•••		***	***	***		•••	***	J,	ن الاو دا	قرائسهم		- 174	
1 = 4 A	000	***	***	***	***	***	000	000	***		000		ثامن	هبری ۱۱		- 114	

كلة المترجم

قال الزمان بعد الأغريق من صولة الرومان ، ومالت شمس قبصر ، وولت الأيام العظمة والأيام دُول

وانقضت خمس عشرة مئة من السنين . . . تلقت فها البشرية من الدووس ما تلقت ، وقاست من العذاب والآلام ألواناً .

خس عشرة مئة سنة أو تريد . . . مرت هزالا عجافاً حتى لإخال التاريخ شسدنيد الرغبة فى تخليص ذاكرته من شوائبها ؛ لما حطمت من نظم ، وشتنت من جموع ، ولما قوضت من حُلتن ولما لمجرّحته فى الوحدة العالمية العامة التى كانت المثمىء الوحيد الذي أفادته الدنيا من الرومان والى لا ترح هدفنا الأعلى الذى تسعد بدلوفنا إليه .

خس عشرة منة من السنن . . توقف فيها موكب الحضارة ، وأخد الناس يتلمسون طريقهم فلا يجدونه ، وكأنى سم يطلبون القدم فلا يستطيعون إليه وصولا ، ويحدون إلى وصلاح الحاضر والحاضر حرائب وأنقاض ، ويتطلعون إلى المستقبل فلا يجدون فيه بارقة شمي نفوسهم . وكان الناس في قدم العصور في هميية فا لت سم الحال إلى نظام ، وها هم أولاء في حال لا هي بالهمجية ولا همي بالمدنية ، حال من الانتكاس الموس الموحش .

خس عشرة مئة من السنن أو تريد . . أطبقت فها عن العلم المعروف سسدة محلولكة ، فقد فها الإنسان كل أمل فى هذا الوجود ، وارتد إلى الكون قانون الغاب المذى قوامه الطفر والناب ، والذى يفتال فيه القوى الضعيف ، وترجح فيسه الفرة كل حق .

ظلام حالك وفوضى شاملة ، وتفتت لكل شيء إلى جزيئاته بل فراته الأولى . وفوو الضائر يسائلون أنفسهم أهكاما نباية البشرية ؟ أهكاما تتحطم كل الأمال التي عقدها الناس على مستقبل مشرق معيد ؟ ليل عبوس عصيب رهق حتى تقطعت نياط الآمال وطال ما جمَّ حتى بلغت التفوس الحناجر ، فما يستطيع أحد أن يفيق بما غشيه من هم وحَرَّن .

ولولا أن يد القدر امتنت إلى تلك الحقبة الطويلة المدينة من الليل الأكدر ، فأومضت فيها ثلاث ومضات خطفت الأبصار بادئ الرأى ، ثم اسسردت الأمور يعض وصها ، وأخلت تتلمس بعدهن طريقها نحو نور ابتدأ شعاعاً في دقة الحيط : وما زال يقوى وينيسط حتى أصبح في القرن العشرين فيضاً منهمراً من باهر الفياء وساطح الإشراق ، لولا هذا لقضى على المدنية في غابرها وساضرها ، ولأديل من الانسائية إلى أبد الآبدين .

فأما الومضة الأولى التي شق نورها غياهب تلك الظلمة الفاحة ، فلمك الوليد الذي التبلت به أمه مكاناً قصيياً ، والذي كان كلمة من الله شاءت بها إرادته التماسية ، أن تعيد إلى النفوس شييئاً من الأمل ، وأن تلقى في روع الإنسانية ألا تقط من رحمة الله . وإذا هو يُعمَّم القوى الرحمة بالضعيف ويدعو إلى التفافي في خلمة الغير تفانياً يُدُّخل الإنسان في ملكوت السهاوات وهو ، بعد في هذه الأرض ، ويجرده من عرض الدنيا ويتوج مفرقه يحب من عيطون به إذ يمنحهم كل ما تملكة يداه من مال وقوة ونشب .

وكانت الومضة التى أوراها ذلك النبي الرحم خاطفة وضاءة أطاشت صواب الإنسانية فملت يدسها توارى العينين قبل أن غطف البرق ضياءهما . وما همى إلا هنهة حى كان ستار الظلام قد أسلس من جديد كثيفاً فاحاً ملىلها

وهوت البشرية مرة ثانية صريعة أو تكاد

م دار الزمان دورته ، وآن للعناية أن تلحظ الدنيا برحمة من للنها ، تعيد إليها شيئاً من الثقة والطمأنينة . وجاءت الفصات القلصية فى البوادى العربيسة على يلد ذلك البتم العائل ، الذى آواه ربه وأغنى . إذ يقول له الملك : و اقرأ » وما هو بقرىء ، ولا يبرح به حتى يقرأ على الناس كتاباً مطهراً ، يدعوهم فيه إلى عبادة الأحد الصمد ، ولمل إخاء شامل ومساواة بين القرشي والحيشي . ويأمرهم بالتسامح والعدل والإحسان ويحضهم على العمل الشريف في هذه الدنيا والترود للإشخرة بالصلاح

والتقوى. لقد أشرق ضياء الطاهر الصادق ، وهبت لنصرته البوادى وأقبـــل هليـــه الناس رجالا وعلى كل ضامر ، وسعلت البشرية هنية بالإيمان والمساواة والتضحية فى سييل الحق والحمر .

ثم غلبت على الإنسانية شقوبها ، ففقلت إيمانها بالحق ، وحرمت التعلق بالمُشُّل وتجانفت عن كل تضحية .

وانطبق الستاركرة أخرى مرخياً دياجيره ، وران على الناس سيات عميق طال في الشرق حبى لتحسبه نعاس الأبد .

ثم خفق سراج الفدر في الفرون الوسطى بالومضة الثالثة التى ، أرسلت شرارة بارقة التصلت بهشم الحيوات الأولى ، ووجدت من المسيحية والإسلام ذخراً لاينضب له معين ، فأوقدت ناراً بدأت بإحياء العلوم خافتة تسرى ولا ترى ، وانتهت بنهضية القرون الوسطى مشبوبة حارة ، حتى ترامت إلى ما ترى حولك من مشاعل وهاجة ونران فياضة الفسياء مشرقة السطوع

تلك هى الومضات الثلاث التي يؤرخ لها سفرنا هذا إذ ينظر إلى المسيحية وبشرها الناصرى الكرم ، وإلى الإسلام ورسوله المصطفى الهادى الأمن ، وإلى ذلك النهوضي الله عدم بدولاب المعرفة والحياة في القرون الوسطى دفعة توثب أدارته إلى ما محيط بك من حال الشئون في القرن العشرين .

ولن أزيد الفارئ بياناً بالجلل الطروب الذي يستعرض به المؤلف هذه الومضات الثلاث بوصفهن صوى هظمى في تاريخ الإنسانية وركائز ترتكز هلبا في دلوفها نحو الأمام ولا بالتعقيبات الفلسفية العبيقة الى يعقب بها عليها ولا بالنظرات التاقدة الدقيقة والترجهات التي مهما يكن رأى بعض الناس فيها فإنها صادرة من قلب غلص مؤمن بما يدعو إليه .

وبحسب القارئ أن يقلب صفحات الكتاب ليستمتع ويتزكى .

كلة المترجم للطبعة الثانية

أحمد الله كثيراً إذ أقدم لقراء العربية هذه الطبعة الجديدة . وقد بذلت ف تشيح هذه الطبعة ومراجعتها على أحدث الطبعات الإنحليزية الكتاب نفس ما بذلت من جهد في محلديه الأول والثانى . وأضفت إليه كدأى في سالفيه الشروح والفهارس الأبجدية . وبسطت عبارته لتكون في متناول كل فهم رغبة منى في إيلاغ ثقافة المؤلف الرفيعة وعلمه الغزير وبصائره النفاذة إلى كل ذى عقل مستطلع يطلب النور .

2.2.2

مصر الجديدة في ١٤ مايو ١٩٦١

تصدير الطبعة الثالثة

كان من الطبيعي أن تتفد طبعتا الكتاب الأولى والثانية . ولا غرو فإنه يما حوى من ثقافة عميقة وظلمفة عقلانية ونظرة علمية حديثة ودعوة مخلصة إلى خير البشرية تكاد تتم الرسالات العليا التي قام بها أفداذ الرجال ، قد أصبح من الأركان للعقلية التي لا يستغنى عنها مثقف في هذا العصر .

وقد تصادف ، وأنا أطبع الطبعة الثانية من المجلد الرابع ، أن وقعت في يدى طبعة إنجلزية حديثة جداً تقحها المسترر إيموند پوستجيت فضبطه علمها ، وفعلت ذلك أيضاً بالمجلدين الأول والثانى من الطبعة الثالثة . وكذلك نقحت طعها هذه الطبعة من مجلدنا الثالث هذا .

وقد راجعت مرجمته مراجعة دقيقة . وأعدت النظر في الأعلام فجائث مطابقة لما ورد بالكتاب للقدس وغيره من المظان والمراجع وبلدا أقدمه إلى القراء راجياً أن ينتفعوا به باعتباره موسوعة ضخمة من العلم والتقافة والتلامخ أتمنى أن يقبل طبها شبابنا إطلاعاً والتهالا ؟

الكِتابِ البادي

المسيحية والإسلام

الفيرال مرابع ورق

قيام المسيحية وسقوط الامبراطورية الغربية

١ -- البودية إبان الحقبة المسجية . ٢ - تعاليم بسوع (عيس) الناصري .

١١ – ألفن البيزنطي .

١ _ المودية(١) إبان الحقبة المسيحية

لن ينها لنا فهم خصائص المسجية الى عليا الآن أن تلعب دوراً كبراً في تاريخنا ، والى فتحت أعن الناس على نواح جديدة تبشر بإمكان قيام عالم موحد ، —
عى نرجع البصر يضع قرون ومحدثك عن الأحداث الى جرت في فلسطن وصوريا ،
وهما القطران اللذات نشأت فيهما المسجية . ولقد أسلفنا إليك من قبل أهم المقائق
المتعلقة بأصل الشعب البودى وتقاليده ، وتحدثنا عن بهرد التشتت (Diaspera) وعما
فطرت عليه البودية من حيث جوهرها من تشتت وتشرد حتى وهى في مهد بدايتها ، وهن
التطور التدريمي لفكرة إله أحد عادل يحكم في الأرض ويرتبط بوعد خاص قطعه
على نفسه : أن يحقظ الشعب البودى ويرفعه مكاناً عليا . والفكرة البودية كانت
وما تزال مزيماً عجيباً من رحاية أنق لاهوتية ووطنية عنصرية حادة ضيقة . وكان

 ⁽١) أرض أو بلاد بوديا أو بهوديا أولهبردية مي ترجة الفغة (Jude) الاجتبية . كما وود في الحيلة الثانق من الممالم . وتضميعها الموسومة العربية الميسرة بالم جودايا . (المترجم)

البهود يترقبون مخلَّصاً معيناً : مسيحاً يخلص البشرية بطريقة محببة إليهم ، تنطوى على ـَ اُسْرَجَاع ماكان لداود وسلبان من مجد أسطورى ، ووضع العالم آخر الأمر تحت أقدام البودية الخيَّرة والحازمة أيضاً . حتى إذا انحطت القوىالسياسية للشعوب السامية ، وإذ أفل نجم قرطاچه من بعد صور وهوتا فى غياهب الظلمات، وأصبحتأسپانيا ولاية رومانية ، فقد ترعرع ذلك الحلم وشاع . وليس ثمة شك أن الفينيقين المتناثرين في أسهانيا وإفريقية وفى كُلِّ أرجاء البحر المتوسط ، وهم قوم يتكلمون لغة شديدة القربي بالعبرانية ، ويعيشون عمرومين من حقوقهم السياسية الأصلية الحقة ، ــ قد تحولوا إلى أتباع لدين المهودية . ذلك أنه مرت فى التاريخ المهودى أدوار قوية من الدعوة واسمالة الأنصار إلى البودية كما تقلبت عليه أدوار أخرى من شامل الغبرة والاعترال . إذ حدث يوماً أن البود قهروا الإدومايين (Idumeans) وأجبروهم أجمعين أن يصبحوا هودا^(١). وهناك قبائل عربية كانت على دين اليهودية فى زَمان عيمه. ﴿ صَلَّم ﴾ ، وثمة شعب تركى ف جنوب الروسيا كان في معظمه بهودياً في القرن التاسع . والواقع أن البهودية هي المثل الأعلى السياسي المعاد تشكيله لكثير من الشعوب المحطَّمة وهي في غالبأمرها سامية الأصل . ولا مراء أن ما البهود من التقاليد المالية والنجارية إنما يعود إلى الفتة الفينيقية مُهم وإلى دخول الآرامين ملة البهود في بابل . على أن هذه الائتلافات والاندماجات وألوان النمثل ، الى كانت تقوم تقريباً بكل مدينة من مدن الإسراطورية الرومانية ، بل تتجاوز حدودها إلى مسافة بعيدة شرقاً ؛ قد ترتب عليها أن المجتمعات البهودية كانت تتجر وتزدهروتثرى وتتصل بعضها ببعض بفضل التوراة وبواسطة هيئة دينية وتعليمية . ولم يحدث في يوم من الأيام أن الشطر الرئيسي من الشعب البهودي كان يقطن الهودية ، كما أنه لم ينبعث إلى العالم من ذلك القطر أبدا .

ومن الواضح أن هذه المجموعة المتصلة الحلقات من المجتمعات المهودة كانت تنم بتسهيلات وفرص عظيمة جداً من الناحيتين المالية والسياسية . فكانوا يستطيعون أن يجمعوا الموارد والقوى في أيدهم ، وكانوا يستطيعون أنيستثيروا وأن مهدئوا ومابلغوا من الكثرة ولا الحضارة مبلغ الإغريق الذين كانوا حيى آنذاك أوسع مهم انتشاراً ،

⁽۱) تاريخ پوسيفوس.

ولكن كان لهم تراث قديم امتاز بناسك أقرى بما كان لدى الإغريق . فكان الإغريقى عدوا للإغريقى ؛ أما البهودى فكان اللبهودى أخاً ونصيراً . فحياً حل بهودى ، وجد رجالا لم مقل مثل عقليته وتقاليد مثل تقاليده . فكان في وسعه أن يجد المأوى والطعام والقروض المالية و المون القانوني . من أجل هذا التماسك اضطر الولاة أن يحسبوا لمؤلاء القوم حساباً في كل مكان إما يوصفهم مصدر عون لحم أو منهلا القروض أو مهما الممتاعب . وهكذا حدث أن البهود ظلوا محفظين بكيانهم كشعب ، على حين أصبحت ا الهلينية » نوراً عاماً يضيء المجنس البشرى كانة .



ولسنا بمستطيعين أن نسرد هنا على سببل التفصيل تاريخ ذلك القسم الأصغر من الشعب البهو دى الذي عاش في بلاد البودية (Judea) نفسها . عاد هوالاء المود إلى مركزهم القديم المحفوف بالمخاطر ؛ حادوا يلتمسون السلام مرة ثانية في وسط طريق كبىر مطروق إن صبح هذا التعبير . لقد كانوا ف الزمان القديم ينزلونبن سوريا وآشور إلى الشيال ومصر إلى الجنوب. وها هم الآن بـنالسلوقيـن شهالا والبطالمة جنوباً ، فلما أنذهبت ريح السلوقين، هوت على رأمهم قوة الرومان . ونتيجة لهذا كله كان استقلال وبلاد الهودية ، علىاللوام أمراً مقيداً غرمستقر. ولايد للقارئ أن رجم إلى كتابي و الأخبار العنيقة ،

(Antiquities) و و حروب البود ۽ لفلاڤيوس يوسيفوس – (وهو کاتب مطنب ممل

نو نرمة وطنية جامحة تبعث في الرأس الحنون) ... إذا هو شاء أن يعرف من تقلب عليم من الحكام ومن الملوك الكهنة الأعلين ، والمكابيين والهيروديين ومن شاكلهم . كانت غالبية هولاء الحكام من الطراز الشرق المعتاد ، ماكرين ، غادرين وملطخي الأيلدى بالدماء . وقد أخلت منهم أورشليغ ثلاث مرات ودمر لهم المعيد مرتين . ولم يتقد هذا القطر الصغير من أن تمتد إليه يد المحوالتام إلا معونة بهود التشقت الاتوى نفوذاً ، حتى كان عام ٧٠م وفيه فتح الملينة تيتوس الابن المبيني للإمعراطور فسازيان وبجليفته ، ودمرها هي والمعبد على السواء بعد حصار يضارع في المنف والمراوة والهول حصار صور وقرطاجة ، وقد فعل تيتوس ذلك محاولا أن يقضى على الشعب اليهودى قوة بشمره النقطة الوحيدة الحساسة المهيضة فيه منه

مرت بين المودة من الأسر وبين تدمير أورشليم قرون خسة انقضت في حروب واضطرابات أهلية داخلية ، ولكن ظل البود أثناءها محتفظين بصفات معينة الثابتة . فالمهودي لم يقتأ يومن بوحدانية الإله إيماناً واسخاً ؛ وهو لا يقبل أي إله آخر إلا الإله الواحد الحتى . وإنه ليقف في دوما كما يقف في أورشسليم رافضاً في رجولة عبادة أي قيصر رب . كما أنه استمسك جهد طاقته بمواثيقه مع ربه . فلم يكن يسمح بعنحول أية تماثيل منحوتة إلى أورشلم ؛ بل إن الأعلام الرومانية نفسها بما عليها من سور اضطرت أن تبقى خارج المدينة ،

وإنك لتستطيع أن تتعقب عند اليهود أتجاهين فكريين متباعدين أثناء ثلك المخات الحميس من السنين . فأنت واجد إلى اليمين ، إن جاز لنا مثل هذا التعبير ، فئة اليهود العليا المتشددة ، وهم الفريسيون اللعين يستمسكون بعقيدة السلف أبلغ استمساك ويحافظون تماماً حتى على أدق تفاصيل الشريعة ، وهم شديدو الوطنية قويو الفزعة الانعزائية . وحدث ذات مرة أن سقطت أورشلم في يد الملك السلوق أنطيو تحومي الرابع ، لأن استمساكهم بعقيدتهم أبي عابهم أن يدافعوا عنها يوم السبت حين يحرم عليهم العمل . وكذلك ترتب على امتناع الهود فيا بعد عن بذل أي جهد يوم السبت

لتدمير أدرات الحصار الذي ألقاه يوميي العظيم على أورشليم ، أنه اســــتطاع أن يستولى علمها .

ولكن كان يوجد لقاء هو لاء الهود المتشددين ، جود أخر و اسعو الأفق ، هم حود اليسار ، الذين كانوا يؤمنون بالمذاهب الهليفية ، و يمكن أن يضم إلهم الصدوقيون و هم الهود الأعروف المناود يومنوا يعتقدون في الحلود . وكان هو لاء البود الأخرون وهم الهود الأفق ، يميلون جيعاً حوان بدرجات متفاوتة حلى الامتراج والاندماج في الإغريق والشعوب و المهلسة ، المحيطة بهم . وكانوا على أتم الأهبة أن يقبلوا في مذهبم أتباعاً جدداً ، و بذلك يتقاممون ربوبية الرب ووعده مع البشرية كافة . بيد أن ما كسوه من البهاحة وسعة الأفق خسروه في ناحية الاستقامة وحسن السمعة . فهم في و بلاد المهودية و يعتبرون العلمانين المتكالين على الأمور الدنيوية . ولقد ذكر نا من قبل كيف أن بهود مصر المهلسين فقدوا لغمهم العبرية واضطروا إلى نقل توراحهم إلى الإغريقية .

وظهر في و بلاد البهودية » في أيام طيبريوس قيصر ، معلم عظيم قدُرً له أن يحررالإدراك العميق لمبر الله ووحدانيته التي لا تقبل تحديدًا ولا جدلا ، والترامات الإنسان المعنوية نحوالله ، وهي التي كانت دعامة لقوة العقيدة البهودية السلفية ، بيررها من ذلك التشدد الضيق الاعتزالي الجشع ، الذي كان يخالطها في الذهن البهودي على أبلغ صورة خارقة . كان ذلك المعلم هو يسوع (عيسي) الناصري ، الذي هو نواة المسيحية أكثر منه مؤسمها .

۲ - تعاليم يسوع (عيسي) الناصري

إن الحمهور الذى سيقدم إليه هذا الكتاب أول ما يقدم ، سيكون معظمه من المسيحين، وربما يكون فيه بعض قراء متناثرين من المهود ، والأولون على أقل تقدير ، يعدون يسوع الناصرى شيئاً أعظم كثيراً من مجرد معلم من البشر ، كما يعدون ظهوره فى العالم لاحدثاً طبيعياً فى التاريخ بل شيئاً إعجازياً خارقاً ، يعترض ويغير ماللحياة من ناموس ثابت المتطور بهدف إلى ه وعى مشرك وإرادة مشتركة ، وبحوله عن سبيله

— الأمر الذى ما برحنا حي الآن تقفو أثره في هذا الكتاب . بيد أن هذه المعتقدات على ذيرعها في أوربا وأمريكا ، ليست مع ذلك معتقدات الناس كافة ولا الفالية العظمى من الجنس البشرى ، ونحن إنما نكتب هذه و المعالم ، في تغريخ الحياة ، عبانين بأقصى مستطاعنا كل ما من شأنه أن يشر منازعة أو جدلا . كما أننا نحاول أن نفترض و نحن نكتب أن من سيقرأون هذا الكتاب من الهندوك أو المسلمين أو البوذيين يعدلون في صددم من يقرأونه من الأمريكين والأوربين الفريين . لللك سنستمسك بالحقائق الظاهرة استمساكا قفيقاً ونجائب - دون أية منازعة أو إنكار - كل الشروح اللاهوتية أفي فرضت عليا فرضاً .

وسنجرك بما اعتقده الناس في يسوع الناصرى ، أما هوفإن سننظر إليه كما بدا ،
أى بوصفه بشراً على نحو ما يفعل المصور تماماً حيث ياترم حين يصوره إظهاره في
صورة البشر. وسنمالج الوثائق الى تدون أعماله وتعاليم على أنها وثائق بشرية عادية.
فإذا سطح ضباء الألوهية من خلال تلاوتنا لها ، فلن نمينه ولن نحجه . وهذا هو
ما فعلناه آنفاً في حالة بوذا ، وهو ما سنهجه قرياً مع محمد (صلى الله عليه وسلم).
فليست مهمتنا أن تكتب عن يسوع من الناحية اللاهوتية بل من وجهة التاريخ.
وليست عناينا موجهة إلى أهمية حياته الروحية واللاهوتية ، بل إلى تأثير انها على حياة

ويكاد يكون المصدر الوحيد الملوماتنا عن شخصية يسوع (عليه السلام) محصوراً في الأناجيل الأربعة (Gospela) ، وكلها كانت بالتأكيد موجودة يعد وفاته ببضع عشر ات من السنن ، ومن الإشارات إلى حياته في رسائل (Epistles) الدعاة المسيحيين الأوائل ، من السنن ، ومن الأشارون أن الأناجيل الثلاثة الأولى ، مني ومرقص ولوقا ، مستمدة من بعض وثائق أقدم منها ؛ ولكن إنجيل القديس يوحنا يتصف بطابع أخص وأبرز ؛ كما أنه يصطبخ بصبغة لاهوتية ذات طابع هليني قوى . ويميل النقاد إلى احتبار إنجيل القديس مرقص تصبخ ما كتب عن شخص يسوع وأعماله وأقواله وأجدرها بالثقة . يهد أن الأناجيل الأربعة جميعاً تنفق في إعطائنا صورة لشخصية واضحة الحدود تماماً . وهي تحمل من الإقتناع بصحها نفس ذلك الإقتناع للذي تحمله إلينا البيانات الأولى المتواترة عن بوذا .

وبالرغم مما أضيف إلى الفصة من إضافات معجزية وأمور لا تصلـق ، فإن المرء لا يسعه إلا أن يقول و إن هنا الإنساناً حقاً . إذ ليس من الممكن أن يكون هذا القسم من القصة من نسج الحيال والاختراع » .

ولكن كما أن شخصية جوتاما بوذا قد شوهت وانطمست وراء تلك الصور الحامدة المتربعة التي عليها وثن البوذية المتأخرة المُذَكَّمَّب، فكلك يشعر المرء أن شخص يسوع النحيل المكدود قد أضر به كثيراً ذلك الجو الرهمي وتلك الروح التقليلية اللذان فرضهما على صورته في الفن المسبحي الحديث تبجيل خاطئ من رسام تقى قانت . كان يسوع معلماً ذا محصاصة ، يتجول في و بلاد البهودية » المربة اللاقحة الشمس ، كان يسوع معلماً ذا محصاصة ، نتجول في و معذلك فإنه يصور على المدوام نظيماً بمشط المشعر مرجله صقيل الإهاب ، نقى الثياب مستقيم العود ، ومن حوله سكون لا ريم كأنما هو منزل في الحواء . وهذا وحده قد جعله وهماً لا يؤمن به الكثير من الناس ، الذين لا يستطيعون أن يميزوا بين لباب القصة وبين زخرف إضافات التحصين والتحلية غير الموفقة التي يضيفها يعض المتينان بغباء .

ومن الجائز أن الأجزاء الأولى من الأناجيل استطرادات وإضافات من نفس هذا الطراز . فإن المعجزات المتصلة بمولد يسوع : ذلك النجم العظيم الذى جلب الحكماء من الشرق ليميدوا الله حاكفن عند مهذه بالميذود ، ومليمة الأطفال الذكور في يبت لحم بأمر هيرودس نتيجة لهذه الظواهر والنثر ، والحرب إلى مصر ، إنما هي أموريظنها كلها كتير من الثقات من أمثال تلك المواد المضافة . وهي في خير أحوالها حوادث لاضرورة الما التعاليم ، وهي تسليها الشيء الكتافيم ، وهي تسليها الشيء الكتافيم المؤلفة التي أوردها من ولوقا ، والتي الإضافات وكذلك الشأن في مسألة القسب المتناقضة التي أوردها من ولوقا ، والتي يحاولان فيها إرجاع النسب المباشر لأبيه يوسف إلى الملك داود ، كأنما كان شرقاً ليسوع أو لأى إنسان آخر أن يكون رجل كهذا أحد أسلافه . وإدخال هذه الألساب المساب ياتان في الغرابة ومنافرة المعقول لأن يسوع كما تقول القصة لم يكن ابناً ليوسف بناتاً ه إذ قد حملت فيه أمه بطريقة إعجازية .

فإذا نمن جردنا هذه القصة من هذه الإضافات العسرة ، وجدنا أنفسنا لمزاء كائن مكتمل الإنسانية موفور الحد مرهف العاطفة والحساسية ، عرضة للغضب السريع ، يعلم الناس مبادئ جديدة بسيطة عميقة : هي أبوة الرب العامة المحبة ومجيء مملكة السياء . وغنى عن البيان أنه كان شخصاً — إن جاز لنا أن نطاق عليه هذا اللفظ العادى — فا جاذيية شخصية باللغة القوة . فكان يحتلب إليه الأنباع ويملوهم بالحب والشجاعة . وكان الضعفاء والمرضى من الناس يتشجعون بحضرته ويبرأون نما جهم ، ومع ذلك فإنه كان على الأرجع ذا بنية ضعيفة ، استناجاً منا من السرعة التي مات بها من آلام الصلب . وهناك خبر متراتر يقول بأنه أغنى عليه عندما كلف بأن يخمل صليبه لى مكان التنفيذ كما جرى بذلك العرف . وكان يناهز الثلاثين من عموه عندما شرع لأول لى مكان التنفيذ كما جرى بذلك العرف . وكان يناهز الثلاثين من عموه عندما شرع لأول بأنه عالم يانه على مان يقوب البلاد ثلاثة أعوام ينشر مبادئه ، ثم هبط أورشلم ، وأجهم بأنه الهمة ، وصلب مع الثين من اللصوص . وقبل أن يموت هذان يزمان طويل كانت آلامه قد انتهت .

ومن الحقائق الثابتة أن ما تحويه الأناجيل من مجموعة الأخبار والتأكيدات اللاهوتية التي يوافع المبادئ التي معلمو المبادئ المبادئ التي يرب معلمو المسيحية على اختلاف نحلهم أنها ضرورية بوجه عام المخلاص. فإن سندها من الأناجيل غالباً ما يكون سندا غير مباشر ومعتمدا على الإشارة . ولا بد إذن من تعميد ذلك السند تصيدا وإقامة الحجة عليه بالبحث والمجادلة . وفيا حسدا بعض فقرات ندور حولها المنازعات ، يعسر عليك أن تجد كامة تنسب فعلا إلى يسوع فسر فها أباهم على تقديم القرابين أو تناول سر مقدس (Sacrament) (وهي أعباء وظيفة رجال الكهنوت) . وسترى من فورنا كيف مزق الشقاق حول مسألة الثالوث فيا بعد ، العالم المسيحي بأسره . وليس هناك من دليل واضح على أن حواربي المسيح اعتقوا ذلك المبلدأ . كذلك لا يعرز هو دعواه أنه و المسيح ء و لا يضغي على الشراكه مع الله في الربوبية أي ثوب بارز ربما أحسنا أنه لم يكن ليفوته أن يضفه لو أنه كان براه أمراً في الدوجة الأولى من الأهمية . ومن المسيد ما يمير الله وقله (إنجيل متى ، الإسحاح عن السحد ما يمير الله وقله (إنجيل متى ، الإسجاح عن السحد ما يمير الله وقله (إنجيل متى ، الإسحاح عن ال

 ⁽١) مل أن السيد المديح عليه السلام: وأخذ خبزًا وشكر وكسر وأمطام قائلا هذا هو جسلى
 الذي يهذل متكم : إصنموا هذا لذكري و (لوقا ٢٧: ١٩).

أوصى تلاميذه أن لايقولوا لأحد إنه يسوع المسيح» 1 فمن العسير أن يفهم الإنسان السر في هذا المنع⁽⁹⁾. إذا فرضنا أنه كان بعد هذه الحقيقة من ضروريات الخلاص .

م إن مراهاة طقس السبت المبودى ، وهو الذى استبداو ا به الأحد المبثر الى ٢٦ ، ظاهرة هامة عند كثير من النحل المسيحية ، على أن يسوع لم يرع السبت متعمداً وقال إنه خلق لأجل الإنسان ، ولم يخلق الإنسان لأجل السبت . وهو لم يف بكلمة واحدة عن عبادة أمه مرم في صورة اليزيس مليكة السباء . كما أن الكثر نما هو من أخصص عنصائص المسمحية في الهيادة والطقوس لتي منه إغضاءاً تاماً . ولقد بلغ من جرأة الكتاب المتشككين أن أنكروا إمكان أن يسمى يسوع مسيحياً على الإطلاق . ويجب على كل قارى أن يلجأ لملى مرشديه المدينين ليستضيء مديمه في هذه النفرات الحارقة في تعاليمه . وتحن هاهنا مازمون بأن تذكر تلك الثفرات لما تولد عنها من صعوبات ومنازعات ، كما أثنا مضطوون أيضاً ألا نتوسع فها .

وعما يسترهي الأنظار أيضاً ، تلك الأهمية الهائلة التي يضفيها يسوع على الفكرة لتعليمية التي أسماها « مملكة السهاء » ، وعدم أهميتها النسبية ألجراءات وتعالم غالب الكنائس المسيحية .

إن هذا المبدأ ، مبذأ عملكة السياء ، الذى كان رأس تعالم يسوع ، والذى يلمب دوراً صَلَيْلا جداً فى العقائد المسيحية ، إنما هو ولا مراء من أشد المبادئ الثورية ، التى قدراً صَلَيْلا جداً فى العقائد المسيحية ، إنما هو ولا مراء من أشد المبادئ الثورية ، التى قدر أم النات أن يليك منز اهم الكامل — وتراجع بائساً مرتاعاً ناكماً عن أية درجة من القهم لتحديثها المائلة لعادات الجلس البشرى ونظمه الراسخة . ولا حجب أن المسيحى الحديث والتلاميذ الجدد المتر ددين يقلبون من فورهم المرائضة . ولا حجب أن فكرات للمبد والميكل والآلمة الشرقة ، ومرحيات الاسترضاء والكاهن المنكر من والركات للمبد والميكل والآلمة الشومة ، ومرحيات الاسترضاء والكاهن المنتكر من والركات المستحدية . ولم تلبث رعاية الأحقاد والأرباح والمنافسة والاستكبار . ذلك أن الحياة القديمة لللوغة من طلب جرىء مبدأ مماذ عليه من عناد يبقل من طلب جرىء لا هوادة فيه ينادى بإدخال تغير وتطهير كاملين على حياة جنسنا المناضل ، أى إحداث

 ⁽١) كان المنع فكرة ، فإن الجهر بأنه السهج كا تقول الدوائر المسيحية المثلمة كان يؤدي الله يقاف الصلب ، والصلب وسيلة الحلامين . (الترجم)

 ⁽٢) أقتار المال ج ٢ ط ٢ ص ٥٥٥ ، ٢٣٢ . (المرجم)

تطهير شامل مطلق فى جوانية الناس ويرانيتهم (١٠) . وعلى القارى أن يرجع إلى الأناجيل ملتمساً كل ما نبقى من هذه التعليمة الهائلة . فلسنا هنا بمعنين إلا بالزلزلة القوية الى أحدثها فى الفكرات الوطيدة القائمة .

كان اليهود على اقتناع تام بأن الله ، الرب الأوحد للعالم بأسره ـــ رب بر وهدى ، بيد أنهم زعوه كذلك رباً متنجراً ، أتم مع أبهم أبراهام (إبراهم) صفقة هم قوامها ، وهي لاجرم صفقة طيبة جداً لم ، هي أن يرفعهم آخر الأمر إلى مكانة الصدارة في الأرض . ولشد ما كان ارتباعهم وغضهم عندما شهدوا يسوع يكنسح أمامه كل ما يعتزون به من ضهانات ، إذ يعلم الناس أن الله ليس من المساومين. وأن ليس هناك شعب مختار ، ولا أحظياء في ملكون السياوات. وأن الله هو الآب الحجب لكل الأحياء ، وأنه لا يستطيع اختصاص البعص بالرعايات عدم استعطاعة الشمس ذلك سواء بسواء . وأن الناس جميعاً إخوة كلهم خاطئ آثم وكلهم أبناء محبوبون للملك الأب القلوس . وإن يسوع فى ضربه للناس مثىل ذلك السامرى العليب ، قد ازدرى ذلك الميل الطبيعي الذي تخضّع له نفوسنا جميعاً ، والذي ننزع به إلى تمجيد شعبنا تحن وإلى الحط من شأن ما لدى النحل الأخرى والأجناس الأخرى من هدى وبر . وإنه فى المثل الذى ضربه عن العال قد اطَّرح تلك الدعوىالعنيدة التى يدهيبها اليهود بأن لمم ضربًا من حق للرهن الأول على الله جل جلاله . فالله ــ كما علم السيد المسيح ـــ يخدم على السواء كل أو لئلك الذين يثلقاهم في الملكوت. فليس هناك تمييز في معاملته إذ لبس لفضله وطبيته من حدود. وهو فضلاعن ذلك يطالب الناس جيعاً ببذل أقصى ما في مستطاعهم ــكما يشهد المثل الذي ضربه عن و الوزنة المدفونة ، وكما تعززه حادثة فكنْس الأرملة . وليس هناك أية امتيازات ولاخصم فى الأسعار ولا معاذير في مملكة السهاء .

بيد أنيسوع أيقتصر فقط على أز دراء وطنية البهود القبلية الحادة وحدها : فإنهم كانوا أيضاً شعباً ذا ولاء عائلي شديد ، وذلك بينها كان يسوع بيتغي أن يكتسع طوفان جارف من حب الله كل العواطف العائلية المتشددة الحافظة بالقيود الفييقة . فلم يكن بد لمملك المبهاء بأسرها من أن تكون عائلة أتباعه . ويحدثنا الإنجيل أنه ووفيا هو يكلم الحعوع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلموه : فقال له وأحد : هو ذا ألمك

^(1) يقول رسول الله صل الله عليه رسلم : و أصلح جوانيتك يصلح الله برانيتك يه . (المترجم)

وإخوتك وافقون خارجاً طالبن أن يكلموك. فأجاب وقال لقائل له : من هي أى ومن هم إخوتي 9 ثم مد يده نحى تلاميذه وقال : ها أبى وإخوتي 1 ! لأن من يصنع مشيئة أبى الذي في السموات هو أخي وأختى وأى » ، (إنجيل متى الإصحاح الثاني عشر 3 - • •) .

ولم يقتصر يسوع على كيل الضربات للوطنية ولروابط الولاء العائل باسم أبوة الله العامة وأخوة الخفس البشرى أجم ، بل إن من الواضح أن تعاليمه كانت تستنكر كل ما ركب عليه النظام الاقتصادى من تدرجات ومراتب وكل ثروة خاصة وكل منفعة شخصية . فالناس جميعاً ينتمون إلى الملكوت ؛ وكل ممتلكاتهم تنتمي إلى الملكوت ؛ وكل ممتلكاتهم تنتمي إلى الملكوت ؛ وكل ممتلكاتهم تنتمي إلى الملكوت ؛ وكل ما لمياة البرة الوحيدة ، إنما هي في خدمة إرادة الله يكل ما لدينا من عدة وبكل ما نملك من كيان . ولطالما شهتر بالنروة الخاصة مرة يعد مرة كما ذم مدخرات الأفراد وعمل الاحتياطات في حياتهم الخاصة .

و وفيها هو خارج إلى الطريق ركض واحد وجنا له ، وسأله أبها المعلم العمالح ، ماذا أعمل لأرث الحياة الآبدية . فقال له يسوع لماذا تدعونى صالحاً ؟ ليس أحد صالح إلا واحد وهو الله . أنت تعرف الوصايا ، لا تتن ، لا تقتل ، لا تشهد بالزور ، لا تسلب ، أكرم أباك وأمك . فأجاب وقال له يا معلم هذه كلها حفظها منذ حدائق . فنظر إليه يسوع وأحبه وقال له يعوزك شيء واحد ، إذهب بع كل مالك وأعط الققراء ، فيكون لك كنز في السهاء وتعال اتبعني حاملا العمليب . فاغم على القول ومضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة

ا فنظر يسوع حوله وقال تلاميذه ما أعسر دخول ذرى المال إلى ملكوت الله ! فتحير التلاميذ من كلامه . فاجاب يسوع أيضا وقال لهم يا بنى ، ما أحسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله . مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى المملكوت الله » (إنجيل مرقس . الإصحاح العاشر ١٧ - ٢٥) .

وفضلا عن ذلك فإن يسوع فى نبوءته الهائلة عن هذا الملكوت الذى يجمع الناس كلهم ويجعلهم فرداً واحداً فى الله ، كان يضيق صدراً بما فى الديانة الرسمية من بر وصلاح يقوم على المساومة . وهناك أيضاً جزء كبير من أقواله المسجلة موجه ضد الرعاية الدقيقة لقواعد التقوى وحيلة التي . 3 واجتمع إليه الفريسيون وقوم من الكتبة قادمين من أووشلم . ولما رأوا بعضا من تلامية، يأكلون حنراً بأيد دنسة أى غير منسولة لاموا . لأن الفريسيين وكل البهود إن لم ينسلوا أيسهم باعتناء لا يأكلون متمسكين يتقليد الشيوخ . ومن السوق إن لم يتسلوا لا يأكلون . وأشياء أخرى كتبرة تسلموها التسلك مها من خسل كووس وأباريق وآنية نماس وأسرة . تم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميلك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون حنراً بأيد غير مفسولة . فأجاب وقال لم حسنا تنبأ إنش المرافق كم محمنا تنبأ عنكم أنتم المرافق هم معمنا تنبأ عنهم عنى بعيداً . وباطلا يعبدوني وم يعلمون تعالم هي وصايا الناس . لأنكم تركم وصية الله وتعسكون بتقليلناس . غسل الأباريق والكوثوس وأموراً أشوى كثيرة مثل . هذه تفعلون . ثم قال لم حسنا رفضة وصية الله لتحفظوا تقليدكم ؟ (إنجيل مرقس . هذه تفعلون . ثم قال لم حسنا رفضة وصية الله لتحفظوا تقليدكم ؟ (إنجيل مرقس .

كذلك أيضاً ، نستطيع أن تلحظ عشرات المواضع التي ازدرى فها تلك الفضيلة الأثارة لدى المستمسكين بالشكليات ، وأهني جا رعاية السبت .

لم يكن ما أعلنه يسوع مجرد ثورة أخلاقية واجياعية . فإن من الواضح من عشرات النلائل ، أن تعاليمه كان لها طابع سياسي من أبسط الأنواع وحقا إنه قال إن مملكته ليست من هذا العالم ولكنها موجودة في قلوب الحلمتي ، وليست فوق عرش ؛ ولكن يضارع هذا في الوضوح أنه حيثًا أقيمت مملكته وأيا كان المدى الذى تقوم به في قلوب الحلمتي ، فإن العالم الخارجي يتجدد ويحدث له انقلاب ثورى بغس ذلك المدى بالضبط .

ومهما يكن ما فات سامعيه من أشياء آخرى من أقواله بسبب صمهم وعمايتهم ، فإن من الواضح أنهم لم يخف علهم اعترامه إحداث انقلاب ثورى في العالم . وبعض الأسئلة التي كانت تحمل إلى يسوع والأجوبة التي أدلى بها ، تمكننا من أن تحلمى نوع واتجاه الكثير من تعاليمه غير المسجلة . فإن نزعته الصريحة في مهاجته السياسية تتجلى في حادثة كحادثة العملة . ه ثم أرسلوا إليه قوماً من الفريسين والهرويسين لكي يصطادوه بكلمة . فلما جاءوا قالوا له ، يا معلم ، نعلم أنك صادق ولا تبالي بأحد ، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس ، بل بالحق تعلم طريق الله . أيجوز أن تعطى جزية لفيصر أم لا ؟ نعطى أم لانطى ؟ قعلم رياهم وقال لهم : لماذا بجربوني ؟ إيترتي بدينار لأنظره . فأتوا به . فقال لم : إعطوا لمن هــلمه الصورة والكتابة ؟ فقالوا له لقيصر . فأجاب يسوع وقال لهم : إعطوا ما لفيصر . لقيصر التيصر وما لله تقد الله على موقس . الإصحاح الثاني عشر ٣٣ – ١٧) . هوى قصة لو نظرنا إلها على ضوء سائر ما علم من تبق لفيصر إلا الشيء القلبل من فهوس الناس أو نما يمتلكون . .

وإن الحو الذي يتكنف خصومه ومعارضيه وظروف عاكته وإعدامه ، لتظهر بأجلى بيان أنه كان يلوح لعن معاصريه في صورة من يقرح صراحة - بل من قد القرح فعلا صراحة - تغيير الحياة الإنسانية برمها وصهرها وتوسيع جنباها . ولكن حي تلامياه أنفسهم لم يدوكوا المغزى العميق الشامل الذي ينطوى عليه ذلك الاقراخ . إذ كان لا يزال يعشى على عقولهم الحلم الهودى القديم بملك أى صبيح يقضى على سلطان أسرة هيرودس المهلنن والسيد الأعلى الروماني، ويسرجع أعجاد داود الأصطوريه . ولعمرى لقد أغفاوا مادة تعاليمه ، على ماكان بها من وضوح وقصد إلى الغاية مي وواضح أنهم زعموا أنها لم تكن إلا طريقته الخفية الفادة للبده في المفامرة التي ترفعه واضح أنهم زغموا أنها لم تكن إلا طريقته الخفية الفادة للبده في المفامرة التي ترفعه تعر الأمر إلى عرش أورشلم . فرعموه عبود ملك جديد في سلسلة الملوك التي لا نهاية لما ، ولكن من طراز شسبه سحرى ينطق بتصريحات شبه سحرية عن فضيلة مستحيلة .

و وتقدم إليه يعقوب ويوحنا إبنا زبدى قائلين: يا معلم نريد أن تفعل لنا كل ما مطبخ أريد أن تفعل لنا كل ما مطلبنا . ثقال لها : ماذا تريدان أن أفعل لكا؟ فقال له : أعطنا أن نجلس واحد من يمينك والآخر عن يسارك فى مجسسك . فقال لها يسوع لسباً تعلمان ما تطلبان . أتستطيعان أن تشربا المكاس التي أشربها أنا وأن تصطبغا بالصبغة التي أصطبخ بها أنا ؟ فقالا له نستطيع ، فقال لها يسوع : أما الكأس التي أشربها أنا فقشرابها و بالصبغة التي أصطبغ بها أنا تصطبغان . وأما الجلوس عن يميني وعن يسارى فليس لى أن أعطيه

إلا للنين أُصِدًا لهم . ولما سمعوا العشرة ابتدأوا يغناظون من أُجل يعقوب ويوحنا . فدعاهم يسوع وقال لهم أنتم تعلمون أن الذين يُبحْسَبُونَ رَوْساء الأَمم يسودونهم وأَنْ عظاءهم يقسلطون طهم . فلايكون هكذا فيكم . بل من أراد أن يصير فيكم عظيا يكون لكم خادماً ومن أراد أن يصير فيكم أولايكون للجميع عبداً . لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأت ليُخدم بل ليتخدُد م . وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » (لمتجبل مرقس . الإصاح العاشر ٣٥ – ٤٥) .

كان هذا أسوأ عزاء الأولئك اللين كانوا يبحثون عن جزاء مناسب لحلماتهم ومتاعهم التي يلاقوبها في اتباعهم إياه . فلم يستطيعوا أن يصدقوا هذا المبدأ الشديد القائل بمملكة قوامها الحسدمة كانت في حد ذاتها هي جزاءها المعظم الأوف . ومع ذلك فلهم حتى بعد وفاته على الصليب ، استطاعت عقولم أن تقبل بعد انشاع ذعرهم الأول ، الانكفاء إلى الاعتقاد بأنه كان مع ذلك ينزع منازع الممالم القدم علم الأبهات والامتيازات . وأنه سوف يبعث حياً من فوره ياحدى عجيبات المعجزات ، ويعود ويقم عرشه بالأبة المظيمة والساحة الفياضة في أورشلم . لقد ظنوا أن حياته خطة محكمة وأن مماته أحبولة مدبرة .

كان أعظم من آن يصل إليه فهم تلاميذه . وهل يعجب القارى - بالنظر إلى ما قاله صراحاً - أن يشعر كل الأغنياء والموسرين برعب من أشياء غريبة ، وأن يحسوا بأن عالمهم يميد ويدور من حولم بسبب تعاليمه ؟ ولعل الكهنة والحكام والأغنياء فهموه أكثر وأحسن مما قبامه أتباعه . ذلك يأنه كان يستخرج دفين ملخراهم الصغيرة الحاصة التي كونوها من الحلمة في مجتمعهم ويكشفها للأنظار في ضوء حياة دينية عامة . كان أشعد شيء بصياد أخلاقي رهيب يحفر عن الإنسانية ويحرجها من بجحرها الذيء الذي الذي الذي عاشت فيه حتى ذلك الحنن . وتحت أنوار السراج الوهاج لمملكته هذه ، لم يكن يجوز وجود أية ممتلكات ولا استازات ولا استكبار ولا أفضلية (أسبقية) . ولعمر الحق ماكان فها من حافز ولاجزاء إلا الحبة . أفن الهمجيب إذن أن انهر تنه القوم وعيت عورجم فتصايحوا كلهم عليه ؟ بل إن تلاميله أفضهم تصايحوا به عندما كوفس أن

يعنى أهينهم من ساطع الفسياء . أفن العجيب إذن أن يدرك الكهنة أنه لم يكن بين هذا الرجل وبين أنفسهم عبيار إلا أن يموت هو أو تهلك الكهانة ؟ أعجبب إذن أن الجنود الرمانيين ، وقد واجههم وأنفم شيء يعلو على أفهامهم وجدد كل أنظمتهم ، يلوفون بالفسطك الفسارى ، ويتوجون هامته بالشوك ويضعون عليه ثوياً أرجوانياً ليتخذوا منه قيصراً سخرياً ؟ ذلك أن أخذهم إياه أخذ الجلد ، كان معناه الدخول في محارسياة حجية وهية ، وترك مألوف العادات وضبط هائج الفرائز والدوافع ، وعاولة حوك سعادة لا يصدقها عقل .

أَفْنَ الْعَجِيبُ أَنْهُ حَتَى هَذَا الْيُومِ ، مَا يَفَتَأُ هَذَا الْجَلَيْلِي أَكْبَرِ مُمَا تَتَسَعَ لَهُ قلوبنا الصغيرة ؟

٣ _ الديانات العامة ألجديدة

ومع هذا فحما يجب ملاحظته أنه بينا كانت تعالم يسوع الحقيقية تضم كثيرا من الأشياء التي لا يستطيع أن يقبلها غنى أو كاهن أو تاجر أو موظف إمبراطورى أو أى مدنى عادى محترم إلا وألم بطرائق حياته انقلاب هائل يقلبها رأسا على حقب ، فلم يكن منها شيء لا بيادر إلى تقبله بقبول حسن رجل ممن يقبعون تعالم جوناما ساكيا الحقة ، إذ ليس ثمة شيء يحول بين بوذى بدائى وبين أن يكون نصرانيا ، وكذلك ما من شيء يمنع أحد التلاميد المباشرين ليسوع من اعتناق تعالم جوناما بوذا المسجلة .

وإليك الآن هذه القطمة المقتبسة من كتابات رجل صيني هو «موتى»(١) ، الذي كان يعيش في زمان ما في الفرن الرابع ق . م ، وقت ما كانت تعالم كنفوشيوس ولاهوتزه منتشرة في الصين ، قبل هيوط البوذية إلى تلك البلاد ، فتأمل نغمها وانظر كم هي تصرافية الروح .

إن الاعتدامات المتيادلة بين دولة ودولة، والاغتصابات المتبادلة بين هائلة وأخرى؛
 والسرقات المتبادلة بين الإنسان و أخيه الإنسان ؛ وافتقار الملك إلى الوفق والوزير إلى الولاء ؛

 ⁽١) من و مرتى و انظر المدّرج كتاب و التاريخ وكيف يفسرونه و الهيئة المصرية العامة الطباحة والنشر.
 (المدّرج)

والحاجة إلى الحنان والواجب البنوى بين الوالد وولده - هذه وأمثال هذه أمور ضارة بالإمر اطورية . وكل هذا راجع إلى انتفاء الحب المتبادل . فلو أمكن فقط أن تسم بين المناس تلك الفضيلة الواحدة ، فلن يصبح للأمراء - وقد أحب أحدهم الآخر - أى ميادين القتال ؛ ولن يحاول روساء الهائلات أن يأخلوا أى شيء خصيا ؛ ولن يرتكب الرجال أية سرقة ؛ ولا تصف الحكام والوزراء بالساحة والولاء ؛ ولاصبح الآباء رحاء والآبناء بررة ؛ ولصار الإخوة منسجمين وأمسى الراضي بيتهم هينا . ولو أن الناس عامة أحب بعضهم بعضا ، لما انقض قويهم على ضعيفهم ؛ ولما نبيت كثرتهم قلهم ، ولما أهان غنهم فقيرهم ، ولما أظهر شريفهم قحة مع وضيعهم ولما غش خيم (٢) بسيطهم (٢) » .

لا شك أن في هذا مشاحة عجيبة لتعاليم يسوع الناصرى ، و إن صب في قالب سياسي . وهكذا اقتربت أفكار « موتى» من ملكوت السياء .

وهذا التطابق الجوهرى هو أهم سمة تاريخية تجمع بين أسياب هاتين الديانتين الماليتين . فإن بداياتهما كانت عالفة تما المخالفة لنحل الكاهن والملبح والمعيد ، وهي تلك النحل المقامة لعبادة آلفة عدودة المعالم معروفة الحدود واللاعية في مواحل تطور الإنسانية الأولى بين ١٠٠٠ و ٥٠ ق . م دورا عظيا كل العظم هاما كل الأهمية . أما هسلم الديانات العالمية الجديدة ، من ١٠٠ ق . م فصاحفا ، فهي بالضرورة ديانات القلبة العلوى الشامل . وهي التي جرفت أمامها كل قلك الأرباب المنتوعة المحدث المما كل قلك الأرباب المنتوعة المحدث المحدث المجتمعات الإنسانية ، منذ أن تلاحت المجتمعات الإنسانية بمضها في بعض بعامل الخوف والرجاء . وسنرى من فورنا عندما قصل إلى الإسلام أله حدث للمرة الثالثة ، أن ظهر ثانية نفس المبدأ الأسامي الجديد ، ميدأ الحاجة إلى بخلاص عام من جميع الناس و لإرادة ، واحدة . على أن محمداً اتعظ عا مر بالمسيحية من تجارب ، فكان حاسما باتا في إصراره على أنه هو نفسه ليس إلا يشرأ كفيره من الناس ، وبذا وق تعاليمه شر كثير من الفساد والتصحيف .

ونحن حبن نتحدث عن ديانات الإنسانية العظيمة هذه ، التي تشأت فيها بين غزو

⁽١) الحب : بكسر الحا، هو النشاش الحادع . (المترجم)

⁽٢) نقلا من هيراث (The Ancient History of China) النصل الثامن

الفرس لبابل وتصدع الإمبراطورية الرومانية ، ... إنما نتحدث عنها بوصفها عقائد متنافسة . على أن مرد ذلك التنافس هو نقائصها وما تكلس فها من إضافات وما زاد علمها من نمو طفيلي ، واختلافها في اللغات وطريقة التعبير . وما ينبغي أن تشخص بأبصارنا إلى غلبة واحدة منها على الأخرى . أو قيام أن بديل جديد يحل محلها جميعاً ، بل إلى الصدق الصراح فى كل منها ، بعد إذ يصهر تماماً ويخرج نقيا من كل الشوائب والأدران ويغدو فيهن جميعاً هو نفس الصدق الواضح المبين : ــوأعني بذلك أن قلوب المتاس ومعها حياة الناس وأنظمتهم جميعًا ، يجب أن تخضع و لإرادة ، عامة واحدة تحكمها وتصرفها جميعاً . ويقول نائب الأسقف إنج في إحدى مقالاته الصريحة الجريثة : إن القديس بولس قد فهم ما لم يلىركه معظم المسيحين ، وأعنى بلداك أن و بشارة المسيح؛ ليست « إحدى ، الديانات ولكنها الدين نفسه في أشد معانيه شحولا وعمقاً » . ومع أن الحاقة دفعت الناس إلى كتابة الشيء الكثير عن التضارب بن العلم والدين ، _ فالحترأن ذلك التضارب شيء لا وجود له . فكل ما تصرح به كل هذه الديانات العالمية يطريق الوحي والاستبصار ، إنما هوشيء يكشف فيه التاريخ مما زدياد وضوحه ، ويتبين فيه العلم مع اتساع أفقه ــ حقيقة معقولة يمكن إثباتها : هي أن الناس جميعاً يكوّنون أَحْدُونَ وَاحْدَةَ عَامَةً ، وأَنْهُم يرجعون إلى أصلواحد مشرك ، وأن حيامُهم القرديةوأممهم و أجنامهم ، تنداخل نسباً وتمنز جدماً ولا تعرح في امنزاج حتى تنفعر من جديد آخر الأمر في مصر إنساني و احدمشر له على هدا الكوكب الصعير السابح بن النجوم . وان العلم النفساني فيستطيع اليوم أن يقف إلى جانب الواعظويؤكد لنا أنه ليس هناك سلام للقلب معقول ولاتوازن ولاأمان للروح، ما لم يجد الإنسان حياته بفقده إياها ، وما لم يلعرب غرائزه وعواطفه الضيقة المحدودة وينظمها . ولا يخنى أن جنسنا وتجاربنا الديثية الشخصية يسيران جنبا إلى جنب في تحاذ وثبق بخيل معه للمشاهد العصرىكأنما هما شيءواحد تقريباً فكلاهما يتحدثعن كائن كان فى بادئة أمره مشتنآ نحجبالعابة عينيه ويكتنفه جو من مطلق الحبرة والارتباك . وهو يتحسس طريقه فيبطء سائراً نحو صفاء وخلاص يجمعهما هدف،منظم مهاسك ٥ ولعلكم ترون معىأن هذه هي معالم التاريخ في أبسط (Jlan - Y)

صورها ؛ وسواء كان للمرء هدف دينى ، أم كان ينكر كل هدف دينى إنكاراً باتاً ، فإن خطوط المعالم تظل كما هي.

٤ ـ صلب يسوع الناصري

ف ٣٠ م حنكان طيريوس الثانى إمراطوراً على روما ، وبيلاطس البنطى والباً على بلاد الهودية ، وقبل عبد الفصح بقليل ، هبط يسوع الناصرى إلى أورشام يت والراجع أنه هبطها عند ذاك لأول مرة في حياته . إذكان حتى ذلك الحين يعظ الناس أكثر ما يعظهم في الجليل ، ويعظهم في كثير من الأحوال بمدينة كفر ناحوم وما حولها . يعظهم هناك في معبد الهود .

كان دحوله مدينة أورشليم نصراً سلمياً . إذ اجتمع حوله في البليل عدد عظم من الأتباع ، وكان يضطر في بعض الأحايين أن و يعلم ، التاس من زورق في بحيرة الجليل ، يسبب تزاحم الجمهور على الشاطى – وتسامع الناس به وسبقته شهرته إلى الماصمة . فخرجت جامير غفيرة لتحته . وواضح بيش أنهم لم يفهموا منحى تماليمه ، وأنهم كانوا يشركون من حولم في اقتناعهم العام ، بأنه سيقلب النظام القائم بضرب من صحر البر والمصلاح . وقد دخل المدينة راكباً جحشاً استماره له تلاميله ، والجمهور يرافقه رافعاً صوته بالهليل والتكبر هاتفاً بكلمة (أوصننا 1 ا Flosanua) وهي لفظة تعرب عن الفرح .

فذهب للى الهيكل. وكانت أفنيته الخارجية غاصة يمناضد الصبيارف وبخوانات أولئك الذين يبيعون اليمام لكى يموره زوار المعبد الانقياء!!! وانبعث هو وأتباعه يطردون هولاء المتجرين على حساب الدين وقلبوا لهم مناضدهم . وتكاد هذه أن تكون فعلته الإيمانية الوحيدة.

ثم استمريعلم الناس في أورشليم أسبوعاً يجيط به جمهور من الأتباع جعلوا اعتقال السلطات له أمراً حسراً . ثم جمعت الهيئة الرسمية أمرها ضد ذلك المقتحم الرائع . ذلك أن جوذا (Judas) أحد تلاميذه ملأ الحزع واليأس قلبه لما شهده في استيلاء معلمه على أورشليم من قلة ضاء وجلوى ، فتقدم إلى الكهنة البهود ليقدم إليهم تصبيحته ومعونته في

القبض على يسوع . فكوف على تلك الحدمة يثلاثين قطعة من الفضة . وكان لكبر الكهنة وللبود عامة أسباب كثيرة تدعوهم للجزع من ذلك العصسيان الوادع الذي كان يملأ الشوارع بالجاهير المتفعلة ، فن الجائز مثلا أن يسىء الرومان فهم الأمر ، أو أن ينتهزوه فرصة لإيقاع الآذي بالشعب البيودي كافة . ومن ثم كان الحبر الأكبر قيافا (Cataphas) – في بالغ قلقه على إظهار ولائه للحاكم الروماني الأعلى – على رأمي من قاموا بالإجراءات التي اتخلت ضد ذلك المسبح (Meastah) الأعزل ، وكان الكهنة وغوغاء أورشليم المتصكون بعقيدتهم السلفية أكبر المهمين ليسوع .

وتحدثنا الأناجيل في جلال ليس طيه من مزيد كيف قبض عليه في ضبعة جئسياتي (Gethsemane) ، وكيف حوكم وأدين على يد بيلاطس البنطى الوالى الروماني ، وكيف نكل به الجنود الرومان وسخروا منه ، وصلبوه على التل المسمى بتل جلجئة (Golgotha) .

بللك البارت الثورة البياراً تاماً وغلى عنه تلاميذه على بكرة أبهم ، ولما أنهم بطرس بأنه واحد منهم قال المائي لا أعرف الرجل » . إد لم تكن هذه هى الباية التي كانوا برجوبها من قلمومهم العظم إلى أورشليم . ولم يشهده في ساعاته الأخيرة وهو على الصليب يعانى مرارة الألم المرح والظمأ الشديد ، سوى بضع نفر من النساء والأصدقاء الأدنين . حتى إذا قارب هذا يوم العذاب بايته ، استجمع ذلك الزعم الذي تخلى عنه الناس جميعاً كل قواه باذلا آخر جهسد لديه وصاح بصوت جهير «إلهي ! لماذا تركتنى ؟ » ثم أسلم الروح علفاً هذه العبارة ترجعها المصور ، أحجية أبدية الموثمنين .

ولم يكن بد من أن يحاول بسطاء المؤمنين أن سولوا من عند الذعرالرهب المتولد عن هذه المأساة ، بإذاعهم أقاصيص سخيفة عن حدوث اضطرابات في الطبيعة تشابه تلك التي اختلقت لتوكيد اهتداء جوتاما إلى الصراط السوى . فإهم يخبروننا أن ظلمة قد خشيت الأرض . . . وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل . وإذا كانت هذه الأمور حدثت حقا ، فهي لم نحدث أقل تأثير في أذهان الناس في أورشلم في ذلك الزمان . ومن المسير طينا في هذه الأيام أن تصدق أن نظم الطبيعة قد سمحت لنفسها بالانفاس في مثل هاته التعليقات الجوفاء على الأحداث . ولكن الشيء الاشد

هولا من هذا بكثير أن يغيرض المرء وجود عالم لا يهم فيا يظهر سهساء الصلبان الثلاثة القائمة تحت شفق المسساء القائف ، ولا يأبه بتلك الجماعة الصغيرة من النظارة المرتبكين المستوحشين . وأرخى الظلام على التل سدوله . وشرعت المدينة البعيدة في القيام باستعداداتها لعيد الفصح ؛ وما من أحسد سوى ذلك النفر القليل من المخرونين العسائدين إلى منازلم يدعى بأمر يسوع للناصرى هل هو لا يزال يعانى سكرات الموت أو هو قد قضى وانهى بالفعل

أما الحواريون نقد غمرت أرواحهم إلى حت غاشة من الظلمات الدامسة . ثم ما لينوا أن دب بينهم نهامس ثم أقاصيص متناقضة أو تكاد . . . بأن جسم يسوع ليس في القبر الذي وضع فيه ، وأن واحدا مهم ثم آخر قدرآه حياً . وسرعان ما أخلوا يمزون أنفسهم بالاعتقاد بأنه قد بعث من بين أهل اللبور ، وأنه أظهر نفسه للكثيرين، ثم صمد على مرأى من الناس إلى السهاء . وجيء بشهود أعلنو بلهجة الناكيد القاطع أنهم رأوه يصمد بجسمه ظاهرا العيان . لقد ذهب يطوى طباق السموات الزرقاء ... لما الرب . وصرعان ما ألقوا في روع أنفسهم أنه لا بد عائد من فوره ، في قوة وبجد ليحكم البشرية كافة . وقالوا إنه يعود إلهم بعد برهة وجيزة ؛ على أنهم – وهم ينمون بإحياء حلمهم القدم البراق يمجد دنيوى يحقق ذواتهم غاب صهم ذلك النصيب الأعظم ، النميب الهائل الجار الذي خولم إياهيسوع من ملكوت الله .

ه ـ مبادئ أضيفت إلى تعالم يسوع

إن قصة البدايات الأولى للمسيحية إنما هي قصة الكفاح بين التعاليم الحقة والروح المفضليسوع الناصرى وبين التحديدات التي فرضها ، والإطنابات والزيادت التي أضافها ، والمسائل التي أساء فهمها ، أولئك الرجال البسطاء الذين أحوه وساروا في إثره من الحليل ، والذين غدوا يومئذ حماة رسالته وحلها إلى البشرية . وتقدم إلينا الأناجيل وأحمال الرسل سجلا مرقعاً غير متوازن ، ولكن لا يجال للشك في أنه في جملته سجل تام الأمانة في تصوير تلك الأيل الأولى .

والناصريون الأول وهوالاسم الذيكان يطلق على أتباع يسوع ، يتخبطونمنا. البداية

ق تحرات الحرة العظيمة إذ يتنازعهم أمران: تعاليمه من ناحية وما استحدثه التلاميل من ناحية أخرى من صنوف الشروح والتفاصر . وقد أقاموا من بعده زماناً عاملين يسنته في قهر الناس التام ، فجعلوا بضاحهم مشاحاً بيهم ، ولم يتخلوا وابعلة تربطهم إلا الحب . ومع ذلك فإسم أسسوا حقيدتهم على الاتخاصيص . التي كانت تدور حول قيامته وصعوده السحرى الحلاب ، وحول عودته للوحودة . وقل مهم من كان يفهم أن التبرو من الناس وقبلها هو جزاء من القوة والسيادة ، عندما تحدث الفودة الثانية يعدون ذلك التبرو قرياناً يحركم جزاء من القوة والسيادة ، عندما تحدث الفودة الثانية عما قليل . وقد أصبحوا جميعاً يرون أن يسوع هو المسيح الموحود ، ذلك المسياً المدى عام المهم الموحود ، ذلك المسياً المدى بصفة خاصة في تأكيد هسله التبرات. وأنعشت هذه الأمال المبادئ النصرانية ، وشدت أزرها بفضل الحياة الحلوة النقية التي كان يجياها كثير من النصرانية ، وشدت تشر انتشاراً بالغ المرحة في أرجاء بلاد البودية وسوريا .

وظهر الاقت معلم آخر عظم ، يعده كثر من الثقات العصرين المؤسس المنسى المسيحية — وهو شاءول الطرسوسي أو بولس . ويظهر أن شاءول هو اسمه البودى وأن بولس هو اسمه الروماني . كان مواطناً رومانياً ، ورجلاً أوقى علماً أوسم كثيراً وعقلية أضيق كثيراً ثما يبدو أن قد أوقى يسوع . والراجع أنه كان بهودى المولد ، وإن كان بعض الكتاب البهود ينكرون ذلك . والامراء في أنه تعلم على أساتلة من المهود . بيد أنه كان مبحراً في الاهوتيات الإسكندرية الملية (٥) وكانت لفته الإهريقية . ويقرر بعض علماء الأدب الكلاسيكي القدم أن لفته الإهريقية غير مرضيسة ، ويقر لم يستخدم لفة أثينا ، بل إغريقية الإسكندرية ، بيد أنه استخدمها بقوة وطلاقة . وينعها المروضور جلمرت موراى بأنها وبالفة الحودة » . . وهو معاشر بطرائق التعبر الفلسي المدارس الهلينسية وبأساليب المرواقين (Stoicism) .

 ⁽١) يفرق المؤرخون بين العصر الحيلين السابق مل الإسكناد والحيلينسي الذي يحي، في تاديخ الإخريق بعد وقاة الإسكناد إلى ظهرر أرضطوس تيممر . (المثرج)

يعلم الناس قبل أن يسمع بيسوع الناصرى بزمن طويل ، وهو فى رواية العهد الجديد يبدو بادئ فى بدء فى إحاب الناقد المرير ، والخصم العنيد والمضطهد الناشط للناصرين (النصارى) جميعاً .

ولم يوفق كاتب هذه السطور إلى العثور على أى بحث في آراء بولس الدينية قبل أن يصبح من أتباع يسوع. ولا بد أنها كانت أساساً لآرائه الجديدة وإن لم تزد عن قاعدة انطلاق لها ، كما أنَّ أسلوب تعبيرها وطريقتها أسبغتبالتحقيق على مبادئه الجديدة لوناً خاصاً . وإنا نكاد نتخبط في نفس الظلمات حول تعالم تحالاتيل ، اللي يقولون إنه هو المعلم اليهودى الذي كان بولس يجلس عند قدميه . كذلك لسنا تدرى ما هي التعاليم غير البودية التي درسها . ومن الراجع جداً أنه تأثر بالمراثية . إذ هويستعمل عبارات عجيبة الشبه بالعبارات المتراثية . ويتضح لكل من يقرأ و رسائله ، المتنوعة ، جنباً إلى جنب مع الأناجيل ، أن ذهنه كان مشبعاً بفكرة لا تبدو قط بارزة قوية فها نقل عن يسوع من أقوال وتعليم ، ألا و هي فكرة الشخص الضحية اللـيقدم قرباناً لله كفارة عن الحطيثة . فما يَشُر به يسوع كان ميلاداً جديداً الروح الإنسانية ؛ أما ما علمه بولس فهو الديانة القديمة ، ديانة الكاهن والملبع وسفك الدماء طلباً لاسترضاء الإله . كان يسوع في نظره حمّل عيد القصح ، تلك الضحية البشرية المأثورة المبرأة من كل عيب ودنس التي تتعقب في إصرار ديانات الشعوب البيضاء الداكنة^{(1)°}. أمد بولس الناصرين بقوة جارفة لأنه جاءهم بتفسيره هذا المقنع تماماً لكارثة الصلب . وكان تفسره ذاك نوراً ساطعاً سلط على دياجير الحيرة المطلقة التي رانت على عقول الناس .

ولم ير يولس يسوع قط ولا بد أنه استقى معرفته بيسوع وتعافيمه سماعاً عن التلاميد الأصلين . ومن الجلي أنه أدرك الشيء الكثير من روح يسوع ومبدئه الحاص بالميلاد الجديد ، بيد أنه أدخل هذه الفكرة في صرح نظام لاهوتي ، نظام يتسم يشديد البراعة والحفاء ، لا تدرح فتنته إلى اليوم تسهوى العقول ، فكرياً ، بصفة رئيسية . ومن الواضح أن عقيدة الناصرين التي وجدها على صورة مبدأ المحفز والإثارة وأسلوب للميش ، قد تحولت على يديه إلى مذهب « إيمان » . ذلك بأنه وجد الناصرين ولمي روح المعيش ، قد تحولت على يديه إلى مذهب « إيمان » . ذلك بأنه وجد الناصرين ولمي روح المعيش الله يشر المؤلف بنا إلى الشعرب البيضاء الداكنة الأمين والشعر والسعر (١) عشير المؤلف بنا إلى الشعرب البيماء الداكنة الأمين والشعر والسعر (١)

 ⁽١) يشجر الخواف بهذا إلى الشعوب فلبيضاء الداكنة الأمين والشعر والساكنة أسولها حول البسر المتوسط (افظر المعالم ج ١١ ع ص ١٧٧ ، ط ٢)

ورجاء ؛ وتركهم مسيحيين للسهم بدأية عقياة .

بيد أننا يجب أن نرجع الفارئ إلى « أعمال الرسل » و « رسائل بولس » ، لميحصل على بيان واضح هن رسالة بولس وتعاليمه . كان رجلا هائل الطاقة والنشاط، وقد علم الناس فى أورشلم وأنطاكية وأثينا وكورنئوس وافيسوس وروما

ويحتمل أيضاً أنه انحدر إلى أسهانيا . وليست طريقة وفاته بمعروفة على وجه التحقيق ، ولكن يقال إنه قتل ف روما إبان حكم نيرون . فقد شب حريق عظم أتى على قسم كبير من روما ، فانهمت الطائفة الجديدة بأنها تسبيت ف ذلك الحويثي. ولا شك أن انتشار المسيحية السريع مدين لبولس أكثر منه لأى رجل آخر بمفرده . فلم تكد تمضى على صلب المسيح عشرون سنة ، حتى استرعت هذه الديانة نظر الولاة الرومان في ولايات عديدة . ولئن حصلت من يد القديس بولس على لاهوتها ، فلقد ظلت محتفظة بالكثير مما لتعالم يسوع من السمة الثورية والبدائية . وقد أصبحت أكثر تباعا نوعا مامع الملكية الخاصة ، وأصبح في وسعها أن تقبل نصارى أغنياء دون الإصرار على جعل ثروائهم مشاعا ، واغتفر القديس بولس تظام الرق عند ما قال : « أبها العبيد أطيعوا في كل شيء سادتكم ه(١) ، ومع ذلك فقد صمدت كالصخر لا تلين إزاء بعض النظم الجوهرية في العالم الروماني . فإنها لم تجز البتة ربوبية قيصر . فلم يقبل المسيحيون قط أن تعسبدوا الإمبراطور ، حتى ولا بإيماءة صامتة عند المذبح ، رغم ما في أذلك من تعريض حباتهم للخطر . ولم لتستنكر حفلات المجالدين(٢٠) . وهكذا فإن المسيحية غير مسلحة بشيء إلا قوى هائلة من المقاومة السلبية ، بدت منذ مسهلها في ثوب ثورة صريحة ، تكيل الضربات للأسس ِ الجوهرية للنظام الإمبر اطورى السياسي إن لم يكن الاقتصادي. وأول ما نجد في الأدب (: الكتابات) غير المسيحي من الشواهد على وجود المسيحية ، يبدو عند ما أخماد الموظفون المرتبكون يكتب بعضهم لبعض ويُتبادلون الآراء فى المشكلة الغربية الماثلة بين

⁽١) كاتبت روح يسوع ، الروح المباطقة العبأة في لمل يسبع ، والتي تسرى في الاتاجيل ، تتمارض تتمار هما تاماً مع كل ما للنكهة الخاصة والرق ، إلا أن أتجاه المسهمين ، لم يصين إطلاقا بمثل هذا التحديد . وكادورا في المعالب أسيل إلى التحقيف منهم إلى الإلغاء . (المؤلف)

 ⁽ ۲) الحاله Cladistor ، شينس وُعاصة عبد أو أسر ، يقاتل شي الموت (في المجلد)
 (المترجم)

أيديهم ، مشكلة ذيوع علوى ذلك العميان الصادر من قوم لا شر يخشى منهم فيا عدا ذلك من شتون الدنيا .

وينشى المصوض التام شطراً كبراً من تاريخ المسيحين فى المترنين الأولين من الحقية المسيحية . فع أنهم انتشروا فى كل أرجاء العالم ، فإنا لا تعرف إلا القليل التادر من فكراتهم أو ملقوسهم وطرائقهم أثناء ذلك الزمان . ولم تكن لم حتى حيناك مقاد مستقرة ، إذ لا شك أنه كانت هناك اختلافات علية كبرة فى معتقداتهم ونظمهم غير المتكيفة إبان ذلك المصر . ولكن مهما يبلغ ما بيهم من فوارق علية ، فيلوح أنهم كانوا حيثًا حلوا أثاروا ضدهم عناء مريرا ودعاية مضادة قوية ، فإن نفس النهم الموجهة إلىم تشهد يما هم عليه من خير وصلاح عام .

وفى أثناء ذلك الأمد غير الهداد كان يمدت فيا يبدو قدر جسيم من ضرب بعينه من الثيوكرازيا (أى التوحيد والمطابقة بين الآلمة المتبلقة) بين النحلة المسيحية والمقبدة المرائية التي تكاد تضارعها في سعة انتشارها بين سواد الشعب ، وتحلة سيرابيس ايزيس حووس (١٠) . ويبدو أن المسيحين اقتيسوا من الأولى يوم الأحد بوصفه يومهم الأكبر لقتبد بلملا من يوم السبت البودى ، كما استماروا فكرة الإكثار من استمال الشموع في الحفلات الدينية ، وأسطورة أداء العبادة بواسطة المراحة (أمنى القسس) ، كما اقتيسوا أيضاً فيا يرجع ، تلك الفكرات أو العبارات المراحة (أمنى القسس) ، كما اقتيسوا أيضاً فيا يرجع ، تلك الفكرات أو العبارات الميح وعن كون المسيح وعن أمل المشيعة عن الدوت عليا ، لا يكاد بهرق من الدم أكثر ثما يريقه الشنق ، فتصوير يسوع في صورة المريق دمه من أجل الهشرية ، إنما هو في الحقيقة من أشد العبارات بعدا عن الدقة ، وفين وإن تذكرنا أنه التي التعنيب والتذكيل وأنه ألهس تاجا من الأشواك ، وأن جنه قد طعن يحربة ، فإنا لا تزال أبعد ما تكون عن و نبع يفيض دما » . بيد أن المرائية ،

⁽١) سيراييس كان مركبا من أوزيريس وأبيس (انظرج ٢ ص ٢٨٨ من للعالم). (المترجم)

وكانت تتركز حول يعضى الخفايا التى هي طبها اليوم الفسيان ، تتخيل مرا وهو يضمى بمجل مقدس خمير . ويلوح أن جميع المقاصد المقدسة المثرائية تزدان بصورة المرا وهو بلبيح ذلك العبيل ، الذي ينزف دمه نزفاً حظيماً من جمرح في جنبه ، ومن ذلك الحدم نشأت حياة جديدة . وكان المريد المتعبد الميثرائي يستحم بالفعل في دم عجل التضحية ، ويذلك ويولد من جديد » . وكان عند انخراطه في النحلة الأول مرة بدخل تحت مقالة يلجح العجل عليها ، فيسيل عليه دمه . ويخيل إلينا أنا نعالج هاهنا استحراراً لسفك الدماء الدائي للتضحية عند وقت البذار ، وهي فيا يحتمل الفكرة الدينية الأولى لأقدم مدنيات المعايد .

على أن ما أمهمت به تحلة الإسكندرية في الفكر المسيحي والطقوس المسيحية كان أعظم قدراً أو يكاد . إذ كان طبيعياً أن يجد المسيحيون في شخصية حورس ، (الذي كان ابنا ئسير إييس وهو سير إييس في نفس الوقت) ، شبيهاً مرشداً لهم فيها يهذلون من جهود عنيفة التفهم ما خلفه لم القديس بولس من خفايا . وقد كان الانتقال من هذا إلى المطابقة بن شخصية مرم ولمزيس . ثم السموجا مرتبة شبه قدسية ــ بالرغم مما سبق أن اقتيسناه من أقوال يسوع عن أمه وإخوته ــ خطوة طبيعية جداً كالمك . وكان طبيعياً كذلك للمسيحية أن تقتبس وهي لا تكاد تعي ، الطرائق العملية للديانات الشائمة في خلك الزمان . فاتخذ قساوستها طريقة الرووس الحليقة والزى الخاص بالكهنة لمعربين ، لأن ذلك كان يبدو الطريقة المثلي الميز القسس . وتتابعت البدع واحدة في إثر الأخرى . وكانت نتيجة ذلك أن دفنت التعاليم الثورية الأصلية بطريقة تكاد تكون غير محسوسة تحت تلك ۽ الإضافات المألوفة ، . وَلَقَدْ حَاوِلْنَا مِن قَبْلِ أَنْ تَنْصُور عُودَةً جوتاما بوذا إلى التبت ، واللحاله لعبادة تمثاله في لهاسا (Lhassa) . ولوأن أحد الناصريين (النصارى) المخلصين بمن حرف وانبع معلمه الأشعث الضاوى من السفر في وهج الشمس اللافح بالجليسل ، أعيد فجأة إلى هذا العالم ثم زار مثلا قداماً ف كنيسة القديس بطرس بروما ، فلسنا بحاجة إلى تصوير ما يحل به من دهشة كبرى مماثلة عتلمًا يسلم أن تلك الخشكنانة (القربان) الموجودة على الملبح إن هي . .. إلا معلمه المعطوب. والدين في مجتمع عالمي ليس أشياء عديدة وإنما هو شيء واحد ، ومن ثم لم يكن مناص لكل العقائد الدينية الحية في عالم ذلك الزمان ، وكل ما اتصل بالمسيحية من فلسفة وفكر ديني ، من أن تتحاسب وتتبادل المبارات والفكرات والطقوس . وكانت آمال الناصريين الأول قد طابقت بين ذاتية يسوع وبين المسيح . ولكن ذكاء بولس للترقد أحاط سيرته بالأهميسة المستيقية . وكان يسوع دعا الناس رجالا ونساء إلى أداء واجبجبار : هو إنكار الفات والميلاد الجديد في مملكة المحبة . وكانت أهون السبل على ضعيف الإيمان المستجد في ديانته أن يفر بعيداً عن هذا المبدأ البسيط الصريح ، ذلك الاقتراح الشديد الصلابة ، -- إلى النوص في مسائل ذهنية بحتة قوامها تظريات ومراسم معقدة لا تحس جوهر نفسه بأى حال أما أسهل أن ينضبح الإنسان ذاته باللم ومن أن يطهرنفسه من الحقد والمنافسة ؛ وأن يأكل الحيز ويشرب النبية مدميًّا أنه قد امتص الألوهية ؛ وأن يفضل تقديم الشموع على تقديم القلب ، وأن يملق الرأس ويستبي النفس الأمارة بالسوء المستقرة في داخله ! ! كان العالم غاصاً بأمثال هذه الفلسفة التهربية والمادة اللاهوتية في القرون الاستهلالية الأولى للحقية المسيحية . وليس يعنينا هنا أن نتوسع في تفصيل الظواهر المميزة للأفلاطونية الحديثة (الأهرية (Onosticism) والأحرية (Neoplatonism) والقيلونيسة وما إليها من تعاليم كانت كثيرة فى العالم الإسكندرانى . بيد أن الواقع أنه كان كله عالماً واحداً ، ذلك العالم الذي جمع بين هولاء وبين المسيحيين الأول. وتشهد كتابات رجال من أمثال أوريجن (Origen) وأقلوطن (Plotinus) وأوغسطن

 ⁽١) الأفلاطولية الحديث : مزيج من الفلسفة الشرقية والأفلاطولية ، وهي فلسفة أفلوطين ، الذي ماش بالإسكندرية في الفرن الثالث ...
 (للقرح)

⁽٢) الأدرية أو الأغتسلية حركة دينية بمأت والمسيحية ناشئة يرلعا بعض الناس ولائة ولكنها عامرلة لتكوين مزيج من الادموت المسيحي والفلسفة الإنبريقية وعناصر مأخوذة من النحل السرية بعالم البحر المتوسط . ويرى الأغتسليون أن لم طما باطنيا بالمنى الداخل الديالة . وهو المعرفة التي يستطيعون أن يصلوا بها إلى الاستنادة والحلود . (المترجم)

 ⁽٣) الفيلدية : نسبة إلى فيلون وهو فيلسوف إفريق من أسل بهددى وله بالإسكندرية قراية
 ٢ ق. مارنلسفته تتخلط بهن ألفاطون وللكتاب المقدس ولما يعضوا الأثر فيالمؤلفات المسيحية .
 (المترجم)

(Augustine) - بحركة الأخل والعطاء التي لم يكن منها مفر في ذلك الزمان .

وقد ممى يسوع نفسه اين الله وابن الإنسان أيضاً ؛ بيد أنه لم يركز إلا أقل الا مهام بشخصه : من هو؟ أو ما هو؟ ، وإن اشتد تركيزه كثيراً على التعالم المتعلقة باللكوت. وعند ما صرح بولس و أتباعه الآخرون بأنه أكثر من إنسان وأنه إله ، فإنهم انحطأوا أم أصابوا حقد فتحوا ميدانا هائلا من الجدل. فهل كان يسوع وباً ؟ أم أن الرب خلقه ؟ هل هو والرب سواه أو هو منفصل عن الرب ؟ وليس من مهمة المؤرخ أن يجيب عن مثل هاته الأمثلة ، بيد أنه مضطر أن يلونها وأن يلحظ كم هي أسئلة لم يحيب عن مثل هاته الأمثلة ، بيد أنه مضطر أن يدونها وأن يلحظ كم هي أسئلة لم يكن منها بد ، بسبب ذلك السلطان الهائل الذي كان لها على كل ما تلا ذلك من حياة البشرية في بلاد الفرب . حتى إذا وأني القرن الرابع من الحقيبة المسيحية وجدنا المجتمعات المسيحية بأسرها في حالة من الهياج والسخط يسبب الجدل الملتوى الحداث حول طبيعة الله حد يحيث أهملت بدرجة كبرة التعالم الأكثر بساطة ، تعالم الإحسان حول طبيعة الله حد يحيث أهملت بدرجة كبرة التعالم الأكثر بساطة ، تعالم الإحسان والأخوة والحدمة التي طبعها يسوع في العقول مرازاً وتكراراً .

وأهم الآراء التي ينبني أن يلحظها المؤرخ هي آراء الآريوسية (Ariana) والسابيلية (Osabelliana) والشابيلية (Sabelliana) والشابيلية يطمون أنه حالة أو أقنوم الإله بيما أن المسيح كان أقل من إله ، وكان السابيلية يطمون أنه حالة أو أقنوم الإله ما فالإله هو الخالق والمحلمي والموامى ، كما يكون الرجل الواحد أبا وقيماً وضيفاً ، أما المثالوثية المدين كان إتناسيوس زعيمهم الأكبر فقالوا إن الأب والابن والروح القدس ، أقانم ثلاثة بمزة ، بيد أنها إله واحسد . وإنا لمرجع القارئ إلى حقيدة إثناسيوس يطلب عندها التعبير الدقيق عن السر الأخير ، ويطلب فها التثاثيم للزعجة التي ستحل به إن فاته فهمها أو الإيمان بها ! ! . ويجب عليه أن يرجع إلى جيون (٢٠)إن شاء بياناً عن هذه الحصومات ملؤه السخوية والتهكم . على أن الكاتب الحالى

^(1) السابيلية تم أتباع سابيليوس (القرن الثالث م) الذي كان يرى أن الله لا ينطوى إلا على شخص واحد وأن الثالوث لم يكن إلا ثالوثا من الوظيفة والإظهار . (المقرح)

 ⁽٢) أصدرت المؤسسة المصرية الطباعة والتشر (ق ١٩٦٩ – ١٩٧٠) ترجمة عربية بلمييون بإشراف الأستاذ أحد تجب عائم . فليرجع البيا القلوئ .

لايسعه إلاأن يعالِمها دون أدنىوهبة ولاسخرية . وهو يرى من واجبه أن يعثرف أنَّها تبدو له كأنما هي غليان مدمر "بهدو مراجله فىالعقل البشرى وتفيض منه الكوارث الوبيلة وأثما لاتنسق بناتًا مع تعالم يسوع البسيطة الصريحة المحفوظة لنا في الأناجيل . ولم يعـــد اعتناق المذهب التقليدي السليم (الأرثوذكسي) شرطاً لازما للحصول على الوظيفة المسيحية فحسب ، بل لمزاولة التجارة بن المسيحين والحصول على المعوثة المسبحية كلمك . فإن القسك بنقطة صغيرة من نقاط المبادئ الدينية أو النزحزح عنها قد يكون معناه ثراء رجل أو إدقاعه . ومن العسر أن يقرأ الإنسان الكتابات الباقية من ذلك الزمان ، دون أن يشعر شــعوراً قوياً بتحكم الاتجاه الاعتقادى (Dogmatiam) وباستبداد الأحقاد وللنافسات والتفهقات بالرجال الذين مزقوا المسيحية إرباً من أجل هذه التفصيلات اللاهوتية الدقيقة . ومعظم المجادلين|الثالوثيين _ إذ أن أهم ما تبقى من الوثائق هو وثائق الثالوثية - ينهمون خصومهم (وبحق ما ينهمونهم فى الغالب) يأن لهم دواقع دنيئة أخرى خفية . بيد أمهم يفعلون ذلك بطريقة تفضح روحهم الوضيعة في جلاء تام . مثال ذلك أنهم يتهمون أريوس مثلابأنه يعتنق الإلحاد (الهرطقة) ، لأنه لم يعين أسقفاً على الإسكندرية . وكانت الفين والحرمانات (من عضوية الكنيسة) والنفي تلازم على الدوام هذه الحصومات ، ثم جاء دوو الاضطهاد الرسمي آخر الأمر . إذ اختلطت هذه الفروق الدقيقة حول طبيعة تكوين الإله ، بالسياسة والمنازعات اللولية . وكان الرجال الذين يتنازعون حول أشغالم ، والزوجات اللائى يرغىن في مضايقة أزواجهن ، يعتنقون في هذا الموضوع الرفيع آراء متضادة . وكان معظم البرابرة غزاة الإمبراطورية الرومانية من الآريوسين ؛ والراجع أن مرد ذلك هو أن عقولم البسيطة لم تكن لتفهم العقيدة 1 الثالوثية » .

ومن أيسر الأمور على المتشكك أن جزأ من هذه المنازعات . ولكن حيى لوكنا نرىأن هذه المحاولات التي ترمى على وجه الدقة إلى نيين مقدار الأتياط الله بنفسه ، فها من الهوور والحرأة فضلاعن الفظاعة منافات المقاله هنية ما فها، فإناهل ذلك مضطرون إلى الاعتراف بأن تلك التفصيلات الدقيقة المخالفة لكل معقول ، تفصيلات الاعتقاديات (Dogmas) المستحيلة ، كثيراً ماكانت تكمن وراحها عاطفة صادقة لهدف نحو الحق ، وإن أساء القوم تصور ذلك الحق وفهمه . وكان لكل من الجانبين شهداء صادقو الشهادة . والحياسة التي تجلت في هذه المنازعات وإن تكن حمسة وضيعة في غالب الأحيان ، إلا أنها جعلت الشيع المسيحية على كل حال نشيطة جداً في ناحيتي الدعاية والتعليم . ومع ذلك فيتبني ألا يضدعنا تاريخ الجاعة المسيحية في القرنين الرابع والحامس من حيث هو في معظمه سجل لهذه المنازعات التعسة ، إذ الواقع أن روح يسوع كانت تعيش فعلا وتتساى بأرواح كثيرة بين المسيحين . وفوق ذلك فإن نصوص الأناجيل ، وإن جرى على المراجع التلاعب بها أثناء تلك الملة ، إلا أنها لم يقض علها تماما ، وظل يسوع الناصري في جلال عظمته الوضاحة التي لا تجارى ، يعلم الناس من خلال نصوصها . كذلك لم يمنع هذا الشقاق التعس المسيحية من الاحتفاظ يجهة موحدة ضد حفلات كذلك لم يمنع هذا المشقاق التعس المسيحية من الاحتفاظ يجهة موحدة ضد حفلات

٣ ــ كفاحات المسيحية وأضطهاداتها

كان طبيعيا أن تعد المسيحية حركة صعيان الدولة وتفكيك لعراها ، ما عمد ت وبوبية قيصر والنظم التي تتمتر بها الإسراطورية ، والواقع أنها كانت تعد كذاك فى نظم معظم الأياطرة قبل قسطنطن الأكر . فلقيت عداء جسيا ، انتهى آخر الأمر إلى بدل عاولات منظمة القضاء حليها . وكان ديكيوس (Dectus) أول إسراطور أتول بها اضطهادات منظمة القضاء ما المسنن المسنن فكرة الإسراطور الرب القديمة وبن الهيئة المنظيمة البائفة بالفعل حد القرة والتي تنكر وبوبيته . وكان دقلهيانوس أعاد تنظيم شنون الملكة على أسس متطرفة من الحكم المطلق ، وألفى آخر ما تبتى من آثار النظم الجمهورية ؛ وهو أول إمر اطور يبيط نفسه إحاطة تامة بكل ما المملوك الشرقيين من مظاهر باعثة على الرهبة . فاضطره منطن مدعياته أن يحلول القضاء التام على ذلك النظام الدى كان ينكرها إنكاراً صريحا . وكان الاختبار الممهد للاضطهاد ، أن يطل إلى و المسيحىء أن يقرب إلى الإسراطور قربانا .

و ومع أن دقلة يانوس الذي لم يبرح نافرا من سفك الدماء ، قد خفف من غلواء جالبريوس اللي اقدَّر ع أن كل من رفض تقديم القربان يجب أن يحرق من فوره حيا ، إلا أن العقوبات التي وقعت على المسيحين المعاندين ، بمكن أن تعد من النكال الصارم ذى الأثر البالغ . فصدرت مراسم نقضى بأن كنائسهم فى أنحاء الإمبراطورية يجب أن تهدم من أساسها ؛ ثم أنذر بعقوية الإعدام كل من يجرو على عقد أية اجمَّاعات سرية بقصد العبادة الدينية . واتخذ الفلاســــفة فى ذلك الأوان لأنفسهم وظيفة زرية ، هى توجيه الحماسة العمياء للدولة فى ذلك الاضطهاد ؛ فأقبلوا يدرسون طبيعة الديانة المسيحية وعبقريتها دراسة كله وتوفر ؛ ولما كانوا لا يجهلون أن من المفروضأن المبادئ النظرية للمقيدة تحتومها كتايات الأنبياء والإنجيليين والرسل ، فأرجح الظن أنهم هم اللمين اقدرحوا إصدارالأمر بأن يسلم الأساقفة والقساوسة كلكتبهم المقدسة إلى الحكام، اللَّذِينَ صَدَرَتَ لِمُ الْأُوامِرِ بِأَنْ يَحْرَقُوهَا فَي هَيْثَةً عَلَيْةً رَهِيبًا ، وإلا نَلْهُم شر الحزاء . وقد تضمن نفس المرسوم مصادرة أملاك الكنيسة على القور ؛ وكانت الأجزاء المختلفة إلى تتكون مها ، إما أن تباع لمن يلفع فيها أغلى ثمن أو تضم إلى الأملاك الإمبراطوية أو توهب للمدن أو الهيئات أو تمنح تلبية لطلب الطامعين من رجال البلاط. وبعد اتخاذ مثل هذه التدبير أت الفعالة لإلغاء العبادة ، والقضاء على رئاسة المسيحية ، رؤىمنالمضرورى تعريض أولئك الأفراد المنحرفن اللبين بواصلون رفض عقيدة الطبيعة ، عقيدة روما وعقيدة أسلافهم ، لما لا يكاد يطاق من العنت والشقاء . وكان الأفراد المستنبرون من أبناء البيوتات يعدون غير أكمُّاء لحيازة الرتب أو تولى المناسب ؛ فأما الأرقاء فيحرمون حرماناً أبدياً من التطلع إلى الحرية ؛ كما أن الجاعة المسيحية بأجمها حرمت حاية القانون . فقد خول للقضاة الحق فى أن ينظروا وأن يقضوا فى كل قضية ترفع أمامهم ضد أى مسيحى ؛ بيد أنه لم يكن مسموحا للمسيحيين أن يشتكوا من جور يصيبهم ؛ وهكذا كانت هذه الطائفة المتعسة هذها لكل ظلم وعنت، على حين يحال بينهم وبين الانتفاع بالعدالة العامة . ولم يكد هذا المرسوم يعرض على الملأ في أبرز المواضع بنيقوميديا ، حتى امتدت إليه يدا مسيحى بالتمزيق المصحوب بأقذع التنديد والسباب تعبيراً عن للقت والاحتقار لمثل هوالاء الحكام الفسقة الطغاة . وكانت جريمته

طبقاً لأحف القوانين وطأة ، توضع بمنزلة الحيانة العظمى وتجازى بالإعدام و فإن مسح أنه كان رجلا ذا مرتبة وعلم ، فإن تلك الظروف ماكانت إلا لنزيد في جرمه : وإذا هو يحرق أو قل يشوى على نار بطيئة . وإذا يجلاديه وقد امتلازاحاسة للانتقام للإهانة الشخصية التي لحقت بالأباطرة ، يفتنون في إنزال العذاب ألواناً بالمسكن دون أن يستطيعوا لعبره قهراً ، وأن يغيروا من ابتساسة الثبات والزراية التي ظل عضطاً بها طلى عياه وهو في آلام نزعه الأخير . ٢٥٠ .

وهكذا افتتحت الصفحة الأولى من الاضطهاد العظيم بموت ذلك الشهيد الجهول . ولكن ما وصلنا من معلومات عن مدى غلظة الاضطهاد وشلته إنما هو -- كما يلاحظ جيبون -- موضع الشك الكثير . وهو يقدر مجموع الضحايا الكلي بما يقارب الألفين ، ويقارن هذا بالثابت المؤكد من صدد جاهر المسيحين الحاشلة الذين استشهدوا على أيدى زملائهم في المدين أثناء فترة الإصلاح الدين . ومن للعلوم أن جيبون شديد التحامل على المسيحية ، وهو هاهنا يهلو كأنما ينزع إلى النهوين من شأن تجلد المسيحين تنفيذ المرسوم . بيد أن السلطات بدلت جهداً كبراً في تصيد نسخ الكتب القدسة ، كما حدث أيضاً في أما كن كثيرة هدم معظم الكتائس المسيحية . وعلب وأهدم كثير ، كما ملئت السجون بالأساقفة والقساوسة المسيحين . ولزام علينا أن نتذكر أن المجتمع كما منذي بتنفيذ المرسوم كانوا هم أنفسهم يدينون بالعقيدة الهرمة . وكان جاليوس صاحب الأمر في الولايات الشرقية من أشد أنصار الاضطهاد قوة شكيمة وشدة ، اعتداءاته على هذا المجتمع الشمخ ، فأصدر مرسوماً بالتسامع ، يرسم جبيون خلاصته يد التوالى إلى المناف المناف المناف المناف عن المدار مرسوماً بالتسامع ، يرسم جبيون خلاصته على الوجه التالى :

لا كان من پن الأمور الجوهرية التي أهمتنا لمنفعة الإمبراطورية والمحافظة عليها ،
 اعترامنا أن نصلحونقم من جديد كل شيء وفقاً للقوانين القديمة ونظام الرومان العام ،
 وقد رغبنا رغبة خاصة في أن لهدى إلى سواء سبيل العقل والطبيعة أولئك المسيحين

⁽١) انظر جيبون تى "Decline & Fall of the Roman Empire" لقصل السادس عشر . و بإقرار ان أحمد نجيب هاغم وترجة محمد على أبو درة وآخرين ، أصدرت المؤسسة المصرية . الطباعة والنشر طبعة عربية لطبعة مختصرة من جيبون أصدرها الامتاذ د . م . لو . ((للكرم))

الهنوعين الذين تركوا الديانة والطقوس التي استها آبارتهم ؛ واحتقروا في جرأة وغرور شريعة الأقلمين ، واعترعوا قوانين وآداء هوجاء ونقاً لما تمليه عليهم أهواؤهم ، وجعوا من حولم مجتمعاً علطاً من عتلف ولايات إسراطوريتنا - وإذ أن لمراسم التي أصدوناها لدم عبادة الآلمة ، قد عرضت كثيراً من المسيحين للأخطار والهن ، فلني الكثيرون مهم حقه ، وترك الأكثرون عن لا يزالون يميرون على ضلالم الأحمق عرومين من أى ممارسة عومية للديانة ، فإنا نميل إلى أن نقمل هولاء التساء بآثار رحمتنا للمتادة ، لذلك فنمن تسمح لهم بأن يعبروا يحرية عن آرائهم الحاصة وأن يجتمعوا في اجهاعاتهم الديئية دون خوف أو مضايقة ، على شريطة دائمة هي أن يجاهاه و والمحرفة في أن يعافلوا على الاحترام اللائق القوانين والمحكومة القائمة . وسنوضح في أمر كثير مقاصدنا القضاة والحكام ؛ و نأمل أن يطوع تساعتا المسيحين بأن يقدموا صلوانهم الرب الذي يعبدون ، من أجل سلامتنا ورضائتا ومن أجل سلامتهم ورخائهم ورنائها » .

وفى بغم سنن كان قسطنطان الأكبر فى دست الملك ، يحكم فى مبسداً الأمر الاشراك مع آخر (٢٩٤) ثم يحكم منفرداً بالسلطان (٢٧٤) ، فانهت على يلميه أقسى عن المسيحة . وأن كانت المسيحية قوة حصيائية ملمرة حيال روما الوائية ، فلقد كانت قوة موحدة ومنظمة فى داخل مجالها ومجتمعاتها هى . وأهرك قسطنطان بعبقريته هسلم الحقيقة . فإن روح يسوع بالرغم من الحلافات النظرية التى سادت المسيحين جعلت مهم جاءة متعاطفة كيبرة فى كل أرجاء الإمعراطورية بل فى خارج حدودها . وأخذت العقيدة فى الانتشار من وراء الحدود من البرايرة ، كما امتدت الى فارس وآسيا الوسطى . وكانت مصدر الأمل الوسيد الباسك الحلقي الذى استطاع في قبل من دراء المفيقة والآثرة التي كان تزاماً عليه أن يحكم من فوقها . فهمى ، وهى وحدها ، كانت صاحبة الوسائل الحيثة لتكوين و الإرادة ، المنظمة ، تلك الإرادة التي كانت الإمبراطورية يسيب حاجها إلها تتناثر شلاء تناثر قطمة باليسة من القاش ، وفى (٣١٧) اضطر قسطنطن أن يحترب دفاعاً عن روما وعن مركزه ضد مكسيتيوس (شعربية) فوضع طفر أه(١)

 ⁽١) الطفراء : علامة ترمز إلى شخص أو حامة ما تتألف من أحرف الامم الأولى مرقومة مل نحو منشابك .

امم المسيحية على تروس جيشه وراياته ، وادعى أن رب المسيحين قاتل ذياداً عنه في نصره المبنى في معركة جسر ميلفيان (Milviam) تحارج روما بالفبيط. وجذا العمل تنازل عن كل ادعاء له بالربويية التي أدخلها غرور الإسكندر الأكبر لأول مرة إلى العالم العلم العالم الغبل و وجوافقة المسيحين ومعونهم نصب نصه ملكا ، له من الحكم المالت نمسيب أعظم مما أتيح للقلديانوس نفسة . ولم تنقض بضع سنوات حتى أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإسراطورية ، وفي (٣٣٧ م) حُمَّدً قسطتطين مسيحياً وهو حلى فراش موته .

٧ _ قسطنطين الكبير

إن شخص قسطنطين الكبير جوهري في التاريخ ويعسدل في جوهريته على أقل تقدير شخص الإسكندر الأكبر أو أوغسوس قيصر . ولسنا نعرف إلا أقل القليل عن شخصيته أو حياته الخاصة ؛ إذ لم تهيئ لنا المقادير فى زمانه مؤرخاً مثل پلوتارك!٧٠ أو سويتونيوس^(٢) (Suetonius) يقى لنا على تفاصيل زاهية التلوين تنصل اتصالا وثيقاً يمعيشته الداخلية . أجل لدينا الآن مطاعِن مما كتب أعدارُه ، كما أن لدينا في مقابل ذلك من الثناء عليه ما هو ظاهر الغلظ والسهاجة . بيد أن ولحداً من هولاء الكتاب لم يعطنا صورة له حية زاهية الألوان ، فإنه ليس بالنسبة إليهم إلارمزاً لطاهنتهم ، أو راية حزينة لم . ويذكر خصمه زوسيموس (Zoeimus) أنه كسرجونالأول ، كان غير شرعى المولد . إذ كان أبوه قالدًا شهرا ، على حن كانت أمد هيلالة ابنة صاحب خان ف نيش ببلاد الصرب. على أن جيبون يرى مع ذلك أنه ثمرة زواج شرعي ، ومهما يكن الأمر فإنه كان زواجا وضيماً ؛ وقد طَفْت عبقرية قسطنطن الشخصية على لقائص خطيرة تكنفته . فإنه كان من الأمين أو يكاد ، وكان يعرف الفليل الذي لا يكاد يذكر من الإغريقية . ويبدو أنه نني حقا ابنه الأكر كريسيوس ، وأمر به فأعلم يتحريض من فاوستا امرأة أبى الفتى ؛ كذلك تحمل إلينا السجلات أنه اقتنع فيما بعد بعراءة كريسپوس ، وأمر بفاوستا فأعدمت ، بأن أُغلى علمها ماء حمامها حتى ماتت ... عُلِي قُولَ إِحدَى الرَّوَايَاتَ ؛ وَبَأَنَ الْقَيْتَ الْمُوارَى ﴿ فَى رُوَّايَةً أَخْرَى ﴾ عارية الجلسم

 ⁽١) بادتارك : (ح ٢٠ - ١٠٥) كاتب تراج بودان حاضر في الفلسة بردما . وعيه هادريان داليا صل البودان . وكتاب ه الدراج للعوازية » فيه موازنة بين كل اثنين من كبراء الإغريق والرومان . (المترجم)

 ⁽۲) سواهولیوس: مورخ لاتین (اندهر بالقرن الفاق المهاددی) ویسلینا کتابه و حیاة التهاصرة به
 معلومات شخصیة کثیرة صهم . (المقریم)

على بجبل موحش ؛ على حين توجد كلمك وثائق مقنمة جداً تدل على أمها عاشت من بعده . فإن كانت أعدمت فعلا ، فإن ذلك لا يوثر فى الحقيقة القاتلة بأن أولادها
الثلاثة ومعهم اثنان من أبناء إخوتها ، أصبحوا ورثة قسطنطان «بالتعين» . وواضح
أنه لا يمكن الحصول على شىء يعتمد عليه فى هذه المقدات الفامضة ، وعلى القارئ
المتعلم أن يطلب أخيار هذه و الحبيصة ، القائمة على مادة بالغة الثدرة عند جيبون
الذي ديجها بمهارة فاثقة (الفصل ١٨) .

ومعروف أن جيبون كاتب ذو ميول مضادة للمسيحية ، فهو من ثم خصم مماد لتسطيطين ؛ بيد أنه يسترف أنه كان معتدلا عفيةً . وهو يتهمه بالإسراف بسبب مباتيه العامة العظيمة ، كذلك يتهمه بالغرور والحلاحة ! لأنه ليس وقد تقدمت به السن شعراً مستعاراً (ولا يحتى أن جيبون نقسه كان يلبس شعره المستعار ويربطه برباط أسود مناسب) وتاجأ ملكيا وثياباً فاخرة . حلى أن جميع الأباطرة المتأخرين يعد دقلديائوس ليسوا التيجان والثياب الفاخرة .

ومع ذلك فلأن ظلت شخصية تسطنطان الكبير أشبه غيى بالأطياف ، ولأن لم تتعليم أن المنظرة المحاصة الإسمام ، فإنا مع ذلك نستطيع أن تتحيل كثيرا مما كان يجول فى ذهنه . ولا بد أنه كان ذهنا يشعر بالوحشة الأبامة وهو في خاتمة سي حياته . كان أكثر استبداداً من أى إمبراطور سابق — أعنى أنه كان أكثر استبداداً من أى إمبراطور سابق — أعنى أنه كان أكل استشارة واستمانة بغيره ، إذ لم يبق لديه أحسد من أهل الثقة فوى الروح الذيرية العامة (٢) ، ولم يكن هناك بجلس شيوخ (سناتو) ، ولا أى بجلس أيا كان يشاركه وضع الحليظ وتطويرها . فإلى أى مدى أدوك ذلك الرجل ضعف إمبراطوريته ولما أى حد كان يرى الكارثة المشاملة التي كانت عند ذلك وشيكة الحلوث ؟ ذلك ولما أى حد كان يرى الكارثة المشاملة التي كانت عند ذلك وشيكة الحلوث ؟ ذلك ما لا نستطيع أن تعتمد فيه إلا على الحدس والتخمين . ومهما يكن الأمر فإنه جمل عاصمته الحقيقية مدينة نيقوميديا بولاية بيثنيا . وقد مات والقسطنطينية عبر البسفور ما تزال تبنى . ويلوح أنه — شأن دقلديانوس — قد أدرك انقصام (٢) ظهر معالم ممتلكاته وشكلها العام .

 ⁽¹⁾ يقصدالمؤلف بولاء كل شخص يعني بالشدن العامة وعدمة الجمهور . (المرجم)
 (٢) القدم الظهر بمني لذكمر . (المترجم)

وركز الهمامه على الشنون الحارجية ، وعلى الأخصى إلى شنون بلاد المجر وجنوب الروسيا والبحر الأسود . وقد أعاد تنظم أداة الحكم في الإمبراطورية ، وأعطاها دستوراً جديداً وسعى في أن يكون أسرة مالكة . وكان مجدداً لا جداً له بال ؛ فحاول أن يعالج الفوضى الاجراحية بمساعدته نظام الطوائف على الطور . وهو في هذا يرسم خطى سلفه العظيم دقلديانوس . فحاول أن يجعل من الفلاحين وصغار الزراع طائفة ، وأن يحظر عليم الانفصال عما في حوزتهم من أرض ، وهو في الحقيقة قد سعى أن يجعلهم موالى أرض (Serfs) . ذلك بأن الوارد من الأرقاء الهال قد نفيب معينه ، إذ أن الإمبراطورية لم تعد بعد قوة غازية بل قوة معرضة للغزو ? فانقلب يتلمس المعالج في نظام موالى الأرض ، واقتضت جهوده الحلاقة فرض ضرائب ثقيلة لم يسبق الممثل . وتشير كل هذه الأمور إلى عقل قوى يشعر بالوحدة الموحشة . وتتجلى قوة التكاره الأصبلة في فهمه البيش للحاجة إلى بعض القوى الأعلاقية الموحشة التي لا بد

ويبلو أنه لم يدرك الاختلافات المنيفة القائمة بين رجال اللاهوت إلا بعد أن نمول بوجهه صوب المسحية . فأنفق جهداً عظيماً لتتوفيق بين هذه المفروق لكي يتسبى له أن يبث في المجتمع تعالم تتصف بالتناسق والانسجام ، وبناء على مشورته عقد مجمع عام الكنيسة (١٣٧٥) في نيقيا ، وهي مدينــة تقع قرب نيقوميديا في مواجهة القسطنطينية . ويقدم إلينا يوسيوس (Eusebius) بنا يبناً عجبها عن هسلما الإجهاع الفسطنطينية ، لأنه سبق له أن مأس في (١٩١٤) مجلسا في الحرب ، المدى كان يترأسه الإمبراطور وإن لم يكن بعد مسيحياً معمداً . لم يكن أول مجلس صقده من أجل الكنيسة ، لأنه سبق له أن رأس في (١٩١٤) مجلسا في أنك كان رقبق الزاد من الإعربيقية ، وجب علينا أن نغرض أنه اكتفي بملاحظة ملامح وسحنة وإيمامات المتناظرين وسماع نفات أصواتهم . وكان المجلس عاصفاً . ولما تم آروس المرب وسحنة وإيمامات المتناظرين وسماع نفات أصواتهم . وكان المجلس عاصفاً . ولما تم آروس المرب (Arius) ، ثم هرول الكثيرون بعد ذلك إلى الحارج ، وقد وضعوا أصابعهم في آذامهم في رحبه مفصل من هرطقات الرجل الشيخ . وإن المرء لملذ أن المرابع والماهم في آذامهم في رحبه مفصل من هرطقات الرجل الشيخ . وإن المرء لملذ له أن

 ⁽١) يوسيوس (ح ٢٠٠٠–٢١٥، ٩٠) هو أبو التناريخ الكنسى , ويستقد أنه ولد بفلسطين , مين أسقفنا لقيمرية ح ٢١٣ وثسب دوراهاما في مجمع نيقيا .
 (المقرج)،

يُعصور الإمبراطور العظم ، وهو فى أشد القلق على روح إمبراطوريته ، كما أنه كذلك وطيد العزم على إنهاء تلك الانتسامات ، منحدًا نحو مترجيه يسألم إيضاح تلك الفسجة .

٨ ... تأسيس المسيحية الرسمية

إن هام (٣٧٥ م) يعد من أنسب التواريخ لكتابنا هذا . إذ هو تاريخ أول بجمع هام د مسكونى Occumenical ، يكامل هيئته العالم المسيحى بأسره : (فأما ذلك الجميع الذي مقد في آرل وذكرناه آنفا فكان اجهاجاً النصف الغرق نقط) . وهو يسجل دخول الكنيسة المسيحية والدير المسيحي يصفة قاطمة إلى مسرح الشئون الإنسانية ، على النحو المفهوم عن ذلك الدين في العالم اليوم هامة . وهو يحدد التعريف الدقيق التعالم المسيحية بواسطة قرار العقيادة التيقية (Niceme Creed) .

ومن الضرورى أن نستفت نظر القارى لل القروق العيقة مين مسيحية نيقيا هله التامة التطور وبين تعالم يسوع المناصرى . فإن المسيحين جميعاً يعتقدون أن الأولى تنطوى على الثانية وتحتويها احتواء تاماً ، على أن هذه مسألة تخرج من مجالنا، في الواضح تماماً أن تعالم يسوع الناصرى تعالم نبوية من الطراز الجلايد الذي ابتئاً في الواضح تماماً أن تعالم يسوع الناصرى تعالم أو لم يكن لها معيد مقدسى حبساً عليه ولا هيكل . ولم يكن لديها شعائر ولا طقوس . وكان قربانها و قلباً كسيراً خاشعاً ع . وكان ترانها و قلباً كسيراً خاشعاً ع . وكان الميتة الوسيدة الموسدة فيها هيئة من الوصائل ، وكان رأس ما لديها من عمل هو الموصلة بيد أن مسيحية الفرن الرابع الكاملة التكوين ، وإن احتفظت بعالم يسوع في الأناجيل كنواة لما سكانت في صلها و ديانة كهنوتية ع ، من طراز مألوف الناس من قبل مناد كلاف من السنين ، وكان الملبح مركز طقومها المنمقة ، والعمل الجوهرى في الهيادة فيها

ولأن اتشحت المسيحة بأردية خارجة تشابه نحل سيرابيس أو آمون أو بعل مردك مشامة غير عادية ، فلا بد لنا من تذكر أنه حتى كهانها نفسها كانت لها مظاهر جديدة بأعيانها . فإنها لم يكن لدمها في أى مكان أى صورة عجمدة شبه قلعمية الرب . ولم يكن هناك معد رئيسي يحوى الرب ، وذلك لأن الرب موجود في كل مكان ولم يكن هناك قلم أقلامى . وكانت ما يجها المنبئة في كل مكان موجهة كلها إلى التالوث العام الذى لا يرى . والمسيحية حتى في أقدم مظاهرها كانت تموى شيئاً جليدا .

وثمة أمر هام جدا علينا أث تلحظه ونسجله وهو الدور الذي لعبه الإمبراطور في تثبيت المسيحية . فلم يقتصر الأمر على أن قسطنطين الكبر هو الذي دها لا جهاع جمم نيقيا، بل إن كل المجامع العظيمة ، ومنها اثنان بالقسطنطينية (٣٨١ ، ٥٥٣) وواحد بإنيسوس (Ephesus) (٤٣١) وخلقدون (Chalcedon) (٤٥١) ، جمعتها كلها يد الإمبر اطور ي والجلى الذي لاخفاء فيه أن قدوا كبيرا من تاريخ المسيحية فى ذلك العصريشف عن روح قسطنطين الكبير بقدر ما يشف عن روح يسوع إن لم يزد . وكان قسطنطين كما سبق أن نوهمنا مستبدًا ﴿ أُوتُوتُو اطباً ﴾ مطلقاً . ذلك بأن آخر آثار الروح الجمهورية الرومانية قد اختفت في أيام أوريليان ودقله يانوس . وكان يحاول بالقدر الذي هيأته له معارفه ، أن يعيد ـــ قبل أن يفوت الأوان ـــ تكوين الإمبر اطورية للتضعضعة ، وكان يعمل من فعر مستشار أو ناضح ، أو أى رأى عام أو أى شعور بالحاجة إلى مثل هذا النوع من وسائل العون والضبط. فإن فكرة محق كل خصومة وانقسام ، والقضاء على كل فكر بواسطة فرض عقيدة 1 اعتقادية Dogmatic و احدة على للمؤمنان جميعاً ، إنما هي فكرة استيدادية أو توقر اطبة بأشمل معانى الكلمة ، وإنها لفكرة الرجل الفرد الذي يعمل بغرمعن والذي يشعر أنه لكي يستطيع أن يعمل ينبغي أن يكون غير مقيد بأية معارضة أو نقد . ومن ثم يصبح تاريخ الكنيسة بتأثيره ، سلسلة من الكفاحات العنيفة التي كان لا يد من حدوثها تتيجة لمباغنته الناس بدموته الفجة ْ إلى الإجماع على رأى . وهنه تاريع التسانية ٢٠ إقتبست الكنيسة الميل إلى الاستبداد وعدم الخضوع للمسئولية ، وإنشساء هيئة تقوم على المركزية وتعيش على غرار الإمبراطورية وإلى جوارها .

وجاء بعد ذلك مستد, عظم ثان هو ثيودوسيوس الأول (Theodoaius I) أو ثيودوسيوس الكبر (٣٧٩ – ٣٩٥) فساهم من فوره فى فرض طابع المتدادى صريح على المسيحية الكاثوليكية . فحرم على من لم تصح عقدهم من المسيحين عقد الاجهاعات ، وسلم كل الكتائس التالوثين ، وقضى على معابد الوثنية فى كل أرجاء الإمراطورية ، وفى ٣٩٠ أمر بتمثال سيرابيس العظم بالإسكندرية فحطم . إذ لم يكن ليسمح بعد ذلك بوجود أية منافسة ولا أية منافسة ولا أية

ولسنا بمستطيعين أن تخرك هنا بما عانه الكنيسة من المناعب الداخلية الحائلة ولا ص عدم هضمها الزنادقة مثل أنباع أديوس وأنباع بولمس() والأدريين (الأغنسطيين) والمانويين . ولو آبها كانت أقل استبداداً وأكثر تساعاً مع الأفكار المتنوعة ، فلربحا أصبحت هيئة أقوى بكثير بما وصلت إليه . ولكنها على كل هذه الاضطرابات ، ظلت زماناً محفظ بالفعل بفكرة لوحدة الإنسانية فها من التعاطف ورحابة الأفق ملم تصل إليه الإنسانية قبل ذلك قط. ولما وافي القرن الخامس إذا المسيحية أخبلت بالفعل تثيراً منزلة أعظم وأقوى وأشد دواماً مما وصلت إليه أية إمبر اطورية في الماضهي . لأنها لم تكن عبرد شيء مفروض على الناس فرضاً بل هي قطعة من نسيج عقولم . وقله والحبثة وإيولندة وألمانيا وحيى تغلفت في المند والمركستان . و وهي وإن تألفت من جامع منثرة انتثاراً متباحداً ، فإن الناس كانوا يفكرون فها بوصفها مجاعة واحدة المسيح وشعاً واحداً لله . واستطاعت هذه الوحدة المثالية أن تجد لتمبير من نفسها عبدة . فإن تبادل الاتصال بن المجتمعات المسيحية المنتوعة كان قائماً على قدم سيلا عديدة . فإن تبادل الاتصال بن المجتمعات المسيحية المنتوعة كان قائماً على قدم ميدة .

⁽¹⁾ أتباع بولس (Pauliciann) : فرقة من الزنادقة نشأت يسوريا والشرق فى القرن السابع مقيلتها عليط من الأعنسلية والمانوية . واشتق اسمهم من القديس بولس الذي كانوا يولونه وكتاباته تبجيلا عظيما . (القريم)

وساق . وكان المسيحيون اللين هم على سفر ، على يقين داماً من استقبال حار وترحاب كريم من إخواجم فى الدين . وكثر تبادل الرسل والرسائل بين كنيسة وأخرى . وكان المبشرون ودعاة الإنجيل يتقلون على الدوام من مكان إلى مكان . وكانت الوثائق المتنوعة الأصناف ، بما فيها الأناجيل والرسائل الرسولية ، منشرة انتشاراً واسماً . وهكلا وجد الشعور بالوحدة طرائق منوعة التعبير عن نقسه . حتى لكأن تطور أجزاء متباعدة الشقة من المسيحية يطابق على درجات متفاوتة ، طرازاً مشركاً يبين جيماً به (٢) .

وقد احتفظت المسيحية على الأقل بالتقاليد الشكلية لهذه الوحدة العامة للروخ حتى عام ١٠٥٤ ، عندما انفصلت كل من الكنيسة الغربية اللاتينية اللمان ، والكنيسة الرئيسية الأصلية الإغريقية اللغة وهي الكنيسة والأرثوذكسية » ، انفصلتا إحداهما عن الأخرى لسبب صورى هو إضافة كلمتين على العقيدة ، فإن اللة القديمة كانت أُصَلَنت و ان روح القدس منبثق من الآب ، . وأرادت اللاتينية أن تضيف لفظة (Filioque) (أي ومن الإبن أيضاً) بل وأضافها فعلا ، وبذلك أخرجوا اليونان من عِتْمُعُهُمُ اللَّذِي لَاسْمُ أَبُوا أَنْ يُتَّبُّوا مُلَّهُم . على أن مسيحي شرق سوريا وفارس وآسيا والهندكانوا قد انفصلوا بأنفسهم من قبل فى زمن مبكر يرجع إلى القرن وسمرقتد . فهوَّلاء المسيحيون الآسيويون الشديدو الطرافة يعرفون في التاريخ باسم الكنيسة النسطورية ، وقد امت. سلطانهم إلى صميم بلاد الصين . كذلك فصلت الكتيستان المصرية والحبشية نفسهما فى زمن مبكر جداً لمثل هذه النقاطالي لاسبيل إلى تفسيرها . ومهما يكن الأمر ، فالواقع أنه قبل هذا الانفصال الرسمي بين شطرى · الكنيسة الرئيسية الناطقين باللاتيئية والإغريقية يزمن كبير ؛ كان هناك انفصال فعلى جاء فى أعقاب انقسام الإمبراطورية . ذلك بأن أحوالهما تباعدت منذ البداية . فعلى حق كانت الإمبراطوريَّة الشرقية الإغريقية اللغة مياسكة البنيان ، وعلى حن ظل الإمبراطور في القسطنطينية متسلطاً على الكنيسة ، فإن النصف اللاتيني من الإمراطورية قد أنهار

⁽١) الموسومة البريطانية مادة و تاريخ الكنيسة و ص ٣٣١ .

كما سبق أن قلنا ، وترك الكنيسة الغربية حرة من كل قيد إمبراطورى .

وفضلا عن ذلك فإنه بينا كانت السلطة الكنسية (الإكلىروسية) في إمر اطورية القسطنطينية موزعة بين الأساقفة الكبار أو البطاركة في القسطنطينية وأنطاكة والإسكندوية والقدس ، فإن السلطة في الغرب تركزت في يطريرك أو بابا ووما . وكان الجميع يعرفون على الدوام بأن أسقف روما هو الأول بين البطاركة ، وتأزرت كل هذه الأمور على تدرير ادعائه بصورة غريبة بأن له الحنى في ممارسة منطات شهية يسلطات الإمبر اطور . حتى إذا سقطت الإمبر اطورية الغربية سقطها الهائية ، أعمد البابا لقب الحبر الأعظم (Pontifex Maximus) الذي كان الأباطرة يتخلونه الأنفسهم ، وبلا أصبح كاهن القرابين الأعل في قدم التقاليد الرومانية ، فأما في بلاد المغرب فقد اعترف الناس له اعترافا كاملا بالسيادة العليا على المسيحين هناك ، فأما في بلاد المغروري منذ البناية توخى منهى الحلو في حث الناس على تقبل المهاركة الأوبعة الآخرين ، فقبل السيادة العليا من الغمروري منذ البناية توخى منهى الحلو في حث الناس على تقبل السيادة .

وكان القول بحولى الكنيسة الحكم الدنيوى منشراً بالفعل في القرن الرابع الميلادى . فإن القليس أو ضعطين وهو من أهل مدينة هيهو(١) بشهال إفريقية ، كتب بن ٢٠٤ ، وكتاب ٤٣٥ معراً هن تطور الفكرات السياسية المكنيسة في كتابه و مدينة الرب ٤ . وكتاب و مدينة الرب ٤ . وكتاب لاهوئية منظمة و المدينة كا يصورها أو ضعطين إنما هي هجتمع روحي من المؤمنين المقدور لاهوئية منظمة و المدينة كا يصورها أو ضعطين إنما هي هجتمع روحي من المؤمنين المقدور لم الإيمان منذ الآزل ٤ ، بيد أن الانتقال من ذلك إلى التطبيق السياسي الفكرة لم يكن بالخطوة المواسعة . إذ كان ينبغي للكنيسة أن تصبح حاكمة العالم التي تسود الشعوب جميعاً ، والمقوة التي ترشدها المناية الرباقية وتمكم من فوق عصبة عظيمة من الدول الأرضية . وتطورت عاته الفكرات فيا أحقب ذلك من أعوام فأصبحت نظرية سياسية وسياسة محددة . وبيها الشعوب الربرية تستقر وتتحول لمل المسيحية ، شرع البابا وسياسة محددة . وبيها الشعوب الربرية تستقر وتتحول لمل المسيحية ، شرع البابا من المساحة السيادة العلما على ملوكهم . ولم تنقض بضع قرون حتى أصبح البابا من

 ⁽¹⁾ فى الهوسومة قامريهة الميسرة أنه ولد بردينة تبحش التوميدية , ونوميديا إقليم قديم فى شمال هرب فريقيا يطابق بالتشريب الجنوائد الحديثة ; (المترجي)

الناحية التنظرية ، وإلى حد معين من الناحية العملية — الكاهن الأعلى والرقيب والفاضى والملك الفلامي للعالم السيحي . وامند سلطانه غرباً إلى ما وراء أقصى مدى بلغته الإمبر اطورية الفديمة : إلى إير لندة والسويد والنرويج وشمل كل بلاد ألمانيا . وانفضت ألف عام أو تزيد ، وأوربا تسود فها هذه الفكرة الفائلة بوحدة المسيحية ، وهي التي تتصور العالم للسيحي في صورة ضرب من حلف من الدول ، يمتنع أعضاره حتى في أيام الحرب عن إتبان كثير من الأمور المتطرفة بدافع فكرة من الأخوة المشركة والولاء المشترك الكنيسة . ومن أسف أن تاريخ أوربا منذ القرن الخامس فما بعده حتى القرن الخامس ها بعده حتى القرن الخامس عشر ظل في الأغلب تاريخاً يسجل فشل هذه الفكرة العظيمة ،

٩ ــخريطة أوربا في ٥٠٠ م .

أدلينا إليك في الفصل السابق ببيان عن أمم الفارات التي قامت بها الشعوب المتربرة . وفي إمكاننا الآن أن نقرم بمساحدة إحدى الخرائط بمراجعة وجيزة لأقسام أوريا السياسية عند ختام القرن الخامس . في ذلك الحين ، لم يبق للإسراطورية الغربية وهي الإمراطورية الرومانية الأحملية ، أثر بوصفها قسها سياسياً متميزاً منفسلا . فإنها من الناحية السياسية أصبحت حطاماً بالياً وحل علها في حقول الناس بأجزاء كثيرة من أوربا الشرقية الهليئية التي أصبحت هي و الإمراطورية ، في عرفهم . وكان الإميراطور في القسطنطينية لا يزال هو الإمراطور — من الناحية النظرية على الأكل

أما قى بريطانيا فكان الأنجل (الإنجامز) والسكسون والحوت ــ وهم أجبال من التيوتون البرابرة البائغي المسجية قد غزوا تصف إنجلسرة الشرق . وكان البريطون (Britons) لا يزالون صاملين في غربي الجزيرة ، يبد أنهم كانوا برخمون على التقهقر للي الخلف وويدا نحو ويلا نحو ويزار وكورنوال . على أنالأنجلوسكسون كانوا فنا يبدو من أشد البرابرة المنزاة قساوة وتأثيراً فعالا فيمن حولم ، فحيثا سادوا حلت لغتهم محل اللفت الكتابية أو اللاتينية اللين كان البريطانيون يستخدمون إحداها ــ ولسنا تدرى

على وجه التحقيق أيتهما كانوا يستخدمون. ولم يكن هوالاء الأنجلوسكسون تنصروا بعد.



(فكل ١٢١) خريطة أرزيا حواليات . . ه م . .

أما معظم بلاد الغال (فرنسا) وهولندة وأرض الراين فكانت تحت حكم مملكة الفرنجة المسيحية المتوسطة القوة والأكثر تمدناً . بيد أن وادى الزون كان تابعاً لمملكة منفصلة هي مملكة البرجنديين . على حين كانت أسهائيا وشطر من جنوب فرنسا تحت حكم القوط الفربيين ولكن السويق كانوا يملكون الركن الشيالي الغربي من شبه الجزيرة .

ولمتد سبق أن كتبنا عن مملكة الوندال بإفريقية ؛ فأما إيطاليا ، وكانت لا تزال رومانية السكان والعادات ، فإما وقعت فى قبضة القوط الشرقيين . لم يبق هناك إمراطور بروما ؛ يل كان يتولى الحكم هناك يودوريك الأول بوصقه أول ملوك القوط . وكان حكم يمتد عبر جبال الألب إلى بانونيا ويتحدر جنويا فى الاحريائى إلى دالمتيا وبلاد الصرب .

على حين كان أياطرة القسطنطينية يمكنون إلى الشرق من مملكة القوط حكاً نابئاً مستقراً . وما برح البلغار حتى ذلك الوقت قبلة مغولية من الرحل راكبة الحيول في منطقة الشوطة . أما الصربيون الآريون فقد المحلووا حديثاً نحو المحنوب إلى شواطئ المحروب الأسود ، إلى المواطن الأصلية القوط الغربين ؛ ولم يكن المجريون ذوو الآرومة المركبة الفلندية ، وصلوا بعد إلى أوربا . وكان اللوصارد نازلن حتى ذلك الوقت في شال الدانوس .

ويمتاز القرن السادس بدور من القوة نفيأنه الإسراطورية الشرقية أثناء حكم الإمبراطورية الشرقية أثناء حكم الإمبراطور چستنيان (٧٧٥ – ٥٦٥) . فاسترحت الإمبراطورية مملكة الوندال عام وطردت القوط من إيطاليا ٥٥٣ م . وما أسرع ما انجدر اللومبارديون إلى إيطاليا على أثر موت جستنيان (٥٦٥) ، فاستقروا في لومبارديا ، على أهم تركوا روما وجنوب إيطاليا وثبال إفريقية تحت حكم الإمبراطورية المشرقية .

ذلك هو الوضع السيامي العالم الذي تطورت فيه فكرة عالم المسيحية Christendom والحق إن الحياة اليوميسة للملك الزمان كانت تتقلب في مستوى خفيض جداً به لا جرم سمن النواسي الجيائية والمدهنية والحلقية . وكثيراً ما يقال إن أوربا قد المحدرت إلى البربرية في القرنين السادس والسابع ، بيد أن هذا لا يعبر عن حقيقة الحال . والأصبح كثيراً أن يقال إن مدنية الإمبر الحلوبية الرومانية قد دخلت في دور المحلال خطئي متطرف . والمدبرية نظام اجيامي ذو طراز أولى ، ولكنه منظم داخل المحلال خطئي متطرف . والمدبرية نظام اجيامي ذو طراز أولى ، ولكنه منظم داخل نطاقه ؛ بيد أن أووبا من دون عزقها السيامي كانت في حالة فوضي اجيامية . ولم تكن معنويات إحدى قرى المتوحشين (Kraai) بجنوب إفريقيا بل معنويات حيى نظير بإحدى المدن . في القرية المتوحشة ، يعرف المتوحش أنه ينتمي إلى مجتمع ، عيشر يوحدى الدن . في القرية المتوحشة ، يعرف المتوحش أنه ينتمي إلى مجتمع ، كان أكبر منه ولا يعمرف مرتبطاً إلى ذلك الكانن .

ولم تستطع المسيحية إلا بغاية البطء والضمف أن تعيد ذلك الإحساس المفقود وأعنى به الإحساس بالمجتمع وأن تعلم الناس أن يلتفوا حول فكرة (عالم المسيحية ي - لقد أصبح البناء الاجهاعي والاقتصادي للإمراطورية الرومانية حطاماً وأشلاء . فإن حضاربا حضارة ثراء وسلطان سياسي يقومان على ما ترسف فيه كتلة البشرية الكبرى من قيود واسترقاق . أجل إنها نجلت في مشهد من الفخامة الظاهرية والكاليات المترفة ، ولكن كان يكمن وراء ذلك المظهر الخارجي النيبل كل ألوان القساوة والغباء والركود ، فكان لا بد لها من أن تتحطم ، وكان لا بد من إذالتها قبل أن يستطيع أن يخلفها ما هو خبر مها .

ولقد سبق أن استرعينا الأنظار إلى موتها اللمعي . إذ أنها لم تنتج في ثلاثة قرون علماً ولا أدباً له آية قيمة . والواقع أن الاستطلاعات للفلصة غير المفرضة والدواقع التقية الصافية لن تجد مجالا يتيح للعالم فلسفة سرنة وعلماً راقياً وفناً منظماً ، إلا حيث يجد رجال ليسوا من الثراء والقوة بحيث يفرون على الإغراق في لللذات. وليسوا فقراء مكلودين يحيث لا يعنون بشيء وراء الحاجة اليومية . على أن بلوتوقراطية مستحيلا . فعندما لا يجد الرجال والتساء أن لم حداً يلتزمونه ولا ضابطاً يكبحهم ، مستحيلا . فعندما لا يجد الرجال والنساء أن لم حداً يلتزمونه ولا ضابطاً يكبحهم ، فإن شواهد التاريخ تدل بأجلى بيان أنهم جمعاً بلا استثناء عرضة لأن يضبحوا وحوشاً عناة في إمناع النص بالملذات ؛ فإن أضناهم الصر وأذنم الشقاء ، لحأوا إلى الأحزان الفاجعة أو إلى القن الموجاء أو فزحوا إلى الدين وما فيه من تقشف وتزمت .

على أنه يخيل إلى أننا ربما جانبنا الصدق حين نقول إن العالم أصبح شقياً تعساً في هذه والعصور المظلمة ع ، التي وصلنا إليها الآن ؛ ويكون أقرب إلى الصدق كثيراً أن نقول إن ذلك الحلناع العنيف السوق الحشن الذي ركبت عليه الإمريالية الرومانية ، ذلك العالم من السياسيين والمغامرين وأرياب الأملاك والماليين، قد هوى ف خضم الموس الذي كانت أمواجه تتلاطم حولم من قبل . ولا يحتى أن معلوماتنا التاريخية عن تلك الأزمان براء نقصة إلى أبعد حد ، فقل أن وجد مكان يستطيع فيه الناس أن يكتبوا ، وقلما كان هناك تضجيع على الكتابة اطلاقاً ؛ ولم يكن هناك ضهان يكفل لأى إنسان سلامة كتاباته أويو كد احيال قراء بها . بيد أننا نعرف عن ذلك العصر قدراً يتبح لنا أن نقول إنه لم يكن بحرد عصر لصوصية وحروب ، بل عصر مجاحة ووياء . إذ لم تظهر في العالم حتى عبر د عصر لصوصية وحروب ، بل عصر مجاحة ووياء . إذ لم تظهر في العالم حتى

ذلك الحين أية هيئة حمية ذات أثر فعال ، ولا بد أن هجرات ذلك الزمان كانت تقضى على كل إجراء صحى يتخذ . فإن تحريب آيلا لشيال إيطاليا لم يوقفه إلا انتشار (٥٠٥) ، كان له أثر كبر في إضعاف دفاع إيطاليا أمام اللومبارد . وفي ١٤٣ مات عشرة آلاف إنسان أن يوم واحد بالقسطنطينية (ويقول جيبون و إن هلا مات عشرة آلاف إنسان في يوم واحد بالقسطنطينية (ويقول جيبون و إن هلا المددكان بحوث كل يوم ٤) . وكانت مراجل الطاعون تغلى وشهد في روما عام ٩٠٠ وكان القرن المسابع كذلك قرنا متكوياً بالطاعون تفلى وشهد في روما عام ٩٠٠ ووكان القرن المسابع كذلك قرنا متكوياً بالطاعون . ويسجل بيد (١٦) (١٩٥٥) الإنجليزي ، وهو أحد الكتاب القليلين في زمانه ، أويئة حدثت في إنجلترة في ١٢٤ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، أي ما لا يقل عن أربعة في مشرين سنة ! ويقرن جيبون الوباء المحسل بالملتب المنظم الذي ظهر عام ٩٠١ ، وبما دهي به العالم أثناء حكم ذلك العاهل من بالملتب المنظم الذي ظهر عام ٩٠١ ، وبما دهي به العالم أثناء حكم ذلك العاهل من حروشها ، وذبل المحصول والعنب على الأرض في كثير من أصفاع إيطاليا ٤ . وهو يدعى حدوث و نقص ظاهر في النوع الإنساني لم يعوض قط في بعض من أجمل أقطاد يدعى حدوث و ندا المكتوب على الأرض في كثير من أصفاع إيطاليا ٤ . وهو الدوع الإنساني لم يعوض قط في بعض من أجمل أقطاد المدنيا ٤ . وقد بدا للكثرين في تلك الأيام السوداء أن كل العلوم وكل ما يحصل المياة مستساغة مقبولة قد أوشك على الزوال .

ومن الحال طينا أن نعرف إلى أى حد كانت العامة أتمس حالا في ظلال هاه القدارة وعدم الاطمئنان مها عمد نظام الإمر اطورية الطاحن. أجل إنه ربما اختلفت الظروف بين مكان وآخر ، فهنا حكم أشرار عنيفين وهناك حرية معتدلة ، وقد تلقى بجاحة في هذه السنة ووفرة خيرات في التي تليا . فلئن كثر اللصوص ، فإن جامعي الضرائب والدائنين قد اختفوا . وإن ملوكاً من أشال ملوك الفرنجة والقوط لم يكونوا في الواقع إلا أطيافا وحكاماً لا سلطان لم على معظم من يصمون برعايام . كانت حياة كل تاحية ترزح في مستوى خفيض ، ليس به إلاالقليل من التجارة والأسفار. وقد يسيطر بعض المقتلدين من الأشخاص على مساحات كبرت أو صغرت من الريف ؟ مدعيا على قدر من الحتى والعدالة يخلف إزيادة وتقصاناً ، تقب لورد أو كونت أو دوق مستعى من تقاللد الإمراطورية المتأخرة أو من لللك . ويقوم هولاء

⁽۱) بید (ح ۱۷۳ ~ ۲۷۰) لاهوتی وطرخ انجلیزی ، سمی بید الموقور . کتب أهمالا علمیة ولاهوتیة وتارغیمیة کتیرة . (المائرجر)

النبلاء الحليين بجمع فرق من الآتياع وبناء معاقل حصينة لأنفسهم . وكثيراً ما كانوا يتخذون لأنفسهم مبانى قديمة يكيفونها وفق حاجتهم . مثال ذلك أن الكولوزيوم (Colosseum) بروما وهو المجتلد الذى طالما شهد حفلات المجالدين ، حول إلى قلمة ، وكذلك حول المسرح المدرج فى آرل . وكلمك أيضاً حولت مقبرة هادريان العظيمة بروما .

وكان يحدث فى المدن والبلدان المهدة التى صارت عند ذلك غير صحية ، أن هيئات صغيرة من مهرة الصناع كانت تتضافر وتخدم بصناعاتها حاجات القرى الزراعية المحيطة بها ، مع وضع أنفسهم فى حماية يعض النبلاء المجاورين .

١٠ ــ خلاص العلوم على يد المسيحية

حلت هيئات الرهبنة : (الديرية) المسيحية التي أخلت تنشأ في العالم الغربي إيان القرنين السادس والسابع ، نصيياً بالغ الأهمية في عملية إعادة التبلور الاجماعي الذي حدث في هدين القرنين بعد ما جرى في الرابع والخامس من التحطم والانصبار .

كانت الأديرة موجودة في العالم قبل ظهور المسيحية . وفي الفترة التي ألم فيها الشقاء الاجتهاعي بالبود قبل زمان يسوع الناصرى، كانتحافافة من النساك الإسينيين (٢) تعيش منزلة في مجتمعات وقد وهبت نفسها لحياة تقتفية من الوحدة والطهود وإتكار الله الله أنشأت البوذية لنفسها مجتمعات من رجال اعتراوا خمرة الجمهود العامة ولتجارة في العالم أن يعيشوا عيش التقشف والثامل . والواقع أن قصة بوذا ، كما سردناها لك ، أبانتأن مثل هذه الفكرات لا بد أنها كانت منظرة في الهند قبل أيامه بزمن بعيد ، وأنه حاد فنهذه وراه ظهره آخر الأمر . ونشأت في زمن مبكر جداً من تاريخ المسيحية حركة مشامة لهله ، تلنكب ما يغمر حياة الناس البومية من منافسة وحمية وشائلة . وفي مصر على وجه الحصوص ، خرجت حضود كبيرة من الرجال والنساء إلى الصحراء ، وهناك عاشوا عيشة حزلة تامة قوامها الصلوات والتأملات ، وظالوا يعيشون في فقر مدقع في الكهوف أو تحت المسخور على الصداقات التي تقذفها

 ⁽١) الإسهيرة : جامة إضاء ديثية بهن الجود الأندمين كانت تميش ميشة شظف انمزائية والملكية پيئها شيرع .
 (الماريم)

إليهم الصدقة من أولئك الفين يتأثمرون بقداسهم ، وربما لم يكن لمثل هذا النوع من حياة الأنفس كبير وزن لدى المؤرخ ــ فإنها لعمرى أنفس مفسحة من الناريخ بحكم طبيعتها ذاتها ــ لولاذلك الاتجاه المذى اتخلته للفور تلك النزعة الديرية (Monasticism) بن الأوريين الأكثر نشاطاً والأميل إلى الناحية العملية .

ويعد القديس بندكت الذي عاش بن سنى ٤٨٠ ، ٤٤٥ من أهم الشخصيات في قصة تطور الديرية في أوربا . ولد في مدينة اسپوليتو (Spoleto) بإيطالبا ، وكان شاباً كريم الأصل جم الكفاية . وقد ألفت عليه أحوال ذلك الزمان ظلالها ، قال إلى الحياة الدينية كا مال بوذا ، وأطلق لتقشفاته المنان في مبدأ الأمر . فهناك على مبعدة حسين ميلا من روما تفع سوبياكو (عدا 20 الا الا الا عن أو الأبور (Anio) عملا من روما تفع سوبياكو (عدا 10 الشجعرات ، كان يقوم قصر مهجور أقامه الإمراطور تحت أجمعة من الأعشاب والشجعرات ، كان يقوم قصر مهجور أقامه الإمراطور و والماله المنافق المن

وكما حدث في حالة بوفا ، فإن قصة بندكت أضيف إلها بفضل تلاميذ له سخفاء بسيطي العقول ، طائفة من سخيف الحكايات القائمة على المعجزات والكرامات . على أننا لا نلبث حتى تجده وقد انصرف عن تعليب النفس ، وأحد يدير مجموعة من اثنى عشر ديراً ، كانت ملاذ عدد كبير من الناس . ويجلب الشباب إليه ليتعلموا على يديه العلم ، وبدأ تغير وجه حياته كلية .

وانتقل من سوبياكو جنوباً للى مونيى كلمينو، وهو جبل في منتصف المسافة بين روما ونابلى ، موحش جميل ، يقوم في وسط دائرة كبيرة من المرتفعات الرائمة. ومن الشائق أن تلحظ أن القسديس وجد هنا في القرن السادس للميلادى ، معبداً لأبولو وأجمة (ا) مقلصة ، كما وجد أن المنطقة الريفية المجاورة ماترال تتعبد في ذلك

⁽¹⁾ الأجمة : الشجر الكثير الملتف . (المدجم)

المعبد. لذا لم يكن بد من أن يبدأ عمله ، بالتبشر لدين المسيح ، فلمتطاع في شيء من المسر أن يقنع الوثنين البسطاء أن بهدموا معبدهم وأن يقطعوا أحتهم . وما لبثت المؤسسة المنشأة على مونى كاسينو أن بلغت حد الشهرة والقوة في حياة مؤسسها ، وإنا المستطيع أن نعرف شيئاً من روح بندكت الحقيقية وإن اختلطت يحتقر حات وطرهات مسخيفة صاغها خيال رهبان مولمين بالعجائب : من أبالسة تتصاع المرق ، وتلاميد يحشون على الماء وأطفال موقى يعودون إلى الحياة . غير أن الأقاصيص التي تمثله يهي عن المطرف في قم النفس وإذلالها ، إنما هي أقاصيص لها منزى ودلالة خاصة . فإنه أرسل رسالة لراهب منهزل اخرع درجة جديدة من الورع بريط نفسه يسلسلة إلى صخرة في غار ضيق ينبط فها من عاماته ويدعوه فها أن يخفف من غلواته ، قال يندكت : وكسر أغلاك ، لأن خادم الله الحقيقي ، لا يغل إلى الصخور بالحديد ،

والمبرة الثانية التي عتاز بها بندكت يهمد مقاومته لتعليب النفس والعزلة ، إصراره على ضرورة الجد في العمل ، وتسطع في ثنايا الأساطير دلائل واضحة تشهد يالشفب الذي أحدثه تلاميله ومريدوه النبلاء ، الذين وجدوا أنفسهم مفسطوين إلى الكلح الشديد بدلا من أن يعيشوا عيش التقشف والبطالة معتمدين على خطعة إخواتهم من أبناء العليقة الدنيا ، والشيء الثالث العجيب حول بندكت هو تقوذه السياسي . فإنه نصب نفسه لإصلاح ذات بن القوط والطلبان ، ومن للمروف أن توتيلا (Totila) ، ملك إبطاليا القوطي ، حضر إليه يطلب مشورته ، وأنه تأثر به تأثراً عظيا . ولما استرجع توتيلا نابل من الإغريق ، صان القوط النساء من كل إهانة وعاملوا حي المحدد المأسورين بالإنسانية . وذلك بيها حدث عندما استولى بليساويوس قائد جستنبان على نفس المكان قبل ذلك بعشر سنوات ، أنه احتفل ينصره بإقامة مليحة عامة

والواقع أن هيئة الرهبنة التي أوجدها بندكت ، كانت بداية حظيمة جداً في العالم الغربي ، ومن بين أتباعه المبرزين البابا جريجورى الكبير (850 ـــ ٣٠٤ م ، وهو أول راهب أصبح بابا (٥٩٠) ؛ وهو من أشد البابارات اقتداراً وهمة وتشاطأً ؛ حيث أرسل بشات تبشرية تكلت جهودها بالتوفيق إلى من لم يعتنقوا للدين المسيحى وعلى الأخص إلى الأنجلوسكسون . وحكم فى روما كأنه ملك مسستقل ، ينظم الجيوش ويعقد المعاهدات . وإلى نفوذه يرجع الفضل فى فرض قواعد المذهب البندكئي وأصوله على كل الرهبنات اللاتينية تقريباً .

ويرتبط كاسيودورس (٤٩٠ -- ٥٨٥) بهلين الاسمين ارتباطًا وثيقًا من حيث تطور الرهبنة (الديرية) من مجرد تعذيب النفس الأناني لَدى النساك الأول ، إلى القيام بدورها في خدمة الحضارة . وواضح أنه كان أسن بكتبر من البابا جريجورى ، ويصغر بندكت بعشر سنوات ، وكان شأن هذين ــ ينتمي إلى أسرة لبيلة من البطارقة ، أسرة سورية استقرت في إيطاليا . قضي مدة كبيرة من حياته موظفاً في خدمة ملوك القوط؛ ولما حدث بين سنتي ١٤٥ ، ٥٥٣ ، أن مهد خلع هولاء الملوك والوباء العظم ، الطريق لحكم اللومبارد البربرى الجديد ، راح يلتمس الملاذ في حيساة الرهبانية ، فأنشأ ديراً على أرض مزارعه الخاصة ، وجعل الرهبان الذين جمهم . يشتغلون على نفس النسق البندكتي تماماً ، وإن كتا لا ندرى هل كان رهبانه يتبعون بالغمل الفواعد والأصول البندكتية التي كانت تصاغ قرابة نفس ذلك الزمان في مونتي كاسينو . ولكن لا يتطوق الشك حول تأثيره على تطور هذا التظام العظم القائم على العمل والثعلم والدراسة . ومن الجلي أنه قد راعه ما زان على التعليم من اتحلال عام واحتمال ضياع كل العلوم والأدب القديم من يد العللم . لذا وجه إعوائه مناه البداية إلى ضرورة حفظ هلمه الأشياء وإعادتها إلى نصابها . فجمع المحطوطات القديمة وأمر بها فنسخت . وقام بصنع المزاوك والســـاعات المائية وما شابيها من أجهزة : وهو قبس ضئيل أخبر للعلم التجرببي حقق هنهة في ثلك الظلمات المتكائفة . وألف كتابًا في تاريخ ملوك القوط ؛ ومن أوضح الدلالات على شعوره عِماجة زمانه ، إصداره سلسلة من الكتب المدوسية عن الفنون الحرة⁽¹⁾ وكتاباً في الأجرومية أعنى قواعد اللغة . والراجح أن سلطانه ، يكاد يرجح سلطان القديس بندكت من حيث جعل الرهبانية أداة قوية لإعادة النظام الاجتماعي في العالم الغربي إلى نصابه .

⁽١) الفنون الحرة (Liberal Aris)؛ هي فروع سينة منالفكر والعلوم الإصانية تعد وسائل لايد سها التنعية الفكرية علل النحو وللمثلق والرياضيات. (المرجم)

وكان انتشار أديرة النظام أو السلك البندكي في القرنين السابع والثامن عظيا جداً. فإنا نجــــدها في كل مكان مركزاً للنور يعبد مستوى الهذيب إلى تصابه ويحافظ عليه ويرفع لواءه ، ويقيم ضرباً من التعلم الأولى ، وينشر فنونا مفيدة ويكثر من عدد الكتب ويحترنها ويصونها ، ويضع أمام أعين العالم صورة ومثالا لعمود فقرى اجتاعى. ومضت قرون ثمانية لبث فيها نظام الأديرة الأوربية مكوناً من رقع بأديرة السندارة في عالم لولا الأديرة فيه لعمته القوضى برمته . وبما يرتبط بأديرة السندارة في عالم لولا الأديرة فيه لعمته القوضى برمته . وبما يرتبط الترون الوسطى . وكانت مدارس العالم الروماني قد زالت زوالا تاما في طوفان الأميار الاجياد المام . ولقد جاء أوان كان عدد قليل جدا من القسيسين في بريطانيا وبلاد الغالم إلى تتعرف بريطانيا نصابه في العالم إلى تتحد في المنام الموسية عملا أبيار الإدبيارية عبد بوصفه عملا إجبارياً يلزم بأدائه عبد عالم ، بل بوصفه الخدمة الدينية لطبقة خاصة من الرجال اللين حبوا أنفسهم عليه .

وحدث فى شرق الإمبراطورية كللك أن تقطع حبل التعلم ، يبد أن السبب هناك لم يكن الاضطراب الاجهاعى قدر ما كان عدم التسامح الدينى ، كما أن الانقطاع لم يكن بأية حال تاما كماحدث فى الغرب. فأقفل جستنيان ما بأثينا من مدارس منكشة ومنحلة ذهنيا وشرد رجالها (٢٩٩ه) . يبد أنه فعل ذلك فى معظم الأمر لكى يقضى على كل منافس المدرسة الجديدة التى كان يقيمها فى القسطنطينية والتى كانت عجب الرقابة الإمبراطورية المباشرة أكثر من المدارس الأخرى .

ولما لم تكن للعلوم اللاتينية الجديدة في الجامعات الغربية الناشئة كتب دراسية ولا أدب خاص بها ، فلها اضطرت بالرغم من تحزبها اللاهوتي القوى لنقيض ذلك ، أن تعتمد اعياداً كبيراً على الأدب اللاتيني (الكلاسيكي) القديم وعلى الترجمات اللاتينية للأدب الإغربتي . وبدلك اضطرت أن تحافظ على قدر من ذلك الأدب الفاحر يعظم كدرا ما كانت تود أن تحتفظ به

١١ – الفن البزنطي

مند أن نقلت حاضرة الإمراطورية إلى الشرق ألى إلى يعزنطة ، يظهر في الدالم طراز جديد من الله المجارى وروح فنية جديدة ، هو الطراز الينزنطى . وبليم ذاك الله مدجة حالية من التطور إبان حكم الإمراطور چستيان (٥٣٧ – ٥٣٥) وستحدثك عنه في الفصل التالى . ثم انحط ثانية وعاد فارتفع إلى أوج جديد في البحرن الحادى حشر . وهو لا يبرح إلى يومنا هذا تراثاً فنياً حياً في شرق أوربا . وهو يعبر عما جامت به المسيحية الرسمية الجديدة من قيود ودوافع . وقد أفرض فيه التقاليد الكلاسيكية المهات الشرقية ، وغاصة بعض النزعات للصرية والنارسية .

ومن بين ما تخص به زخوفته من خصائص احتواؤها على تدر مين من المصلابة . وقد ذهب كل ما كان يحتويه التصوير والنحت الإغربي والروماني من مرونة ، وظهر في مكانها فسيفساه (Mosales) تحمل أشكالا مسطحة سيترية التصوير متصبة في مواجهة تامة . ولا تكاد تجد البتة وسما جانيا (Profile) ولا أي موضع الملائمة وشيئاً يحتى شره . ومن ثم يلغ ذلك الفن وقاراً عظها رصيناً . نجدو صور الرب الحالق والمدراء والمطفل والقديسين العظام ، الضخمة المستوحة من القسيفساء ، محمنة في التمكر ، وهي تطل على المشاهدين من علياء القباب العظيمة الى هي موضوعة فيها . وتجلت نفس بملك الصلابة الوهاجة في التصوير وتحلة الكتب بالصور ، والمحمد في التحديد من الناحة الأعرى ، واستبدلت الأشكال الحسدة (أي الخائيل) بينوافل شبكية عفورة . وكانت أشغال الذهب بإنوافل شبكية عفورة . وكانت أشغال الذهب

⁽¹⁾ وهو ما يسمى يقصوص اللعب أو السليزل . (المترجم)

 ⁽٣) التقصير (Foreshortening): تمثيل المظور بحيث تقمر أن للغاهر الحلوط الداقط.
 (١١/١٠) التقصير (المارج)

والفضة والميناء تعمل بإنقان لم يسبق له مثيل . وغالبًا ماكانت مصنوعات النسيج المستجلبة من الشرق ذات رسوم فارسية لا ليس فيها . ولم تلبث التأثيرات الإسلامية حتى ظهرت على المسرح قاضية على كل شكل يمثّل الأجسام قضاء أتم وأكمل .

وكذلك أصبحت المرسيق ضحمة ولها شأبها. وكانت موسيق القرون المسيحة الأولى أقرب إلى التبتل والحاسة مها إلى الإتقان والصقل ، وهي تبهل من منابع وسامية ء أكثر مها و هلينية ، . فأما الموسيق الدنيوية فحظورة حظراً تاماً . فقد قال القديس جدوم وإن الفتاة المسيحة يجب ألا تعرف ما هو اللار أو التاى ع . فأما ترتيل المترامر وعزفها على الآلات ، فشيء نقله المسيحيون من الصلوات البودية ، وقصر قمراً يتراوح زيادة ونقصاناً على الحوقات (الكورس) المنظمة . وكان الترتيل التجاوي موسيقية موحدة المصوت والطيقة وخلك لأن التوزيع الغناقي (Antiphonal) لم يكن قد اخترع بعد . وكان إنشاد التراتيل متفساً عظيا ينفس عن المواطف المكبوتة . فظهر وفير من التراتيل في اللغتين اليونانية واللاتينية . ويقال إن بعضها لا يزال باقياً في توابل موجودة إلى وقتنا هلما . وقد وضع القديس جريجوري (جريجوري الكبر) ، تراتيل موجودة إلى وقتنا هلما . وقد وضع القديس جريجوري (جريجوري الكبر) ، خلك المناخ المنظم المغلم الكنيسة ، اللذي لدينا عنه مزيد من القول تحدثك به في فصل تال ،

الفيرل آباسع ولعيرزن

تاديخ آسيا أثناء انحلال الامبراطوريتين الغرية والبيزنطية

١ - چستنيان الكبير ١٠ ١ - الإمبر اطورية السامانية في قارس ،

٣ - المسعلالدسوديا في عهد الساسانيين. ٤ - أول رسالة من الإسلام.

ه – ژرادشت ومانی ً ، الشعوب الهونية ني آسيا الوسطي وبلاد الهند ً.

٧ - أسرتا وهان وثالج ۽ بالصين . ٨ - أغلال المين اللهنية .

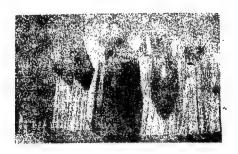
٩ -- الفن المبئى القدم .
 ١٥ -- رحادت يوان تشرائيج .

١_ چستنيان الكبر٥١

ركزنا الفئاتنا في الفصلين السابقين بصفة رايسية على ما حدث في فيرة قصيرة تسبياً قوامها أربعة قرون من البيار النظام السياسي والاجتاعي في القسم الغربي من الإمراطورية الرومانية المطيمة : إمراطورية قيمر وتراجان ، ولم يفتنا أن نيم النظر ذلك الإمبيار والإفاضة في يلموغه اللروة . ولا مراء أن أي فرد ذكي الفؤاد عوى الروح من ، يعيش في زمان القديس بندكت أوكاسيودورسي وفي نفس ظروف حياتهما ، حكان يحيل إليه أن الحفارة قد أخذ ضياؤها يحبو وآذنت شمسها بالمغيب . على أن النظرة الأرحب التي تليحها لنا دراسة التاريخ العام ، تعلوع لنا أن نستعرض قرون الظلال هذه يوصفها دورا – ولمله كان دورا ضروريا – من أدوار تقدم الفكرات والمقاهم الاجهاعية والسياسية في انطلاقها إلى ضروريا – من أدوار تقدم الفكرات والمقاهم الاجهاعية والسياسية في انطلاقها إلى صدر أوربا الغربية ، فلا بد لنا من أن يتحال ذلك أن أجزاء عظيمة من العلم لم يلم حيا أي تقهقر ولا انحطاط .

 ⁽١) من شاء استرادة في تاريخ ذلك الإمبراطورانمايه أن يقرأ السترج كتاب و الحضارة البيز نطبة »
 تأليف استيفن رانسيان (مجموعة الألف كتاب ومكبة النهشة للصرية) . (للترجم)
 (٢) حموى الروح Public spirited مو من يخدم النير بدافع من حب للمسلحة العامة وهو المنزى الروح كما أسلفنا في هامش صايق . (المترجم)

ويجنح الكتاب الأوربيون ، بسبب انشغال بالهم الدائم بالدولة الرومانية الغربية وسيطرتها على أفكارهم ، إلى الإسراف في الميل إلى التقليل من شأن تماسك الإمراطورية الشرقية التي كان مركزها القسطنطينية . وغنى عن البيان أن تلك الإمراطورية كانت لها تقاليد أقدم يكثير من تقاليد روما . فلو أن القارى نظر إلى الخريطة التي تبن مدى اتساعها في القرن السادس ، ولو أنه تأمل أن لغنها الرسمية كانت أصبحت آنذاك يونانية ، لأحرك أن ما نعالجة هنا ، إنما هو فرع الرسمية كانت أصبحت آنذاك يونانية ، لأحرك أن ما نعالجة هنا ، إنما هو فرع



(شكل ١٣٢) صورة بالفسيفساء ليستنيان وبلاطه

من الإمراطورية الرومانية بالاسم فقط . إذ الواقع أسها هي الإمراطورية المثانية التي طلما حلم بها « هرودوت » ، والتي أسمها الإسكنار الأكر . حقا إنها كانت تدعو نفسها « الرومانية » وتدعو سكانها « رومانا» (١) ، ولا تزال اللمة الونانية العصرية تسمى إلى يومنا هذا بالرومية (Romaie) . وحقاأن قسطنطين الكبر كان ضليل الحظ من اليونانية وأن لهجة چستيان في نطقها كانت رديئة . الكبر كان ضليل الحظ من اليونانية وأن لهجة چستيان في نطقها كانت رديئة . على أن هذه الأمور السطحية المتعلقة بالاسم والشكل لا تستطيع أن تغير الواقع ، وجو أن الإمبر اطورية كانت في حقيقها هلينية ، لها في زمن قسطنطين الكبير ماض من

⁽١) ويسميها العرب بدنولة الروم . (المترجم)

ستة قرون ، وأنه على حين تقلصت الإسراطورية الرومانية اللاتينية تقلصاً كاملا في مدى أربعة قرون ، فإن هذه الإسراطورية الرومانية الهلينية قد صمدت أكثر من أحسد عشر قرناً من ٣٦٧عند ابتداء حكم قسطنطين الكبر إلى ١٤٥٣ ، عند ما سقطت القسطنطينية في يد الأنزاك العمانيين

وعلى حن اضطررنا أن عينتك عن حدوث ما يشبه الاجيار الاجيامي الكامل في الغرب ، فلم يحدث في الشرق اجبيار بماثل لذاك . فازدهرت المدن والبلدان وتقدمت الزراعة في المناطق الريفية وتواصل رواج التجارة . وظلت القسطنطينية قرونا عديدة أعظم وأغي مدينة في العالم . ولن تشغل أنفسنا ها هنا بأسماه أباطرتها المتعاقبين وحماقاتهم وجواعهم ومؤامراتهم . فلهم شأن معظم ملوك الدول العظيمة ، في يحونوا ليوجهوا لمعراطوريهم ، بل هي التي كانت تنفعهم دفعاً . ولفد مبتى أن عالجنا في شيء من الإمهاب موضوع قسطنطين الكبر (٣١٧ – ٣١٧) . وذكرنا ثيودوسيوس الكبر (٣٧٧ – ٣٧٠) ، الذي وحد الإمراطورية لفرة يسرة ، ثيودوسيوس الكبر (٣٧٠ – ٣٧٠) ، الذي وحد الإمراطورية لفرة يسرة ، وذكرنا جاتها الأول (٣٧٥ – ٣١٥) . وسنذكر لك من فورنا شيئاً عن هرقل و ٣٠٠) .

ولعل چستيان كان كتسطيطن يحمل ف عروقه دماً سلاقياً كان رجلا واسع الطموح ذا قدرة عظيمة على التنظيم ، ومن حسن حظه أن تزوج امرأة ذات مقدرة معادلة لقدرته إن لم تفقها ، وهي الإسراطورة ثيودورا ، الى كانت في صباها المقدرة . على أن غاولاته الطموحة لاسرداد عظمة الإسراطورية القديمة ، أقتلت فيا يرجع مواردها بالفرائب (⁽¹⁾). ولقد أسلفنا إليك أنه استرد الولاية الإيقية من الوندال واستعاد معظم إيطاليا من القوط . كذلك اسرد جنوب أسهانيا . وبي الكنيسة العظيمة الجميلة كنيسة القديسة صوفها بالقسطنطية ، وأسس جامعة وجمع القوانين . بيد أننا يجب أن نضع إلى جوار هذا إقفائه مدارس أثينا . ولكن اجتاح العالم في زمانه طاعون عظم ، وأبارت بموته قلك الإمراطورية الموسعة المجددة كما تهار مثانة قفحت بالهواء إذا وخرها دبوس . فذهب القسم الأكر من المجددة كما تهار قلك الرمان إلى الله الزيطالية إلى أيدى اللومبارد ، وتذكر هنا أن إيطاليا تحولت في ذلك الزمان إلى الم

 ⁽١) من المزيد من تاريخ هلد الحقبة ، انظر كتاب وميادد العصور الوسطى و تأليف موص وترجة المرجم (الألف كتاب ومكتبة عالم الكتب) .

صحراء أو ما يشبه الصحراء . ذلك أن مورخى اللومبارديين يؤكنون أنهم نزلوا فى قطر خال من الناس . وانحدر الآفار والصقالة (السلاف) يعينون فساداً من أرضو المدانوب إلى الأدرياتى ، وأحذ أقوام من الصقالة يستقرون فيا هو الآنصربياً وكرو اتياً ودالماتيا ، فأصبحوا يوخوسلاف هذا الزمان . وفضلا عن ذلك فإن نزاعاً عظيماً مضليًا نشب بين الإمبراطورية وبن الساسانين فى فاوس .

ولكن يجدر بنا قبل أن نقول شيئاً هن هــذا الكفاح ، الذي أوشك فيه الفرس ثلاث مرات أن ينزعوا التسلطينية ، والذي كان العامل الفاصل فيه هزيمة الفرس العظيمة قرب تبنوى (٦٧٧) ، يجدر بنا أن نلخص بغاية الإيجاز تاريخ بلاد الفرسي منذ أيام الهارثين .

٧ ــ الإمبر اطورية الساسانية في فارس

صبق أن عقدنا موازنة بن القرون الأربعة الوجزة الى عاشها الإمهريالية الرومانية وبين الحيوية المنيسدة لإمهريالية إقلم دجلة والقرات. وألفينا نظرة عجل على الملكيتين المبنية الباكرية() والسلوقية المهلمية التين الزدهر تا مدة ثلاثة قرون في النصف الشرق مما هزاه الإسكند من بلاد. وأخبر فاك كيف هبط الهارثيون أرض الجزيرة في القرن الأخسير ق. م. ووصفنا لك معركة كاراى (Carrhae) المؤرنية كرسوس. ومنذ ذلك الحين في بعده بقرنين ونصف استمرت أمرة الأوشكيين الهزية تحكم في الشرق بيها حكمت الدولة الرومانية في الغرب ، على حين قصلت بيهما أرمينية وسوريا ، وكانت الحدود تنتقل شرقاً أو غرباً تبعاً لزيادة قوة أحد الطرفن على الآخر. وخطفانا أقصى امتداد بلغته الإمبر اطورية الرومانية شرقاً في عهد تراجان (انظر الحريطة (112) المرافقة الفصل ٢٧ القسم الأول ص ٢١١ ج ٢) ، كالمك لاحظنا أن و المندو إسكليين المعادي (الفصل ٢٧ - القسم الحامس) .

وشبت ثورة في ۲۲۲ ، وحلت محل الأسرة الأرشكية أسرة جديدة أقوى مسها هي الساسائية ، وهي أسرة فارسية قومية برأسها أردشعر الأول . وكانت إسر اطورية

⁽١) يلخ (بقرًّا) : وهي ما تسمى الآن باكتريا : كانت ملتق الحضارة الهندية وخيرها . (المترجم)

أردشير الأول ذات مشامة عجيبة من وجهة واحدة بإسراطورية قسطنطن الكبير يعد ذلك يمثة سنة . ذلك بأن أردشير حاول أن يقوى أواصر نماسكها بأن اهتم بالوحمة اللديقية وأصر عليها وانخذ من عقيدة زرادشت الفارسية القديمة ديانة رسمية للبلاد ٤ وسنذكر المزيد عها فيا بعد .

و تحولت هذه الإمراطورية الساسانية الجديدة من فورها إلى العلوان ، فاستولت على أنطاكية (Antioch) في حكم شابور الأول ابن أردشسير وخلفه. وقد ذكرةا من قبل كيف هزم الإمراطور قالمريان (٢٦٠) وأخذ أسرا . على أنه بينا كان شابور عائداً من حرب مظفرة في آسيا الصسخرى ، إذ انقض عليه أذينة وهزمه ، وأذينة (Odenathus) هذا ملك عربي على مركز تجارى عظم في الصحراء هو تدمر (Palmyra).

وقد ظلت تدمر زماناً قصيراً في عهد أذينة ، ثم في أيام أرملته الزباء (Zenobia) ، دولة ضخمة تمتد كالإسفين بين الإسرطوريتين . ثم سقطت في يد الإسراطور أوريليان الذي حمل الزياء مكبلة بالأصفاد لتكون في روما آنة فخار لنصره (۲۷۲) .

ولسنا يمحاولين أن نقفو تقلبات الحظ بالساسانين أثناء القرون الثلاثة التالية . ففي طوال ذلك الزمان الهكت حروب فارس وإمر اطورية القسطنطينية بلاد آسيا الصغرى إلماك الحمى . وانتشرت السيحية انشاراً واسعاً ولكما كانت موضع الاضطهاد ، إذ أنه بعد أن تنصرت روما لم يعد على الأرض من ملك يدعى الربوبية غير العاهل القارسي ، فرأى في المسيحية بجرد دعاية لنافسه البزنعلى ، وأصبحت القسطنطينية حامية المسيحين ، وأضبحت فارس حامية الزرادشتيين ، ويمقتضي معاهدة صفدت بين الطرفين ٢٤٧ قبلت إحدى الإمبراطوريتين أن تتسامح مع الزرادشتية على أن تتسامح الأخرى مع النصرانية . وفي ١٨٧ انفصل نصارى الشرق عن الكنيسة الأرثوذ كسية وكونوا الكنيسة الفسطورية ، التي نشرت ـــ كما سيق أن ذكرنا ـــ مبشريها في كل أنفاء آسيا الوسطى والشرقية . ولما كان انفصال هذه الكنيسة عن أوربا

قد حور الأساقفة النصارى فى الشرق من سيطرة البطاركة البيزنطيين ، ويذا أزال عن كاهل الكنيسة النسطورية ما كان يحوم حول ولائها السياسي من شهات ، فإنه أنت إلى تسامح تام مع المسيحية فى بلاد فارس .

وابتدأ محكم كسرى الأول (٣١٥ – ٧٩٩) الملقب أنوشران كنو عهود القوة الساسانية . كان معاصراً لحسنيان وعديلا مكافئاً له . فأصلح نظام الضرائب وأعد الزرادشية السلفية الحقة ، ومد سلطانه على جنوب بلاد العرب (اليمن) ، التي أنقلها من حكم نصارى الحبيثة ، ودفع بتخرمه الشالية حتى التركستان الغرية ، وماض سلسلة من الحروب مع چستيان . وبلفت شهرته يوصفه حاكماً مستنيراً ثينا . إذ التسوا فيه الملك الفيلسوف – ذلك السراب الذي أمعن كتفوشيوس وأفلاطون في المحث عنه في زمانهما كما سبق أن ألمنا . ولكن الفلاسفة وجدوا جو الزرادشية السلفية أقل ملاممة الأذواقهم من جو المسيحية السلفية . وفي ١٤٥ ترفق كسرى مهم بأن أدخل في هدنة عقدها مع چستيان فقرة تبيح لهم المودة الى بلاد الروم ، وتستوثن أنهم لن يضارهم أحد بسبب فلسفتهم الوثئية أو بسبب الحكيم الذي قيم المودة الحكيم الذي قيم المهردة .

وإنا لنسم فى أيام كسرى أنوشروان لأول مرة عن شعب هونى جديد فى آسيا الوسطى ، هم الأثراك اللّـين دخلوا فيا نعلم فى عمالفة معه أولا ثم مم التسطنطينية .

 أظهر نحوها جيبون الذيء القليل من الاحرام(١) . وف ١٩٦٩ فتح كسرى الثانى مصر ذلك القطر الهين اللين . وأخيراً أوقف الامراطور هرقل (١٦٠) ، هذه الحياة المليثة بالفتوح عند حدّها ، حيث شرع يسرجع قوة القسطنطية المسكرية المسطمة . وظل ردحاً من الزمن يتجنب الدخول في معركة كبرة أثناء جمعة قواته . ثم تفدم لمل الميدان بكل جد ف ٣٢٧ . فلتي الفرس على يديه سلسلة من الهزائم كالمت بمعركة نينوى (٢٢٧) ، ولكن أحدا من الطرفين لم يبلغ من القوة مبلغ يتبح له أن ميزم خصمه هزيمة ماحقة قاضية . فلما أشرف الكفاح على نهايته ، كان هناك جيش فارسي على ضفاف المسقور لم ميزم ، وذلك رخم وجود قوات كان هناك حقيق الموزية .

وف ١٣٨ خلع ابن كسرى الثانى أباه وقتله . وتم صلح غير حاسم بين الإسراطوريتين المنهكي القوى بعد ذلك بعام أو ما يقاريه ، وبه رجعت لكل من الطرفين حدوده القديمة ؛ وأعيد الصليب الحقيقي إلى هرقل ، فأرجعه إلى أورشليم محوطاً بجو من الفخامة والحفارة .

٣ ـ اضمحلال سوريا في عهد الساسانيين

على هذه الشاكلة ، نقدم إليك في إيجاز أمم الأحداث في تاريخ الإمراطورية الفارسية والبرنطية على السواء . يبد أن الشيء اللى سمنا ويلد لنا ويعسر مع ذلك تسجيله هو تلك التغيرات التي توالت على حياة السكان عامة في هاتين الإمراطوريتين العظيمتين أثناء ذلك الزمان . ولا يجد كاتب هده السطور شيئاً مقطوعاً بصحته إلا النزر اليسر في حديث تلك الأوبئة المظيمة التي نعام أنها اجتاحت العالم في الفرنين الثافي والسادس من هده الحقية . ومن الهفتي أن تلك الأوبئة أفنت السكان ، والراجع أنها أهددت النظام الاجياعي في تلك المناطق على نفس النحو الذي نعرف أنها أحدثته في الإمراطوريتن الرومانية والعمينية .

وقد دبيج المرحوم السير مارك سايكس (الذي جاءت وفاته في غير الأوان في

The Decline & Pall of the المستعدل الإبراطورية الرومانية وسقوطها Roman Empire القصل الثالث والشرون.

باربس أثناء وياء الانفلونزا سنة ١٩١٩ ، خسارة لا تعوض على بربطانيا العظمي) في كابه و آخر ميرات الملفة و كابه و آخر ميرات الملفة و كابه و آخر ميرات الملفة و أخداث آسيا الغربية أثناء الفترة التي نمن بصددها و قال متحدثاً عن الفرون الأولى التي افتحت بها الحقية الحالية ، و أصبح توجيه الإدارة العسكرية والمالية في الإمبراطورية منزلا في أذهان الناس عن الناحية العملية للحكم انعزالا والحانين والمتوهن والطغاة والسكيرين والمتوهن والطغاة والمانين والمتوهن والطغاة والمانين والمتوهن واللهاء الحليات ، الذين كانوا يتولون زمام الحكم من وقت إلى آخر ، فإن أرض المزيرة وبايل وصوريا كانت تحوى عددا هائلا من السكان ، وبها قنوات وسلود ضخمة تحظى بالصيانة المستمرة ، كذلك وبالرغ من التنيير المستمرة ، بالرغ من زحف الميوش المادية اللانهائي ذهاياً وجيئة وبالرغ من التغيير المستمرة ، بالرغ من زحف الميوش المادية اللانهائي ذهاياً وجيئة في المدينة التي يقبعها ؛ كما أن اهمام كل مواطن كان موجها إلى تقدم مديئته وطدها ؛ كما أن دعول جيش معاد ربما كان أمرا ينظر إليه في بعض الأحايين عليه محققا .

و ولا بد أن غارات أهل الثال (٢) كانت من الناحية الأخرى مثار اللدم و الهلع ، إذ كان لا بد القرويين حينسلاك أن يعتصموا خلف أسوار المدن ، ومن هناك كانوا يستطيعون أن يبصروا المدخان اللدى يدل على ما ينزله المرحل بممتلكاتهم من تدمر وإتلاف . وما دامت القنوات لم تمسها يد المدمرين (والواقع أنها بنيت في متانة وحيطة تضمنان سلامها) ، لم يكن هناك ضرو يستمصى على الإصلاح .

على أن حالة الحياة فى أرمينية وبلاد پنطئس كانت نحالفة لهذه تمام المخالفة . [ذ كانت تلك البلاد مناطق جيلية تعمرها قبائل شرسة على رأسها نبلاء أقوياء من الوطنيين . تحت ملوك بيدهم مقاليد الحكم ، على حين كان المزارع المسالم فى الوديان والسهول يقدم الموارد الاقتصادية الفرورية وكانت كيليكيا وكايادوكيا خاضمتين

⁽١) أي الطور انهين من القركستان أو الآثار من القوقاز . (المؤلف)

تمام الحضوع لسلطان الروم ، وقد احتوتا على ملن عديدة غنة راقية الحضارة ، فضلا عن امتلاكهما لمحرية تجاوية ضحفه . وإذا نحن انتقلنا من كيليكيا إلى الدونيل ، أنفينا ساحل المبحر المحوسط مزدهاً بالمدن الرية والمستعمرات اليونانية ، وهي الخلطة تماماً فكراً ولغة ، مع تجلى روح الرغبة في الاستقلال والنزعات المحلية ، تلك الروح الى تبدو قطمة من طبيعة الحكان اليوناني . وكانت المنطقة اليونانية تمتد من كاريا إلى البسفور، وتحضى بهذاء الساحل حي سينوب على البحر الأسود ، حيث تأخذ في الانهاء تدريمياً.



(شكل ١٢٣) غريطة الإمبر الحورية الشرقية وإمبر اطورية الساسانيين

و وتجزأت سوريا إلى أجزاء صجية نشبه ستاراً متعدد الرقاع من الإمارات والمدن الملكية ، تبدأ فى الشيال بدولي كوماچين والرها (Edessa) الما شبه الهمجيتين . والى المحتوب منهان كانت بامبيكي (مبوج) (Bambyce) بمابدها الفضة وحكامها الكهنة . والى قاحية الساحل كان يتجمع عمد كثيف من السكان حول المدن المستقلة : أنطاكية وأياميا وحصى (Emesa) ، على حين كانت هناك فى العربة مدينة بالمبرا (تدمر) السامية التجارية العظيمة ، التي أخلت ترق مدارج الشهرة والعظمة بوصفها أرض

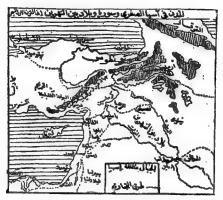
⁽ ١) ومكانها الآن مدينة أورفه بقركيا . (القرجم)

التبادل التجارى المحايدة بن پارٹيا وروما . وإنا لنجد بين جبال لبنان ولبنان الحلفية مدينة بطبك (هليوپوليس) وهي في أوج مجدها ، وما تزال بقاياها المحطمة تأخذ حتى الآن بمجامع إعجابنا . . . فلو عرجنا نحو الجليل وجدنا المدن العجيبة جرّش (Gerasa) وفلادلفيا (عمان) وهما متصلتان بطرق صلبة من الحجر ومزودتان بسقايات مائية (⁽¹⁾ هائلة . ولا تزال سوريا غنيــة بخرائب دلك العصر وبقاياه إلى حد لايصعب علينا معه أن نرمم لأنفسنا عن حضارتها صورة حبة . ذلك أن فنون الإغريق التي أدخلت إلى البلاد من أجل بعيد ، قد تطورت إلى درجة من الفخامة قاربت حد الابتذال السوق. فإن جزالة الحليات والإسراف في التفقة والمباهاة بالثراء لتدل جيماً على أن أذواق السامين الشهويين ذوى الروح الفنية كانت آنذاك على ما هي عليه الآن . ولقد وقفت يوماً في أبهاء الأعمدة بتدمر وتغديت يوماً آخر في فندق سيسل ، ولولا أن الثاني مبنى من الحديد الملطخ بالحشب والحص الزائف والمموه بالذهب الزائف والقطيفة الزائفة والحجر الزائف ، لتوهمت أن تأثير هذا هو نفس تأثير ذاك. أما سوريا فكان مها جموع وفيرة من الأرقاء تكنى لإقامة مبان حقيقية ، غير أن الروح الفنية بها بلغت من الوضاعة دركاً يماثل ما تخرجه الآلات . فأما في غير المدن ، فلا بد أن سكان القرى كانوا يتخلون مساكنهم بطريقة تدانى ما يفعلونه الآن حيث ببنون جدراتها من الطن والحجر العاري . على حن أنه في المراعي البعيدة في الخارج ، كان البدو يرعون قطعانهم بملء حريبهم تحت حكم ملوك التبط (Nabateau) من بني جلدتهم .، أو يقومون بوظيفة الحراسة والوساطة في القوافل التجارية العظيمة .

ومن وراء الرعاة وأرضهم تمتد الفاوات اللاضحة ، وتقوم بدور التخوم والحصون المنبعة التي تدفع الشير عن الإسراطورية الهارثية خلف هم الفرات حيث تقف مدن عظيمة من أمثال طيشفون (المدائن) وسلوقيا وهاترا ونصيدن وحوران ومثات أشرى من الملدن ، نسى الناس مها حتى عبود أسمالها . كانت هسلمه المدن العظيمة تعيش على ما تغله أرض الجزيرة من وفرة هاتلة من الحبوب . وكانت تروى آنذاك بالقنوات التي

 ⁽¹⁾ السقايات المائية (Aqueducta) هي قدرات سينية فوق مقود مائية لنقل الماء داخل المدن وهي شيبية بمجرى السيون المرجود بمنطقة في الحلمج بالقاهرة . (المترجم)

 ⁽٢) النبط ، شعب عربي كان يسكن ألقهم الشجال من بلاد الدرب في مديع الدولة الأردنية الآن .
 (المترج)



(شكل ١٣٤) خريطة المدن في آسيا الصغرى وسوريا وبلاد بين النهرين (في المفرن الأول المسيحي)

توارت أسماء منشئها - حتى فى تلك الأيام - فى غيابات الماضى السعيق . وكانت بابل ونينوى قد درستا من الوجود . على حين أعلى خلفاء فارس ومقدونها مكامهم لهارثها . بيد أن الناس والزراعة كانوا كما هم لم يتقد فهم شيء عما كان عليه الحال عند ما أخضع البلاد قورش الفاتح لأول مرة . وكانت لفت كثير من الملدن الإغريقية ، حتى لربما انتقد مواطنو سلوقيا المثقفون فلسفات ألينا وملسها (تراجيدياتها) . على أن الملاين من السكان الزراع كانوا لا يعرفون عن هذه الأمور مها يحتمل أكثر مما يعرفه كثير من فلاحى مقاطعة إسكس اليوم عما يجرى في العاصمة الريطانية » .

وعلى القارئ أن يقارن هذا كله بالأحوال السارية في بهاية القرن السابع . و وكانت سوريا عند ذاك أرضاً فقترة منكوبة . ولا بدأن مدسها العظيمة ، وإن كانت لا ترال آملة بالسكان ، قد تكاثرت فها الحراث التي لم تكن الموارد المالية العامة كافية الإزائيا ، ولم تكن دمشق وأورشليم نفساهما أفاقتا مما أصابهما من ويلات الحصارات الطويلة الفظيعة ، وانحطت عمان وجيرش إلى مصاف القوى الصحة تحت سلطة البدو وسيادتهم . ولعل حوران كانت لا تزال على شيء من حلائل الرخاء الذي اشهرت به أيام تراجان . بيد أن مباى ذلك الزمان التحمة وكتاباته الحشفة التي تموزها البراعة تشير جيعاً إلى اضمحلال عزن موثم ، وهناك في وصط رمال الصحراء ، كانت تدمر تقف خاوية موحشة اللهم إلا من حامية تقيم في قلعتها . الصحراء ، كانت تدمر تقف خان هناك لقديم التجارة والأعمال والثروة ظل لا يزال مفاهداً ، فأما في الشهال فلا بد أن الحراب والدمار والإنقار والوحشة كانت الحالة التي تم أراضها التي ظلت يغير عليا المغيرون بانتظام لا يفتر طوال منة ، كما تملكا عدو لما مدة خسة عشر عاماً . ولا يد أن قد انحطت الزراعة وقل "السكان قلة ملموسة بسبب تماقب الطاعون والهن وصبهما العذاب علها ألونا .

و وهوت كاپادوكيا إلى درك الهمجية على درجات غير محسوسة . وسويت بسطح الأرض الكتائس العظيمة (البازيليك) والمدن الكبيرة التي لم يستطع الريفيون البسطاء أن يصلحوها ولا أن يعيدوها إلى سابق عهدها . وطفقت الجيوش الفاوسية تلرح شبه جزيرة الأتاضول طولا وعرضاً ولهك الحرث والنسل ، على حين تعرضت المدن العظيمة للسلب والنب ع .

٤ ــ أولى رسالة من الإسلام

حدث عندما كان هرقل مضولا بإعادة النظام فى سوريا هذه المقفرة المتكوبة بعد وفاة كسرى الثانى أبروبز وقبل عقد الصلح النهائى مع فارس ، أن أحضرت إليه رسالة غرية . وكان حاملها قد دفعها إلى عفر إمبراطورى أملى فى البرية الممتدة إلى الجنوب من دمشق . وكانت الرسالة بالعربية ، وهى اللغة السامية غير المعروقة ، لفة الشعوب المترحلة فى الصحراء الجنوبية . ولعل الإمبراطور لم يصل إلى علمه إلا تأويل المراحدة والاستيزاء . فا الصحواء والاستيزاء .

كانت تحديًا غربيًا بليغًا من شخص يدعونفسه باسم 3 محمد نبي الله ع. وكان محمد (عليه الصلاة والسلام) على ما يظهر ، يدعو هرقل أن يمترف بالإله الواحد الحق وأن يقوم على خدمته وعيادته . ولم يكن في الوثيقة بعد هذا أي ثبيء تخر محدد ،

وليس هناك سنجل اثبت فيه تسلم هذه الرسالة ، ويغلب على الظن أنها ذهبت دون رد . والراجح أن الإمبراطور هز كتفيه ، في شيء من التفكم(١) بهذه الحادثة .

بيد أن من فى المدائن كانوا يعرفون من محمد قدراً أكبر . إذ قالوا حده _ إفكاً وبهتاناً _ إنه نبى مقلق كلاب [كذا ! ! ؟ . .] ، حرض الهن ، وهى الولاية الفنية فى جنوب بلاد العرب ، على الثورة على « ملك الملوك » الفارسى . وكان الملك قباذ مثقل المائق بالأعمال . فقد خلع أباه كسرى الثانى أبرويز وقتله ، وأخد يحلول أن يعيد تنظيم القوات المسكرية الفارسية . وإليه كذلك جامت رسالة تطابق تمك الموسلة إلى هرقل . فأغضبه ذلك الأمر . فزق الرسالة وأتى جا فى وجه حاملها — وأمره بالانصراف .

ولما أن نبي " النبي (صلى الله عليه وسلم) بذلك ، وهو في بلدته النائية الصغيرة المتواضعة « المدينة » ، غضب خضباً شديداً وصاح قائلا : • اللهم مزق ملكه شرتمزق » (٣٢٨ م) .

⁽۱) ذكر ابن هنام في ميرت أن النبي سل الله طبه وسلم بعث دسية بن خليفة الكلبي ومعه كتاب إلى هرقل . وأضاف ابن سعد في الطبقات الكبري قال : وبعث رسول الله طبه وسلم وسهة ابن خليفة الكابي إلى قوصر يدموه إلى الإسلام ، وكتب معه كتاباً وأمره أن ينفه إلى طفع بعمري ليلغه إلى طفع بعمري إليه وهو يومئة بحصر ، وقيصر يومئة ماثن في غلا كان طبه إن ظهوت الروم على فارس أن يحفي سافياً من تستطيفية إلى إيلها (القانس) ، فقراً الكتاب وأفق طبلا قررم في حدكرة له بحصر ، فقال الكتاب وأفق طبلا قررم في حدكرة له بحصر ، فقال : و يا معشر الروم على كم في الفلاح والرقمة ، وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال مبين بن مرم ؟ » قالت الروم : و وما غاك أبها الملك ؟ ه قال و تتبعون ما البيس العرب قال به خماميوا سيصة حر الوسخى ، وتناجزوا ورفعوا الصليب ، فلما وأي هرقل فك منهم يكس من إسلامهم ومنافيم مل نفسه وملكه ، فسكم م ثقل ه إنها فلت لكم ما قلت أغسركم الإنظر كيف معلابيكم فيمينكم ، فنعاد وأيت منكم فلمينكم فيمينكم في فيد وأيه الكتب منكم فلمين أحد والماري . * ٢٤ - ٣٠ (القريم))

ه ــ زرادشت ومأني

على أنه يجدر بنا قبل أن نواصل الحديث فى نشأة الإسلام فى العالم ، أن نستكمل بحثنا فى حال آسيا صند فجر القرن السابع . ويجب علينا أن نقول كلمة أو ما إليها عن التطور الدينى فى المجتمع الفارمى أثناء العهد الساسانى .

تغلبت الزراهشية منذ أيام قورش فما بعدها على آلهة نينوى وبابل الأقدمين . وكان زرواستر Zerathustra (وهو الهجاء الإغربي لكلمة زاواثوسترا Zeroaster (ويرجعه الإغربي لكلمة زاواثوسترا Parathustra (ويرجعه بعض الثانت إلى سنة ١٠٠٠ ق . م ، ويجعله آخرون معاصراً لبوذا أوكنفوشيوس . ويجعله التخرون معاصراً لبوذا أوكنفوشيوس . ولا يزينة على علمنا هذا ، علمنا بمحل ميلاده أو جنسيته بالنقة . فأما تعاليمه فمحفوظة لن الزند أفيستا (Zend Avesta) . ولكن نظراً لآبا لم تعد تلعب دوراً كبراً في شئون رب لنخير وهو أهورا مزدا (هرمزد) : إله النور والصلق والمصرات والشمس ، وين رب شرير هو أهريتان : رب الحلقاء والمكر والسياسة والظلمة والليل ، هو محور وين رب شرير هو أهريتان : رب الحلقاء والمكر والسياسة والظلمة والليل ، هو محور أمنام ولكن لما كهنة ومعابد وهياكل ، تتقد عليا نار مقلمة وقام عليها الطقوس القربانية . ومن بن خصائصها الممنزة ، حظرها دفن الموتى أولم-راقهم . أسام ولكن لما تكونه ومن بن خصائصها الممنزة ، حظرها دفن الموتى أولم-راقهم . والفرسيس (Parsees) المنود ، وهم آخر من بني من الزرادشين إلى يومنا هذا) والمحست والخضوع هو الفرسيس (Parsees) المنود ، وهم آخر من بني من الزرادشين إلى يومنا هذا الي بنتايا العقبان .

وكانت هذه الديانة هي الديانة الرسمية للدولة إبان حكم بني ساسان من أرده. فن بعده (۲۲۷ م) ، ورئيسها هو ثانى رجل في الدولة بعد الملك ، وطبقاً لأدق

⁽١) زرادفت بالمربية. (المربع)

مقتضيات العرف القديم ، كان الاعتقاد السائد أن الملك قدمى أو شبه قدمى وله علاقة مودة صميمة خاصة مع هرمزد .

يد أن ما كان يجرى في العالم من اخبار ديني لم يترك الزرادشية السيادة المطلقة على الإمبر اطورية الفارسية بغير منازع فلم يقتصر الأمر على توغل النصرانية شرقاً ، وقد سيق أن أشرنا لمل ذلك ، بل نشأت طوائف جديدة في فارس حاملة فكرات ذلك الزمان المستحدثة ، ولقد سبق أن ذكرنا فرعاً أو نوعاً مبكراً من الزرادشنية هو الممرائية . وهي مقيدة انتشرت في أوربا في القرن الأول في . م بعد حملات يومي الكبير في الشرق . فال إليها الحنود والعامة ميلا هائلا ، وظلت حتى ههد قسطنطين الكبير منافسة خطيرة النصرانية . ومثرا هو إله النورة الذي يصدر » عن أهورا مزدا رهرمزد) ويولد ميلاداً إصحازياً بنفس الطريقة التي يصدر بها الأقدرم الثالث في الثالوث المسيحي عن الأول . ولسنا عجاجة إلى مزيد القول عن هذا الفرع من الجذع الروادشتي . على أنه نشأت أثناء القرن الثالث (م) ديانة أخرى هي المانوية ، وهي تستحق الآن بعض الالتفات .

ولد مانى مؤسس المانوية فى حائلة كريمة بمدينة إكبانانا العاصمة المدية القديمة (٢١٦ م). وتلقى تعليمه فى طيشفون . وكان أبوه ناسكا ينتمى إلى إحدى الطوائف الدينية ، فربى فى جو من البحث والدراسات الدينية . وانهى به الأمر إلى الاقتناع بأنه أصبح صاحب النور الكامل ، الذى هو القوة المحركة لكل صاحب رسالة دينية . ودفعته الظروف إلى إعلان مبادله . إذ أنه شرع يبشر يتعافيه عند تولى شابور الأول ثانى ملوك بنى ساسان فى ٢٤٢ م.

ونما يتسق و حسائص تفكر الناس فى تلك الأيام ، أن تحتوى تعايمه على ضرب من مزج الأدبان والآلمة (الثيوكرازيا) . فأعلن أنه لا يأتى بأى شيء جديد . ذلك بأن كبارمؤسسي الأدبان من قبله كانوا جيماً على صواب : فإن موسى وزرادشت وبوفا ويسوع المسيح - كانوا جيماً أنبياء صادقين ، بيد أنه وكل إليه أن يوضيح تعاليمهم الناقصة المسطرية ويتوجها . وقد قام مهذا بروح زرادشت وأسلوبه . وهو يفسر ما فى الحياة من اضطراب وتناقض بأنه صراع بدائور والظلمة . وأهورا مزدا (هرمزد) عنده هو الإله وأهر بمان هو الشيطان ، ولكن كيف خلق الإنسان ؟ وكيف سقط من

النور إلى الظلمة ؟ وكيف يحرر من أغلاله ويتقد من الظلام ؟ ثم ما هو الدور الذي يقوم به يسوع في هذا الحليط العجيب من الديانات ؟ هذه أمور ما نحن مستطيعين أن نفسرها هنا وإن رغبنا . فإن اهمّامنا بالموضوع تاريخي بحت وما هو باللاهوتي .

ولعل أهم ما يثير الاهتمام من الناحية التاريخية أن مانى لم يكتف بالطواف فى إيران مبشراً بأفكاره الجديدة هذه التى بدت له مقنعة تمام الإقتاع ، بل دخل التركستان وهبط الهند وعمر الممرات إلى الصين . ولاشك أن حرية التنقل هذه يجب أن تكون موضع الملاحظة . وهي شائقة ثثير الاهمام كللك ، لأنها تعرض على أونظانا أن التركستان لم يعد قطر مترحلين خطرين ، بل إقليا تردهرفيه الملدن وينال فيه الرجال من التعليم ووقت الفراغ ما يتبع لهم البحث في المسائل اللاهوتية .

وقد انتشرت فكرات مانى شرقاً وغرباً فى سرعة عظيمة ، وكانت دوحة مشعرة ظلت تمـــد العالم المسيحى بأسره بالزندقات (الهرطقات) طوال ما يقارب الألف سنة .

وعاد مانى إلى طيشفون فى زمان يقارب ٧٧٠ م وانضم إليه أنصار كثيرون . فتمخض هذا عن احتكاكه بالدين الرسمى وبرجال الدين . وفى ٢٧٧ م أمر به الملك الحاكم فصلب ، وأمر يجسه لسبب مجهول فسلخ . ومن ثم أخلوا يصبون على أتباعه أهنف الاضطهاد . ومع ذلك فإن المانوية صمدت فى فلوس بضمة قرون مع المسيحية التسطورية والزرادشية المسلفية أعنى و المزدكية Mazdaim .

٣ _ الشعوب الهونية في آسيا. الوسطى وبلاد الهند

الآن ينجلي لنا إلى حد ما أنه في القرنن الخامس والسادس الميلادين ، لم تكن فارس وحدها ، بل الأقالم التي تعرف الآن بالتركستان وأفغانستان ، حكى درجة من المدنية تتجاوز كثيراً في تقلمها مرتبة القرنسيين والإنجليز في ذلك الزمان ، وقد رفعت غشاوة المغموض عن تاريخ هذه الأقالم في العشرين السنة الأخيرة ، واكتشف وأدبه (١٦) ضخم جداً ، لم يقتصر تدويته على لفات من المجموعة الركبة وحسب ، بل تجاوزها

 ⁽١) يس المؤلف بلفظة وأدب على الدام الكلمة الذي يدل على جميع ما سطر في اللغة من كتابات.
 ومؤلفات ... (الأترجم)

إلى اللغة الصغدية (Pogdian) وإلى لغة آرية أخرى . وترجع هذه المخطوطات الباقية لما اليوم إلى القرن السابع وما يتلوه من قرون . والأبجدية فيها مقتيشة من الآرامية ، وقد أدخلها المبشرون المانويون . وإن كثيراً من المخطوطات المكتشفة ليجلمي علينا من آيات الجهال ما يضارع خدر ما أنتجه الرهبان البندكتيون . وقد وجد بعض الرقي (Parchement) مشدوداً في النوافذ مكان الرجاج . وفي هذه المخطوطات ترجمات الأجزاء من الأسفار المقدسة المسيحية والمسطرات البوذية ، وجدت مختلطة بمقسدار كبير جداً من الأدب المانوى . وما يرح الكثير من تلك المواد في انتظار البد التي تتولاها بالقمحس الدقيق .

ويصرح السر دنيسون روس بأن هذا الإقلم الآسيوى الأوسط ، كان لا يزال لل حد كبر آرياً لفة وثقافة ، وكان فنه لا يزال في جل آمره هندى الأرومة أو فارسي الأصول . وتدل كل الدلائل على صحة الرأى القائل بأن هذه القرون التي هي في أوربا قرون كوارث و تأخر ، كانت بالقارة حصر تقدم في آسيا الوسطى فما ولها شرقاً الي. حدثت في ذلك الإقلم أثناء القرون الحالكة التي حدثت في ذلك الإقلم أبناء القرون الحالكة التي حدثت في الماورق هر إذ حظيت حضارة ذلك الإقلم إبان زمان كان المناخ فيه موائماً ، بدور رقي هم عادى . وفي بر لن الآن مجموعة من الرسوم الحدارية المتعولة من المركستان في تلك عادى . وفي بر لن الآن مجموعة من الرسوم الحدارية المتعولة من المركستان في تلك المدة ، وكأنما هي تكهن خارق المعملة . فإن الأشكال والرموز المألوقة الماولغ والملكات والخان في ورق اللمب مثلا ، ترى بنصها في هذه الصور الزاهية . نقد والمدار الوسطى الأوربية . نقد أزهى الحوالما وهمي تقامها هي جيبة . ويختلط الشقر والسمر في هذه المناظر ، ويكثر الأصهون (الإصدى قلمه المناظر ،

 ⁽١) العسفدية نسبة إلى صنعياتنا وهي ولاية من ولايات دولة الفرس القسديمة تقابل أليوم مناطق صهرقند ويتحارى.
 (للندجيم)

⁽٢) قارق (ينتج الراء) جلد رقيق يكتب نيه . (المترجم) "

⁽٢) الأصهب هو الأحر الشعر . (المارج) تاريخ الإنسانية جـ٢

وكانت الشعوب الحونية التي صارت تسمى آنذاك تتاراً وأثراكاً تقوم في شمال يحر قزرين بحركة انتقال مستمرة نحو الغرب تواصلت حيى القرن السادس ، ولكن يمدر بنا أن نعدها فيضاً للفائض من القوم لا هجرة لشعوب بأكملها . وكان العالم من الدانوب إلى الحدود الصينة ما يزال في معظم شأنه عالم ثرحل وبداوة تنمو به بلدان ومدن على طرق التجارة الرئيسية . ولسنا في حاجة إلى تفصيل القول ها هنا عن الاصطدام المستمر بين الشعوب التركية بالتركستان الغربية وبين الفرس إلى الجنوب مهم ، وهو الذاع الأبدى بن الطوراني() والإيراني . ولسنا نسمع شيئًا عن أي زحق عظم للفرس تحو الثبال ، ولكن كانت هناك غارات نحو الحنوب عظيمة خليمة بالتذكر قام مها كل من الطورانيين إلى الشرق من بحر قزوبن والآلانيين إلى الغرب منه قبل أن بدأت بجموعة الحركات الكبيرة في القرنين الثالث والرابع نحو الغرب، وهي اللي هملت الآلاتين والهون إلى صميم قلب أوربا . وانعقل المترحلون إلى شرق فارس كما اتجهوا جنوبًا عترقين أفغانستان إلى الهند ، وذلك فضلاعن هذه الحركة المتجهة غير الشهال الغربي. فكأن هذه الأنهار الحياشة بالمرحلين كانت تفيض على كل من جانبي فارس . ولقد سبق أن ذكرنا قبيلة « يويه تشي » اللدين انحدووا آخر الأمر إلى الهند بوصفهم الهنسلوإسكيليين في القرن الثاني . على أن قسها متأخراً من هولاء اليويه تشي ظل مقيا على بداوته بآسيا الوسطى، وتكاثر صداً في سهوب البركستان، وهم يعرفون بامم الإفثاليين أو الهون البيض . فبعد أن أقاموا ثلاثة قرون وهم مصدر لمزعاج وخطر على الفرس ، أخلوا يغيرون آخر الأمر على أرض الهند في إثر أقاربهم حوالي ٤٧٠ ، وكان هذا بعد موت أثيلا بحوالي ربع قرن . على أنهم لم يهاجروا لِل بلاد الهند ، بل ظلوا يتنهبون في البلاد ذهابًا وغدوًا ، ثم يعودون بأسلامهم إلى موطنهم الأصلى ، مثلما فعل الهون فيا يعد إذ استقروا فى سهل الدانوب العظيم وأخلوا ثمة يغيرون على كل أوربا .

وتاريخ الهند أثناء هذه القرون السبعة التي نستعرضها الآن ، يتعاقب عليه على الدوام هذان الغزوان : غزواليويه تشي أى الهندو إسكيذيين الذين أزالوا كما قلنا آخر آثار الحكم الهاتيج ، ثم غزو الإفثالين . وقد دفعت الطائفة الأولى من هؤلاء ،

⁽١) أطلقالإيرانيون ثم العرب ذلك الاسم علىسكان التركستان وتسيا الوسطى ولغائهم. (الملوجم)

أى الهندو إسكيذيين أمامها ، موجة من السكان المطرودين من أوطانهم هم الساكا (sakse) ، وبذا تكون الهند قد لقيت في النهاية ثلاث موجات من إغارات البرابرة حدثت قرابة ١٠٠ م وقرابة ٢٠٠ م وقرابة ٤٧٠ م خير أن الثانية من هذه الغزوات ، هى الوحيدة التي غدت فتحاً مستديماً واستقراراً مقياً . واتخذ المهنود الإسكيذيون مركزهم الرئيسي على الحلود الشهائية الغربية حيث أقاموا أسرة مالكة ، هى أمرة كوشان (Kushan) وهى التي حكمت معظم شهال الهند حتى بنار من شرقاً .

وأهم هؤلاء الملوك الكوشانيين هو كانيشكا (Kanishka) (وتاريخه مجهول) ، وهو الذى ضم إلى شال الهند كلا من قشغر وبرقند وخوتان . وكان ــ مثله مثل الموكا (أو أشوكا) ــ حاملا قويا على رفع شأن البوذية ، ولابد أن هذه المترح التي تكونت منها هذه الإسراطورية العظيمة على الحدود الشيالية الغربية ، أقامت بين الهند والصين والتبت علاقات وثيقة مستمرة

وأن جم هاهنا بذكر ما ألم بعد ذلك بالقوة المسيطرة على المند من انقسام وأنحاد وتحالف الاستعصائها على البحث هاهنا في هذا الحرائفييق بين أيدينا . فكانت الهند في يعضى الأحيان بجموعة كبرة من اللول كرقعة الشطرفيج ، ورعا تغلبت إمراطورية كامر اطورية الجويتا طوال القرون الرابع والخامس والسادس . وفي ظل رعايتها قامت الهندوكية الجمويتا طوال القرون الرابع والخامس والسادس . وفي ظل رعايتها قامت الهندوكية المعصرية ، وظهرت فترة من النشاط الأدبى العظيم . على أن هذه الأمورلم تغير إلا قليلا طريقة الحياة المحادية لدى الشعوب الهندية . وصمدت المرهمانية في وجه البوذية وازدهرت الديانان جنها إلى جنب . وكانت كتلة السكان الكبرى تعيش كما تعيش وازدهرت الديانان جنها إلى جنب . وكانت كتلة السكان الكبرى تعيش كما تعيش الأن إلى حد كبير جداً ؟ فتليس النياب وتررع الأرض وتبي بيومها على نفس الشاكلة المالة

وغارات الإفنالين جديرة بالذكر، لا يسبب تولد عنها من آثار مستديمة بل يسبب ما ارتكبه الغزاة من الفظائم . فقد كان هوالاء الإفناليون أقرب الناس شها بهون أثيلا في يربريهم ؛ كانت الفارة كل همهم ، فلم يشجوا أسرة ملكية كأسرة كوشان ؛ واحتفظ روساؤهم بمركز قيادهم العليا في التركستان القربية . وقد سمى ميهراجولا (Mithiragula) أعظم زعمائهم كفاية باسم أثيلا بلاد الهند . وروى أن إحدى تسلياته الهبوبة كانت ثعبة غالية كبرة النفقة ، هى دحرجة الفيلة فى الهاويات التضرج على آلامها . وأثار ما ارتكبه من فظائع أمراء المند التابعين له فثاروا عليه وخلعوه (٥٢٨) . على أن القضاء النهائي على غارات الإفثاليين على الهند لم يأت من جانب الهندد ، بل جاء نتيجة لتدمير المركز الرئيسي للإفثاليين على بهر سرداريا أو سيحون (Oxue) (٥٠٥) على يد قوة الأتراك النامية ، إذ هاجوهم متحالفين مع القرم . وما لبث الإفثاليون بعد هذه الهزيمة أن انحلوا انحلالا سريعاً تاماً وانصهروا في السكان المحيطين مهم ، مثلما فعل الهون الأوربيون بعد وفاة أثيلا قبل ذلك عنق سنة . ذلك أن البدو المترحلين الذين ليس لدجم أرض مراع مركزية لا بد الديم شرقوا ، إذ ليس أمامهم غير التشت من سبيل . ويقال إن بعض عشائر الرجبوت (Raipat) الرئيسية الموجودة إلى يومنا هذا في راجهوتانا في شال الهند ، تتحدر من هزلاء الهون البيض .

وإنا لمضطرون أن تمسك آسفين تماماً عن الإدلاء بأى بيان عن تطور الفروسية في هذه الولايات الراجهوتية الصغيرة ، وهي صجيبة المائلة لتطور الفروسية المعاصرة لها في أوربا .

ثم إننا لا تستطيع أيضاً أن تقتبع ولو في معالم إجمالية تطور الفن الهندى بين أيام الإسكندر وجيء الإسلام : إذا يتم أىدارس بدراسة تلك الحقية ولم يمهد لنا السيل في



ال شكل ۱۲۰ (شكل ۱۲۰) علة إنتالية

هذا الصدد . ولا يخنى أن التأثير الملينى في الفراخندى والهارة الهندية عميةاً ، والراجع أن الفراخية عميةاً ، المصورين منهم كانوا لا يفكون يغدون ويروحون بين فارس وآسيا الوسطى والهند . وذلك أن الفن البوذى تنجل فيه روح هلينية . ولما حدث في القرن الثاني

وما يتلوه من قرون ميلادية ، أن انتشرت البوذية فى الصين كما سبق أن ذكرنا ، حملت معها شيئا من رشاقة الفن الهائيقي وطايعه وأدخلته على الأشكال الصينية الممثلة لبوذا وعلى الفن الدينى الصيني عامة . ولكن للهند مناخاً فتالا يقضي على كل عمل في قدم مهجور . فإن أسرات مادكة من التي كاد النسيان يعنى عليها تماماً ، كانت تعيش بالهند عيشاً جميلا مترفاً ، ولكنها لم تخلف من ورائها إلا القليل مما أوتيت من ألوان الجمال .

وهناك أثر فاتن أخاذ تبقى عن هذا الزمان ، وهو يرى في كهوف أچانتا · (Ajanta) المنقوشة جدرانيا التي أخلت صورها تذوى وتتعسر رؤيبًا . ومن حسن الحظ أن قد أخلت لها صور يمكن الاطلاع علمها بوساطة الجمعية الهندية . وتوجد أَچانتا في حيدر آباد في ممر هام بجبال ڤندهيا ، وقد كان هناك بن القرنين الثاني والسابع الميلاديين دير بودّى به كثير من الأبهاء والدهاليز المفرغة في الصخر ، وفي هذه الفترة وفي القرنين الخامس والسادس بوجه خاص زينت هذه الكهوف بالنقوش على حساب ملوك ورَّجال أثرياء متنوعين ، زيَّما عدد من الفنائين المهرة الموهوبين . وإنَّا لِننظر إلى هذه البقايا في أيامنا هذه ذاهلين ، فإنَّها بلغت من الفصاحة في الترجمة عن ثراء وذكاء وشهوية الحياة في البلاط كل مبلغ ، فلولا هذه الصور لزالت هذه الأمور من فاكرة الناس تمام الزوال . ولا نزال موضوعات قلك الصور في كثير من الحالات موضع نظر وأخذ ورد ، فإن يعضها مناظر تمثل حياة بوذا وأساطير تدور حوله ؛ وبعضها تبدوخاصة بالربإندوا (Indra) ، وبعضها لا يزيد عن صفحة من حياة البلاط اليومية . وهناك منظر يظن أنه يمثل استقبال بعثة سياسية موفدة من عليه وسلم) يوان تشوانج ، وهو رحالة صيني سنحدثك عنه بالكثير من القول عما قليل .

٧_ أسرتا هان وتانج بالصبن

هذه القرون السبعة التي شهدت بداية ونهاية الأباطرة في روما ، ورأت حياة أوربا الغربية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية ، تتحطم ثم يعاد سبكها ، --شهدتكذلك تغيرات عميقة الأثر جداً في العالم الصيني . ويتسبع بين للورخينالصينيين والبابانين والأوربيين فرض مفاده أن عهدى أمرة هان التي نجد الصن تحت حكما في بداية هذه المدة وأسرة تانيج الى بها انتهت ، يعتبران من عهود الرفعة المهائلة ، وأسما كانتا تدبران أمور إمبراطورية متشابة أو تكاد ، وأن قرون الانقسام الأربعة الى مرت بين بهاية أسرة هان (۲۲۰) وبداية أسرة تانيج (۲۱۸) ، كانت قرون المعطراب لاقرون انتقال ضرورى . ويحال بعض الناس أن انقسامات الصين إن هي إلا انقسامات سياسية وعملية . إذ ينخدعون لأن الصنكانت في بهاية هذه القرون الإبعة كما كانت في مسهلها ، تشغل نفس المركز في آسيا ، وأنها ظلت طوال تلك القرون نفس الصن المعروفة ، إذ لم تعرصاحة ثقافة مشركة وكتابة مشتركة ومجموعة مشركة من المحكونة من المحكونة من المحكونة من المحكونة من الحوهريتين اللتين المحتورة بن ما مر على الصن وأوربا من أحداث.

حقاً إن الابهار الاجهاعي لم يبلغ أبداً في العالم الصيني مبلغه الكامل في العالم الأورب. فقد بقيت هناك طوال الملدة بأحمها مساحات مرامية كان من الميسور فها أن يتواصل التحصن والإثقان في كل فنون الحياة . فلم يحسدت بها تقوض تام في النظافة والزخوفة والإنتاج الذي والأدني كالذي علينا أن تسجله في الغرب. وليس هناك مثيل لما حدث في أوربا من صلوف من القاس الرشاقة والمتعة . فإنا فلحط مثلا أن و الشاى في ظهر في العالم ، وفشا استهاله في كل أرجاء المعين. وبدأت الصين تحقيبي الشاى في المترن السادم الميلادي . وظهر بين الشعراء المينيين من يكتبون كتابات بهيجة هن تأثيرات الفنجان الأول والقنجان الثاني والفائد والرابع ، وهكذا ، واستمرت العين نقشت مناظر طبيعية () برية من أروع ما أبلحته بد الإنسان على مر المدهور . واطرد نقهور العدد المرفور من إنتاج الزهريات والنحات الجميلة . ولم يتقطع إنشاء المباني الرشيقة وأعمال الزخوفة . وابتدأت الطباعة عن كتل من الخشب في نفس زمان احتساء الشيق و المعر . هناس رمان احتساء الشاي و ظهر مع بدايات القرن السابع انتعاش عجيب في الشعر .

وهناك فروق بأعيانها بين الإمبراطوريات العظيمة فى الشرق والغرب ساعدت كلها على ترسيخ قدم الأولى وتثبيت أركانها . فلم يكن للصين عملة عامة . ولذا فإن

^(1) المنظر الطبيعي البري Landscape : منظر أرضي كنظر قرية أو غاية وقد يكون فيها أشخاص أو حيرانات لا تشغل مزما مهما من الصورة . (المقريم)

ما كان للعالم الغربي من نظام للدفع نقداً وانتهانا (٢٠) ، وهو النظام الذي يجمع بن الكذاية والحمل في ويتها الاقتصادية . وليس معنى ذلك أن فكرة النقد كانت بجهولة . فقد كانت الولايات المختلفة تستعمل في صفقاتها الصغيرة و نقداً و متقوباً من الرتك والنحاس ، فأما في الكرى فلم يكن هناك من شيء سوى سبائك ملموخة من الفضة . وإذن فهذه الإسراطورية المعلمة كانت لا ترال تقوم بطالب أعملها التجاوية على أساس من المقايضة يشبه ذلك الذي كان منتشراً في بابل أيام التجار الآرامين (٢٠) . وقد استمرت على هذا الحال حتى فحجر الفرن العشرين .

ولقد رأينا كيف قنضى على النظام الاجتاعي والاقتصادي في الجمهورية المرومانية يسبب سيولة الملكية ، تلك السيولة الشديدة التي أوجدتها الفود . فأصبحت المتود شبئاً عبرداً قائماً بذاته ، وانقطات صلنها بالقم الحقيقية التي كان مفروضاً أنها بخطها . فوقع الأفراد والمجتمعات في الدين وقوعاً غالفاً لكل معقول ، ووقع العالم تحت سيطرة طبقة من الأثرياء كانوا هم الدائنين ، وهم رجال كانوا لا يتداولون يهنهم أية ثروة حقيقية ، بل كان في طوقهم أن يطالبوا بالنفود ويسحبوها . فأما المسين فلم يحدث مثل ذلك التعلور المالى . بل ظلت الثروة في المسنحقيقية ومرثية بميريوس جراكوس يدافع عن حقوق المدينين (Licinian) ولا إلى بميريوس جراكوس يدافع عن حقوق المدينين (CLicinian) ولا إلى مستعبدة في الحديث حدود الأشياء الملموسة . فلم يكن بها همال ، أرقاء ولا جماعات مستعبدة في الحديث . وإن كان هناك بنات إماد يضمن بالأعمال المنزلية ونساء يبعن ويشترين بيع الرقيق ، بيد أن هالم يكن إلا توسعة طفيقة لما عليه النساء من مألوف ويكاد ، ولايدنع إلا ضريبة الأراض والمستغيد منها هو في معفم الحالات المالك الفعل لما ويكان المناكم والمحدد ، وكان مناكم الأرض له من فيكات المناه من من أوض فيكات الرقاع الصغيرة ، على أنه ثم توجد بالبلاد مزارع واسعة . وكان من لا أرض له من فيات الرقاع الصغيرة ، على أنه ثم توجد بالبلاد مزارع واسعة . وكان من لا أرض له من فيات الرقاع الصغيرة ، على أنه ثم توجد بالبلاد مزارع واسعة . وكان من لا أرض له من فيات الرقاع الصغيرة ، على أنه ثم توجد بالبلاد مزارع واسعة . وكان من لا أرض له من فيات الرقاع الصغيرة ، على أنه ثم توجد بالبلاد مزارع واسعة . وكان من لا أرض له من

⁽١) نظام الدنع نقداً واليّاناً Cash & Credit System (المرجم)

 ⁽۲) الآرامیون : قبائل رحل پشیه جزیرة الدرب. رحلت إلى وادی الفرات نی ۱۰۰۰ ق.م.
 راقتیموا حضارة الأمورین والکنمائیین ونشروها نی سوریا . (المترج)

⁽٣) اتظر الحلد الثاني من المعالم ص ١٦٥ ط ٣ . (المُترح)

الرجال يعمل أجيراً مقابل أجر يدفع في غالب الأمر عيناً ــ شأن ما كان يحدث في إبل القديمة .

وكانت هذه الأشباء من حوامل الاستقرار كما أن شكل الصن الحفراف كان من حوامل الوحدة ؛ ومع ذلك فإن قوة أسرة هان اضمحلت ، وربما يكون الترف عامل وهمتها ، وحمد مناف التحريف الترف عامل وهمتها ، وحمد مناف المتحرد الأمر في نهاية القرن الثاني للميلادي أن دكت ذلك النظام الكارثة العالمية كارثة الوباء العظم ، وهو نفس الوباء اللدي بدأ في الإمراطورية الرومانية قرناً من الارتباك والاضطراب ، انهارت اسرة هان انهيار شجرة نخرة خوية مناف عليا السواء نفس الانجاء المناف المرامة ال

ويعزو المستر فو كثيراً من خور الصن السياسي فى تلك المدة إلى اتتشار النزعات الأبيقورية التي نشأت - فيا يرى - عن المذهب الفردى المتشكك الذي أنشأه لاو تزى. ويعرف دور الانقسام هذا باسم و عهد المالك الثلاث ع. وشهد القرن الرابع أسرة مالكة من الهون متمدئة نوعاً ما ، وقد فرضوا أنفسهم حكاماً على مقاطعة شن سي (Shen-Si) . ولم تشمل هذه المملكة الهونية شال الصين فحسب ، بل مساحات عظيمة من سيبريا ؛ وتمثلت أسرتها المدنية العمينية ، وحمل تفوذها تجارة العسين ومعرفتها وتقافتها قددًا حتى الدائرة القطية . ويوازن المستر فو بين هساما المملكة السيبرية وبين إمبراطورية شرلمان فى أوربا التي ستصفها لك من فورنا ، فعناها عنده الديرية وبين إمبراطورية شرلمان فى أوربا التي ستصفها لك من فورنا ، فعناها عنده أن البريرى أصبح دومانيا .

ونشأت عن امتراج هولاء السييريين والعناصر العمينية النمائية من الأهالي ، أسرة سوى هذه ببداية عصر أسرة سوى هذه ببداية عصر نهفة ببلاد الصين . فألحقت جزائر لوتشو (Lu-chu) بالصين أيام أحد ملوك سوى ، ومحدثوننا بأن عدد مجلدات المكتبة الإمراطورية ق. ذلك الزمان زيد إلى 30 ألف مجلد . وشهد فجر القرن السابع الإمراطورية ق. ذلك الزمان زيد إلى 30 ألف مجلد . وشهد فجر القرن السابع استهلال عهد أسرة تانيج (Tang) العظيمة التي قدر لها أن تدوم ثلاثة قرون .

ويصر المسر فو على أن بهضة الصين التي ابتدأت بأسرة سوى وبلغت ذروتها أيام تانج كانت ميلاداً حقيقياً جديداً البلاد . وهو يكتب قائلا و لقد ظهرت روح جديدة ، وهمي تدمغ مدنية تانج بخصائص تميزها تماماً عن كل ما عداها . إذ أن عوامل رئيسية أربعة قد جمعت ثم صهرت بعضها في بعض ، وهي : (١) الثقافة الصينية المتحررة(٢) ، (٢) المذهب الصيني الكلاسيكي العتيق Classicism ، (٣) البوذية الهندية ، ثم (٤) شجاعة أهل النهال :

و لقد ولدت صين جديدة ، فكان نظام المقاطعات والإدارة المركزية والتنظيم المسكرى عند أسرة تانيج عثلة كمام الاختلاف، عما كان عليه الحال عند أسلافها ، وتأثوت الفنون أيما تأثر وانتحث كثيراً بفضل مؤثرات هندية وأخرى من آسيا الوسطى . ولم يكن الأدب مجرد استمرار لقديم ؛ بل كان إنتاجاً جديداً ٥٠وكانت مدارس البوقية الدينية والفلسفية مظاهر جديدة ، وكان العصر عصر تغيرات جوهرية ه

و وربما لذانا أن تقارن تكوين الصن هذا ، بما آل إليه أمر الإمراطورية الروماني مقسا إلى تصفين غرق وشرق ، كان العالم الصيني مقسا إلى تعفين غرق وشرق ، كان العالم الصيني مقسا إلى شالى وجنوني . وقد قام العرارة في حالة المسن وحالة روما بإغارات مثاللة : وأسسوا سيادات أو دولا من نوع واحد . وضارعت إميراطورية شرابان إميراطورية الأسرة السييرية (واي Wei) التالية ؛ ويقابل استرجاع الإميراطورية المفرية المؤقت على يد يجستنيان ، استرجاع الشهال مؤقتاً على يد ليويو (Liu-943) . ويضاهي الفرح الميزنطي الأسرات الحنوبية . على أن العالمن تفارقا من هذه التقطة . فاستعادت العمين وحدتها ؛ على حين لا يزال باقياً على أوريا أن تميلو حدوها » .

وكانت ممتلكات الإمبراطور تاى تستج (Tai-Taung) (۱۹۷) ــ وهو ثانى ملك فى أسرة تانج ــ تمتـــد جنوباً إلى أنام (Annam) وغرباً حتى بحر فزوين . وكانت.

⁽¹⁾ Liberal Culture وهي ذلك الفعرب المستمير المهذب من التفاقة الخليق بالسادة المهذبين والمنظمانية . (المرجم)



﴿ شكل ١٧٦ ﴾ الإمبراطورية الصيلية ومقارنة مساحتها بالإمبراطورية الرومائية

حدوده الجنوبية في هذا الاتجاه تساير حدود فارس. فأما حدوده الشهالية فامتدت بمحاذاة جبال آلتاى من سهوب القرغيز في شهال صحراء جوبي . بيد أنها لم تشمل كوريا التي غزاها ابنه وضمها إلى ممتلكاته . وقد استطاعت أسرة تانج هذه أن تنشر الحضارة بين سكان الجنوب أجمعين وأدمجتهم في الجنس الصيني ، وكما أن صيني الشهال يسمون أنفسهم و رجال هان ، يسمى صينيو الجنوب أنفسهم و رجال تانج و معها في مدونات ، وتقع نظام الامتحان تانج و المحدوث طبعة كاملة مضبوطة من كل الآداب العمينية القديمة .

ووفدت على بلاط الإمراطور تاى تستُنج بعثة سياسية من بيزنطة ، وأهم من ذلك ، أن قد أتت من فارس جماعة من المبشرين النسطوريين (٦٣٥) فاستقبلهم تاى تسنج باحترام عظم : واستمع منهم إلى أهم مواد عقيدتهم ، وأمر بترجمة الكتب؛ المقدمة المسيحية إلى الصينية ليفحصها فيا بعد .

وما لبث في ٦٣٨ أن أعلن أنه وجد الديانة الجديدة مرضية تماماً ، وأنه يجوز التيشير بها في الإمبراطورية ، كذلك سمح بيناء كنيسة وتأسيس دير ، ويوجد فى سيان فو (Sianfu) اليوم حجر منحوت يدعونه الأثر النسطورى يرجع تاريخه إلى ٧٨١ م ، وقد سجلت عليه هذه الوقائع باللغة الصيئية .

كذلك حضرت إلى بلاط تاى تسنج بعثة أدعى إلى العجب عام ١٦٨ م قبل مجى، الفساطرة يسيمة أعوام : وكانت تلك البعثة جماعة من العرب انحدروا من ينبع ميناء المدينة ببلاد العرب إلى كنتون بحراً فى فلك تجارى . (ومن الشائق أن تلحظ لهله المناسبة وجود أمثال تلك السفن التى كانت تعمل فى التجارة بين الغرب والشرق فى ذلك الزمان) . أرسل هولاء العرب محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى سبق لنا ذكره والملك نفسه و نبى الله » . والمرسالة التى أحضروها إلى ناى تسنج هى فيا يرجح نفس الدعوة التى أرسلت فى السنة نفسها إلى هرقل الإمبراطور البزنطى وإلى قباذ في طيشفون(۱) .

على أن ملك العين لم يهمل الرسالة كما فعل هرقل ، ولا أهان الرسول كما فعل قباذ قاتل أبيه ، بل أحسن استقبالهم وترجم عن للة عظيمة فى آرائهم اللاهوتية وساهدهم فيها يقال على بناء مسجد من أجل اللتجار العرب فى كنتون ــ وهو مسجد باق إلى اليوم وهو من أقدم مساجد الدنيا .

٨ ـ أغلال الصبن الذهنية

كان تحضر ٢٧ الصن وثقافتها وقوتها فى ظل حكم ملوك تانج الأوائل نقيضاً ناصعاً واضحاً للانحلال والقوضى والانقسامات فى العالم الغربى ، وهى حال قد تشر على الفور طائفة من أمتع الأسئلة فى تاريخ المدنية . فلماذا لم تحفظ الصن بتلك الزعامة التى فازت بها بفضل عودتها السريعة لملى الوحدة والنظام ؟ فلمإذا لا تتسلط لملى الموم على للعالم ثقافياً وسياسياً ؟

لقد ظلت زماناً طويلا وهي على التحقيق السباقة المتقلمة . وما نستطيع أن نقول مع

 ⁽١) هيمنائن كمرى : عاصة الساسانين وتقع . ج . ق يغداد . (الدرم)
 (٧) يقصد الكاتب بالتبخص أو الحضرية دمائة الأخلاق وحسن الآداب والمهذيب وهي صفات أهل الحضر . (المترح)

الثقة والاطمئنان إن العالم الغربي قد شرع يسبق الصين من جديد ، إلا يعد ألف سنة ، وفي القرنين الساديس عشر والسابع عشر وعند اكتشاف أمريكا واتتشار الكتب المطبوعة والتعلم في الغرب وبزوغ فجر الاكتشاف العلمي العصرى . فني عهد أسرة تانج ، وهو أعظم عهودها ، وفي ظل أسرة صنح (٩٣٠ – ١٣٧٨) الفنية الغرعة وإنكانت على شيء من التدهور ، ثم كفلك إبان حكم آل منح المثقفين (٣٦٨ - ١٣٤٨) ، تتجلى الصين للعالم في مشهد من الرفاعية والسعادة والتشاط الفني المتقدم أدواطاً بعيدة على أي دولة معاصرة . فإذا راعينا أنها أحرزت ذلك الفلر الكبر تساملنا لماذا لم تحرز المزيد ؟ كانت السفن الصينية تمخر البحار ، وكانت هناك تجارة عظيمة وراء البحار أثناء ذلك الزمان(١) ، فلإذا لم يبكتشف العميقيون قط أمريكا أو استراليا ؟

وهناك رسوم للوشمن قديمة نقشت على الصخور ، ربما دلت على أن سفناً صيئية متفرقة قد وصلت إلى جنوب إفريقية فى تاريخ ما غير معلوم ، كما يقال إن هناك آثاراً تدل على نزول زوار صينين فى بلاد المكسيك ، فأنن صبح هذا ، فإن واحداً من هدين الاكتشافين العرضين لا يبلو أنه أتبع بغيره منايا لم يتابع أحد طواف القرطاجيين حول إفريقية أو منايا لم تتبع زيارات أعلى النهال (Northmen) لأمريكا بزيارات أخرى . ويقول المستر قوجان : إن هناك أيضاً رسوماً صينية محفورة فى الصحور فى نيوزيائدة ويتوكالمدونيا . على أن توفر العبترية الفردية والإقدام ضير المتواصل ، لا يكنى ليركل لتوليد التراك من الاكتشاف من الاكتشاف من الاكتشاف من الاكتشافات فى يد أحد المجتمعات ولا يضمن أن يوتى تماره

⁽۱) من المشكوك فيه أن يكون الصيليون هرفوا البوصلة البحرية . ويصفطه هيرت في كتابه و تأسين المتدم ، من ١٦٠ فا يعدما ، بعد فسس دقيق لكل العسور والأوشة ، أنه ولو أن من الهما أن يكون ثهيد كالبوصلة عرف في الأزشة السميقة ، فإن العلم به استواد القسيات لملة كبره بعد ذلك ، حتى ظهر مرة أخرى في العمور الوصلي كالة بأيدى العمليين (وهم اللذين يوكل جم اختيار أفضل المدافق القبود الذ) . وأول ذكر واضع لاسميالها كرشه المساوة ورد في كتاب في القرن التائل هرم يدير إلى استخدامها في منن أجبية بن العمن وموسلاة . وبيل هيرت لك الالاعتقاد بأن الرزاد العرب . يقبل أن رأوما في أيدى لحادين مبنين ثم طبقوا استهالها طي الملاحة ، حتى إنهم استطاعوا بعد ذلك إدابتها للهراء المورث إدابتها لك المدين في صورة الموسلة المبحرية . (المؤلف)

ويصبح معرفة وطيدة قابلة للاستعمال . ولا بد أن يكون الحجتمع نفسه مستعداً لتقبله والإفادة منه .

ومن المحقق أنه ظهر بالصين من ضروب المشاهدات العلمية والمهارة والاختراع وإن كانت فردية منعزلة متغرقة — ما لا يقل عما فى أى جزء من أجزاء العالم . وعرف المبينيون البارود فى القرن السادس . واستعملوا التسخين بالفحم الحجرى والغاز استمالا عليا قبل أن تستخدم هذه الأشياء فى أوربا بقرون . فأما إقامتهم للكبارى وهندسهم المائية فدهشة جديرة بالإعجاب ؛ وإن معرفتهم بالمواد كما تتبدى فى الآنية المطلية بالميناء واللا كيداً كعليمة جداً . فإذا لم ينشئوا قط طريقه التسجيل والتعاون فى البحث ، تلك الطريقة التي وهبت العلم الحديث للمالم ؟ ولماذا ، بالرغم من مراتهم الهام على السلوك الحسن وضبط النفس لم يتسرب التعلم اللدهني إلى كتلة السكان العامة ولم يتخلها ؟ ولماذا كانت جماهير الصين اليوم ، كما كانوا على اللوام أمين بالرغم من المدون الرغم من المستوى الرغم من المستوى الرغم من المستوى الرفيع للذكاء الطبيعي الاستثنائي المنتشر بينهم ؟

من المألوف أن تقابل مثل تلك الأسئلة بإجابات غالباً ما تكون جوفاء . فيقال لنا إن الصيني أشد المخلوقات البشرية محافظة ، وإن عقله ــ على نقيض الأجناس الأوربية ــ ملفوت نحو الماضي ، وأنه العبد الخاضع بإرادته لآداب اللياقة والتقاليد للى درجة لا يكاد يتصورها المقل الغربي : وهو يمثّل كأنما له عقلية تميزة إلى حد يجعل الإنسان يتوقع غالباً أن يجد في تركيب المنخ فارقا يفسرذاك الاختلاف . والقائلون عهده الآراء يقتبسون التماس كنفوشيوس لحكمة القدماء لمدهم ذلك الزعم .

على أننا لوفحصنا هذا التعميم (الحكم العام) فحصا أدق وأضبط لنبدد فى الهواء هباء منثوراً . فإن قوة الابتكار والمبادرة اللمهنية الفائقة والإقدام العقلى للتحرر والميل إلى التجريب ، تلك المزايا التى نعتقد أنها قوام خصائص الذهن الغربى ، لاتتجلى فى تاريخ

⁽۱) اللاكيه lacquier دهان محلول الك وهو مادة راتنجية (الفهرنية) يفرزها نبات الكوكوس لاك Coccus Laces/الذي ينتج صباغاً أحر زامياً . (المترج)

هذا الذهن إلاً في أثناء أدوار معينة وتحت ظروف استثنائية . وفيها عدا ذلك ، لا يتجلى العالم الغربي إلا مضارعا للصين في النزام التقاليد والمحافظة على كل قديم . ومن الناحية الأخرى ، فإن العقل الصيني كان إذا حفزه حافز يبدى قلمرة على الاختراع والابتداع وتعددا في المزاياكالأوربي سواء بسواء ، كما أن الذهن الياباتي المجانس له يكاد يفوقه في هذا . فإذا اتخذت من الإغريق مثالًا ، وجدت أقصى ما بلغوه من قوة ذهنية واقماً في الملدة بين القرن السادس قى ؟ م . وبين اضممحلال متحف الإسكندرية أثناء حكم البطالمة المتأخرين في القمرن الثاني ق . م . ولا شك أنه كان هناك إغريق قبل ذلك الزمان وإغريق بعده ، بيد أن تاريخ ألف سنة من سنى الإسراطورية البنزنطية أظهر أن العالم الهليني راكه الذهن كالصين سواء يسواء . ثم إننا قد سيق أن وجهنا النظر إلى عقم اللـهن الإيطالى نسبياً أثناء المهد الروماني ، وإلى وفرة خصبه منذ (نهضة إحياء ألعلوم » . وكذلك الذهن الإنجليزى ، فقد مو به دور من التوقد في الفرنين السابع والثامن ، ثم لم يسطع بعد ذلك حتى القرق الحامس عشر . كَلْمُلْكُ دَهْنُ العربُ كَمَا سَنْخَبِرُكُ مِنْ فَوْرَنَا ۚ ، قَدْ تَأْلَقَ تَأْلَقَ النجم طوال ستة أجيال بعد ظهور الإسلام ، ولم يحرز قبلها ولا بعدها أى شيء ذى بال . ومن الناحية الأخرى كا: هناك على الدوام قدر عظيم من القدرة على الاختراع مبعثر في الصين ، وآية ذلك ما يشهد به تقدم الفن الصيني من ظهور حركات جديدة وابتكارات قوية . وإنا لنبالغ في مدى احترام الصينيين لآبائهم ؛ فقد كان فتل الآباء على يد أبنائهم جريمة أكثر شيوعاً بن الأباطرة الصينيين ، لدى حكام قارس أنفسهم . وفضلا عن ذلك فالتاريخ يسجل أنه قد حدثث بالصين حركات تحريرية كثيرة . وكفاحات عديدة ضد والأساليبالعتيقة ۽ .

سبق أن أوضحنا أن أدوار التقدم اللحنى الحقيق فى أى مجتمع من المجتمعات تبلو مرتبطة بوجود طبقة من الرجال بعيدة عن الغرض غير متحيزة العقول ، بلغت من الحرية مبلغاً يجعلهم لا يكتحون ولايحماون هما يستنفد القوى من أجل حاجاتهم الدنيوية، ولم يصل فى ثرائها وسعة سلطاتها إلى حد يغربهم بالإسراف فى الشهوات أو المظاهر أو القساوات. ويجب أن يتوافر لهم شعور بالطمأنية ، لا غرور بالتقوق. وأسلفنا كالملك أن هذه الطبقة يجب أن تتبيأ لها القلارة على الكلام بحرية وأن تتواصل بمهولة. ويجب ألا تراقب لمظنة الزندقة أو تضطهد لآية آراء قد تعبر عنها . ولا مراء أن مثل هذه الحالة السعيدة كانت تفعر بلاد الإغريق في أحسن أيامها . والواقع أن طبقة من القوم الاذكياء المهذبين الأحرار تبدى على صفحات التاريخ حيثًا ظهرت فلسفة جويثة مدونة أو تقدمات علمية فعالة .

ولا بد أن الصين كانت تقم فى أيام تانج وصنج ومنج كرة من القوم للمتعمن من تفس الطبقة التي كان منها معظم شبان « أكاديمية » أثينا أو أذكياء إيطاليا الناسمين في حصر النهضة أو أعضاء الحصمية الملكية اللندنية ، وهي الجمعية التي كانت يمثلية الأم من العلم الحديث ؟ ومع ذلك فإن العين لم تنتج في عصور الفرص التي أتيحت لها شيئاً يخائل تلك البدايات العظيمة المحالة الحيلة .

فإذا نباذا الفكرة القائلة بأن هناك بعض الفوارق المنصرية المعيقة بين الصين وين الفرب وين الفرب ، تلك الفرارق الفرب عافظين بطبيعتهم ، وتجمل الفرب تقدمياً بطبعه ، وجب علينا إذن أن نبحث من السبب الفعال أن الفارق في روح المتعسن إياه في تواحى أخرى . ويميل كثير من الناس أن ببحثوا في المجاه آخو من السبب الفعال في تأخر الصين ذلك التأخر العظم بالرغم عما لها من مزات أصيلة أثناء المقرون الأربعة أو الحمسة الأخورة — وهم يرون أن تكييل الذهن الصيني في كتابة وفي صيغ للفكر يلفت من الإحكام التفصيل والصعوبة حداً جعل طاقة البلاد العقلية مستفدة استثماداً عظيا في تحصيلها هو مرد ذلك كله . وعندي أن هسلما الرأى جدر بالفحص والنظر .

وقد سبق أن أعطيناك بياناً من خاصيات الكتابة الصينية واللفة الصينية . والكتابة البابانية مشتقة من المصينية كما هو معلوم ، وتتكون من مجموعة من الصيغ أسرح للمديناً . والمعدد الكبير من هذه الصيغ و كتابة تصويرية رمزية و المحتورية المسيئية وتستخدم بالفيسط بنفس الطريقة التي تستخدم با الكتابة التصويرية المرافقة التصويرية المرافقة ، على أن هناك كذلك عدداً من العلامات يستمدل التعبير عن المقاطع واليابانين بجموعة من الأحرف تمثل المقاطع على طريقة بجموعة الأحرف السومرية الممثلة المقاطع والتي سبق أن وصفناها . ولكن الكتابة المابانية تظل بعد ذلك طريقة سميجة كالحط الممهارى سواء بسواء ، وإدام تصل يساجتها وتعقيدها إلى درجة طريقة سميجة كالحط الممهارى سواء بسواء ، وإدام تصل يساجتها وتعقيدها إلى درجة

 ⁽١) وكتابة تصويرية رمزية (موزية Ideograss) وأي رموز كتابية هي كما استفتاج ١ ط ٣ من
 المالم من ١٩٤ صورة أو رمز تستصل في تقام الكتابة .

الصينية ؛ وقد قامت بيلاد اليابان حركة تطالب باستخدام أبجدية غربية . على أن كوريا تقامت إلى الأمام خطوة من زمان بعيد ، ونحتت أبجدية حقيقية من المصادر _. الصينية نفسها .

وفيها عدا هذه الحالات وحدها فإن جميع طرق الكتابة المستعملة الآن في العالم ، تقوم على أبجديات البحر المتوسط ، وهي أسهل حفظاً واتقانا من الصينية بشكيل رم لا يسمح بأية موازنة . ومعنى هذا أنه بينها الشعوب الأعرى لا تتعل_ملتدوين اللغة المَّالُوفَة للسِهَا إلا مجرد طريقة سهلة ومستقيمة نسبيًا ، فإن الصيني ملزم ْأن يتمكن من أحشاد عظيّمة من رموز الكلمات وجماعات الكلمات المركبة . فليس عليه أن يتعلم العلامات وكني ، بل التجميع المقرر لتلك العلامات أيضاً ، حتى يتاح له إظهار المعانى المخطَّفة . فيجب والحالة هذه أن يجعل نفسه ملما بعدد من المؤلفات القديمة التي تتخذ مثالا يحتذى . وبناء على هذا ، فبينها أنت واجد في الصين أعداداً عظيمة من الناس يعرفون معنى حروف معينة مألوفة كثيرة الظهور ، فلن تجد إلا القليلين نمن تتسع معارفهم لإدراك معنى فقرة فى إحدى الصحف ، وأقل من هؤلاء من يستطيعون أن يقرأوا ما قد يرى إليه الكاتب من مرام دقيقة أو خفية أو أى ظلال ممتازة للمعانى . وهذا يصدق أيضاً على اليابان وإن يكن بدرجة أقل . ولا مراء أن القراء الأوربيين وبخاصة أصحاب تلك اللغات التي لا تلتزم نظاما بعينه والغنية بالألفاظ مثل الإنجلغزية والروسية ، يختلفون اختلافاً عظيا فيا بينهم بالنسبة إلى عدد الكتب التي يستطيعون فهمها ومدى فهمهم لها ؛ قان قوتهم في اللغة تختلف باختلاف محصولهم من المفردات ؛ ييد أن ما يقابل ذلك من مستوى الفهم عند العبينين ، يستدعى تحصيله بذلا من الجهد والوقت أعظم كثيراً . فان تعليم الموظف (الماندرين Mandrin) في الصين إنما هو فى معظم شأنه تعلمُ القراءة .

وربما كان ما يترتب على ذلك من انشغال بال الطبقة المتعلمة أثناء سنى قابليتها التعلم والاستيعاب ولم كيابها على الآداب القديمة الصينية يجملها متحيزة لهذه العلوم التقليدية التي ألفقت فيها مثل هذا القندر الكبير من الزمان والطاقة . وقل من المرجال الذين كلحوا في عقولم يعلم من الطوم ، من يطرح برضاه ذلك العلم جانباً ، مفضلا عليه شيئا آخر جديداً غير مألوف. وغنى من اللبيان أن هذا الميل شيء لا ينفرد

به الشرق دون الغرب : وهو يبلو ظاهراً ملموساً عند كبار علماء الجامعات البريطانية والآمريكية مثلما يتجل لمدى أى ماندوين صيني . وإن البريطانين فى الزمن الخاصر ، لمرفضون أن يترحزحوا خطوة عن طريقتهم الحمجية فى الحجاء والإملاء ، بالرغم من المرايا المطلعة الواضعة التى متعود على التعلم الشجيي والمدعاية القومية من الانتقال إلى الأيجدية الصوتية (اكوالهجاء الصوقى . ولابد أنخصائص الكتابة الصينية والنظام التعليمي المترتب على تلك الكتابة قد قاما عصراً بعد عصر يعملية غربلة قوية نظاهر العقول المفرغة فى قوالب جامدة كما تظاهر عقلية الحافلةة العملية الجوفاء وتنصرها على الطراق الجامع الحلاق ، وتستبعد هذا الأخير من مراكز النفوذ والسلطان . وعندى أن هذا التضمير مستماغ ومقبول إلى حدكبر .

ومع ذلك فإن نظام الامتحان القديم لم يتوطد بكامل شدته إلا إبان أمرة منع الحديثة نسبياً . وكانت أسرة منج (١٣٦٨ - ١٦٤٤) أسرة وطنية النزعة محافظة على القديم ، المستر دت الصين بعد حكم المغول . ويقول المسر ل . ى . تش the Y. Chen أدل أباطرة أسرة منج قال عندما أعاد تنظيم الامتحان على أسس أشد تلقيقاً : ١ لسوف يملب هذا إلى مصيدتي كل من في العالم من فوى العقول ٤ . وقد مجت ١ الأداب القديمة الحديثة الخديمة الحديثة عقل الصين في مجيسها . فعندما يحل الزمن الذي ينهي فيه أى رجل من شق طريقه فيها كلحاً وكذاً يكون تقدير التم لديه ، قد بلغ من الصلابة واستمصاء العلاج مبلغة عند علماء الآداب الكلاسيكية القديمة بأكسفورد .

ولقد جرت عاولات عديدة لتبسيط للكتابة الصينية ولإتنباس طريقة أبجلية . فني أيام البودية الأولى بالصين ، عندما ترجم قدر عظم من الموافقات عن السنكريقية : أو شكت المؤثرات الهندية على بلوع تلك الفاية . وقد احترعت في الواقع أبجسديتان مينيتان ، وحظيت كل منهما بشيء يسبر من الاستعال . ولكن الشيء الملدى حال دن تعميم استعال هاتين الأبجدييين ، والمذى لا يزال حتى اليوم يقف في سبيل أي و مل يقة صويته و المحتابة الصينية ، هو أنه على حن ترى الكتابة الأدبية وأسلوب العبادة الفصحى واحداً لا يتغير من أقصى الصن إلى أقصاها، فإنافة الهامة المتداولة تختلف فكل من طريقة نطفها وصيفها الاصطلاحية المألوقة اختلاقاً يبلغ من الانساع حداً بحال الرجل من أبناء طريقة نطفها وصيفها الاصطلاحية المألوقة اختلاقاً يبلغ من الانساع حداً بحال الرجل من أبناء

 ⁽١) الطريقة الصوتية Phonetie في الكتابة الإفرنجية طريقة لا تتسك بالإماد النظيف المعروف الكليات وإنما نمثل المكليات أو تصور أسوائها بعليمات وسمروف بميزة.
 (المديم) تلييم الإنسانية جـ٣

إحدى الولايات لا يفهم لغة مواطن له من أبناء ولاية أخرى . وهناك على ذلك و لغة صينية فصحى » وهى عبارات اصطلاحية تكاد تكون مستظهرة عن الكتب ينعلق ما المتعلمون ويفهمونها على وجه الهموم ، وتتعلق آمال الكثيرين من المصلحين التربويين بالمسين فى الوقت الحاضر على احيال استخدام طريقة أبجدية للكتابة فى هسلم المسينية القصحى. وقد صيغت أمجانية صينية، وهى تعلم فى المدارس العامة، وتنشر جا المصحف والنشرات . وقضى على نظام الامتحان الجامد الذى قتل كل ابتكار فكرى خلاق .

كذلك أحدثوا تبسيطاً جسباً يتمثل فى إدخال صبغ الحديث الاصطلاحية المتطوقة لمل الصينية المكتوبة . وهذا من شأنه أن يتجه بها إلى اليسر والوضوح . فإن مثل هذه الصينية وإن كتبت بالحروف القديمة أسهل قراءة وكنابة ، وهى مكيفة لحاجات التعبر الأدبى المصرى تكييفاً أوفق كثيراً من الصينية الكلاسيكية القديمة .

على أنه ربما كانت هناك كذلك أسباب أخرى حالت دون تقدم الصين إلى مركز زعامة الإنسانية المحتنى . فإن ما ثالته الصين في المـاضي من النجاح والرخاء القــــديم البشرى من طمأنينة نفسسية وروح محافظة طبيعيين . فلو نظرنا إلى المسألة من الناحية البيولوجية ، فما من حيوان بمحتاج إلى التغير ، ما حــثت أحواله حسناً يكفل له البقاء فى وقته الراهن . وما نزال الإنسان في هذا الأمر حيواناً . وقد ظلت الصين ما بربي على الألغي سنة حتى القرن التاسع عشر ، دون أن يخامرها أو يداخل تاريخها إلا أقل إحساس بأى شكوك خطيرة حول تفوق مدنيتها بوجه عام على مدنيات العسالم كله ، ولم يكن هناك تبعاً لذلك أي سبب ظاهر يحدو بالصيني إلى إحداث أي تغيير . فقد أنتجت الصـــين فيضأ وفيراً من الفن الجميل وبعض الشـــعر المعتع وطباخة مدهشة وآلاف الملاين من الكائنات البشرية الذكية اللطيفة جيلا بعد جيل . وكانت وما نرال بلاد ملكيات صغيرة ؛ وكل الأيدى فها مطلوبة ، ويمكن استخدامها جميعاً أعمال زراهية عنيقة تعود إلى عهد الأجداد . هذا إلى آن هناك منافذ أمام الفوكُّ الجائمة إلى الانساع . إذ لا يزال في الشهال والغرب متسع عظم للإقامة والاستبطان وإذن فإن شيئاً ذا بال لم محدث ، فلم يتم توثر داخلي حاد يشتت شمل العشيرة العائلية الصينية الفائمة على نظام الأبوة. وهي العائلة التي تزوج أبناءها في سنمبكر وتحتفظ بهم في المنزل

قبل أن يحصلوا على الاستقلال الاقتصادى . هكذا سارت الصن في طريقها عصراً يعد عصر ، وما تزال تسير دون أن يداخلها أى شيء من ذلك التبرم العام ولا تلك العبودية ولا المذلة ولا النعس العام التي كانت تحف بحسكم الأغنياء الإمراطورية الرومانية ، حتى أدت في النهاية إلى انهيارها . أجل كان هناك والحق يقال فقر كثير واستياء كبير . بيدُ أنه لم يكن فقرأ جماعيًّا لقوم مطرودين مِن أملاكهم ، ولم يكن استياء شعبياً لا مناص منه . فبعد كل شدة وبعد كل كارثة ، تبرأ نفوس السكان ، وتلتثم الحراح . ولقدعمر النظام الصيني ألف سنة ، لاح فيها ممتنماً على كل انحلال وإن مرت عليه أيام كان فيها يتأوه ويترنج. أجل حدثت تغييرات في الأسرات المالكة وثورات وأدوار فوضى ومجاعات وأوبئة ؛ كما حدث غزوان عظيان نصبا أسرئين أجنبيتين على عرش (ابن السهاء » ؛ ولكن لم تحدث تلك الصدمات التي توجد انقلابًا ثوريا فى نظام الحياة اليومية . وقد يأتى الأباطرة والأسرات المالكة ويذهبون ؛ فأما الماندوين والامتحانات والآداب القديمة والتقاليد والحياة العادية فقد ظلت على ما هي . عليه . فالمدنية الصينية و إن ظلت منذ أسرة تانج ها بعدها ، تنتشر فى بطء واستمرار فى أنام وكمبوديا وسيام والتبت إلى نيبال وكوريا ومتغوليا ومنشوريا ، لا تنطوى على شيء تستطيع تسجيله لها عدا ذلك التقدم الجغرافي . وكان مسينيو القرن السابع الميلادى شعبًا مملنًا يعادل فى كل من حضارته ونواحيها الجوهرية ما كانوا عليه بعد . ذلك بألف سنة

٩ - الفن الصيني القديم

ربما جاز لنا هنا أن ندنى بكلمة حول فن الصين وعمارتها فى عهد أمرتى هان وتانج وما يجاه بينهما من أسرات أعرى. والصينيون ، لأسباب لا نستطيع اليتة أن عليها ، فضلوا على الدوام استعال الحشب والطوب على اسستعال الحجر فى المبانى . ومع ذلك فإن أحجار البناء الجيدة موفورة ببلاد الصين . ولا يكاد التاريخ يسجل لمنا في قبل القرن الحادى عشر الميلادى أى خرائب وأطلال ولا أية مبان اللهم إلا السور المعظم . على أن الصور والسيلات تشهد بوجود تراث طويل الأمد يرجع إلى عهسه أسرة د تسى إن ه أو أبكر منها .

وأقدم أشكال المبانى تشتق اشتفاقاً مباشراً من الحيمة المغولية . وأهم مظاهرها هو السقف العظيم الذى قد يكون ثنائياً أو ثلاثياً وبه أشغال خشية محفورة ومطلية باللك (الحملكة) . وربما كان السقف نفسه منطى بقراميد صقيلة ألوائها زاهية ، والمناف مناسم الصينى هى المعرات انتشاراً أنقياً . وهناك ظاهرة كثيرة الحدوث فى التصميم الصينى هى المعرات الشكريمية ذات العقود . وتكثر القناطر الحجرية ، والكثير منها على درجة عالية من الرونق . والهاجودا(١) المشعرة إلى السهاء طراز ثالث للبناء ، وهذه ومعها الشرفات والدرائرينات تكمل الصورة العامة للمبافى الصينية . تلك هى الصورة الممثلة للفن المعمارى فى الصين فى أوائل الحقية المسيحية ، وهي ما ترال على هذا الحال إلى يومنا هذا . ويقال إن الهاجودا — وربما كان ذلك غير صحيح ترجم إلى بدايات هندية بوذية ، وأنها المعادل الصينى ه الإستويا ، في الكارية المنذية .

ولهذا الاستخفاف بالمواد الطويلة الآجل القوية الاحيال أثره في معرفتنا بفن التشكيل الصبني قبل أسرة هان . ويكاد البرونر أن يكون هو الاستثناء الوحيد . فإنا نعرف بوجود زلم (؟ وتماثيل من البرونر ترجم إلى أسرة تشو (Chow) بل إلى أسرة شانج . وهي من جمال الشكل ومهارة الصنع إلى حد أنها تدل على وجود علم بأكمله بعاصرها من المنتجات المائلة التي لم يتز منها اليوم شيء . ولسنا نصل إلا في عصر أسرة هان وبعد بداية الحقية المسيحية ، إلى دور من أدوار الحياة الضينية ترك آثاراً كثيرة في الى مادة أخرى صدا هذه .

ويمدثنا أهل الذكرإن و التصوير «كان فنالصين الأساسي ، وكانت تصنع منه أشغال بالغة الجال والرونتي في عهد أسرة هان . وينوه التاريخ باسم كوكاى تشيه (Ku-kai-chih) (القرن الرابع الميلادي) بأنه من أعظم أساتلة المرقاش الصينيين . وما يزال بعض أعماله باقية ، ويتجلى فها من النضج والأستاذية ما يشهد بوجود معرسة راسخة

⁽١) الهاجودا أو الإستويا : نصب بوذي على صورة أكة ذات تبة . (المترجم)

⁽٢) الزلمة وعاء سروف ، وهو الجارة الكيوة . (المترجم)

⁽٣)المرقاش هو ريشة المصور . (المتمرج)

الفَّدَم في الفَّن فعلا . والتصوير الصيني يُعمل دائما أبدا بالألوان المائية . وإنا لنجد بدلا من التصاوير الجصية الجدارية (الفرسكوهات)(۱) الكبيرة صورا رقشت على الحرير والورق، وهي تختلف عن المنتجات الغربية فيا تظهر من كراهية إيجابية ليمثيل مظهر الدوو (Relief) . فهي مسلحة (۲) هوائية رقيقة ، كما أنها تعالج المناظر العبيعية المربة أكثر عما تعالج التثيل المدقيق للجسم البشرى . وعصر أسرة تانيج يعده كثير من النقاد العصر المذهبي لفن التصوير الصيني .

فأما فن النحت الصينى فإنه لم يواكب بأية حال فن النصور العمينى ولا يكاد يكون له شأن يذكر إلى جوار الإنتاج الأورى ، على أن الحرف الصينى من الناحة . الأخترى فاقتى في امتيازه . فقد جرت عادة الصينيين أن يعرضوا خزفهم لنارحوارتها أشد كثيراً بما جرت به العادة في العالم الغربي ، وأنتجوا عند نهاية حكم أسرة تانيح عزف البورسلان وما لا نظير له من أنواع الذجيج () وانصف حزف أسرة هان عاله على المنافق بالغ الصلاية والإبداع . وتوجد الآن في المنازل والحميوصات الأوربية أعداد وفيرة من تماثيل خزفية مزججة تمثل الحدم والخيل والجمال وما إلية ، وكلها ترجع لي زمن أسره تانيج . وقد استخرجت كلها من القبور ، وكان الأصل في وضعها في همجية . واستمرت مذابح القبور هالتي كانت تسفك دماؤها في ماض أكثر همجية . واستمرت مذابح القبور هالتي يقصد بها تزويد الرئيس المغولي الراحل يالحلامة والدواب في أرض الظلال : (القبور والموت) ، ستمرت في الصين حتى الشرن السابع أو السادس ق . م . ثم استبدلت بها اتماثيل . على أن الحون في أيام التيلا ما برحوا براحون العادة القديمة ، عادة الذبح الحقيقي . على أنها كانت بادت في مصر قبل أيام أقدم الأسرات الأولى وحلت مجلها هناك الصور واتماثيل الجنائزية .

 ⁽١) التصوير الجمس أوالفرسكو Frescoe شرب من الصور وطريقة لتصوير الثابت على بياض الجدران الطرى كثير اما تخلط فيه الأفوان بزلال البيش . (المقريم)

⁽٢) الصورة المعلمة : هي الى نيس قيها ما يوسى بالمدن والمسافة · (المدجم)

⁽ ٣) خزف الهورسلان Porcelain : صنف من السبي أبيض ورقيق وشبه شفاف كأن يصنع أولا بالممين . (للقريم)

⁽٤) الدَّرْجيج : وُنْسِع غشاوة شبه زجاجية على سطح الخزف . (المَّرْجم)

١٠ ــ رحلات يوآن تشوانج

فى عام ٢٧٩ ، وهى السنة التالية لوصول مبعوثى محمد (كل الله كتنون وبعد هبوط المبشرين الذين بعث بهم البابا جريجورى إلى إنجلترة ينيف وثلاثين سنة ، قام عالم بوذى متبتل يدعى يوآن شوانح أو (هيوين تسيانح) كما يفضل بعضى الثقاف أن يكتبوا اسمه – برحلة عظيمة إلى الهند من سيان فو أى (سيجنان) وهى عاصمة تاى تسنج . غاب عن بلاده فى هله الرحلة سنة عشر عاماً ، وعاد (١٤٥) وكتب



شكل (١٢٧) ممريطة نبين طريق يوان شوانج من للصين إلى الهند ١٢٩ – ٦٤٠

عن رحلاته بياناً يمتر به العمينيون كقطعة من الآداب الكلاسيكية القديمة . وإن فيها مر به من تجربة لتقطة أو نقطتن جديرتين بالملاحظة ها هنا ، لأنهما تساهمان بقسط فى استعراضنا العام لحالة العالم فى القرن السابع الميلادى(١) .

كان يوآن تشوانج نظيراً لهيرودوت فى غرامه بالعجائب وسرعة تصديقه إياها ، وإن أعوزه ما للكاتب الثانى من الحاسة التاريخية الممتازة ؛ فلم يكن ليطيق أن

⁽١) هن وصف جفرانى تفصيل لتلك المناطق أنظر العلمية الثالثة ألهبلد الثانى من $_{\alpha}$ المعالم $_{\alpha}$ من $_{\alpha}$ ($_{\alpha}$ المترجم)

يمر بنصب أو خرابة دون أن يعلم عنه قصة ما خرافية . وربما تكون نظرة أهل الصين إلى كرامة الآدب ، هي التي متحه من إحاطتنا بتفاصيل كثيرة عن كيفية تنقله ، ومن كان رفقته ، وكيف كان يقم ، أو ماذا كان يأكل ، وكيف كان يدفع نفقاته — وهي تفاصيل لها قبمتها البالفة لدى المؤرخ ؛ ومع ذلك ، فإنه ينفحنا يجموعة من ومضات براقة عن الصين وآسيا الوسطى والهند في المدة التي نحن بصدد يميًا .

كانت رحلته رحلة هائلة . ذهب فها وعاد منها يطريق هضبة الهامر . فلهب بالطريق الثيالى عاراً صحراء جوبى ، مسامراً للنحدرات الجنوبية لجهال تبان شان ، مطوقاً حافة بحيرة إسبك كول (Issikkul) العظيمة الحميقة الزرقاء ، وبلما وصل لمل طشقند وسمرقند ، ثم سار يترسم إلى حد ما خُملي الإسكندر الأكر متجها جنوباً محر خبر وييشاوار . ثم عاد بالطريق الجنوبي عمرقاً الهامر من أفغانستان لمل قشفر ، وبلما يكون قد سار على اعتماد خط المراجع الذي اتبعته قبيلة ويويه تشيء في أتجاه مضاد قبل ذلك بسبعة قرون ، ومر بطريق برقند على امتماد منحدرات الكوين لن ، حتى عاد إلى طريقه القديم قرب الناية الصحراوية السور العظم . وكان سلوك كل من هلين الطريقين يتضمن تسلقاً شاقاً لجيال وعرة . وليس من المستطاع سلوك كل من هلين الطريقين يتضمن تسلقاً شاقاً لجيال وعرة . وليس من المستطاع اقتماء أزه أثناء رحلاته ببلاد الهند ؛ فإنه ظل هناك أربعة عشر عاماً ، اخترق أثناءها كل شبه الجزيرة من نيال إلى صيلان .

وكان هناك فى ذلك الزمان مرسوم إمبراطورى يحرم السفر إلى الحارج ، حتى لقد انطلق يو آن تشوانج من سيان فو خفية كأنما هو مجرم هارب. وتعقبته السلطات لمنعه من تنفيذ مشروعه . وإن القارئ ليجد فى كتابه و الحياة ، ، كيف أنه اشترى من رجل أشيب اللحية حصاناً هزيلا أحر اللون يعرف طرق المعمدواء ومسالكها ، وكيف تفادى غفرا على الحلود بمساعدة و شخص أجنى ، صنع له على النهر جسراً من الحسك أدنى من ذلك الموضم ، وكيف أنه عبر العسمراء مسوشلاً بعظام الموتى من الرجال والماشية ، وكيف رأى سراباً ، وكيف نجا بأعجوبة مرتبن من السهام عناما كان يترود بالماء بالقرب من أراج الحفارة فى الطريق الصحواوى . وحلث ذات مرة أنه ضل الطريق الصحواوى . وحلث ذات مرة أنه ضل الطريق في صحواء جوبى ، وظل أربع ليال وخمة أيام ولا ماء معه ، وتجمد

إثنا عشر نفراً من رفاقه وماتوا رداً وهو فوق الجيال بن أحضان الجليد . كل هذا ة: ى روينا موجود في كتاب 1 الحياة 2 ؛ إذ أنه لا يقول عن ذلك غير القليل فى بيانه الشخصى عن أسفاره .

وهو يعرض علينا الترك وهم التطور الجديد لمجتمع الهون ، وقد ملكوا لا ما هو الآن التركستان فحسب ، بل كل ما يقوم على استداد الطريق الشهالى بأكمله . وهو يذكر أسماء مدن جمة ويشير إلى الزراعة واتساع رقعتها . ويولم له الولائم حكام عديدون ، وهم إما من حلفاء الصين أو من أتباعها إلى حد ما ، كما يولم له تحرون من بينهم خان الترك وهو شخص فاخر في ثياب خضراء من الأطلس ، وقد عقص شعره الطويل بالحرير .

 وكانت هذه الخيمة العظيمة الموشآة باللهب تشع فخامة وضاءة تخلب الأبصار ؛ وقد جلس الوزراء الحاضرون والقائمون بالخدمة على بسط فى صفوف طويلة على كلا الجانبين ، وكلهم مرثد ثياباً فاخرة من وشي الديباج ، على حين كانت بقية ِ الحاشية صاحبة النوبة تقف من ورائهم . ولقد رأيت أنه وإن كان واليًّا من ولاة مناطق التخوم ، فلقد أحاطه مع ذلك جو من السمو والظرف . خرج الحان من خيمته زهاء ثلاثين خطوة ليستقبل يوآن تشوانج الذى دخل الحيمة بعد تمية كريمة . . . وبعد فارة وجيزة ، أدخل على الحان رسل من الصين ومن كاو تشانج فقدموا رسائلهم وأوراق اعتادهم ، فقرأها الحان وسر منهاكثيراً ، وأمر فأجلس الرسل ، ثم أمر لنفسه ولهم بالنبيذ والموسيقي وبشراب العنب للحاج . وعند ذلك تيادل القوم الأنحاب ، وكان لمل كوثوس النبيذ وارتشاف ما فيها وسوسة وحفيف، بينها ارتفعت أنغام الموسيق عن آلاتها المتنوعة : ومع أن الألحان كانت أنغام الأجانب الشعبية الشائعة ، فإنها أدخلت السرور على المشاعر وأنعشت الملكات الذهنية . ﴿ ويعد قليل قلمت إلى الآخرين أكوام من شواء لحم البقر والضأن ، وقدم للحاج الطعام المباح من أمثال الكعك واللبن والفواكه المسكرة والشهد والعنب. وبعد انتهاء الوليمة ، قلم شراب العنب مرة ثانية ، ودعا الخان يوآن تشوانج أن ينتهز المناسبة فينفح المجتمعين بعض علمه ، وعند ذلك بسط الحاج لهم مبادئ ﴿ الفضائلِ العشرِ ﴾ والرفق بالحبوان وكمالات البارامينا (Paramitas)(١٧) وقك الرقاب . فانحنى الحان رافعاً يَديه وِأَمَن مسروراً مضبطاً وتقبل التعالم ٤ .

وبيان بوآن تشوافيج عن سمرقند يصورها مدينة كبيرة ذات رغد ورخاه ، د إنها مستودع تجارى عظم ، و المنطقة المحيطة بها عظيمة الحصوبة ملتفة الأشجار كثيرة الأزهار ومنتجة لكثير من الحيول الصافنات . وأهلها صناع مهرة ذوو رشاقة ونشاطه ، ومما يجد ذكره لحذه المناسبة ، أنه لم يكن هناك في ذلك الزمان شيء يمكن تسميته مدينة في إنهائرة الأنجلو سكسون .

ومع ذلك فكلما اقريت روايته مما مر به في الحند من حيرات ، تغلبت نزعة الحاج التتى العالم فى شخص يوآن تشوانج على نزعة الرحالة ، وعند ذاك يصبح الكتاب مزدحاً بأقاصيص فظيعة تروى معجزات لا سبيل إلى تصديقها . ومع ذلك فإنا نحصل على انطباعة عن المساكن والثياب وما إلمها ، وكلها وثيقة الشبه بما في الهند البوم . وإن ما كان بالهند آنذاك ولا يزال بها إَلَى اليوم ، من شدة تنوع الأشكال والهيئات المختلفة للجاهير ، لحو نقيض صريح للصين بما ييم جميع جماهيرها من الثياب الزرقاء . ووجود الكتابة والقراءة بالهند أيام بوذا من الأمور المشكوك فها ؛ فأما آنذاك فقد صارت الكنابة والقراءة من المهارات الشائعة تمامًا . ويقدم إلينا يوآن تشوانج بيانًا ممتماً عن جامعة يوذية عظيمة في نالاندا ، كشفت أخبراً خراثها ورفعت عنهــــا الأنربة . ويبدو أن نالاندا وتاكسيلا كانتا مركزين تعليمين كبرين في زمان يرجع فى قدمه إلى عهد نتح المدارس الفلسفية فى أثينا . كذلك زَّار كهوف أجانتا التيُّ مر الحديث عنها . وقد وجد يوآن تشوانج نظام الطوائف كامل الاستقرار هناك بالرغم من كل ما بذله صده بوذا ،ووجد نجم البراهمة في تألق وصعود لاريب فيه . وهويذكر المعرب الم العلوائف الأربعة الرئيسية للتي ذكرناً ٢٦٠ . بيد أن بيانه عن وظائفها وأعمالها يختلف نوعاً ما . فهـــو يقول إن السودرا (Sudras) هم حراث الأرض. ويقول الكتاب الهنود إن عملهم كان خدمة الطوائف الثلاثة ؛ المولُّودة مرتبن ؛ الأعلى منهم .

ولكن كما سبق أن ألمنا فإن بيان يوآن تشوانج عن واقع الأحوال الهندية يغمره ماكدسه فيه من الأساطير والمحتلقات الورعة . فن أجل هذه دون غيرها جاء ، وسهد كان

 ⁽¹⁾ كالات الهاراميتا : هي نضائل الكائل المطلق حل ، السفان والاحمان والسبر والحكة ،
 التي ينبئي أن يمارسها كل من تشرق نفسه إلى سلوك سبيل التبوة البوذية .
 (٢) انظر المسائر ج ١ ص ٣٣٤ ط ٣ .
 (المتحرج)

يفرح ويغتبط . فأما ما عدا ذلك نواجب قد ألتي على عاتقه رخماً عنه كما سرى . فإن عقيدة بوذا التي ظلت إلى أيام أسوكا ، بل حتى فى زمن متأخر يصل إلى عهد كانيشكا (Kanishka) ، خالصة نقية إلى حد يجعل منها إلهاما نبيلا ، تتبدى لنا آ نذاك تائية فى بيداء من الهواء غير المعقول ، حيث تحولت إلى فلسفة توثمن بوجود سلسلة لا نهاية لها من البوذوات وإلى أقاصيص كرامات وأعاجيب شبهة بتمثيليات عيد الميلاد الإيمائية (Pautoniime) ، وإلى أناف يحملن حملا إعجازيا ويلدن فيلة ذوات ستة أنياب ، وإلى أمراء محسنن يقلمون أنفسهم طعاماً نخرات جائعات ، ومعابد مشيدة أنياب ، وإلى أمراء محسنن يقلمون أنفسهم طعاماً نخرات جائعات ، ومعابد مشيدة بالأقاصيص هنا ، فإن كان القارئ ميالا إلى مثل هذا النوع من الأشياء ، وجب عليه أن برجم إلى معلبوعات الجمعية الملكية الآسيوية أو الجمعية الهندية ، حيث يجد طوفانا من مثل هذا الهليان . وذلك بينا البرهمانية قد أخلت تكسب الأنصار وتفوز بالغضوق من جديد في كل مكان في منافستها لهذه البوذية التي تقوضت فكرياً واختنقت تحارفها المذهبة ، كما لحفظ ذلك يوآن تشوانج آسفا .

وإلى جوار هذه الشواهد الدالة على وجود اضميحالال فكرى كبر في الهند ، يجوز لنا أن نلحظ أيضا تكرار الحديث من المدن الحربة المهجورة في بيانات يوآن تشوانج . فإن شطراً كبيراً من البلاد لم يبرح يكابد من خارات الإفناليين وسلبهم والفوضي المترتبة عليها . فإنا نجد مثل هذه الفقرة مراراً وتكراراً : « لقد ذهب شهالا بشرق محترقاً خلم العظموس السرى والفيلة البرية ، ويتربص فيه اللموص والقناصة على الدوام لقتل الحسافرين ، حتى إذا خوج من الغساية وصل إلى إقليم كوشيه ناكالو (كوزينا جاراً) . وكانت أسوار المدينة حطاماً خربة ، بينا الملدان والقرى قد هجرها أهلوها . وكانت أسس مباني المدينة القسامية المبنية من الطوب ، (أعنى المدينة التي كانت القصبة) تمتد في دائرة يزيد عيطها على عشرة من الأميال الصينية (للابنة القراب عاماً باية حال . إذ المدينة حراباً موحشاً » . ومع ذلك ، فلم يكن هذا الحراب عاماً باية حال . إذ

⁽١) لى الحا : هو ميل صيني يساوي على الأرجح أكثر من ثلث ميل إنجليز . (المترجم)

لا يقل عن ذلك كثيراً ما يذكره الكاتب من المدن المزدحة والقرى الآهلة والمزارع الناشطة ر

والظاهر أن عودة يوآن تشوانج إلى سيان فو عاصمة الصين كاتست تصرآ مبيناً . فلا شك أن بشراء يسعون بين يديه كانوا يبلغون الناس بمقلمة . وأعلنت بالمسلاد علمة عامة ، وازدانت الطرقات بالأعلام الزاهية وملئت أرجاؤها سروراً بأنغام الموسيق . وحن به الناس أثناء دخوله إلى المدينة في موكب فعنم حافل . واحتاج علم مفانم رحلاته إلى حشرين حصاناً ؛ ذلك أنه أحضر معه مئات من الكتب البوذية المكتوبة بالسنسكرينية ، والمصنوعة من خوص النخل ولحاء البتولا المطبق طبقات بعضها فوق بعض ؛ وحل معه تماثيل جمة لبوذا ما بين كبيرة وصغيرة ، وما بين نعمية وبفورية أو من خشب المصنلل ؛ وكانت معه صور مقلمة ، وما لا يقل عن مئة وخسين أثراً حقيقاً مشهوداً بصحة نسبته إلى بوذا . وقلام يوآن تشوانيع الملامراطور ، فعالمه معاملة صديق شحصي ، وأخله الما لقصر يسأله يوماً بعد يوم عن عجائب تلك الأراضي الغوية التي قضي فيا مثل ذلك الزمن الطويل . ولكن بينا عن عجائب تلك الأراضي الغوية التي قضي فيا مثل ذلك الزمن الطوذية .

ويمتوى ما ينلو ذلك من تاريخ يوآن تشوانج على حادثين تلقيان الفسياء على الفكرى لهذا العاهل العظيم تلى تُستج ، الذي كان فيا برجع مسلماً يقدل ما كان مسيحياً أو بوذياً (١٦. والعيب في كل المتخصصين في الدين معرفتهم بأكثر مما يلزم من شنون ديانتهم الحاصة ، ومن أوجه اختلافها عن الديانات الأخرى ؛ ولعل مزية ... أو عيب .. أولئك الساسة الحلاقين من أمثال تاى تسنج أو قسطنطين الكبير ،

⁽١) يشيد الكتاب البوذيون يلدكر تلى تسنج لاستباله يوآن نشوانج (١٤٥). بيد أن مؤرخى المسلمين نعلوا مثل ذلك يسبب مسجد كتمون ، وكملك فعل الكتاب المسيحيون من أجل مالقيه المبموثون المساطرة (٦٣١) ومن هنا جاء استنتاج المؤلف ما اجحم فى عقل هذا الإمبر اطور من استرام لحله. الأدمان الثلاثة . (المترجم).

أنهم لا يعرفون من قلك الأمور إلا القليل نسبياً . وواضح أن الحير الجوهرى الكمين في هذه الديانات جماء كان يبدو لعمن تاى تسنج خيراً جوهرياً واحداً لا يختلف في إحدالها عنه في الأخرى . لذا كان من الطبيعي أن يقرح على يوآن تشوانج أن ينبذ الحياة الدينية ، وأن يلتحق بوزارة الحارجية ، وهو اقدار لم يقبله يوآن تشوانج لحفاة واحدة . وعند ذلك أصر الإمبراطور أن يحصل على بيان مكتوب عن أسفاره ، وبنا حصل على يهان مكتوب عن أسفاره ، وبنا حصل على يهان مكتوب عن أسفاره ، تنكنزه معترين به . وأخيرا اقترح تاى تسنج على البوذى المتشبع تماماً بمدئه أن يستخدم معرفته بالسنسكريتية في ترجمة موافقت المعلم الصيني العظيم لاو ترى (Lac-Tse) لينضع بها القراء الهنود .

ولا مراء أن الإمراطور رأى فى ذلك ردا عادلا للجميل وحسامة نافعة للخبر الجوهرى الكامن وراء الديانات حميماً . ذلك أنه كان برى بوجه الإهال أن لاو رى لا يقل عن بوذا إن لم يكن خبرا منه . وإذن فلو أن عمله (موافه) وضع تحت بصر المراهمة للقوه بالرحاب . وينفس هنا الروح بلى قسطنطن الكبر قصاراه ليحمل آريوس وإثناسيوس على تسوية أمورهما وديا . وطبيعي جاءاً أن مقرحه هساما قد رفضه يوآن نشوانع . فإنه اعتكف فى أحسد الأدرة ، وقضى بقية حياته مترحاً بأسلوب صيتى وشيق كل ما وصعه جهله من الأدب البوذى الذى أحضره معه .(**)

 ⁽٠) من الدين والفلسفة والتاريخ ببلاد الصين والهند وغيرها من أقطار الدرب والشرق ، أنظر المدّرج : « التاريخ وكيف يفسرونه » : تأليف البان ورجرى [نشرته الهيئة العامة للتأليف والنشر يماسود و] .

الفضِل الشيكا توك

محمد (صلى الله عليه وسلم) والاسلام

٢ -- حياة محمد (س) على الهجرة . ١ -- بلاد المرب قبل عمد (ص) ء - تماليم الإسلام . ٣ - عمد (س) يصبح تبيا مناقحاً ٢ – أيام عظمة بني أمية . ه – الخليفتان أبر بكر وعر . ٨ -- الثقافة المربية .

٩ – الذن العربي ..

٧ - انحلال قوة الاسلام في ظل للمباسيين .

١ _ بلاد العرب قبل محمد (ص)

مبق أن وصفنا كيف حدث في ٦٢٨ م أنه أمَّ مجالس بلاط هرقل وقباذ وثاى تُستج رسل من العرب ، أرسلهم شخص معن هو محمد ، ﴿ رسول الله ﴾ ، المقم فى بلدة و المدينة ، التجارية الصغيرة ببلاد العرب . وسنخبرك الآن من كان ذلك النبي اللي نشأ بن بدو الصحراء العربية وتجارها .

فمنذ أزمان صيقة كانت بلاد العرب، عدا شريط اليمن الحصيب الممتد فىالجنوب الغربي ، أرض بدو رحَّل ، وهي المنبت الرئيسي للشعوب السامية . فمن يلاد العرب وفى أزمان متنوعة اندفعت أفواج من هؤلاء البدو نحو الشهال والشرق والغرب إلى بلاد المدنيات القديمة بمصر وساحل البحر المتوسط وأرض الحزيرة بالعراق . وقد لا حظنا في هذا الكتاب كيف عمرت السومريين بعض تلك الموجات السامية وتغلبت علمم ، وكيف منكن الفينيقيون والكنعانيون الساميون لأنفسهم على امتداد شواطئ البحر المتوسط الشرقية ، وكيف اتحذت الشعوب السامية حياة الاستقرار في بلاد بابل وآشـــور ، وكيف غزا الهٰكسوس مصر ، وكيف استقر الآراميون تماماً في سوريا متخذين من دمشق عاصمة لهم ، وكيف فتح العبرانيون ﴿ أَرْضَ الْمِعَادِ ﴾ فتحاً جزئياً . وقد انتقل (the - v)

الكلدانيون فى تاريخ مجهول من بلاد العرب الشرقية ، واستقروا فى الأراضى الجنوبية السومرية القديمة . وكان كل غزو يُدخل فى التاريخ هذا القسم من الشعوب السامية ثم ذلك . بيد أن كل واحدة من هذه الجاعات كانت لا تفتأ تترك نواة قبلية من خلفها تزود الغزوات التالية فى المستقبل بالرجال .

وتاريخ الإمراطوريات الأعلى تنظيا في عهد الحصان والحديد: إسراطوريات الطرق والكاية ، يظهر لنا بلاد العرب متمددة كالإسفين بين مصر وفلسطين وبلاد الفرات واللبجلة ، كما يصورها حزاناً للقبائل المترحلة التي تغير وتتجر وتتقاضي الحرية الفرات واللبجلة ، كما يصورها حزاناً للقبائل المترحلة التي تغير وتتجر وتتقاضي الحرية من أجل حصانة القوافل وحمايتها . أجل إنها تعرضت في بعض أيامها للخضوع لسلطان خارجي ضعيف موقت . وإن كلا من مصر وفارس ومقسدونيا وروما وسوريا بلاد العرب ، وتعلن عليا ضريا لا أساس له من الحياية . وكانت هناك في عهسد الإمراطور تراجان ولاية رومانية تسمى و بلاد العرب ، وكانت تضمين إقليم والخيري أن يرتفع أحد مشايخ العرب ومدينته التجارية إلى مرتبة مؤقنة من الرفعة . كانك كان حال أذينة (أودينائوس البلمري) صاحب تدمر الذي ذكرنا من قبل سيرة حياته القصيرة . وكانت بعليك كذلك مدينة صواوية أخرى بلغت رفعة موقنة من الرفعة . موترة عوان غور الماش وما تران خوانها تدهش السائح .

وبعد تدمير تدمر أخذت السجلات الرومانية والفارسية تسمى عرب الصحراء باسم (Saracens) : أعنى المشارئة .

وفى أيام كسرى الثانى لللقب بأرويز ، ادعت فارس نوعاً معيناً من السيادة على بلاد العرب ؛ وبعثت إلى بلاد اليمن بالموظفين وجباة الضرائب . وقبل ذلك الزمان ظلت اليمن بضع سنين تحت حكم النصارى الأحباش ، وظلت قبل ذلك سبعة . قرون وهي تحت حكم أمراء من بني جلدتها ، يعتنقون الدين المهودى ، وهو أمر . خليق بالملاحظة .

ولم تكن هناك حتى مستهل القرن السابع الميلادى أية أمارات على وجود أية قوة ﴿

غير مألوفة أو طاقة خطرة في الصحراوات العربية . إذ كانت حياة البلاد تسير على ما كانت حليه منذ أجيال طويلة . فحييًا وجلت رقعة خصبة ، أحتى حيًا كانت هناك عين أو يثر ، كان يعيش صكان زراهيون قليلو العدد في مدن مُسورة ، محاذرة من البدو الذين يتجولون مع أغامهم وماشيتهم وخيولم في العصحواء . وكانت الملان الرئيسية تنشأ على امتداد طرق القوافل المهمة وتبلغ من الرخاء مرتبة ثانوية ، وكانت في طليمتها المدينة (: يثرب) ومكة . وفي بداية القرن السابع كانت يثرب بلداً يحتوى على ما يقارب 10 ألف نسمة لا يتجاوزونها أما مكة فكان بها ، فها يحصل عشرون ألم أم حضرون ألفاً . وكانت يثرب بلداً الفضل نسباً من حيث المياه ، بها أحراش غيل كثيرة ، وكان سكانها من المجانبة ، أي من ألهالى الأرض الحصيبة في الجنوب ، أما مكة فدينة من طراز آخر قائمة حول ينبوع ماء ذي طعم مربر ويسكنها بدو حديثر الاستقرار .

ولم تكن مكة مجرد مركز تجارى ولاكان ذلك أول وأهم صفاتها ، بل كانت مثابة حج للناس . فكان بين قبائل العرب من زمان بعيد نوع من الحلف يتموكز في مكة وبعضي أماكن مقدسة أخرى ؛ وكانت هناك أشهر حرّم (هدئة) تقف فيها الحروب وتمتنع الثارات ، وعادات مرعية من حماية الحجيج وإكرامهم . وقد نما ، بالإضافة إلى هذا عنصر أوليمي () في هذه الاجتماعات . إذ كان العرب قد أخلوا يكتشفون في لغتهم عجالي الروعة والجال ، فكافوا يلقون القصائد الحاسية وأهائي الغزل . وكان مشايخ القبائل يجلسون وعلى رأمهم وأمير الشعراء المحتكم بين الشمراء ومنح الجوائز ؛ وكانت الأغلق الفائزة بالجوائز تغني في كل بلاد العرب .

وكانت الكعبة بيت مكة المقدس سحيقة القدم آفذاك . وهي معبد مربع صغير من الأحجار الديركية . وكان هذا الحجر من الأحجار الديركية . وكان هذا الحجر الديركية . وكان هذا الحجر الديركي يعد رباً ، وفي حمايته كل الآلمة القبلية الصغيرة بيلاد العرب . وكان سكان مكة الدائمون قبيلة من البلو ؛ استولوا على هذا المعبد وأقاموا أنفسهم سدنة له . فيأتهم في الأشهر الحرم أفواج عظيمة من الناس يسيرون حول الكعبة وفق طقوس

⁽١) قسمية إلى تنطقة أوليمبيا اليونانية القديمة اللي كانت تقام فيها المهرجانات. (المترجم)

دينية معينة ، فينحنون ويقبلون الحجر ، ويشتغلون كذلك بالنجارة وإلقاء المقطوعات الشعرية . وكان المكيون يجنون أكبر الفوائد من هؤلاء الزوار .



(شكل ١٢٨) خريطة بلاد المرب والبلاد المتاخمة لها

ولشد مايدكرنا هذا بحالة بلاد الإغريق الدينية والسياسية قبل ذلك بأربعة صشرقرناً.

بيد أن وثنية هولاء العرب الأشد بدائية أخلت تتعرض للهجات من جهات عدة .

فأدخل العرب في دين البهودية أفواجاً أثناء عهد المكايين (أ) والهيروديين ببلاد البهودية

(اسلام) ، وكانت الجين ، كا سبق أن ذكرنا ، قد وقعت على التعاقب في حكم البهود

(أمني العرب المعتقبن للبهودية) ، فالمسيحين فالزرادشتين . وواضح أنه لا مفر

من حدوث الكثير من المناقشة الدينية أثناء انعقاد أسواق الحج في مكة وما شابهها من

مراكز : وطبيعي جداً أن تكون مكة هي معقل نحلة الوثنية القديمة التي وهبتها أهيتها

ورخام، ، فأما المدينة فهي من المناحية الأخرى ذات ميول بهودية ، وتقع بالمقرب

 ⁽١) المكابيون : أمرة بهودية ظهرت في الفريين ٢ ، ١ ق. م . وأمرة هيرود ، حكت في فلسلين في ذمن المسيح عليه السلام . (المترجم)

منها مستقرات لليهود . فلم يكن بد إذن من أن تكون مكة والمدينـــة فى حالة منافسة وتنازع .

٢ ــ حياة محمد (ص)حتى الهجرة

كان مولد محمد مؤسس الإسلام بمكة قرابة ٥٧٠ م. ولد في فقر بالغ ، وكان ضليل الحفظ من العلم ، ولو قيس حتى بمعايير الصحراء لكان أميا غير متعلم ، ومن المشكوك فيه أنه تعلم الكتابة إطلاقاً (٢٠ . وظل بضع سنوات يشتغل بالرحى ، ثم دخيل بعدثلد في خدمة سيدة معينة اسمها خديجة ، وهي أرملة تاجر موسر . ولعله كان يعني (٢٠ بإيلها أو يساحد في أعمالها التجارية . ويقال إنه سافر مع القرافل إلى المجن (٣٠ وإلى سوريا . والظاهر أنه لم يكن تاجراً عظم النع له في أجارتها ، ولكنه أوتى من الحظ نصيباً موفوراً ، فأعجبت به المسيدة فيزوجته ، فتضايقت (٤٠) من ذلك عائاتها تضايقاً كبيراً . ولم يكن عند ذلك قد تجاوز الحاصة والمشرين . وليس من الحقق أن زوجته كنيراً . ولم يكن منه ذلك هائاتها مقالياً كانت في الأربعين . والمراجع أنه لم كانت أن الأربعين . والمراجع أنه لم أنها مائية رحلات طويلة بعد الزواج . وولد له أطفال عديدون ، كان امم أحدهم

 ⁽١) علام ألشك وأميته (عليسه الصلاة والسلام) مقطوع بها ينس الشرآن في مؤاضع عنددة منه.
 (١) المترجم)

 ⁽٢) الجميع مليه أن الكتب الإسلامية أنه (عليه السلاء والسلام) أشرف على تجارة لها إلى الشام مقابل أجر معلوم.
 (المترجم)

⁽٣) لم يفيت أنه عليه المسلاة والسلام شافر إلى اليمن لا التبيارة ولا لأي فرنس آخمر. والثابت. المعروف من كتب السيرة أنه لم يسافر إلى الشام إلا مرتين ، مرة وهو حدث في حوال الثانية عشرة مري. حمره في صحبة عمه أبي طالب وأخرى حيا كان في حوالى الحاصة واللطرين تالياً من السيدة خديجة (وشيى الله صبا) في تجارئها . (المترجج)

⁽٤) قال الذكور حبكل فى كتابه وسيئة عمده ص ٤٤ ما نصه وظر تبغى عديمة أن حددت الساحة التي يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا أطلها صنعا فيتم الزواج - وزوجها عمهاجمرين أشد إذ كان عويلد قدمات قبل حرب الفجار - نما يكذب ما يروى من أنه كان حاضراً ولم يكن راضهاً عن هاما الزواج ع . (المترجم)

عبد مناف⁰⁷ ــ أى خادم الرب المكى و مناف ۽ ، و هذا يدل على أن محمداً كم يكن قد توصل فى ذلك الوقت إلى أية اكتشافات دينية⁷⁷ .

ثم ظل حتى بلغ الأربعين من عمره يسيش فى مكة عيشاً عادياً كبيل لزوجة ثرية .
وربما كان هناك أساس للظن بأنه أصبح شريكاً فى بعض الأعمال المرتبطة بالإنتاج
الزراعى . فلو أن إنساناً زار مكة سنة ٢٠٥ م لرأى فيه فيا يرجع شخصاً أشسبه
بالمترفين ، شخصاً حياً وسم الطلمة ، منتقلا بين المجالس، منصناً للحديث ، وشاعراً غير مجيد ٣٥ ، ورجلا ذا مرتبة ثانوية على وجه العموم .

وليس في وسعنا أن نتحدث عن حياته الحاصة إلا على سبيل الظن والتخمن . وقد اعتقد بعص المتوقدى الحيال من الكتاب أنه كانت تلم به أدوار صراع روحى عظم ، وأنه كان يخرج إلى الصحراء في آلام مرحة من الشك والرغبة القلسسية . وفتى هدأة الصحراء ليلا ، وفي قيظ ظهرة الصحراء نهاراً ، عزف النبي نفسه كما يفعل الناس جميعاً وأحس الوحدة والانفراد وإن لم يستوحش ، ذلك أن الصحراء قد، ولكن الصحراء لا يستطيع إنسان أن يجحده 200. وربما كان الحال كذلك حقا ، ولكن

⁽١) النابت تعلماً أنه لم يوله له عليه الصلاة والسلام ولد بهذا الإسم . والثابت أن نفسه الشريفة كانت تنفر منذ صباه من كل أصنام السرب . ولمل الكانب قد اختلط عليه الأمر فيصل من عبد مناف إلحد ألنالث لنبى عليه السلاة والسلام أسها لأحد أبياته . (المترج)

⁽٢) وهل قال أحد بأن محمداً طيه العملاء والسلام قد جاه بجديد من ناحية العقيمة والدين قبل الأربين هندسا جاءه الروح الأمين وهو يتحتكف غاد حراء ؟ وهل لا يعتبر نفود محمد (صر) الطبيعى من الأمسام تركل ما يحت إليها بعملة من طقوس وقرابين وتعظيم اللخ من أمارات السمو الروحى الذي هوف بهن قومه من طريق تحمكه بكامل العملات والأخطاق حتى لغرو بالأمين ، والذي حفزه إلى التفكير والتأمل والتحمل طبيه الروح الأمين بالرمالة والتحريم . (المترجم)

⁽٣) معاذ اله أن يتصف النهى يقول الشعر ؛ والله نزمه عن الشعر فى كتابه الكريم ولم تروكت. السيرة الشريفة تعد أنه عليه السلام قال شعرًا فى صباء . ﴿ المُترجم ﴾

⁽٤) السير مارك سايكس.

لم يتم أى دليل () على حدوث مثل تلك الرحلات الصحراوية . ومع ذلك فإنه كان ولا مراء يفكر تفكيراً عميقاً فيا حوله من أشياء . ويحتمل أنه رأى كنائس مسيحية في سوريا(٢٧) ؛ ويكاد يكون عققاً أنه كان يعرف الكثير عن اليهود ودياتهم ، وأنه استمع لمل سخريتهم من ذلك الحجر الأسود في الكعبة الذي كالت له السيادة على الأرباب القبلية الثلاثينة ببلاد العرب . ورأى جماهير الحجيج ولحظ أمارات الحتل وعدم الإعلام م والحرافات المتجلية في وثنية البلدة فضاق بلك فرعاً . وربما كان البهود قد هدوه إلى الاعتقاد في الرب الواحد الحق ، دون أن يدرك ما حدث له (٢٠)

أخيراً لم يستطع أن يكتم هذه المشاعر في نفسه زمناً أطول . فلما بلغ الأربعين شرع يتكلم عن حقيقة الإله إلى زوجته أول الأمركا هو واضع ولما نفر قليل من أصدقائه الخالصين . وجاء بآيات معينة ، أحل أنها قد أوحيت إليه عن طويق ملك من السهاء ، وكانت تحتوى على الجنوم بوحدة الرب وبعض أحكام عامة معقولة عن البر والتقوى . كذلك أصر على وجود حياة في الدار الآخرة ، وهذاب جهتم المستهن والشرير ، وبعل الفردوس تُزكّ المومنين بالإله الواحد . وفي ما عدا دعواه أنه نبي جديد كالا يبدو أن قد كان في هذه المبادئ شيء بارز الجدة في ذلك الزمان ، بيد أن هذه المتعالم كانت في عرف مكة دعوة إلى الشفب والفنتة ، وهي التي كانت تعتمد في المتعادة الآلمة ، والتي كانت للملك مستمسكة بالأصنام بوم بعض معايشها على نحلتها المتعددة الآلمة ، والتي كانت للملك مستمسكة بالأصنام بوم كان سائر العالم قسد أنحذ ينبدها . وقد كال عمد على التما تما كان سائر العالم قسد أخط ينبذها . وقد كال عمد المنا المالم قسد أخط بالمالم قسد أخط المنا على المالى المالم قسد أخط المنا عالى حال سائر العالم قسد أخط بالمالم قسد أخط كان عالى عالى عالى عالى عالى عالى المالم قسد أخط بالمالم قسد أخط المنا على المالى حالية على المالم قسد أخط المالى المالم قسد أخط المنا المالم المالم المالم المنا المالم المالم المالم المنا ا

(المرجم)

⁽١) المتواتر الجمع طيه أن ذلك حدث منه طيه السلام وإلا فأين حديث غار حراء ؟

⁽ المرجم) .

 ⁽٢) أطلاق القول بأنه طبه العسلاة والسلام زار صوريا لا يقوم طبه دليل إذ أنه لم يتعد في
 تريارتبه الحتام مدينة بصرى عمد قوافل المكين وهي في أنسى إلجنوب الشرق فللسطين الحالية .

⁽٣) أم يكن النبي عليه الصلاة والسلام قبل الرسالة بحاجة إلى تعرف الإله الواحد الحق من الهود فإن العرب في جاهليّهم الوائمية كانوا يعرفون الله الحالق وإنما كانوا يشغلون من الأوثان والاستام في يعالية أحرج جا لهنماء في تقريم إلى الله زلن . فلما تقام عليهم المهد سينوا لها من دون الله م ذكرهم لاهمه ومعرفهم له وذلك فاعر في أشعارهم وعطيم في الجاهلية .

يأن الأنبياء من قبله وبخاصة عيسى وإبراهيم كانوا معلمين قلصيين ، ولكنه يكمل تعاليمهم ويختمها . وهو لم يذكر البوذية بأى حال . وربما كان ذلك لأنه لم يسمع قط يامم بوذا . فإن بلاد العرب الصحراوية كانت غارقة فى الركود والتأخر من الناحية اللاهوتية .

وظلت الديانة الحديدة بضع سنن وهي سر تحضظ به جماعة صغيرة من البسطاء ،

هم : خديجة زوجة النبي ، وعلى ابنه المتيني ، وزيد وهو عبد ، وأبو بكر وهو
صديتي معجب به . وظلت بضع سنن تحسلة مغمورة في بيوت قليلة بمكة ، كانت

هم دعيسة وزعيرة خافتة في وجه عبادة الأوثان ، بلغ من خول شأنها وضآ لة أمرها
أن زعاء البلدة لم يعبروها أدني اهتام . ثم أخذت تقوى ويصلب عودها . وأخد محمد يجهير بالمدعوة أكثر ويعلم الناس مبدأ الإيمان بالحياة الآخرة ، ويتوعد عبدة الأوثان والكفرة بنار جهنم . ويبدو أن دعوته كان لها أثر عظيم . فبدأ للكثيرين أنه إنا المحدلة لل إقامة نوع من اللاكتاورية في مكة ولمل اجتذاب كثير من البسطاء والمتذمرين إلى جانبه . وبلنت قريش محاولة لتنبيط الحركة الجديدة والقضاء علها .

ومكة كما هو معلوم مثابة للحج وحرم آمن ؛ ولا يجوز سفك أى دم داخل أسوارها ؛ ومع ذلك فإن القوم نفصوا عيش أتباع المعلم الجلايد تنفيصاً شديداً إذ استعملوا معهم أساليب المقاطعة والمصادرة . فاضطر بعضهم إلى اللجوء إلى الحبشة المسيحية . على أن النبي نفسته لم يمس بسوء — لما له من عزوة قوية تحميه ، بينا لم يشأ خصومه أن يفتحوا على أنفسهم باب الثار الدموى . وليس فى إمكاننا تتبع تأرجحات الكفاح فى هذا المقام . بيد أن من الفرورى أن نذكر حادثة واحدة عمرة فى حياة النبي الجلايد ، يقول عنها السير مارك سايكس و إنها تثبت أنه كان عربياً صميماً ، فإنه بعد كل إصراره على وحدانية الذ ، عاد فلداخله المردد . فجاء ساحة الكمبة وأعلن(1)

⁽۱) هذه قرية للمرافيق ، وإذ تعدد الصورة المروية الآيات المزعومة من «تلك الدرافيق المعر وإذ شفاهين لحى التى ترتجى «أد « وإن شفاهين المرتجى » اليخ لما يجمل تصديق الرواية مستحيلا ناميك هن أن لا يعقل أن يعتلم الدران أصنام تريش فى بعض آيات ثم يعقب ذلك مباشرة بالاستئكار فى نفس الصورة كما هو ظاهر من قوله تمال « أفرايم اللات والدرى » ومناة الثالثة الإخرى ، ألكم اللاكم وله الارش ، تلك إلان قسة فميزى ، إن هى إلا أسها مسيتموها أثم وآباؤكم ما أنزل القربا من سلطان » ، الدع إذ فإذا وضعنا « أفرايم اللات فالدرى» ومناة الثالثة الأخرى، تلك الدرافيق العلا، وإن فلماضين س

أن أرباب مِكة وربائها ، قد تكون قبل كل شيء حقيقية ، وقد تكون ضربًا من القديسين الذين لم قوة الشفاعة .

قويل تراجعه بالحمية والحاسة من قريش ، ولكنه لم يكد يتم قوله حتى أخذه الندم [كذا ا . . .] ، وذلك يدل على أن الخوف من الله – كان لا جرم – يكلأ جوانب قلبه ، فما بدر منه في حتى الأمانة أكر دليل على أمانته ونزاهته(١٠) . ومن ثم بذل كل ما وسعه لإصلاح ما فرط منه [كذا ا . . .] . فقال إن الشيطان تلبس لسانه(١٠) ، ثم أخذ يسب عبادة الأصنام بقوة وعزم مجددين . وبذلك تجدد الكفاح ضد الآلفة العتية بعد فترة سلام وجزة ، متأجباً على صورة أشد وأعنف ، دون أي أمل آخر في الصلح .

وانقضت فدة من الزمن كانت لقريش وأنصارها فيها اليد العليا . فوجد محمد نقسه بعد حشر سنوات من الرسالة رجلا قد بلغ الحسين من العمر ، وأخفق إخفاقاً تماما في مكة . وكانت زوجته الأولى خديجة قد ماتت ، وكان كثرون من كبار أصحاره ماتوا أيضاً قبل ذلك بقليل . فخرج يلتمس الحوار في بلدة الطائف القريبة ، ولكن للطائف ودلكي المساب. حتى إذا أظلمت الدنيا في وجهه كأحلك ما تكون ، انقضت أمامه أبواب الحظ . 14 وجد أنه كان موضع تقدير وإحجاب في مكان لم يكن له بحسبان . ذلك بأن يثرب (المدينة) كانت تحرقها الانقسامات الداخلية شر محرق ، ولعل

لترتجى (ثمّ أردلناها يقوله تعالى) . . . ، و ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذا الله ع لكان الملسح والمام لشيء واحد متنابس ، فليس من المعقول إذن أن يكون ذلك صدر عن محمد الذي لم يرو هنه أحد ألوالا أو يسند إليه أفعالا متناقضة متضاربة طوال سياته .

ولمل مدم ذكر اين هذام شيئاً من هله النسة يشير لل عيدهام رهو أنه بحدل كثيراً أن هله النسة وأشفالها من الإسرائيليات لم تكن قد وضعت وشاهت في آيامه ويلكك تكون هذه النصة وضعية في تاديخ متأ عر حشرت حشراً في التنسير وغيره ٥ أنها تعليل للزول آيات أعرى من مير بمسهس أو تحليل . (للترجم)

⁽¹⁾ وكيف يزل وهو المصوم من انتشأ والواعى لقول تطلى و لوثول عليناً بعض الأتافويل لأعشارا منه باهمين ولقطمنا منه الوتين a وهو بعد ذلك يبلغ القرآن الذي أعلم إنف على نفسه حفظه و إنا نمن الولنا الذكر وإنا له لحافظون a نن كل دهاية وكل سوء (المذرجم)

 ⁽٢) الواقعة وكل ما تفرع منها محض اختلاق ولم يأت بها إلا طروخ وأحده اليحقوق .
 (٢) المشحم)

اليهود الكثيرى العدد فى المدينة زعزعوا فى قلوب الناس مكانة عبادة الأصنام العتيمة . فأرسيت إليه الدعوة للحضور ليحكم المدينة بامم ربه(⁽¹⁾ .

على أنه لم يلهب من فوره بل راح يتفاوض سنتين ، ويرسل الصحابة ليطموا المناس فى المدينة ويمحلموا ما بها من الأوثان . ثم أخذ يرسل أتباعه من مكة لملى المدينة لكى يكونوا فى انتظاره عند وصوله ؛ ذلك أنه لم يشأ أن يسلم نفسه لأنصار بجهولين فى مدينة غريبة . واستمر خروج المؤمنين هذا ، حتى لم يبق إلا هو وأبو بكر ٣٠٠ .

وبالرغم من أنه كان مغروضا أن مكة حرم آمن ، فانه أوشك أن يقتل هناك . وواضيح أن كبار أهل مكة كانوا على علم يمسا كان يجرى فى المدينة ، فأدركوا ما يمدق سهم من خطر لو تبيأ للملك النبي الحارج علم أن يسيطر على بلد فى طريق قوافلهم الرئيسي إلى سوريا . فلا بد إذن للعرف أن ينتني أمام الفمرورة القاهرة ؛ فأخموا أمرهم على أن عمداً (ص) يجب أن يموت ، سواء أثرتب على ذلك ثأر أم لم يترتب . فدروا أن يقتلوه فى فراشه ، ولكى يشتركوا جميعا فى أم خرق قواعد الحرم الآمن المقررة ، ندبوا جماعة مهم لتنفيذ ذلك يمثل أفرادها كل عشرة فى الملدة ما خلا بني هاشم عشرة عمد . ه أن عمداً كان دير هجرته من قبل ؟ فل التحموا عليه حجرته فى سدفة الليل ، وجلوا عليا ابنه المتبنى ، نائما أو متناوما فى فراشه .

وكانت الهجرة ملينة بالمخاطر ؛ إذ كانت المطاردة شديدة سريعة . وأخلد المدربون من قصّاصي الأثر في الصحراء يقصون مواطئ الجهال في شهال مكة ؛ على أن عمداً وأبا بكر انطلقا جنسوبا إلى بعض الكهوف حيث كانت الإبل والمؤثن غبّاء ٣٦ ؛ ومن ثم قاما بدورة عظيمة إلى المدينة . حيث وصل النبي ومعه زميله

⁽١) ليس في شروط بيمة العقبة ما يؤيد الزم بدعوته المحكم . (المُترجم)

 ⁽٢) التسميح أنه بن بعد هجرة الرسول علية التسلاة والسًام عدد من المؤمنين والمؤمنات ،
 ما ليتوا أن تزحوا إلى المدينة بعد الهجرة . (المقربيم)

 ⁽٣) ما الدولف يتناهى عما لابس الحبورة من آيات بينات أسبب فيها كتاب السيرة ولم يشادا في
تفاصيلها ؟ أين نشاط المكين في تعقب الفارين ، وأين قصة الغار ويقائبها به أياماً ثلاثة ، وأين ذكر
دقوف حامة من المطاميين بياب الغار وارتدادم عنه بفغيل من الله الملفي يتحدث عنه الفرآن ...

الصدّيق ؛ واستقبلا بمهاسة كبيرة فى ٢٠ سبتمبر ٦٢٢ . وكان فى ذلك خائمة ابتلائه وبداية صولته وسلطانه .

٣ - محمد (ص) يصبح نبياً منافحاً(١)

لقد ظلت شخصية نبي الإسلام حتى الهجرة ، أى حتى أم الحادية والخمسين من عره ، موضوع الحدس والتخمين والتجاذب والتنازع بين أهسل الرأى . فبات من بعدها يسطع عائيه ضياء التاريخ . وإنا المستين فيه رجلا أوتى قوة تصورية هائلة ، وإن كانت عرجونية على طريقة العرب ، ولما أغلب مزايا البلوى ونقائصه (٢) .

وكان ابتداء حكمه و بدويًا عضًا ، . فإن حكم الإله الواحد إله الأرض طرًا -- حسب تفسر بحمد -- بدأ بسلسلة من السرايا على قوافل(٢٥ مكة ، دامت أكثر من

وإن لا تنصروه قفد نصره الله من قبل: ثانى إثنين إلا هما أى قامل ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن
اله معنا و رأن حديث سراقة قالمن جد أى ظلم هو رأن يكر وماكان من هوس تواتم فرسه أى قرمل
دار تمانه من أوقيه وطلمه الأمان من فريستيه المرموتين لما وهم فراتسهما من مكافأة ججزية ، على أن
يتكفل بود الطلب ؟ ولكن لهي ينتظر منه -وهو غير المؤمن - أن يورد ما يثبت لهمد عليه للمسلمة
والسائم الرمانة والديرة ؟
 (المقرم)

⁽¹⁾ من غزوات الرسول وسراياه انظركتاب و المغاذى ۽ الواقدى طبح جاسة أكسفورد وكلمة Pightiag أن استدملها المؤلف لا تمني بالفسرورة دائماً كلمة و مقائل و وقد اعتمر نا منافحاً لائد أكثر الأفاظ الخالجة أعلى حالة النبي صلى الله عليه وسلم واصطابه وانساره في المنهية ، إذ كانوا يلدون عن حقوقهم المسلوبة أني أذكرها طهم المنكون ، فقد أحمرجوهم من ديادهم عندة واستهادا دمامهم وماكن النبي صلى الله عليه وسلم ومن ودائم المهاجرون لهيأوا بحالم الله يلا وحتاجها ، كذكم والأدوار معهم القادة على يلذعوا من المنكون بالمألم في الموادة على المنافعة والإنتاج أو بالله يله والجعلان ، حقوقهم المقردة كمالز الناس في حيد الوطن ، حقوقهم المقردة كمالز الناس في حرية ألم أن وحرية المفهدة وحرية الدولة و بالمهدد والبطان ، حقوقهم المقردة كمالز الناس في حرية ألوأن وحرية المفهدة وحرية الدولة :

⁽ المقرجم) (٢) حاشا أن تكون النهسى نقالص . فلئن كان البدى إنساناً عادياً ، فإن النهسى هو رسول الله الذى لا ينطق عن الهوى .

عام كامل دون أن تلتى واحدة منها أى توفيق . ثم حدث حادث جلل ، هو نقض الهدنة العنيقة المسنونة ، هدنة الحلف العرفي في شهر رجب الحرام . فإن حماعة من المسلمان في موسم السلم الأصيل هذا ، هاحوا غدراً قاظة صفارة وقتلوا رجلا . وكان ذلك هو النجاح الوحيد المذى أصابوه ، وقد أنوه بأمر النبي (١) .

ثم نشبت فور ذلك معركة . فإنقوة مكونة من سبعتة ربعل خوجت من مكة التستقبل في الطريق قافلة أخرى وتوصلها إليها ، فالتقوا بفئة مفدة كبيرة علمتها الشمئة ، وحدث بن الطرفين قتال ، هو معركة بدر التي انهزم فيها لكيون وخسروا خسين أو ستين من القتل وما يعادلم من الجرحى . وعاد عمد إلى المدينة متصرآ وقد ألهمه الله وهذا ألنجاح ، أن يأمر بقتل عدد من خصومه الهود في المدينة الذين كانوا قابلوا أقواله النبوية باستخفاف غير محمود .

حل أن مكة محمت على الانتقام لبدر ، وأنزلت بأتباع النبي في معركة و احد » بالقرب من المدينة ، هزيمة خير حاممة . وقد وقع النبي وكاد يقتل ، وهرب كثيرون من أتباعه . ومع ذلك فإن المكين لم يتضعوا من ميزة غلبتهم بدخول المدينة ٢٥ .

⁽١) ينثل المؤلف هاهنا يعفى أقاديل المستشرقين في سرية عبد أقة بن جعض التي قال فيها الأستاذ العقد ما يستم التي قال فيها الأستاذ العقد م نقيم من التي قال فيه التي ين جعش من التي قل عبد الله بن جعش من نسبتم و المأيد التي مله السلام وقال لم : ما أمرتكم بقتال في الدير المؤلف الم يتعلق المن التي المؤلف المنافقة على المرتم بنتال في الدير المؤلف المنافقة ال

⁽ المترجم) ها الذي يدل عليه انتصار موتور ثم تقاصه من أن ينايع المهزوم مني يقضى عليه قضاء مبرماً
لا تقوم له يعده قائمة ؟ أم يكن السلمون شركة في قلم المكرين وهذا التصر فرصة قدية المفلاس منهم
التقوم لا نحسب القارئ ، وقد أنضى المؤلف من هذه المسائل ، إلا مدركا لما يين السطور من أن المكرين
قد تكلفوا في هذا التصر خسارة حسيمة أجبر بم على الرضاء من الشيمة بالإياب . وجدير بنا أن نقور
هذا أن كالمفرق في يدايما وعناما حمي وطبيعها كانت تتطور المصلمة المسلمين وكانت الأحمول كالها توسع
يأن المسلمين لا يد متصرون ، لولا أن الرماة يالنيل ، وكان النبي عليه السلاء وللسلاء قد أرقفهم على
ديوة علف المسلمين غاية ظهروهم وأوصاهم ألا يتلدروا مكامم سي ولو رأوا أن المسلمين يقتلون حــ

شم تركزتُ كل طاقات النبي ردخاً من الزمان في استثارة أتباعه اللبين كانت حرّ اتحهم على ما يبدو قد أصاما الكثير من الفتور ويسجل القرآن الكريم الهنة التي كانست تمر بها المشاعر في تلك الأيام . يقول السير ملوك سايكس : ﴿ وسور القرآن التحف ترجع إلى هذه الفترة ، تبز نظيراتها كلها تقريباً في جلالها وروعتها ويقينها الراهيع ، و إلى الأقدم فقارئ منا مثالا يحكم عليه من تلك الآيات الجليلة نقلته عت المترجة الصحيحة الحديثة التي قام بها مولانا عمد على(١) : ديا أيها الذين آمنوا إن تطبعوا الذين كفروا بردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولا كم وهو حبر الناصرين . سنلتي في قلوب اللبن كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما في يُسْزَل به سلطاناً ومأواهم النار ، وبلس مثوى الظالمن . ولقد صدقكم الله وحده إذ تُحدُّونهم بإذنه ، حتى إذا نشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعا. مَا أَدِ اكُمُ مَا تَحِيونُ ، مَنْكُمُ مَنْ رِيدُ الدُنيَا وَمَنْكُمْ مِنْ رِيدُ الآخرة ، ثُمْ صرفكم صمهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، واله ذو فضل على المؤمنين . إذ تُصْعِيدون و لا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ، فأثابكم نما ينم ، لكيلا عزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، وأنه خبير بمأ تصلون . ثم أنزل عليكم من بعد الشم أمَّنهُ تعاماً يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمهم أنفسهم ، يظنون بالله غيرُ الحمِّق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر شيء ، قل إن الأمركله لله ، يَحْقُونَ فَي أَنْفُسُهُمَ مَا لَا يَهْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لُوكَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءَ مَا قَتَلْنَا ها حمًّا ، قل لو كنَّم في بيوتكم لبرز اللين كتب عليهم النَّتل إلى مضاجعهم ، وليبتل . الله ما في صدوركم وإمحص ما في قلوبكم ، والله علم بدأت الصدور . إن اللين

قتلات ، نسرا وصيته عليه الصلاة والسلام حيها أبسروا المكيين يتزحزحون إلى الدراء ثحت ضغط المسلمين فظوراً أن الهزيمة قد حلت بهم وأنه أمل بهم أن يتزلوا إلى الميدان إلى جيب إخواتهم ، وحناها خطق عصاله بن الوليد – وكان لا يزال على الدائية وعلى رأس غرسان مكة – إلى أهمية الوبوة فاستعار يقمر سمانته وفياً المسلمين برجاله من الخلف ، وكفك وتع المسلمون بين نارين ، ومع ذلك فلم بهنوا وقم يضمحفوا بل قاتلوا قتالا بجيداً وأنزلوا بأمدائهم عمارة أصبرتهم كلية من الدير في الدوط إلى نهايته. وحكمة 1 يكون هذا التعمر أشبه ثيره بالهزيمة إذ تم يقض منه المكيون وطرا ، ولم يشف لحم ظلة ، اللهم إلا كنتل نفو من المسلمين وتروهم في بدر في كليد من التيالم .

تولوا منكم يوم التنى الجمعان إنما اشتراهم الشيطان بيعض ماكسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور رحم » (آل عمران) .

واستمرت المناجزات سجالا غبر فاصلة يضم سنن ، وأخيراً بذلت مكة آخر جهودها لكي تحمد إلى الآبد قوة المدينة النامية . فجمعت قوة مختلطة لا تقل عن عشرة آلاف مقاتل – وهي قوة هاللة بالنسبة الزمان والإقليم . وكانت يطبيعة الحال قوة غبر نظامية تماماً من المشاة والفرسان والجمالة ، ولم تكن مستمدة لأي شيء عدا مناوشات الصحراء العادية . وكان كل ما لديها من سلاح هو القسى والحراب والسيوف . فلما أن وصلت آخر الأمر وقد أثارت عمامات هائلة من النقع وأصبحت بمرأى من أكواخ للدينة وبيوتها ، فبدلا من أن تجد قوة أصغر منها ومن نفس صنفها مستمدة للزال كما كان منتظراً ، وجدت ظاهرة جديدة أفسدت عليها خططها وحيرتها : هي ختلق وسور . ذلك أن محمداً احتمى وراء خندق أنشأه حول المدينة بمعرورة فارسي أسلم (1) 1 .

قبلا ذلك الحندق لمين الحليط البدوى أشد الأشياء عالفة لأصول الزال الشريف والروح الرياضية القويمة . فداروا حول المكان راكبين . وأخلوا يتصايحون معيرين للمحصورين عن رأيم فى الأمر كله . وأطلقوا بضع سهام ، ثم خيموا آخر الأمر لبحث هذه الإساءة الفاحثة . غير أنهم فم يصلوا فى شأتها إلى قرار حامم . فإن محمداً لا يريد أن يبرز إليهم ؟ وأخلت الأمطار بمطل ، وابتلت خيام الأحلاف وأصبح لا يريد أن يبرز إليهم ؟ وأخلت الأمطار بمطل ، وابتلت خيام الأحلاف وأصبح فلى الحلف وأحد صبراً ، ودب دبيب الخلاف بينم فى الرأى وأخلت صبر هم ينفد ، ثم ذوى ذلك الحشد الهرمره مرة ثانية متفرقاً شراذم وثلا ، دون أن يتلاحم مع المسلمين فى محركة (٢٧٧) . فقرقت الجهاعات شمالا وشرقاً وغرياً وجنوياً ، وأصبحت ظللا من المتام وزال كل خطر لها . وكان بالقرب من المدينة قلمة المهود ، كان عمد من عنه المعربة من عام معقباً من قبل عليم ، عا أبدوه من عدم احترام لمقيدة ١٧٥ . وكانوا أظهروا ميلا

 ⁽١) من وصف إهداد ذلك المختلق وكيف شارك للرسول عليه السلام في حفره بنفسه أنظر كتاب.
 و المغازى ع الدراقلدي طبح جامعة أكسفورد ص ٤٤٧ – ٤٤٥ .

⁽ المترجم)

(۲) الواقع أنه كان بين الرسول عليه السلام دبين قريفة رمهد فقضه أولئك عقدما أحاطت الأحزاب بالمدينة إذ تراسلوا مع قريش وأعمارا يلقون الرعب في المدينة وأعدارا جيوفهم للانقضاض على –

لحق الانضام إلى من خيل إليم أنهم أصحاب الكفة الراجحة المختملون في هذا الصراع السهاقى ، هنالك أطبق محمد عليم ، وذبيع كل الرجال وكانوا تسعمت ، وسبى النساء و الاتحطفال . ويحتمل أن يكون الكثيرون من أحلافهم قبل ذلك بقليل ، من بن المساومين على مشرى هولاء السبايا والعبيد . ولم يحدث قط بعد ذلك الإخفاق العجب أن المبحث مكة بتحد منال لحمد ، وأخذ كبار رجافا ينضمون إليه واحداً بعد الآخو .

ولسنا مجاجة لل تتبع حورات الهدنة والماهدة التي انتهت آخر الأمر بمد سلطان النبي إلى مكة . وكانت خلاصة الاتفاق أن يتجه المؤمنون نحو مكة عندما يُعملُون ، يدك أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس ، كما كانوا يفعلون حتى ذلك الحين ، ورات تكون مكة قد ضمنوا استهراد ورات تكون مكة قد ضمنوا استهراد قد قت الحجيج إلى بلدهم ، فالظاهر أنهم لم يكن يعنهم كدراً ، هل يجتمع الناس باسم إكه واحداً م آلمة كثيرة . وأخد اليأس من تحويل أى عدد كبير من المسيحين باسم إكه واحداً م آلمة كثيرة . وأخد اليأس من تحويل أى عدد كبير من المسيحين و المهود إلى الإسلام يدب إلى محمد دبياً متزايداً ، فأنشأ بكف عن التشديد على فكرته القائلة بأن كل هذه العقائد إنما تعبد في الحقيقة ريا واحداً . و فائه ، قد أخد فيحيم شيئاً شيئاً ربه الحاص به ، وخاصة وقد أصبح الآن بنده المعاهدة مقيداً مججر يصميح شيئاً نشيئاً ربه الحاص به ، وخاصة وقد أصبح الآن بنده المعاهدة مقيداً مججر يكمية الدنري ، كما أخذ يبعد قليلا عن أن يكون رباً وأباً للبشرية جماء (١٠) .

[—] بجيوش المسلمين من الحلف , حياة عمد من ٢٠١ طبعة أولى , سيرة ابن هشام - ٢ ص ٢٢٠ - ٢٢٠ ، و و قبيها ذكر العهد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبني قريقة ونقضهم لعهدهم الذي عاهدو اعليه وانجيالهم إلى الاكسور اب وبديهم مؤخرة المسلمين بفتح ثمرة في تحصيناتهم للأحزاب ليتبوا مبا على المسلمين وكل ذلك عنيانة عظمى ، ومع أن النبي صلى الله عليه ومام قد بعث إليهم يذكرهم بالمبدء يطلب إليهم التقيد به فقد أحياء والمرادم على هزائرة الإحزاب أحلافهم المحافظة وإمسر ادم على هزائرة الإحزاب أحلافهم المحافظة عليه المنافقة وألا يماني من أحد بعد هذا كله أن ينبي هذه الفعلة المنافقة وألا يمانيب عليها ؟ .

⁽ المترجم)

⁽١) إن هذا الذي نقله المؤلف هو رأى للمتشرقين ، ولكن الرسول عليه السلاة والسدم لم يعد قط عدد قط تصوص التنزيل التي تنصي جميمها على الاصراف بالأنبياء جميا وأن الله رب العالمين كافة . وكيف يسموخ شحمه صلى الله عليه ومل أن يختص نفسه بمالله ربا من دون الناس ، وهو الذي يخفض جنامه المسيمين و الميهوجين السواء . ويستثنيم من وصمة الكفر ويدعوم أمل الكتاب أي (النزيل من عند الله) . وما ذاك إلا ويتما ويقد قوله تعالى و لفدكتر اللهن -

وكان النبي أظهر بالفعل ميلا إلى أن يعقد مع مكة صفقة ، وها قد تمت الصفقة آتنو الأمر . وكانت السيادة على مكة تستحق بذل هذا التساهل () . ولسنا بحاجة إلى الكلام عن الغدوات والروحات وعن نزاع أخير حدث بن الطرفين . وصفوة القول أن محمداً دخل مكة في ٢٧٩ سيداً مطاعاً وحُطْم صنم مناف ــ وهو الرب الذي سمى ابنه يوماً ما باسمه ــ فهوى تحت قدميه وهو يدخل الكمية () .

ومن ثم أخذ سلطانه يمند ، وحدثت معارك وخدع ومذابح ؛ بيد أن الغلبة كانت له على الحملة ، حتى دانت له فى النهاية بلاد العرب قاطبة ؛ حتى إذا تمت له السيادة على كل بلاد العرب فى ٢٣٢، انتقل إلى الرفيق الأعلى وهو فى الثانية والستن.

وليس في سيرته أثناء السنوات الإحدى عشرة التي ختمت بها حياته بعد الهجرة

[—] قالوا إن الله ثالث ثلاثة و ظلك عو ما يتفق تماماً مع وحدائية الله المجردة التي ظل يدعو إليها طوال وسائلة والله على الله الكتاب تمالوا الله والله بنا أهل الكتاب تمالوا إلى خاص الله الكتاب تمالوا إلى خاص الله الله الله الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بمضنا بعضاً أرباباً من دون المته فإن تولوا الشهدوا المبدول المسلمون » .

⁽ المترجم) لسجل على المتولف هذا الاصراف الصريح إذ أن ذلك يمين بجلاء ما كان النبى عليه أفضل السلاء والسلام وسرس على الفضل السلاء والسلام وسرس على المناه وطلبة العقل والمحتمة فشوب مكة إلى رفساء وقال السلاء والسلاء ومن عبد الحرس من حتى الدماء وطلبة العقل والمحتمة فشوب مكة إلى رفسات و المحانات والما وجبد عليه السلاء السلام المترحة أسست آكانها وأصاحا المكبر وصدها عن السيل القوم وتمادت طيابها حقى صواولت تتله فلها فاتها فلك أهدت دمه ، عجر موطنه وعاجر إلى المدينة ، وفيا حاول بكل طيابها حقى محاولت تتله فلها فاتها فلك أهدت دمه ، عجر موطنه وعاجر إلى المدينة ، وفيا حاول بكل ما أرق من قوة أن يظهر لكنة أن المسلمين قوة تستطيع التنكيل بها ومصاحاها الملاية صاحا تفيئ من ففلتها وتتصالح مع المسلمين وتكف من أذاهم وتتركمه وقائم يدعون إلى دينهم ويزاولون عبادة الله وحده على الشيئ المناسبة عليه وتقوضت دعاتم شركها وبان ضعفها فتففض لها جناح رحته وبسط لها يد المرا الني انقبضت عامها من قبل السحاح واساح من وحرح الإسائية الكاملة ما يؤكد له إناسة عليه السلام من وحرح الإسائية الكاملة ما يؤكد له إناسة عليه السحاح السلام من وحرح الإسائية الكاملة ما يؤكد له إناسة ما أوجزئه هنا .

⁽ المُترجم) (۲) ليس بين أيناء النبي كما أطفنا من يسمى بعبد مناف قط ولا تدرى من أبين جاء المستشرقون للذين نقل صمم المؤلف بغده الفكرة . (راجع مقمة أحد النابة في أغيار الصحابة وميرة النبيى وذكر أولاده وأزواجه) .

غير القليل مما يفرق سلوكه العام عن سلوك أى شخص يجمع شتات الشعوب فى كنف حكم ملكى موحد . والفارق الوحيد هو استهاله المدين الذى جاء به ، مادة يشد بها أجزاء مملكته بعضها إلى بعض . كان يستخدم الدبلوماسية وبدارى تارة ويقسو ويشتد أخرى ، أو يتساهل ويلن ، حسبا تقتضى المناسبة والظرف(١٠) ، كأى ملك(٢٠ حربي قد يوجد في مكانه ، وكانت ملكيته تضم بصورة فريدة قدراً طفيفاً من المروحانية(١٦) . كذلك لم تكن حباته المنزلية إبان فترة سلطانه وقدرته على التصرف ، المووحانية(١٦) .

 و فيما رحمة من الله لنت لم ، ولو كنت فظا طيط القلب النفضوا من حواك ، و وقوله تعلل وهو أصدق القائلين : و وإنك لمل محلق عظيم » .

(Ilic +a)

 (7) ليس أدل على خطأ هذه الفكرة من قصة الأحراق الذي قال النبي و أنت سيدنا و فأجابه عليه السلام و السيد الله تبارك و تمال و .

(المترجم) (٣) هذه نهمة يحب المبشرون أن يلصقوها بالإسلام مكابرة سهم وتعصبا وقد دحضها الاستأذ الإمام محمد عبده ، فليرجم القارئ إلى ما كتبه فيها رحه الله ، ويتزود به . وأية روحانية أكبر من أخذ النَّاسُ حميمهم ، غنيهم وفقيرهم ، قويهم ونسيفهم ، أبيرهم وحقيرهم بما شرحه القرآن الكرم من إقامة العملاة والصوم وأيعاء الزكاة وألحهاد في سبيل الله ونعني بذلك جهاد النفس الأمارة بالسوء بالإضافة إلى جهاد الكفار أعداء الله ، وتطهير النفس من أدران الفساد المادى وحملهم حملا عل نبذ الرذائل والتحلي بالفضائل وبخاصة الصدق وألحلم والتواضع والرحة والإخاء فى الله والمساواة المطلقة والصبر وإنكار الذات ولبة المادة وما تنوى به ؛ إلا مِنا يقوم بالأود ويقفى ضرورات الحياة ، والإمان بلا إيمانًا صادقًا صاهداً من أعملق قلب عامر بحبة عالم بأنه منه في السر والعلن « ينغ شائنة الأمين وما تحق العسدور » ، و وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن للله إنيك ولا تهم الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ۽ كما أن رسول الله عليه السلاة والسلام ظل طوال سياته لا بنى لحظة ولا يثرك فرصة إلا ويذكر الناس فيها بالله والآخرة والحساب والثواب والعقاب ويشرب هم الأمثال بنفسه ثولا وعملا فهو الصادق الأمين البر الرحيم للصابر المتوكل الخافض جناحه المؤمنين x المؤثر على نفسه ، الكاظم النيظ ، الوائق بربه ، العامل بوحيه وأوامره . وقصارى القول إنه كان الإنسانية الكاملة حية ناطَّعَة وقد خصها الله تعالى في قوله ۽ وإنك لعل خلق علم ۽ . و من ثم حضه تعالى الناس على اقتضاء أثيره وتدمم خطاه : « ولم في رسول الله أسوة حسنة » . ولعمر الحق إن ذلك كله لقليل من كثير مما كان عليه للرسول صلوات الله عليه وماكان عليه أصحابه الأقار النبرة من قوة روسية لا تغالب ، بما استحقوا به أن يحظوا بملكوت السوات الذي لا نجه له في الإنجيل والتوراة حؤ هلات روحية أيلم وأسمى وأيمد أثراً تما جاء يه عليه الصلاة والسلام وأخذ به نفسه وأهله رأصمابه 🗕

⁽١) ماكانت المداراة ولا القسوة من صفاته البنة صلوات الله هليه ، وإن المؤلف ليناقض نفسه في فعل المرات المداقة الإصفاء والاحتفاظ بما أي فعل المداقة الإصفاء والاحتفاظ بهم ، وهذا لعمرى أمر لا يتأتى إلا لمن كان حتماً على علق صليم أبعد ما يكون من المداراة والقموة . ولحنا نجد أبلغ فى الرد على هذا القول من قول العل الكرم فى تحلية نبيه الأمين :

خير أنواع الحياة ولا أسعدها . وهو يبدو حتى وفاه خليجة ، يوم كان فى الحمسن ، الزّوج الخلص لامرأة واحدة — ولكنه عاد عند ذلك — كنا يفعل الكثيرون من الرجال عندما تعلوجم السن(1) — فأظهر بالنساء اهتهاماً قوياً .

فتروج زوجتين بعد وفاة خديجة ، كانت إحداهما الصغيرة عائشة ، التي أصبحت وظلت شريكته الآثيرة صلحة السلطان الأكبر طلبه . ثم أضاف إلى أهل بيته صدداً من نساء أخريات ، ما بين زوجات وإماء . وأدى هسلما إلى كثير من المتاعب والاضطراب ، وبالرغم من نزول آيات كثيرة حول هذا الموضوع ، فإن هلم التعقيدات ما نزال تستازم من المؤمنين الكثير من التفسير والمتقاش .

وقد كان هناك مثلا قصة حول السيدة عائشة ؛ فإنها خُلَفت فى ظرف ما هلى حين تابع الهودج والحمل السير بينها كانت تبحث عن عقدها بين الشجيرات ؛ ولذا صار لزاماً أن ينزل الله الآيات القوية ويدمغ المتقولين بالإفك⁰⁷ . ثم نزلت

ومن دخل في دينه دون تفريق أو تميز .

(المترجم)

(1) و وار كانت لذات إلحس مى التي سيطرت مل زولج النهى صلى الله عليه وسلم بعد وفاة عديمة وسلم بعد وفاة عديمة لكانت الشهرة لعديمة لكانت المسلم عليه المسلم المسلم

أما سائر زوجاته عليه الصلاة والسلام فما من واحدة سنين - رشى الله عنهن - إلا كان لزواجه بها سهب من المصلحة العامة أو من المرومة والنشوة دون ما يهلم به المرجفون من الذات الحس المزهومة ع (عبقرية محمد العقاد ، صر ۲۰۰ - ۲۰۲) .

(٢) يقول السير وليم مدير تعليقاً على هذا المادث ما ترجعه : « إن سياة عائشة تهل هذا الحادث وبعده تعجد » . على وبعده تعجد » . على أنفا للحادث على المستقل المستقل المستقل المستقل المستقل بالمستقل المستقل ا

الآيات أيضاً فيا غلب على بيت النساء هذا من تلهف على « الحياة الدنيا وزينها الايات أيضاً في غلب على بيت النساء هذا من تلهف على « الحياة الدنيا وزينها الالتحت بالرفاهية الله من ابنه المتبنى زيد ، « فلما قضى زيد منها وطراً الالحقاد النبي وتزوجها — ولكن الأمر كما يوضحه التنزيل ، إنما كان نقط بقصد إظهار الفرق بين الاين المتبنى والاين الحقيق . « زوجناكها كي لا يكون على المؤمنين حرج أن أزواج أدعيائهم ، إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا الا ومع ذلك فن المفتق أن آبية بسيطة في القرآن(١) كانت تُننى عن هذه المظاهرة العملية الشديدة . وحدث بالإضافة إلى هذا تمرد في الحريم بسبب المحية الزائدة التي أظهرها الذي بحلوية مصرية ، ولدت له خلاماً(٢) — وهو غلام كان يحتو طبه حنواً شديداً ، ذلك أن

⁻ جاوا طبه بأريمة فهداء فإذا لم يأثوا بالشهداء فأولئك حند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل أنه طبكم ورحته في الدنيا والآخرة لمسكح في ما أنفستم فيه حالب طلع ، إذ تلفونه بأفواهكم ما فيس لكم به مغ وتجهرته حيثاً رهو عند الله عظيم . ولولا إذ مستدوه قلم ما يكون لنا أن تنكل بهذا سبحائك ها بهان عظيم ، يعطيم أنه أن تمودوا لمثله أبداً إن كثم مؤمنين . وبيين الله ليم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين محبود أن تشمع الفاحقة في الذين آمنوا غم طاب ألم في الدنيا والآخرة وأنه يعلم وأنم لا تعلمون » . (سودة الدور)

⁽١) لم يكن الرسول كا تصور المبشرون و رجلا يأخذ بعقله الهوى . . . فلم يعرف عنه في حياة عدائية ولم يعرف عنه قبل زواجه سها أنه كان عن تغريهم مفائن النساء في وقت لم يكن فيه على النساء حجاب . (حياة عمد) المكتور هيكل .

ويقول الأمتاذ الدقاد ما نصه: وكانت النبى زوجة أخرى وسمت بالوضاة والدتاء وهى زيامه پنت جسش ابهنة عمته السلام التي زوجها زيداً بن حاراته بأمره وهل غير رضى سبا ، الأبا أفقت - وهى ما هى فى الحسب والقرابة من رسول اله - أن يتزوجها غلام هتيق . هلد أيضاً لم يكن ، اللهات الحس ا المؤرجة الحانان في بناء النبى بها بعد تطليق زيد إياما وتعالم التوفيق بيمها ، ولو كان الذات الحس سلمان في هذا الزواج لكان أيسر شيء على النبى أن يتزوجها ابتداء ولا يروشها على قبول فها وهى تأباه . فقد كانت ابعة حمد يراها من طفولها ولا يفاجت من حسبا شيء كان يجهله يوم عرض عليها زيداً وشدد عليها في قبوله . فلما تجان الزوجان وتكروت فكوى زيد من إمراضها عنه رترفها عليه وإطلاعها بالقرل له كان زواج النبي بها و خلا المكلة ، بيتية بين ربيب في منز لة الإبن وابنة عمة الماهت في زواج لم يقرن بالتوفيق . (صفرية محمد ٢٠٠١) المقاد .

⁽٢) أنظر للردعل قلك في حياة عمد ص ٤١٦ ، ٤١٧ . للكتور عمدُ حدين هيكل .

بتصورنا الشخصية النبى . وكانت ــ صفية ــ إحدى زوجاته مهودية⁽¹⁰ ، تزوجها لبلة المركة التي قبض فها على زوجها وقتل . إذ استعرض السيايا في آخر النهار ، فراقت نظره وحملت إلى خيمته .

هذه وقائع بارزة في هذه الإحدى عشرة سنة من حياة محمد .

هذا وليس عدلا أن نتخذ الفلو لنا رائداً ، فن الناحية الأخرى هل راك حامت قط بأن رجلا على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذ له صديقاً ؟ ذلك أن من عرفوا محمداً أكثر من غيرهم كانوا أشد الناس إيماناً به . وقد آمنت به خطيهة طوال حياتها _ على أنها ربما كانت زوجة عبة . وأبو بكر شاهد أفضل ، وهو لم يبردد قط في إخلاصه . كان أبو بكر يوسن بالنبي ، ومن المسبر على أى إنسان يقرأ تاريخ تلك الأيام ألا يوسن بأني بكر . وكذلك على ، فإنه خاطر بحياته من أجل النبي في أحلك أيامه . لم يكن محمد دجالا بأية حال ، وإن كان اعتداده بنفسه يدعوه في بعض الأحيان أن يتصرف كأنما كان الله رهن إشارته ؛ وكأنما أفكاره بالضرورة أفكار القرا) .

⁽١) و ركان إمزاز من ذلوا بعد مزة سنة النهى عليه السلام فى معاملة جميع الناس ولا سهما النساء اللاق تنكسر قلوبين فى الذل بعد فقد الحياة والاقرباء ، ولحفا خمير صفية الإسرائيلية سيمة بن تريظة بين أن يلحقها بأهلها أو أن يعتقها وينزوج جا قاعتارت الزواج منه عليه السلام » حبقرية عمد ص ٢٠٤. فكأنه عليه السلام لم يتصرف إزاءها تصرفاً يتنافى مع ما فطر عليه من خلق كرم وذوق سليم ورحة بالفسطة.

⁽٣) الغروض أن المؤلف لا يؤمن برسول الله مسل الشعليه وسلم وقد رأينا أن نتراً هذا القول وفره ليظلم عليه المسلميون ويتجبهوا إلى دحشه والرد عليه بمما يمرفون من نفس الرسول صل الله عليه وسلم من درسانية وقنسية وتواضع ورحة إلى غير ذلك عما جمه الله جلت رصفاته في نعته للبهنام بأله لا ينطق من الحول على المنظم بأله لا ينطق من الحول على المنظم بأله لا ينطق عن المنطق المنطق المنطق المنطق على المنطق المنطقة المنطق المنطقة المنط

ولئن كانت رغبته فى صفية يوم مقتل زوجها تدهش عقولنا العصرية ، فإن حبه لإبراهيم الصغير ابن مارية المصرية وحزنه المفرط عندما توفى الطفل ، ليحله مكانة الزمالة مع كل أولئك اللين خبروا عاطفة الحب ولوعة الحرمان .

وهو حين سوى العراب فوق القبر الصغير ببديه قال ، إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تقر عين الحي وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه » .

٤ ... تعالم الإسلام

على أن سمات عمد الشخصية (1) شيء ، وصفة الإسلام - نلك الديانة التي أسس - شيء آخر . لم يناصب عمد يسوعاً أو مانى أى عداء . ولكن الإسلام هو الذي ناهض مسيحية القرن السابع الفاسدة ، وتقاليد المجرس الزرادشتية المنحلة ، وهى الأمور التي يعنى جا المؤرخ أعظم ما يعنى وسواء أكان الأمر يقضل النبي صلى الله عليه وسلم ، أم يسبب صدف وملايسات معينة لنشأة الإسلام وصفات بعينها في المسحراء التي منها نشأ ، فلا مجال هناك لإنكار أن الإسلام يمتاز بكثير من الصفات الممتازة النبيلة .

وقد حج محمد حجة الوداع من المدينة إلى مكة قبل وفاته بعام في آخر السنة الماشرة للهجرة . وعند ذاك آلتي على شعبه موعظة عظيمة ، يقلها إلينا التواتر كما يلى . وبديهي أن هناك خلافاً حول الألفاظ . . ولكن ليس ثمة نزاع في أن عالم الإسلام ، وهو عالم به مع ذلك ثلاثمئة مليون نفس ، يتقبلها حتى اليوم قاعدة لحياته ويعمل بها إلى حد كبير . وسيلحظ الثقاري أن أول يقمل الحطية تجرف أهامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء . وتجمل الفقرة الأخيرة منها ، الزنجى المؤمن عبد لا للحليفة . وربما ثم تكن تلك الكلمة رفيعة ٢٣ رفعة بعض أقوال يسوع التاصري ، بيد أنها أسست في العالم تقاليد عظيمة ، التعامل العادل الكريم ، يسوع النام روح الكرم والمهاحة ، كا أنها إنسانية السعة مكنة التنفيل .

⁽¹⁾ أسلفنا الرد على مزاهم المؤلف والمستشرقين فيما يحلق بشخص الرسول عليه السلام وما فرى داميا إلى تأكيد أن المرسول مو روح الإسلام وقائمه وماديه فيمسع أعماله هي السنة وجميع تعبر فاته هي الأسوة وجميع أقواله هي الأساديث النبوية الدريقة ولا يمكن مقلا الفصل بين نبسي رسول وبين رسالته النبوية .

⁽٢) الفارئ أن يخرّ بعد أن يقرا الحلبة ، على روحة ألفاظها وحباراتها وما اشتملت عليه من جوام الأنحلاق ونبيل الأفكار ووفيع المبادئ. (المترجم) تاريخ الإنسانية جـ٣

وقد أنشأت مجتمعاً أكثر تمرراً من أى مجتمع آخر سبقه ، ثما غمر الدنيا من قسوة وظلم اجماعي . قال : ـــ

 أيها الناس : اسمعوا قولى ؛ فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد على هذا بهذا الموقف أَبِداً . أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا رُبكم · كحرمة يومكم هذا كحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من اثتمنه عليها ، وإن كل رباً موضوع ، ولكن لكم رموس أموالكم لا تنظلمون ولا 'تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربيا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . أما بعد أبها الناس ، فإن الشيطان قد يئس [من] أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا ، ولكنه إن يُطلع فيها سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحلووه على دينكم . أمها الناس إن النسيء زيادة في الكفر يضل به اللين كفروا ، يملونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عيلة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ــ ثلاثة متوالية ، ورجب مفرد اللَّذي بين جمادى وشعبان . أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقًّا ولهن عليكم حقًّا ، لكم عليهن ألا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبيّنة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في للضاجع ، وتضربوهن ضربًا غير مبرِّح ، فإن انتهين فلهن دزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ؛ واستحلتم فروجهن يكليات الله . فاعقلوا أمها الناس قولى ، فإنى قد بلَّـغت ؛ وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا به أبداً ، أمراً بيناً : كتاب الله وسنة نبيه . أمها الناس : أسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمُنُّ أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامريء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا نظلمُن ۚ أنفسكم . . اللهم هل بلنغت؟ ، .

فهذا الإلحاح على تبادل الرفق والرعاية بن الناس في الحياة اليومية إنما هو واحد من فضائل الإسلام الكرى ، بيد أنه ليس الفضيلة الوحيده فيه ، ويعادل هذا في الأهمية التوحيد الذي لا هواده فيه ، والذي يتجرد من كل ما جاء به البهود من استشار بالله ، وهو توحيد يدعمه القرآن الكريم . وكان الإسلام منذ البداية قاطماً مانماً إلى حد بعيد لكل الإضافات والتفصيلات اللاهوتية التي أربكت المسيحية وفرقت كلمتها وغطت بالدخان على روح يسوع . وكان مصدر قوته الثالث تحليده الدقمية لمطرائق الصلاة والمبادة ، وبيانه المصريح عن المنزى العرف المحدود للأهمية المنوطة عكمة . وأقفل دون المؤمنين باب كل قربان ، ولم يترك اسم خياط مفتوحاً ينفذ منه كاهن القربان في المغفران القديم ويعود بذلك إلى مسرح العقيدة الجديدة . لم تكن مجرد عقيدة جديدة ولا ديانة نبوية خالصة ، كما كانت عقيدة يسوع أيام يسوع . أو ديانة جوتاما ، ولكنها وضعت بحيث نظل على حالما دون لا يراد الإسلام حتى يومنا هذا فقهاء معلمون ووعاظ . ولكن ليس له تعيد و لا قداوسة .

كان ديناً مليمًا روح الرفق والساحة والأخود ؛ وكان عقيدة مهلة يسرة الفهم ؛ كان دين فطرة نموى ما للمصحراء من عواطف الفروسية ؛ وكان يتوجه بمناشدته المباشرة إلى أشيم الفطر الفالبة على تكوين الرجال العاديين . وقد ناصبه البودية عداء مربراً ، وهي التي أغلت من الرب كنزاً عنصرياً تكتزه بحنسها . كما تألبت عليه المسيحية وهي التي كانت تتكلم وتبشر آفلاك وبلا نهاية بالتثاليث وقواتين الإيمان والهرطقات التي لم يكن أى رجل عادى ليسطيع أن يمز فها الرأس من الألمنب ؛ كما حاربته المزدكية نحلة الحوس الزرادشتين الذين أوحوا بصلب ماني . والم تكن كتلة الناس الذين عامتهم دعوة الإسلام وتحديه مهتمون إلا بشيء و احدا هو أن ذلك الرب (الله) اللذي كان يشر به الرسول ، كان بشهادة الفسمير المنطوية عليه قلوبهم ، رب بر وهدى وتقوى ، وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته لا تسامح فها — على أعتوة عظيمة مزايدة بين رجال جديرين بالثقة في هذه للديا ، وعلى فردوس لا يأخذ الناس فيه أفضهم بالسرمدى المتواصل من التسبيح والعبادة ، على حين يكون فيه القديسون والقسوس والملوك المعمدون ما يزالوان يخطون والعبادة ، على حين يكون فيه القديسون والقسوس والملوك المعمدون ما يزالوان يخطون والعبادة ، على حين يكون فيه القديسون والقسوس والملوك المعمدون ما يزالوان يخطون والعبدة ، على حين يكون فيه القديسون والقسوس والملوك المعمدون ما يزالوان يخطون

بالدرجات العلا ، وإنما تقوم فيه الزمالة المتكافئة والملذات العسطة اليسيرة الفهم من أشال تلك التي تتلهف عليها نفومهم . وقد أوصل محمد (صلى الله عليه وسلم) هذه المبادئ الحذابة إلى سويداء قلوب البشرية ، دون أن يلجأ إلى أبة رمزية مهمة ودون أى تعتبم للهياكل ولا ترتيل القسوس .

ه ــ الخليفتان أبو بكر وعمر

إن روح الإسلام الحقة لم تتجسد في محمد على فقط ، وإنما في صديقه الحميم ونصيره أبي بكر . ولا يقوم أدنى شك في أنه إن كان محمد هو العقل المفكر والحيال الخصِّ للإسلام البدائي ، فقد كان أبو بكر ضمره وإدادته . فني كل أيام حياتهما معاً كان محمد هو الذي يقول الشيء ، فيؤمن به أبو بكر أوثق الإيمان . فإذا داخل محمدا شيء من التردد⁽¹⁾ سارع أبو بكر إلى مساندته . كان أبو بكر رجلا عامر التفس باليقين خلوها من الشكوك ، وكانت معتقدانه تقطع قطعاً حاسماً وتتمخض كسكين شاحلة ــ عن أفعال جازمة . وما يخالجنا إلا شديد التأكد في أن أبا بكر ماكان ليداري أو يصانع حيال أرباب مكة الأصاخر ولاكان بحاجة إلى الوحى ليفسر للناس تصرفاته في حياته الخاصة ٣٠ . فلما أن مرض النبي بالحمى في السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٢) وانتقل إلى الرفيق الأعلى ، كان أبو بكر هو اللـي أعقبه خليفة له وإماماً للناس ، وكانت ثقة أبي بكر التي لا تتزعزع في الله وبره وهداه . هي التي منعت الشقاق بين مكة والمدينة ؛ وهي التي أُخمَدُت فتنة واسعة النطاق أثارها الأعراب البدو على ضرببة الزكاة المجبية للصالح العام ، وهي المسهاة وحرب الردة ، ؛ وهي التي دعته أن ينقذ إلى سوريا حملة غزوكان النبي الراحل أحدها . ثم أنشأ أبو بكر ، بذلك الإيمان الراسخ الذي يزحزح الجبال وتلك البساطة التقية والعقل الراجع ، ينصّب نفسه لتنظيم إنحضاع العالم بأسره لحكم الله وإرادته - بجيوش صغيرة يتألف كل منها من ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ عربي - أخلةً بثلك الرسائل التي بعث بها النبي ﷺ من المدينة في (٦٢٨) لكل ملوك ألمالم .

 ⁽١) سبق أن رددنا على المؤلف في مثل علم النقاط فلا داهي التكرار والعصمة للأنبياء في أدام
 الرسالة مكفولة مجمع النصوص المنزلة .
 (١) كل علم أمور سبق الرد صليها فليرجج إليها القاري.

ثم إنتادلا قدرى ما دخل هذا كله بالرسول عليه السلام أو بالعقيدة التي جاء بها الرسول ما دامت 🖚

وأوشكت المحاوله أن توكّن تمارها . ولو قيض للإسلام عشرون رجلا من طينة أَنِّي بَكُرُ وَمِنْ يَصِغُرُونَهُ سَنًّا فَوَاصِلُوا عَمْلُهُ لَنْجِحَ عَلَى التَّحَقِيقُ فَى بِلُوغ تلك الغاية . وما قارب الإسلام هذا النجاح وأوشك أن يبلغه إلا لأن بلاد العرب كانت T نذاك مركزاً للإيمان والعزيمة ، ولأنه لم يكن هناك في أي مكان آخر في العالم حتى حدود الصن ، اللهم إلا في سهوب الروسيا أو التركستان ، مجتمع آخر من رجال أحرار الأرواح لم أى قوة من إيمان بمكامّهم وزعمائهم . ذلك أن عظيم الإمبراطورية البزنطية هرقل قاهر كسرى الثانى (أبرويز) ، قد انحدر عن أوج مجده ونالته علة الاستسقاء ، وأنهكت الحرب الفارسية الطويلة إمراطوريته . وكانت فارس متّردية ف الحضيض الأوهد من دركات انحطاط الملكية . فإن قباذ الثاني قاتل أبيه لني حتفه بعد حكم دام أشهراً قليلة ، وحدثت سلسلة من المؤامرات على العرش ومن أحداث الاغتيال المثيرة للمشاعر فملأت حياة القصر نشاطًا ، ولكنها أضعفت قوة البلاد . ولم تنته الحرب بين فادس والإمبراطورية البيزنطية بصفة رسمية إلا قرابة بشاية حكم أبي بكر . وكان كلا الطرفين يستخدم الجنود المرتزقة العرب أوسع استخدام ؟ وانتثرت في أرجاء سوريا عدد من المدن والمستقرات للعرب المتنصرين ممن يدينون القسطنطينية بولاء ليس له من أساس ؛ وكانت مناطق النخوم الفارسية الممتدة بين أرض الجزيرة والصحراء تحت نفوذ أمير عربي تابع للفرس ، مقر إمارته الحيرة . وكان سلطان العرب قوياً في مدن من أمثال دمشي ، حيث كان السادة من مسيحيي العرب يقرأون وينشدون أحدث ما ينتجه المتبارون من للشعراء في الصحراء من القصيد . وبهذا كانت في متناول الإسلام مقادير وفيرة من المواد اليسيرة النمثل مهيأة لتقبل دعوته .

والحملات العسكرية التي بدأت عند ذلك من ألمع ما خلد تاريخ العالم . فقد أصبحت بلاد العرب على الفجاءة بستاناً موفقاً من رجال بمتازين ويعرز اسم خالد بينهم أذكى تجم وأسطعه في تحقية من القواد المسلمين المقتدرين الأنقياء . فحيثًا حل قائداً لجيش كان النصر حليفه ، ولما أن دفعت الفيرة الحليفة عمر بن الحطاب إلى خلعه حظلماً منه لا يفتفر حـ لم يحدث أية ضجة ، بل راح يخدم الله في سرور ولمخلاص

العقيدة لم تتأثر أدلا وأخبراً بأى شء ما يأحنه المؤلف ويدعيه المستشرقون وأهداء النبى والإسلام في تديم الزمان وحاضره . إن عمدا هو رسول الإسلام وفكره ومثلق وحيه وساحب سنته ، ولا يمكن أن تفضل الفروع الأصول _ (المقرجم)

تحت إمرة الذين كان كبراً عليهم(1) . ولسنا بمستعطيعين أن نتتبع قصة هذه الحروب هاهنا ؛ وبحسبنا أن نقول إن الجيوش العربية وجهت ضرباتها في نفس الوقت إلى سوريا البهزنطية ومدينة الحيرة على التخوم الفارسية ، وكانوا في كل مكان يخيرون الناس بين أمور ثلاثة : فإما أن تدفع الحزية ، وإما أن تومن بالله الحق وتنضم إلَّينا ، وإما أن تقتل . فالتقوا بجيوش كثيرة ، جيوش كبيرة ومنظمة ولكنها جيوش جوفاء لا روح فمها فهزموها . ولم يحدث فى أى مكان أن قوبلوا بشىء اسمه المفاومة الشعبية . فإن سكان أراضي الرى والزراعة الآهلة في أرض الجزيرة بالعراق ، لم يكن ليعنيهم قلامة ظفر أيدفعون الضرائب إلى بيزنطة أو پرسيپوليس^{(٢}) أو المدينة ؛ ف**إ**ن فاضل الناس بين البلاط الفارمي وبين العرب ، كان العرب ، أعنى عرب السنين العظيمة ، أنظف الطرفين وأطهرهما بشكل ظاه ؛ وكانوا أوسع رحمة وأكثر عدلاً . وانضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة كذلك أنضم إلىهم كثير من اليهود . وكما كان الحال فى الغرب كان كذلك فى الشرق ، إذ كان الغزو يتحول إلى ثورة اجتماعية . ولكنها كانت ها هنا ثورة دينية أيضاً لها حــيوية ذهنية جليلة متمزة .

(١) يقول شورتز في تاريخ العالم (هلمبوت) إن سياة ذلك البطل الحاصة كالت تنطوى عل وصمة . فإنه ارتكب النسق وهي خطيئة خطيرة في عجتم يبهج تعدد الزوجات . ولكن المعلوم أن هذه الحادثة الى يعدها ولز فسةا قد عرضت على أب يكر الصديق رضي الله هنه وهو من تملم في ورعه وتقواه فلم يبرها كلك وأقر خالداً على تسرقه . وقضلا عن هذا لم يكن ما حدث من ممير رضى الله عنه من غيرة ولا ظلم ؛ ذكر ابن الأثير أن عمراً رضى الله عنه استلحى عالماً إلى المدينة بعد العزل ، فلما وصلها وقد على عمر شكاه ، وقال فد شكوتك إلى المسلمين ، فبللة إنك في أمرى لنير مجمل ، فقال له عمر a من أين هذا الثراء ؟ قال من الأفضال والسهمان ما زاد على ستين ألفاً قلك ، فقوم عمر ماله فزاد عشرين ألفاً فجملها في بيت المال ، ثم قال ، يا نحاله ؟ واقد إنك عل لكرم وإنك إلى لحبيب ، وكتب إلى الأمصاد ، إن لم أعزل عالداً من سخطة ولا حيالة ولكن الناس فغموه وفتنوا به ، فنفت أن يتواكلوا إليه ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصائع وألا يكون بمعرض فتئة ۾ رعوفيه هما آغة منه .

(الشيم)

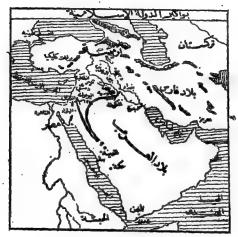
تاريخ الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٦٤ (الطبعة الأولى بالمطبعة الأهلية المصرية سنة ١٣٠١ ﻫ). (المرجم)

 ⁽ ۲) مدينة فارسية قدمة تقع على بعد أربعين مهاد إلى الشيال الشرق من مدينة شير از الحالجة ، غير بعيد من مجرى ثهر البلوار وأسمها عنه المؤرخين العرب أصطغر .

وكان خالد هو الذي قاد المحركة الحاسمة (١٣٣٦) ضد جيش هوقل على ضفاف البرموك ، وهو أحد روافد الأردن . إذ كانت الكتائب - شأنها على الدوام - خلواً من القدر الكانى من القرسان الصالحين ، فكأن طين كراسوس الشيخ على سبع قرون وهو يتردد على بلاد الشرق عبثاً دون أن يتعظ بمصرعه أحد ، فكانت الجيوش الامراطورية تعتمد في أعمال الحيالة على الحنود العربية المسيحية الحليقة ، وانحاز هولاء الى المسلمين عندما التي الجيشان . وأقام الجيش البرنطى موكباً عظها من التساوسة والرايات المقنصة والصور والآثار القلصية ، وساعدهم فوق ذلك الرهبان يراتيلهم . ولكن الآثار لم يكن لها أي سحر ، كا أن الاصقاد في الربيل كان ضئيلا . فلما في الجانب العربي ، فإن الأمراء والشيوخ استحثوا الجيوش عظهم وانطلقت أهبوات الذماء في المؤخرة بالزغاريد تشجيعاً لرجافن حسب العادة العربية القديمة . وكانت صفوف المسلمين ملية بالمؤمنين الذين كان يتلالاً أمام نواظرهم أمران : النصر وانقلبت عاولة العدو التراجع الى تشتيت شمله تشتيئاً لم يليث أن تحول الى مديمة . واكان الحيش البيزنعلى يحارب وظهره إلى الهر ، الذي أصبح اللوقت مليثاً والخلاء .

ومن بعدها أخد هرقل يتخل عن سوريا شيئاً فشيئاً لأعدائه الجدد ، بعد إذ لم يمض على استرداده لها من يد الفرس إلا زمن قصير . وسرحان ما سقطت دمشق ، وبعد ذلك بسنة دخل المسلمون أنطاكية . ثم اضطروا أن يتخلوا عنها مرة أخرى بعض الزمان نتيجة لحهد آخر بلك القسطنطينية لاستردادها ، على أنهم ما ليتوا أن عادوا فلخلوها تحت قيادة خالد ماكنن بها إلى آخر الدم ،

وفى نفس الوقت حدث فى الحهة الشرقية ، بعد أن أصاب العرب نجاحاً ابتدائياً سريعاً استولوا به على الحرة ، أن اشتدت مقاومة الفرس . وكان النزاغ على العرش قد انهى آخر الآمر بتولية ملك ملوك جديد ، واكتشاف قائد ذى مقدرة هو رستم . فالتحم بالعرب قرب القادسية (١٣٧٧) . وكان جيشه جحفلا مخلَّطا كالملى اقتاده دارا إلى تراقيا أو الذى هزمه الإسكندر فى إسوس . كان خليطاً من الهندين ، وكان لديه ثلاثة وثلاثون فيلا حريباً ، وجلس على عرش ذهى من فوق منصة مرتفعة خلف



(شكل ١٢٩) خريطة بدايات الدولة الإسلامية

الصفوف الفارسية وهو يلاحظ المحركة ويشرف عليها ، وهذا العرش يذكر القادئ بهيرودوت والهلس بونت وسلاميس قبل ذلك بما يزيد عن الألف سنة . واستمرت المحركة ثلاثة أيام . وكان العرب في كل يوم بمجمون ، فيصمد الجيش العظيم الفارسي في مكانه ، حتى يسلل الليل ستاره آمراً بالهدنة ، وتلقى العرب في اليوم الثالث أمداداً ، وحاول الفرس قرابة المساء أن يصلوا بالحرب إلى نهاية حاممة ، بأن قاموا بمجوم بالفيلة . ولقد مبرفت تلك الوحوش المائلة في مبدأ الأمركل شيء أمامها ؛ ثم جرح أحدها جروحاً أليمة ، فين جنونه وأخذ يندفع هنا وهناك بين الجيشين ، وانتقل الزعر منه إلى الفيلة الآخرى ؛ واستمر الجيشان مصعوقين فترة ، من الزمان في أصبل شمس الغروب ، وهما يلاحظان الجمهود الجنونية التي تبلغا هذه الوحوش الشهباء الصارحة كي تهرب من جوع الرجال المسلحين المعابة لها والتي أحاطت بها من كل جانب. وقد حدث بمحض الصدفة أن القيلة خاصت في الحيش القارمي آخر الآمر ولم تحض صفوف العرب، وأن كان العرب هم الذين قيض لم أن سجموا هجمة فعالة في المسمم على أثر القوضي التي وقعت في صفوف أعدائهم، وبعد الفسق أطبقت ظلمة الليل ، ولكن الحيوش لم تتباعد هذه المرة . وظل العرب الليل كله يكيلون للضربات لأعدائهم باسم الله ، ويضغطون على الفرس المحطمين المتهقرين . وبزغ الفجر وظول جيش رستم تفر مبتعدة عما يملأ ميدان القتال من القوضي وبقايا للمركة المتناثرة . وكانت تلك الفلول تمضي في طريق مملو، بالأسلحة المتناثرة والأحوات الحرية ، وكثير من دواب ومعدات الحمل والموتي والذين في الذع . والأحوات الحرية من والدي والذين في الذع .

وكان أبو بكر قد مات من قبل في ٣٦٤ ، فتولى الحلاقة من بعده عمر وكان أمر وقد انجزت أعظم فتوح المسلمين في عهد عمر (٣٣٤ – ٣٤٤). فطردت الإمر اطورية البرزنطية من سوويا طرداً ناماً . على أن زحف المسلمين أوقف عند جبال طوروس . واجتيحت أرمينية وفتحت كل أرض الجزرة ، كما فتحت فارس وراء النهرين . وانتقلت مصر انتقالا يكاد يكون سلبياً من يد الروم إلى المرب ٢٠٠٠ ، ويلظك استطاع الحملس السامى في بضع سنين ، باسم الله ورسوله ، أن يسترد تقريباً كل الأغاليم التي خسرها للقرس الأربين قبل ذلك بألف سنة . وسقطت بيت المقدس في وقت مبكر ، إذ عقدت معاهدة دون أن تحتمل الحصار ، وبذلك حدث أن

⁽١) ررد في الأصل Brother-in-Law أن عنيل النبى اد شقيق زرجه وهذا خطأ والصحيح هو ما أثبت هذا ، حيث تزوج النبى (ص) حفصة بنت عمر . (المترجم)
(٢) إذ نتج المرب لمصر عزل الحبيثة عن سائر العالم المسيحى ، ثم يظل العالم بعد ذاك ألف عام درن أن يسمع شيئاً عن هذه الجدود الناتية التي يقيت على المسيحة . وق متحسف القرن الخامس عشر على رما فيئاً بنية حسنية تستمل عن بعض تعلق بالعليمة المسيحية . وكانت تشمح عليه أن العالم المسائم المسلمون أن القانيس يوسنا . والمنافر أبا تاست على قصص محرفة عن الحبيثة ومختلفة بأقاميمي أخرى عن زهماء من المغول تتصروا على الدي المسائرة

و الصليب الحق ع الذي حمله الفرس قبل ذلك باثنتي عشرة منة ، ثم أعاده هرقل بمشقة كبيرة انتقل مرة ثانية من دائرة حكم دولة النصارى . على أنه ظل باقياً في أيد مسيحية ؟ ونصت المعاهدة نفسها أن ينعم النصارى بالتسامح في مقابل دفع الجزية على الرؤوس فقط ؟ وتركت الكنائس بأسرها والآثار والذخائر المقاسة بأجمعها في حوزتهم.

واشترطت بيت المقلس مقابل تسليمها شرطاً عجيباً . فإن المدينة أبت أن تسلم إلا للخليفة عمر نفسه . وكان الحليقة حتى ذلك الحين مقيها ف المدينة ينظم الجيوش ويدبر شئون القتال عامة . فحضر إلى بيت المقدس (٦٣٨) ، على أن طريقة حضوره والحالة التي وحدها عند بحيثه تبين مبلغ السرعة التي أوهن النجاح بها بساطة البداية الإسلامية الأولى وقوتها . جاء في رحلة طويلة أمدها ستمئة ميل ومعه تابع واحد ليس هير ؛ وكان راكبًا جملا ، وكانت عدته في السفر كبسًا صغيرًا من شعرً . وآخر من تمر وقربة ماء وجفنة من خشب . واستقبله قواده الكبار خارج المدينة ، وهم يرتلمون أثواباً فاخرة من الحرير ويمتطون صهوات جياد مزركشة السروج والأعينة . وتملك الغضب الشديد الرجل الشيخ لهذا المنظر الغريب . فانزلق من رحله ، وجم بيديه الثرى والأحجار ، ثم لطخ هؤلاء السادة المتأنقين وهو يصبح بهم سبابًا . فلماذا كانت هذه الإهانة ؟ وما معنى هذا التأنق ؟ وأين المقاتاون الأشداء ؟ وأين رجال الصحراء الحشنون ؟ إنه ليأتي على هؤلاء والطواويس ، المتأنقن المعجبين بأنفسهم أن يسيروا في معيته . فواصل المسير مع تابعه ، وسار الأمراء المتأنقون من خلفه عن بعد ــ خارج مجال قلمه إياهم بالأحجار . التقي منفردًا ببطر برك بيت المقدس، وهو الذي تملك المدينة فيا يظهر من حكامها البيزنطين . وأخذ يتعامل والبطريرك على ما يرام فطافا مما بَّالأماكن المقلسة ، وأنشأ عمر ، وقد هدأت ثاثرته بعض الشيء ، يوجه النكات الساخرة الماكرة إلى أتباعه ذوى الثياب الفاخرة .

ومما له دلالته كلماك على ترعة ذلك الحليفة رسالة عمر إلى أحد عماله ـــ وكان ابتنى لنفسه قصراً بالكوفة ــ يأمره فها أن بهدمه ثانية .

كتب إليه يقول : 1 بلغنى أنك شُلت أن تحاكى إيوان كسرى(٩) ، وأنك شلت أن تحيط نفسك بالأبواب التي كانت له ، أفتر غب كذلك أن يكون لك ما كان لكسرى

⁽١) مدينة طيشدون .

من حراس وحجاب ؟ أم تريد أن تباعد بينك وبين للومنين وتجعل بين مجلسك وبين الفقراء حجاباً ؟ أم تريد أن تخالف سنة « النبي » ، وتصدر إلى ما كان عليه ملوك الأعاجم من الأبة والفخامة ، فتردى في نار جهنم كما تردواً ؟ ١٧٥ .

٦ - أيام عظمة بني أمية

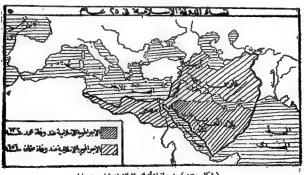
كان أبو بكر وعمر بن الحطاب^(٢) أعظم شخصيتين في تاريخ الإسلام . لا يتسع المجال هنا لوصف الحروب التي تم بها في حمس وعشرين ومئة من السنين أن نشر الإسلام لواءه من نهر السند إلى المحيط الأطلسي وأسبانيا ، ومن قشْغَرَ على حدود الصن إلى مصر العليا . وبحسبك خريطتن لتبيان المدى الذي دفع به الباعث القوى للعقيدة الجديدة الفكرة العربية والقرآن العربي قبل أن استطاعت النزعة الدنبوية أى روح التجارة والنهب القديمة وبريق الرداء الحريرى، أن تستعيد كامل سلطانها القاتل لذكاء العرب وإرادتهم . وسيلحظ القارئ كيف سار المد العربي العظيم في آثار خطى يوآن تشوانج ، وكيف ثم في سهولة بإفريقية أن فتوح الوندال السهلة قد كُروت في الانجاه المضاد أعني من الجنوب إلى الشهال ، وإذا خامرت القارئ أية أوهام مضللة في أن حضارة من الحضارات الممتازة سواء أكانت فارسية أم رومانية أم هلينية أم مصرية ، تحرها هذا الفيضان الجديد ، فإنه كلما سارع إلى نبذ مثل هاته الفكرات من عقله كان ذلك خيراً له . فإن الإسلام ساد لأنه كان خير نظام اجتاعي وسيامي استطاعت تلك الأيام تقديمه , لقد ساد لأنه كان يجد في كلُّ مكان شعوباً تبلد حسما سياسياً ، تُسلَب وتُظلم وتُخوَّف ولا تُعلَّم ولا تُنظم ، كما وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين شعوبها بأية حال . كان أوسع وأحدث وأنظف لهكرة سياسية كان لها نشاط فعلى فى العالم حتى ذلك اليوم ، وكان يهب الجمهرة الغفيرة من البشرية عامة نظاماً أفضل من أى نظام آخر سبقه . وكان النظام الرأسماني الاسترقاقي في الإمىراطورية الرومانية ، والأدب والثقافة والتقالبد الاجتهاعية في أوربا ، قد انحلت انحلالا تاماً وانهارت قبل أن نشأ الإسلام . ولم يحدث

schurtz in Helmolt's History of the World. : نقلا من (١)

 ⁽٢) دوج كتاب الغرب على تيسية هذا ألطيفة باسم هم الأول ، وتسمية هم بين عبد العزيز
 الحفية الأحد مد المدعد التحاق.

أن دب دبيب الانحلال في الإسلام أيضاً ، إلا عنساما ضاعت ثقة البشرية في إخلاص عثليه .

ولقد تبددت معظم طاقته فى غزو بلاد فارس والْتُركستان وتمثُّلهما . وكانت أقوى طعناته هي الموجهة من فارس نحو الشيال والمنطلقة إلى الغوب عبر مصر . ولو أنه ركز قوته الأولى على الإمبراطورية البيزنطية ، فلا شك في أنه كان مستطيعاً انتزاع القسطنطينية حوالى القرن الثامن والوصول إلى قلب أوربا بنفس السهولة التي وصل مها إلى هضبة الهاسر . حقاً إن الحليفة معاوية حاصر تلك العاصمة سبع سنوات (۲۷۲ – ۲۷۸) ، وكذلك فعل سليان (۲۱۷ ، ۲۱۸) ؟ بيد أن الضغط لم يديم ولم يتواصل ، وظلت الإسراطورية البيزنطية ثلاثة أو أربعة قرون بعد ذلك حصناً متداعياً يدفع الشرق عن أوربا . ولا جدال أن الإسلام كان يستطيع على التحقيق أن بجد في المتنصرين حديثًا أو الباقين على الوثنية من آثار وبلغاريين وصربيين وصقالبة وسكسون ــ رجالا مستعدين للانضواء تحت رايته استعداد أتراك آسيا الوسطى . ومع أنه بدلا من الاستمساك



(شكل ١٣٠) خريفة تشأة الدولة الإسلامية في ٢٥ علما

بالاستيلاء على القسطنطينية ، دار لملى أوربا أولا بطريق لفريقية وأسبانيا الملتوى المجيد ، فإنه لم يصادف إلا فى فرنسا فى تهاية خط مواصلات هائل البعد جن بلاد العرب قوة كافية البأس لإيتماف تقدمه .

وقد تسلط سادة مكة البدو على الإمبراطورية الحديدة منذ البدايه . فإن أبا بكر الحليفة الأول انتخب في المدينة الخلافة بطريقة شكلية غلب فيها الصياح ، وهكذا كان شأن عر بن الحطاب وهيأن الحليفة الثائث ، على أن ثلاثهم كانوا مكين من أسر عريقة . ولم يكونوا من رجال لمدينة . ومع أن أبا بكر وعركانا رجلي بساطة أصحاب الثياب الحريرية . فلم يكن الغزو لديه من أجل الله بل من أجل بلاد العرب ، أصحاب الثياب الحريمة . فلم يكن الغزو لديه من أجل الله بل من أجل بلاد العرب ، وبالأخصى لنفسه هو والمكين ولمشهرته الأقريين بني أمية . كان رجلا ذا مكانة شريفة ، نصب نفسه لحلمة وطنه وبلدته وقومه . في أمية . كان رجلا ذا مكانة شريفة ، نصب نفسه لحلمة وطنه وبلدته وقومه . أخذ وعطاء عادلة [كدا ! . . .] وبتوليته يكف الخليفة عن أن يكون رجلا عجباً أخذ وعطاء عادلة [كدا ! . . .] وبتوليته يكف الخليفة عن أن يكون رجلا عجباً له شخصية مدهشة متوقدة ، ويصبح ملكاً شرقياً ، كذكر من الملوك الشرقين من قبل ومن بعد ، ملكاً لا بأس به إذا قيس بالهاير الشرقية حتى ذلك الحين ، ولكنه لا يزيد على ذلك شيئاً .

وإن حكم صَّان ومقتله لـبرزان بوضوح عواقب ما حدث في عهد النبي ٣٠ ، عقدار ما شهدت حياة أني بكر وعمر بما انطوت عليه تعاليمه من جلوة قلصية . إذ كان عمد صلى الله عليه وسلم يلجأ إلى الديلوماسية في أوقات كان أبو بكر يمنع فها إلى الصلابة ، وكان المتمر الجلديد من الجميع الأرستقراطي الذي ظهر بتولية عَهان أحد

⁽١) العسج أن أبا يكر أول من أملٍ من الرجال وأن حيان أملٍ قبل هم وثلاثتهم من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وكلهم من المهاجرين المخلصين فته والرسول ولم يكن لأسدم بنية عاسة من وراه إسلامه فقد قسمي كل منهم في سبيل الإسلام بالنفس والتفيير، وتحمل آلام التعليب والتشريد والفقر والمهانة من أجل مقينته وديته . ومن عيان بن عنان وفضله على الإسلام والدورة التي أدت إلى مقتله ، إنظر الموسوحة العربية المبسرة . (المترجم)

 ⁽۲) أسلفنا عليك القول في تفنيد تلك المزاهم بما فيه الكفاية . (المترجم).
 (۹ - معالم)

ثمرات تلك التصرفات الديبلوماسية . وكانت عواقب ذلك الحريم ، حريم النبي المتجمع من غير تمحيص ، والمنازهات والفيرات العائلية التي استكنت خطف أهور المسلمين أثناء حكم الخليفتين الأولين ، قد أخلت تقسلل إلى ضوء النهاد . فإن هلياً وهو أبن عم النبي وابنه المتيني (1) وزوج ابنته فاطمة ، كان يعد نفسه صلحب الحق في الخلافة دون سواه . وكانت ادعاءاته تياراً خفياً يترقرق معبراً عن امتعاضن المدينة ، وعثائر مكة المنافسة لارتفاع شأن بني أمية . ولكن عائشة زوجة النبي الحظية ، كانت نفار على الدوام من فاطمة وتعادى عليا . فانجازت إلى عيان . . . وبذلك تنهار بداية قصة الإسلام المبديعة فجأة في حأة هسلما النزاع والمناوشة بين الوراث والأرامل ٣٠ .

⁽١) لم يتبن النبى صلى أنف عليه وسلم عليا وإنما هو قد نسمه إليه ؛ وهو ابن همه أبي طالب ، و أيام اشتدت قيها الأرت على الناس ولهل على خاك العباس بجعفر بن أبي طالب تضييعًا عن أبي طالب لكثرة عياله ستى ينكشف عن الناس ما هم فيه ولم يزل عل نع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستى بعثه إلله لبيًا غاتيمه وآمن به وسنةه . (المترجم)

⁽٢) إن كان مذا القول من جانب المؤلف هو بسبب تاخر عل كرم الله وجهه عن بيعة أبي بكر ما عدد الشيمة سنداً لاحقيته في الخلافة دون أبي بكر وعمر وعبَّان ؛ فإننا نبادر إلى القول بان ﴿ أَمَا تاخر من بيمة أن بكر لا لأنه برى أحقيته في الحلافة ، وإلا لظل طوال حياته درن مبايعة ، وإنما كان ذلك منه لأله استنكر أنْ يبرم الأمر من دوته ومن دون بني هائم فلما تبين له أبحَاع المسلمين دخل في الجماعة وبابع . فلما أمهات المترمنين فما أبعد هذا الفقول فبهن عن العسمة ؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعقد على واحدة من رُوجاته إلا لسهب عام وذلك ظاهر من كتب السيرة والتفسير ، فيمضهن كان رُواجه منها بسبب التشريم كما حدث في حالة ذينب بثت جحشي مثلا ، ويعضهن كان ذواجه منها للتآ لف وإحكام الروابط كما حدث في حالة حفسة . وبعضين قوفاء فن بما يكفيهن فس العيلة مثل أم حميية مثلا للخ .. فإن أردت الاستزادة فعليك بكتب السيرةففيها تفصيل ذاك بما يشهد أن النهى صل أله عليه وملم لم يكن يتزوج دون غرض تقتضيه الرسالة السمحة أو تمسيص ، وإنما كان له من زواجه من كل واحدة من زوجاته رضي الله منهن غرض جِدَف إليه ، ويضاف إلى ذلك أن راحدة من أمهات المؤمنين لم تتدخل في شتون الدولة إطلاقاً لا في حياة النبس صلى الله عليه وسلم ولا يعده . وما كنان خروج عائشة رضى الله عنها مع الزبير وطلحة عن كراهية لعل كرم الله وجهه ولكن لأن الزبير وطلحة أوهماها أن عليا لم يكترث لدم عيَّانَ المطلول فسنرجت معهما . حتى إذا مرت بالحوأب واشته ذلج كلابها سأل سائل عن اسم المكان قلها ذكر على مسيع منها وتذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وملم * أيتكن تلبحها كلاب الحوأب اليغ a صرعت وأبركت الجلمل وهمت بالرميوع وظلت مكانيا ستى تصايم الناس يإشراف على كرم الله وجهه على اللحاق بهم فسارت معهم إلى الـصرة. -

ونى ٢٥٦ رجم جماعة من الرعاع عيان ــ وهو شيخ فى اليانن ــ بالأحجلو فى شوارع المدينة ثم طاردوه إلى منزله وقتلوه . وأصبح على "آخر الأمر خليفة لكى يقتل بدوره هو أيضاً (٢٦١) . وفى إحدى معارك هاته الحرب الأهلية منزت عائشة نفسها وقد أصبحت سيدة عجوزاً شجاعة حادة الطبع ، بأن قادت(١) ضد على معركة وهى فى هودج على جمل . فأسرت وأصنت معاملتها .

وبينا كانت جيوش الإسلام تتقدم منصورة فى غزوها المظفر العالم ، أصلحا هذا الداء ، داه الحرب الأهلية بضربة على أم رأسها . ماذا كانت قيمة و حكم الله فى العالم ۽ لدى عائشة ، ما دامت تستطيع أن تقضى على فاطمة المقوتة ؟ وماذا كان يبني الأمريون و أنباع على على أعلى السواء من وحدة البشرية ، وقد قام بينهم مثل المهالة الأسلاق هدله وغيمته فى اللهائة الأرالعظم الحال الذى يتلهون به ويتسلون واللى الخلافة هدله وغيمته فى المهائة الإسلامي شطرين ، قسمته الضفائي والحشم والمسخافة الحزيمة خفنة من رجال ونساء فى المدينة . ولا يزال هذا الشفاق قاماً إلى اليوم . فإن هناك حتى يومنا هذا قسم رئيسيا من المسلمين هم الشيمة بمن يدينون بفكرة حتى على الورائى فى الحلاقة و كمادة رئيسية فى عنيدتهم » ! وهم منتشرون فى فارس والهند . ولكن شطراً تتحر يعادل هولاء فى الإهمية هم و السيون » ، اللين لا يسع على المراقب الخايجة المعجمة على الرائم ، ينكرون هذه الإنهائة العجبية إلى عقيدة على العيا كان فرداً عاديا جبالة .

ومراقبة هذا الصدع يتمشى فى بداية الإسلام البديعة الرائعة ، أشبه الأشياء بملاحظة حالة مريض يتطرق لملى مقله الضعف . وإنا لنحيل القارئ إلى و الأدب، ٢٦٥

وهذا الخروج من جانب عائشة رضى اله صبا لم يكن سبا إلا سفاطاً حل لدم المطلول وسطالية بمعاقبة المجرجين وإن كالت قد خدمت جدًا الأمر وحيث عليها الأخراض الحقيقية للبين سفؤوها على الحروج معهم . والواقع أن عرد المنت المكبرى كلها هو شيخوعة حيّان وتسلط بن أمية في أقامه على شئون المسلمين تسلماً أسخط الناس (انظر الموسومة للعربية الميسرة) . (المدجم)

 ⁽١) هي لم تقد المحركة و إنما كان هردجها في وسطها لأن أنصار طلحة والزير أبوا إلا الالتفائل
 حول الهودج بزعم النظاع عنه (المثرجم)

⁽٢) أيبلغ من شدة أحجاب المؤلف بيناية الإسلام والغامته الأولى وهي معيبة نعلاء أن يتسفط هذا السفط البالغ على الخلافات التي نشبت بين كبار القادة . ولكن المؤلف يغلو ويقسر ويتسب الأشهاء إلى فير أسابها الحقيلية كاعتقاده الخاطيء في غيرة عائشة من فاطمة . (المقرجم)

 ⁽٣) يغمد المؤلف بالأدب الكتب والمؤلفات اللي ظهرت حول ذلك الموضوع ، فالأدب هنا مستبدة معناها الدام الواسم . (للشرجم)

الكثير الملون في هــــذا الموضوع إذا هو شاء أن يعلم كيف أن الحسن بن على مهته زوجته ، وكيف قتل أخوه الحسن. ولسنا نتجاوز أن فدكر اسمهما في هذا المكان ، لا نبها لا يرحان يمـــدان قسما كبراً من البشرية بمجال مفعم بالعواطف القشيمية والامتعاض المبادل. وهما أعظم الشهداء مكانة لدى الشيعة . وقد أحرقت الكعبة المبيت العتيق بمكة بن غلو المصادمات الناشبة بن عطف الأطراف ورواحها ، وطبيعي أن يتدى لشأجا في نوم هيتها القديمة بالضبط أو على مقياس أكبر كثيراً ؟

لقد رأينا مرة أخرى في هذا القسم وسابقه ، كيف أن الكفاح الحتمى لهذا الدافع الجديد ، الذى هو أحدث الدوافع وآخرها ، والذى يدعو إلى الوحدة في الشئون العالمية ، والذى يكافح ما ركب في البشرية من نز عات دئيوية ، ورأينا كالمك كيف أن دار الذي بما سادها من تفاقل وتعقيد كانت منذ الجداية أشبه الأشباء بتركة مثقلة بالأعباء في الهقيدة الجديدة (١) . ولكن لما كان هذا التاريخ ينحدر بعد ذلك إلى الجرائم الهادية والمؤامرات التي تحدث في أية أسرة مالكة شرقية ، فإن دارس التاريخ سيدوك يقطة جوهرية ثالثة في إصلاحات عمد العالمية . فإنه كان عربياً أمياً ، غير ملم بالتاريخ، ولا بكل تجاريب روما وبلاد الإغريق السياسية ، ويكاد يكون غير ملم كالماريخ، بلاد الهودية الحقيق (٢) ، فترك أتباعه من غير حصورة فعالة للتعبير عن الروح الديمقراطية الحقة الماهامة وتركزها (٢) ، وخلفهم من غير صورة فعالة للتعبير عن الروح الديمقراطية الحقة الذي هي الهايم الخالب على تعاليم الإسلام الجلوه هية (مع استهالنا للكلمة بمعناها المصري) ،

⁽١) وما دخل دار ألنهي بإدارة دفة سياسة الدولة بعد انتقاله إلى الرفيق الأهل ? الحق إننا لا تجم مبرراً لحلة الإقعام الغريب . وكل ما في الأمر أن بئي أمية الثهزوا فرصة ضعف عيَّان وقرابتهم منه فوطنوا مركزهم في الدولة . وكانوا قوماً تجاراً دنيوين ، ذرى نزمة جاهلية ولم يجدواً تلقامم سوى صل بن أب طالب وهو وجل ذاهد لم يؤت قدرتهم على الختل والحداج . (المترجم)

⁽٢) هذه الأمية وهدم الإلمام بخبرات روما والإغريق السياسية وبتاريخ أيرض اليهودية المفيق
هي البرهان الأول على صحة النبوة وقد أشار القرآن إلى ذلك في مواضع متعدة منها على سبيل إلمثال :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبللون » (صورة المنكبوت) .
« وكذلك أوسينا إليك روساً من أمرناً ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإنمان ولكن جملناه فوراً
جمه من نشاه من عبادنا وإنك تجدى إلى صراط مستقيم » . (سورة الشورى) .

(اللاّرجم)
(٢) لعل المؤلف يشير بهلم العبارة إلى أن النبي لم يستخلف أحداً من بعده، ولماته أن الشورى من
التفاط الأساسية في حكم الإسلام بنص القرآن . وذلك ما تم في انتخاب الحلقاء الأربية الأول. (المترجم)

وكان حكمه حكماً فردياً مطلقاً ، ومن م ظل الإسلام حكومة فردية مطلقة . وبدا لا يعد الإسلام من الناحية السياسية تقلماً بل تراجعا(۱) عن الحريات التقليدية وقوانين المصحراء العرفية . وكان تقض هدنة الحج^(۲) الذي أدى إلى معركة بدر أبشع وصمة للإسلام الناشئ . واقد هو المدر الأعلى للإسلام نظريا ، ولكن سيده الفعل كان . على المدوام أى رجل يبلغ من القرة ومن موت الفسمر ما يجعله يسلب الملاقة ويستمسك بها . وإذ أن رجلاكها يصبح عرضة لشيوب الثورات عليه والإقدام على المناله ، فإن قانون الإصلام الهائي كان إرادة ذلك الرجل .

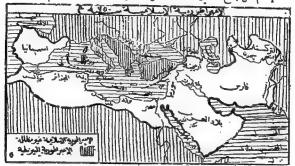
وقد ارتفع شأو أسرة بنى أمية زماناً بعد موت على وظلت قرنا من الزمان تقريبا تعطى الإسلام حكامه وولاته .

ويبلغ من انشغال موَّرخي العرب بالمنازعات على العرش وبجراءً خلك العصر أن

⁽¹⁾ إن كان الانصراف هما كانت طيه الجاملية من إباحية وتفلت وخروج عن السمة الإنسانة ومنافلة لروج كل قانون وخلق وحدم وجود سكومة موحدة ولا نظام معمول به ، يعد فى نظر المؤلف تراجعا فاقع به من تراجع . (المقرجع)

⁽٧) يشير المؤلف هنا إلى سرية مهد انه ين جعش ويتمنذ هما مدراً مل الإسارة ؟ وثنى أن لقبى سل الله عليه وسلم لم يسرس عبد الله ين جعش وأصحابه لنزو أو شيء من أهسال لفتال . وإنما أرسله المستطلاع فقط ؟ وذلك ظاهر تماماً من كتابه (ص) لعبد الله ، كيا أن المؤلف أغفل غضب النبى من القرم عند مودخهم بقوله ؟ ها ما أمرتكم بقتال في طلب الحرام » ووقف الميمر والأميرين وأبي أن ياعد من ذلك شيئا ، وكذلك مقط في أيدى المفرم وظنوا أنهم هلكوا واغتد تسيف المسلمين لم حتى أنزل الله تباوك وتمالى ويساؤلك من المغبر الحرام تقال فيه قل تعال في كيد وسد من مبيل الله وكذر به والمسجد الحرام ولاحراج أهله منه أكبر من القدل » (سورة الجيئرة) وفي هذا أبلغ زد على المؤلف الذي يتغذ من هلم الدرية وسيلة الأعدا المسلمين من مبيل الله ، ومن المسجد الحرام ، وإغراج المسلمين من منها أهد ، ومن المسجد الحرام ، وإغراج المسلمين من منها أهد ، ومن المسجد الحرام ، وإغراج المسلمين من منها أن كل واصدة من هذه أقد من القدل وأنكي من القامل وأنكي من المسلمين من ها أن كل واصدة من هذه أقد من القدل وأنكي من القامل وأنكي من المسلمين من المنه من المسلمين من من كفار قريش وأقبالها أن يرجموا فاستمعل بمعمم من الحضري في الفيام قتل في سرية عبد الله ين جوسلة المتحريف من قال منهم بالموسود ورن قتال ، وبلغك كادت قريض الإدادة فيصله اله كالا ومينا المسلمين نعراً ونسرة المسلمين من من قال منهم بالموسود ورن قتال ، وبلغك كادت قريض الإدادة فيصله اله كالا ومينا المسلمين نصراً ميناً .

أصبح من العسر علينا أن نتبع التاريخ الحارجي لنلك الفترة . ومهما يكن الحال فإنا أبد سفنا إسلامية تمخر البحار وتهزم الأسطول البيزنطي في قنال بحرى عظم بإذاء ساحل ليكيا (Lycia) (وهي إقليم جبل ج . غ . آسيا الصغرى) (١٥٥ م) ، ولكن كيف احتاز المسلمون هذا الأسطول المظفر في هذا الوقت المبكر من تاريخهم ؟ ذلك أمر لسنا نعرفه بوضوح . والراجع أنه كان في معظمه مصريا . ولا شك أن الإسلام ظل يضع سسنين متحكما في شرق البحر المتوسط ، وفي ١٦٩ ثم في ١٧٤



(تنكل ١٣١) غوياة الإمبر اللورية الإسلامية عام ٧٥٠ م

قام معاوية (٦٦١ – ٦٨٠) أول خليفة أموى عظيم بهجومين يحريين على القسطنطيقة. وكان لزاما أن يكون الهجومان يحريين لأن الإسلام طالما كان تحت الحبكم العربي ، لم يتغلب قط على حاجز جبال طوروس (٢٠ . وفي نفس المدة ظل المسلمون يدفعون كذلك بعزواتهم أبعد في صعيم آسيا الوسطى . وطلى حين كان الإسلام آخلاً في الاضمحلال فعلا في منطقته المركزية ، كان لا يفتأ مع ذلك يضم إليه حشوداً عظيمة من الأتباع الجدد ويوقظ روحا جديدة بين الشعوب التركية التي كانت حتى خظيمة من الأتباع الجدد ويوقظ روحا جديدة بين الشعوب التركية التي كانت حتى خلك الزمان منقسمة على نفسها هائمة لا وجهة لها في الحياة . ولم تعد المدينة يعد

⁽١) وفى عهد معاوية أيضًا استولى العرب على معظم جزر شرق البحر المتوسط مثل ورودس والخريطش ولمرواد وقبرس بقيادة مقدم الجند جنادة بن أمية وحبد الله بن أبي السرح ولمبره من أمراء البحر المظفرين . (المدرج)

مركزاً صالحا لمغامرات الإسلام الهائلة في آسيا وإفريقية والبحر المتوسط ، وبذا أصبحت دمثق العاصمة الطبيعية للخلفاء الأمويين .

ومن أعظم هولاء – يوم تبددت إلى حن سحب المؤامرات على العرش – عبد للك (١٠٥ – ٢٠٥) والوليد الأول (٢٠٥ – ٢٠٤) اللذان ارتفع شأو الآمرة الأموية في عهد بهما إلى ذروة المجد والعظمة . فانقل الحد الغربي إلى جبال البرانس ، على حين كانت ممتلكات الحليفة في الشرق تمتائم حدود الصين . وأنفذ الحليفة سليان بن الوليد(١٠) (٢٠١) سلسلة ثالية من هجات المسلمين على القسطتطينية ، كان أبوه (٢٠٥ قد وضع خططها وأعد العدة لها . وكان الهجوم عمراً شأن ما حدث أيام الحليفة معاوية قبل ذلك ينصف قرن من الزمان – وذلك لأن آسيا الصغرى كما أشرنا من تونا لم تمكن نود من معر . وأبدى الإيسوري(٢٠٠ – وهو منتصب للعرش – في البخاع مهارة وعناداً الإمراطور ليو الإيسوري(٢٠٠ – وهو منتصب للعرش – في البخاع مهارة وعناداً خارقين للمعتاد للخرج من داخل أسوار المدينة نحروجا مباغتا رائعا ممكن به من المحراق معظم صفن المسلمين ، وقطع خط الرجمة على الجوش التي كانوا ألزلوها على الناحة الأسيوية من الهيفور ، وبعد حملة دامت صندن في أوربا (٢١٦ – ٢٧٧) درو المسلمون . ثم جاء شتاء لا نظير له في النساوة فأكل هزعتهم .

ومن هذه الآونة فساهدا يبدأ عبد السلالة الأموية فى الأمول. فقد تبسد عند ذلك الدافع الأول الهائل للإسلام. فلم يحنث بعد ذلك أى توسع فضلا عن ظهور اشمىمحلال يبسّ فى الحاسة الدينية . وكان الإسلام قد ضم إليه الملايين ، ولكن هضمه لهؤلاء

 ⁽١) سليمان مو ابن عبد الملك وهو أغر الوليد وليس ابنه .

⁽٢) قاهر أن المقصود بابيه هنا للوليد بن عبد الملك وهو أخوه كما نوهنا قبلا. (المترجم)

 ⁽٣) الظر كتاب ٥ الحضارة البيزنطية ، تاليف رانسيمان (ص ٣٩ – ٥٥) وقد مربه المترجم لإدارة القرحة والألف كتاب [مكتبة النهضة المصرية] .

والإمداطور لاوون (ليو الإيسورى) (۹۱۰ – ۷۶۰) جندى افتصب العرش ئى ۷۱۷ ، ونجح فى الغالج من القسلطيلية على العرب . (المترجم)

الملايين كان هضها ناقصا وسيئا . فإن إمبراطورية خلفاء محمد الهائلة الجديدة بعلم ابتعلت المدن والشعوب واللهوائف والأجناس بأكلها والوثنيين المسوب والمهود والمسيحين والماتوية والزرادشتين والوثنيين الطورائيين . وحتى ذلك الحين ، كانز من الحصائص المشتركة بين جمع عظاء أصحاب الرسالات الدينية ، الداعين إلى توحيد العالم ، الوقوع في خطأ شائع ، هو قبولهم المثل العليا الأخلاقية والدينية التي مال الناس المهابا الموابا والدينية التي مال الناس المهابا الأحلاقية والدينية التي مال الناس المهابا قبل زمانهم كما لوكانت مثلا عليا همومية . فكانت دعوة محمد مثلا متجهة الى المؤوسية الخبابية ، وإلى ما وقر في نفوس أذكياء العرب في زمانه من إحساسات بالوحدة الربانية . وكانت هسله الأمور كامنة في طوية مكة والمدينة وضمعرها .

فلما انتشرت التعاليم الجديدة وتكيفت في قالها الخاص ، اضطرت أن تعمل على أسس ظلت على المعام أبعد ما تكون عن المجانسة لطبيعتها ، والترمت أن تنمو في تربة أخرجتها عن صورتها السوية وحولتها عن طريقها القويم . وكان مرجعها الرحيد هو القرآن . وهذا الكتاب كان يبدو السقول التي لم تتلوق نفات اللغة العربية ، أعنى كما يبدو لكثير من المقول الأوربية اليوم حليطا من البلاغة الرائعة المعنى الممتازة الروح التي عازجها – ولتقالها صراحة – تعقمة خاصفة لاكيف لمالك . وقد عاب مغزاه الحق

⁽¹⁾ لو صبح هذا الزهم تكان لزاماً أن تسير دهوة عمد صل أقد عليه وسل في يسر ومبولة ه من الراقع أنها لقيت في مكة مهدها ، معارضة قوية وهداوة مرة أيحة وأخدى شديداً من المكون للسلمين ومعهم النبي صل أقد عليه وسلم ، ولبث المسلمين يتجرعون كؤوس الداب ألواناً ولم يسلم من ذك أحد منهم ، كما تعلق المكبون على مقاطعة الحاضيين وحرمانهم اقتصادياً واجاعياً وسياسياً من كل ما هو مقرر لدرهم ، لقاد تصرتهم مد عليه السلاة والسلام ومعام تسلمه لحم لهقداوه ويستريحوا عاكاله لأصنامهم من السب ولتسفيه أحلامهم ونهله من مقرقم ومدادكهم ، بل أنهم مقدوا المناصر بعد أن أهرتهم ونها للمن مقدوا المناصر المناهم ومن السب ولتسفيه أحلامهم ونهاه من مقرقم ومدادكهم ، بل أنهم مقدوا المناصر المناهم من الدار ومعدة هاك الأكان للدعوة السيد الثاني عالم وإصباراً ثم من إلهاد المناهل وبهم من مكة إلى يثر ب وتلقمت بلك الأكان للدعوة المناهل المحرد . (المترجم)

 ⁽ ۲) هذا رأى لا نستغربه على رجل انعدم لمامه باللغة العربية أصلاء ناهيك يتذوق أديها وبلاغتها
 تلك المؤهدت التي احتاذها الوليد بن المنابرة أحد أقيال مكة زمن النبي صل الله عليه وسلم ، والتي نؤهله =

من حدد لا يحصى من المسلمين الجدد غياباً تاماً . ذلك عندنا هو مرد ما أظهرته العناصر الفارسية والهندية من المسلمين من استعداد الانضام إلى صفوف الشيعة بسبب نقطة خلاف كانوا عن الآقل يستطيعون إدراكها والإحساس بها . وإلى نفس الهاولة للتوفيق بين ذلك الفلر الفقهى اللى المتوفيق بين ذلك الفلر الفقهى اللى سرحان ما نهض يتساءل : أكان القرآن – ولم يعرح منسلد الآزل ... قديماً قد م سرحان ما نهض يتساءل : أكان القرآن – ولم يعرح منسلد الآزل ... قديماً قد م الفكراً ؟ وإنا لتأخدانا الدهشة حيال خورج هسلم الفكرة عن كل معقول إذا نحن لم تتبين فيها على الفور محاولة حسنة القصد لمسيحى من رجال العلم أسلم ، وأداد أن المسبخ صبغة إسلامية على اعتقاده القديم بأنه : « في البلدء كان الكلمة ، والكلمة عند أيسبخ صبغة إسلامية والكلمة عند أنكان الكلمة اندراً » و

ولم يحدث قبل ظك أن واحداً من عظاء أصحاب الرسالات الدينية الداعين إلى وحدة العلم قد أظهر يوماً أدني فهم للواجب التعليمي العظيم ، واجب الشرح الواضح المنوع فضلا عن التنظيم الفكرى الذى تنطوى عليه مقدماتها وقضاياها الأولية : بل تراهم جميعاً يكورون نفس القصة ، قصة الانتشار السريع الذى نشهه بقليل من الماء صب فوق مسطح عظم ، مصحوبة بكل ما يعقب ذلك من سطحة وضاد ،

ولا ينقضى طويل زمن حتى نسمع الأقاصيص عن خليفة أموى هو الوليد الثانى (٧٤٣ – ٢٤٤) ، اللدى هزأ بالقرآن وأكل الخيزير وشرب الحمد ولم يُعُم الصلاة. وريما كانت تشاح لأسباب سياسية . ومهما تكن الحال فقد نشأت في مكة والمدينة حركة تطهرية رجعية تقاوم استخفاف دمشق و ترفها . وثمة حائلة عربية أخرى عظيمة هي حائلة العباس (العباسيين) ظلت تدير الخطط زمنا طويلا للاستيلاء على صوبحان الحكم ، فأنشأت تستفل التذمر العام والذاتج بين بني أمية

أن يتلوق ما في القرآن من فصاحة وبلافة ومعاق فلة . إذ يصف ما سمح من محمد عليه الصلاة والسلام من القرآن a والله إن لقوله اللكي يقول لحلاوة وإن طبه الحلاوة وإنه لشمر أملاه ، وطنق أسفله ، وإنه ليحلو ولا يمل ، وإنه ليحلم ما تحمه a البناية والنهاية ج ٣ ص ١٦ .
 (المترجم) .

⁽۱) سير مارك سايكس .

⁽ ٢) لمجيل يوحنا ، الأصحاح الأول ؛ آية ١ .

وبنى العباس أقدم من الإسلام . وكان متصل الحلقات قبل ميلاد محمد . وحل هؤلاء العباسيون لواء و شهداه ي الشيعة : هلى وابنيه الحسن والحسين ، وأقاموا الدليل على أمم والشيعة سواه (1) . وكان علم بنى أمية أبيض ؛ فاتخذ العباسيون علما أسود حاداً علم بنى أمية أبيض ؛ فاتخذ العباسيون علما أسود حاداً على المنسن والحسن ، وأسود لأن السواد أشد تأثيراً في التفوص من أى لون آخر . وفضلا عن ذلك أعلن العباسيون أن كل خليفة بعد على مفتصب . وفي ٢٤٩ قاموا بثورة عكم الديم ، وكان أبو العباس السفاح أول الحلفاء العباسيين ، فيذاً حكمه بأن جمع في سمن واحد كل ذكر حي من سلالة أية استطاع أن يضم يده عليه ، وأمر مهم جميا فلبحوا . وقسد جمعت أجسامهم في يقال ، ومد من فوقيا بساط من أدم (جلد) وعلى هذه المنضدة الفظيمة الكثيبة ، جلس أبو العباس وستشاروه يطعمون ٢٠٠ . ودعل ذلك أن قبور خلفاء بني أمية نبشت وأحرقت عظامهم وذريت بين مهب الرياح الأربعة . وهكذا انتقموا آخر الحرة أمية من التاريخ .

ومن الأمور الشائقة الجديرة بالملاحظة ، أن ثورة مناصرة للأمويين قامت بحراسان وكان إسراطور الصين يشد أزوها .

٧ ــ انحلال قوة الإسلام في ظل العباسيين

على أن ذرية على ثم يقدرً لما أن تسهم فى هذا النصر طويلاً. فإن العباسيين كانوا مغامرين وحكاما من طراز أقدم من الإسلام . فلما قضوا من قصة على وطرهم المنشود ، كان ثانى إجراء قام به الخليفة الجديد أن يتصيد الأحياء من عبرة على وقاطمة ويلجمهم .

⁽¹⁾ ليست الشهة هليا واينيه الحدن والحديث ، وإنما هي حركة ينتصر أطلها لعل واينيه وأينائهم عل أنهم أصحاب الحق الأول في الخلافة أي أنهم كانوا يناصرون سدة الوراثة وهذا هو المبدأ الذي أكد المباسيون أنه يرجح حقهم في الخلافة عل حق الأمويين لأنهم أبناء ثم النبى . وهنا بالفات يضم المؤلف يده دون أن يدرك على أساس الصدح الذي ظهر في الإسلام بسهب شيخوسمة الخليفة صاف ، وهو الشقاق القدم في الحاطية بين الهاشمين والأموين . (المترجم)

⁽ ٧) ليس هذا حمل أبي المهاس وإنما هو حمل حمه صد الله وقائد جيشه وواليه على الشام . (المترجم)

وواضح أن التقاليد القديمة فى فارس الساسانية وفى فارس قبل الإغريق كانت فى طريق عودتها إلى العالم . وبارتقاء العباسيين عرش الحلافة أفلتت السيادة البحرية من قيضة الحليفة وذهبت معها شمال إفريقية وأسبانيا التى نشأت فيها دول إسلامية مستقلة ، وكانت أسبانيا من نصيب رجل من بنى أمية أفلت من الموت .

وانقل محور الأهمية فى الإسلام عبر الصحراء من دمشق إلى أرض الحزيرة . وشيد المنصور الذى تولى الحلاقة بعد أبى العيلس عاصمة جديدة لنفسه فى بغداد بالقرب من حرائب المدائن (طيشقون) (Ctesiphon) الماصمة الساسانية القديمة . وأصبح الآتراك والفرس أمراء مع العرب سواء يسسواء ، وأعيد تنظيم الجيش على النظم الساسانية . ولم يعد المعدينة ومكة آنفذ من أهمية قط إلا كمركزين المحج يولى المؤمنون وجوههم شطرهما فى الصلاة (1) . على أن العربية استمرت فى انتشارها وحلت على اللغة المومية وأصبحت لغة المتعلمين فى كل أرجاء العالم الإسلامي لأنها كانت لغة ممتازة ولأنها كانت لغة ممتازة ولأنها كانت لغة ممتازة .

ولن ندلى إليك إلا النرو اليسر عن ملوك العباسين بعد أى العباس . وكانت تنشب سنة بعد سنة فى آسيا الصغرى حرب مناوشات مربعة رجراجة ، لم تفز فها بنزنطة ولا بغداد بأى كسب دائم ، وإن وصل المسلمون فى خزوهم مرة أو مرتين إلى البسفور . وظهر نبى كذاب هو المقنع ، ادعى الألوهية واستمر ماة قصيرة الأمد ، ولكنه أتمب الدولة وشغلها . ودبرت مؤامرات وشبت ثورات ترقد اليوم فى أسفار التاريخ هزيلة باهمة كا ترقد الزهرات الميتة بين دفتى سفر قديم . وثمة خليفة عباسى آخر لا مندوحة لنا من ذكر اسمه ، وذلك لما يدور حوله من الأساطير وما له من أهمية سواء بسواء ، ذلك هو هرون الرشيد (٧٨٦ – ٨٩٩) . لم يكن فحسب خليفة الإمبراطورية ظاهرها الرضاء فى عالم الحقيقة ، بل كان كذلك خليفة إمبراطورية

⁽١) حج المسلمين هو البيت الحرام ، والعج مناسك منل موفة والصفا والمروة وفيرها وكلها چوار مكة ، كما أن قبلة المسلمين الصلاة هي المسجد الحرام بحكة ، والسنينة حرسما الماسة في نظر المسلمين ؛ فهي في فقرتم فقط مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنواه الأعبر بعد الوقاة ، ومن ثم كانت زيارتهم لها قبل الحج أو بعده واجبة الكرود عن قرب بزيارة قبر صلعب الرسالة عليه العملة والعلام . (الماترج)

خالدة لا تغرب لها شمس في عالم القصة السرمدى ، فهو هرون الرشيد في و ألف لملة ولملة » :

ويدبج السر مارك سايكس في وصف إسراطوريته الواقعية بيانا نقتيس منه فقرات معينة (١) ، كتب يقول : و كان البلاط الإسراطوري مهذبا مترفا غنيا غني لا حد له ؛ وكالت العاصمة بغداد ، مدينة تجارية هائلة تحيط بقلعة ضخمة هي مقر الحبكم والادارة ، كان فيها لكل مصلحة من مصالح الدولة ديوان عام منظم على قواعد صميحة ومرتب ترتيبا ناما ؛ وفها كثرت المدارس والكليات ؛ وإليها تقاطر الفلاسفة والطلاب والعلماء والشعراء والفقهاء من كل أنحاء العالم الممدن ت . وكانت العواصم الاقليمية مزدانة بالمبانى العمومية الضخمة ؛ وتتصل فيا بينها بمخدمة سريحة فعالة من بريد وقواقل ؛ وكانت التخوم منيعة وفيها الحاميّات الكافية ، وكان الجيش مخلصا للخليفة وفيا ذا اقتدار وشجاعة ؛ وكنان الحكام والوزراء شرفاء رحماء . وكانت الامبراطورية تمتد بقوة متعادلة وهيمنة سليمة من بوابة قيليقية(٢) إلى عدن ، ومن مصر إلى آسيا الوسطى . وكان المسيحيون والوثنيون واليهود والمسلمون على السواء يعملون في خدمة الحكومة . وكأنما اختنى المغتصبون للعروش والقواد المتمردون والأنبياء الكذبة من الديار الاسلامية اختفاء تاما . وحلت حركة التبادل والثراء محل الثورة والهجاعة . . . وكاتت الأوبئة والأمراض تواجه بالمستشفيات الامبراطورية وأطباء الحكومة . . قامًا في أعمال الحكومة ، فإن طرائق الادارة العربية الفجيجة الارتجالية أخلت مكانها لنظام معقد من الدواوين نقل عن الروم منه جزء ، ولكنه أخذ في الغالب من النظام الحكومي الفارسي . فكان العريد والمال وديوان الخاتم وأراضي التاج ومرافق العدالة والشئون العسكرية تداركل منها من دواوين متفصلة على أيدى وزراء وموظفن ، وكان جيش من الكتبة والناصن والمنشئن والمحاسبين المتشدين في هذه الادارات يجمعون كل قوة للحكومة في أيلسهم هم رويداً رويداً ، وذلك بإبعادهم أمير المؤمنين عن أى اتصال مباشر برعاياه . كان القصر الامه اطورى ومن به من حاشية ، مؤسسين بالمثل

⁽۱) كتاب آخر تراث الخلفاء The Caliph's Last Heritage

⁽٢) بوابة من قبايقية (جوليك بوغاز) بمر ضيق يحدرق سلسلة جال طودوس بآسيا للصغرى ، والطريق المرائيس منه يمتد من الدوب ، في متحدد طويل وهر يبدأ من الحضية الوسطى ، إلى وادى أطنه (أدنه) وطرسوس . والساح الطريق هند البواية نفسها ه٢ قدماً . (المترجم)

على سواين وتقاليد رومية وفارسية . وكان الحصيان ودور الحريم المنعزلة والمفروض عليها الحجاب الشديد والحراص والجواسيس والوسطاء والمضحكون والمصراء والأقرام يتراحون حول شخص أمر المؤمنين ، كل في مكانته يحاول أن يحظى بالعطف الملكى ويشغل العقل الملكى يطريقة غير مباشرة عن شؤن العمل والدولة . وفي نفس الوقت كانت تجارة المحرق تصب المذهب في بغداد صبا ، وتضيف إلى صيل التقود المائل المنافرة ، التي كانت تسلب آسيا الصغرى والهند والتركستان . وعمة معن آخر المراق المنافرة المنافرة التي كانت تسلب آسيا الصغرى والهند والتركستان . وعمة معن آخر المراق ثراء على المنافرة التي كانت تسلب أميا له ، وهو الماليك والآثر الى والتقود المعدنية البرنطية، كان يدو كالفيض الذي لا نهاية له ، وهو الماليك والآثر الى والتقود المعدنية البرنطية، وكان يزيد دخل المراق ثراء ، كما كان ــ بالإضافة إلى حركة التبادل التجارى المناف من أبناء القواد والموظفين وأرباب الأملاك وأحظياء الملك والتجار ومن المهم ، تتألف من أبناء القواد والموظفين وأرباب الأملاك وأحظياء الملك والتجار ومن المهم ، عن شبعم والإشادة بذكره متلهم ، عنافسين فيا بينهم في بلخ ترفهم ، محرضين الشعراء على بالني المدارس الفكر متوعة ، باذلين المدارس الفكر متوعة ، باذلين المدارس اللهكر مناد كل المصود .

و ولقد قلت إن الإسراطورية العباسية في أيام هرون الرشيد كانت ضعيفة واهنة للى درجة ما ولعل القارئ يعد هذا فكرة حمقا عندما يضع في اعتباره أنى وصفت الإمبراطورية بالنظام ، والإدارة باللغة والاستقرار ، والجيش بالاقتدار ، والمروة بالوقمة . وبرجع ذهاني لهذا الرأى إلى أن الإمبراطورية العباسية قطعت صلتها بكل شيء أصيل وحيوى في الاسلام ، وأنها أقيمت بكليتها على تجميع أشلاء الامبراطوريات التي حطمها الاسلام من قبل . ولم يكن في الامبراطورية شيء يستشر في قادة الشعب أشي الغرائز ؛ إذ أن الجهاد أو الحرب للقلمة قد انحط وتحول إلى استبلاء منظم على الانتام . وبات الخليفة إمبراطوريا أو ملكا الدلوك مترفا فاخراً . على حين انتقلت الادارة من النظام و الأبوى ، إلى نظام مركزى يبروقراطي . وأخذت الطبقات الكبرة النفى تفقد كل إيمان بديانة الدونه . بيا أخد النامل والنظر الفاسقي وللميشة الرافية ؛ يمان على العقيدة المرابة . وقد أهمل كل من الخليفة . يمان على العقيدة المورية . وقد أهمل كل من الخليفة .

ومستشاريه إهمالا تاما صرامة الاسلام وبساطته ، وهما الرابطة الوحيدة التي كان في وسعها أن تربط بين أجزاء الامبراطورية . . وكان هرون الرشيد نفسه من معاقرى النبيذ(٢) وكان قصره مذينا بصور وتماثيل للطبر؟) والحيوان والانسان .

وإنا لتتوقف هنية ذاهلين أمام عظمة الممتلكات العياسية ؛ ثم لا تلبث أن ندرك فجاءة أنها لا تزيد عن غلالة براقة تستر وفات للدنيات الغابرة ورمادها ؛ .

مات هرون الرشيد سنه ٩٠٨. وما أن مات حتى هوت إمراطوريته العظيمة في حاله المحرب الأهلية والاضطرابات. والحادثة الكبرى التالية ذات الأهمية البارزة في هذا الجفزء من العملم ، تأتى بعد ذلك يمتى سنة عندما انثال المرك من التركستان جنوبا يقيادة روساء آل سلجوق العظام ، ولم يقهروا فحسب إمبراطورية بغداد ، بل آسيا المصغرى كذلك . ونظراً لانصارهم من الشهال الشر" ، فإنهم استطاعوا أن يتجنبوا الحاجز العظيم وهو جبال طوروس ، التى ظلت حتى ذلك الحين تصد المسلمين . وكانوا ما يزالون " الكثير من شأنهم نفس أولئك الذين أعطانا عنهم يوآن تشوانج من الطراز البدائي ، أى رجالا بمن كانوا الآن قد أسلموا ، وكانوا مسلمين في قوة الاصلام وانحائهم الاسلام . فأحدثوا في قوة الاصلام انتحاشا عظيا ، وأداروا أذهان العالم الاسلام من جديد صوب الجهاد في قوة الاصلام انتحاشا عظيا ، وأداروا أذهان العالم الاسلام من جديد صوب الجهاد (الحرب الدينية) ضد للسيحية . ذلك أنه حدث ضرب من الهذفة بين هاتين الدياتين العظيمتين بعد انقطاع التقدم الاسلام فكانت بالأخرى مناوشات في منطقة التخوم أكثر المها حريا متصلة الحلقات . ولم تصبح كفاحا مريراً تعصبيا من جديد إلا في القرن الحادى عشو ...

⁽١) ذكروا أن هرون الرشيد كان يحضر بجالس الشراب وأنه كان يشرب ولكنم اعتلفوا في توع شرابه من سيث الاعتباد والتاثير على العقل فبعملوه النبيذ غير الهمرم عند أبي ستيفة والظاهر أن هرون الفرهيد كان مموداً وكان الشراب ضرورياً له لتيسير الهذم وجداً لا يكون معاثراً للنبيذ الهرم .

 ⁽٢) انظر « حضارة الإسسلام ، لجرونيادم وترجمة المرجم ، (الألف كتاب وسكتبة مصر پالفجالة ص ٤٤ – ٤٥) ق اقتباس من لفيلمادي في وصف الشجرة اللهبية وطيورها المعاشية المغردة وأروقة قصر الحلالة وفضائه. (المرجم).

٨ ـــ الثقافة العربية

ملى أنا قبل أن نتقل فتحدثك عن الآثراك والصليبين ، وعن الحروب العظيمة التي ابتدأت بن المسيحية والاسلام ، والتي خلفت من ورائها حالة جنونية شديدة من علم التسامح بين هلمين النظامين العظيمين دامت حتى العمير الحاضر ، ثرى من الشهرورى أن نوجه مزيداً من صايتنا للحياة الله كرية في العالم الناطق بالعربية اللهى كان آخذاً عند ذلك في الانتشار انتشاراً يزداد سعة أكثر فأكثر فوق الأقالم التي تسلطت عليها الثقافة المشيئية يوما ما . فقسد كان الله عن العربي ، قبل عمد بيضهة أجيال متقداً بنار تسرى تحت الرماد ، فكان ينتج الشعر والشيء الكثير من الجدل المدين . وما لمث ذلك العقل بيتأثير ما أحرز من النجاح القوى والعنصرى حين تأجيع في تألق لا يفوقه إلا ما كان الاخريق في أزهى عصورهم . فأحيا من جديد بحث الانسان وراء العلم . فلئن كان الاخريق أبا للطريقة العلمية ، فلقد كان المربي أبا وحيا لها وشريكا له في أبوتها . في العرب ، وليس عن طريق اللاتين ، الما المسرى تلك المنحة من النور والقوة .

على أنا عندما نكتب كلمة العرب هاهنا ، عب أن نكتبا فى قدر معين من التحقظ . فإن ثقافة الإسلام العربية تتعمل بالعربى التح بصلة تشابه إلى حد ما صلة التقافة المكينسية (١) بعد أيام الإسكندر بالإخريقي الأوربي الأصلى . إذ لم تعد تلك التقافة نقية من الناحة المنصرية . بل ضمت بن دفتيا بحموصة من التقافات السابقة عليها ، هى ثقافة فارس في عهد الأسرة الأرشكية (٢) والثقافة القبطية لمصر المهلنة . إذ لم تلبث فارس ومصر أن تعلمنا الحديث بالعربية في سرحة عظيمة على أنهما ظلتا في جوهرهما فارس ومصر .

⁽١) يغرق المؤرخون بين الثقافة الطبيئة وهي الإغريقية بصفة ماه شاملة والثقافة الطبيشية أي اليونانية بعد مصر الإسكندر انظر السرح كتاب * الحضارة الطبقيقة » (تارن) مكتبة الأبحلو والألف كتاب . (الحرجم) (٢) الأوشكيون Araacide ؛ هم أسرة حكمت إحدى دول الطواقف بعد الإسكندر الأكبر.

⁽٢) الأرشكيون Arsacide : م أسرة حكمة إحدى دول الطوائف بعد الإسكندر الأكبر. أو هى الأسرة الغالبة على أمر دول الطوائف خميها ومنها أردوان الأصفر الذى نازمه السيادة أردشير بن بابك وقتله وتلقب بشاهنشاه ، وأردشير هابا هو مؤسس الدولة الساسانية فى فارس . (المترحم)

وكانت فتوح العرب الأولى قد أتاحت للثقافة العربية صلة وثيقة بالتقاليد الأدبية الْأُغْرِيقِية . حَمَّا إِنْ ذَلِكُ لَم يُحَدَّثُ فَى الاغْرِيقِيةِ الْأَصْلِيةِ وَلَكُنَ عَنْ طَرِيقَ التّرجات السريانية المنقولة عن الكتاب الاغريق . ويلوح أن المسيحين النساطرة ، وهم المسيحيون المقيمون إلى الشرق من الأرثوذكسية ، كانوا أكثر ذكاء وأنشط ذهنًا من علماء اللاهوت في بيزنطة ، كما كانوا من حيث مستوى التعليم العام أهلي كثيراً من مسيحيي الغرب الناطقين بالملاتينية . وحظوا بالتسامح في الأيام الأخيرة للسوَّلة الساسانية"، كذلك تسامح معهم الاسلام حتى يوم ارتفاع شأن الدك في القرن الحادى عشر . كانوا العمود الفقرى لثقافة العالم الفارسي . وكانوا احتفظوا بكثير من علم الطب الهلينسي ، بل لعلهم أضافوا إليه أشياء . ففي عصر بني أمية كانت عالبية الأطباء في هولة الخلافة من النَّساطره ، ولا مراء أن الكثيرين من علماء النساطرة اعتنقوا الاسلام دون أن يلم بهم أى ندم خطير أو أى تغير عظيم فى مرتزقهم أو أفكارهم . ومن فضلهم على العلم احتفاظهم بالكثير من مؤلفات أرسطو فى كل من الاغريقية والترجمات السريانية . وكانت للسهم مؤلفات كثيرة في الرياضيات . ولا شك أن عنادهم من العلم يجعل ما لدى كل من القديس بندكت أو كاسيو دوراس من موارد معاصرة ، يبدو في حالة إعواز تستحق الرثاء . وإلى هؤلاء المعلمين النسطوريين وقد من الصحراء العقل العربى الغفل متوقدا مستطلعا ، فاستوعب كثيرًا ورفع قيمة ما تعلم بزيادته قدرًا وتحسينه نوعاً . تعلم كثيرا واستوعب كثيراً . ومن قبل ذلك كانت فارس قرونا عدة ميدانا النشاط لاهوني وفكري حميق دقيق . فعندنذ تدرُّر هذا النشاط بدثار الأساليب العربية وأصبح سبيلا للزندقة والانقسام في الديانة الاسلامية . وكان الانقسام الشيعي فارسيا ني جوهره .

على أن الفرس ومعهم العلم الهليني لم يكونوا للعلمين الوحيدين الدين أتيحوا للعرب.
فقد كان دو قرباهم اللهود متترين في كل مدن الشرق الغنية ومعهما ديم وتقاليدهم الحاصة
الممزة لهم . وأثر العقل العربي والعقل الهودى كل منهما في صاحبه تأثيرا عاد بالمنفعة
المشتركة حلهما جيما : فاستفاد العربي من ذلك علما وأفاد الهودى من ذلك مزيدا من
المشحد الفكرى . ولم يحدث قط أن كان الهود متحللة من في التنهم . فلقد ذكر نا من قبل
أثيم كانوا قبل ظهور العرب بألف سنة ، يتكلمون الاغريقية في الاسكندرية المهلنة

وهاهم الآن فى كافة أشحاء هذا العالم الإسلامى الجسديد يتكلمون العربية ويكتبونها . فكتبت فى العربية المنام الآداب : (المؤلفات) المهودية ، منها على سبيل المثلل ، كتابات ابن ميمون (Maimouidea) الدينية (ك . وألواقع أن من العسير أن نقول ، فى حالة هذه الثقافة العربية ، متى يتهى لمؤثر الهودى وبيدأ العربى ، فإن عواملها المهودية بلغت من الجوهرية والأهمية حداً كبيراً .

وفضلا عن فلك ، فم مصدر ثالث للإلهام ، هو،بلاد المند ـــ وقد تجلى على الأخص فى حلم الرياضيات ، ويعسر علينا فى الوقت الحاضر أن نقدره حتى قدره . وليس هناك إلا القليل من الشك فى أن اللهمن العربى إبان فثرة روعته كان على اتصال وثين فعال بالأدب المستسكريين وبعلم الفوزيق و الهندى الفارسي المادرين وبعلم الفوزيق و الهندى الفارسي المادرين

وقد تجلت نواحى المتشاط اللحية التي يمتاز با العقل العربي منذ أيام بني أمية وإن لم تظهر بأحس مظاهرها إلا في عهد العباسين . والتاريخ هو بداية ولياب كل ظسفة سليمة وكل أهب عظيم ، وكان أول من برّز من الكتاب العرب المعتازين هم المؤرخون وكتاب الراجم والشعراء شبه المؤرخين . وتبع ذلك ظهور رواية المغامرة العاطفية (الرومانس) والقصة القصوة عندما نشأ جمهور من القراء بريد أن يتسلى . حتى إذا كنت القراءة عن أن تكون امتيازاً خاصاً ، وأصبحت ضرورية لكل رجال الأعمال ولكل شاب مهلب ، نشأ التطور المنظم لنظام تعليمي وأدب تعليمي . وعند الأعمال ولكل شاب مهلب ، نشأ التطور المنظم لنظام تعليمي وأدب تعليمي . وعند حلول القرنين التاسع والعاشر لم يكن لدى المسلمين موالفات في قواعد اللغة وقد مهرية أنه أميار بيرة أوما يقاربه ، إذ تحت به مجموعة من المعلمات وقد سبق العالم الإسلامي الغرب بقرن أوما يقاربه ، إذ تحت به مجموعة من المعلمات العظيمة في عدد من المراكز في البصرة والكوفة ويفداد والقاهرة وفي قرطبة ، تعطورت عماكان في مبدأ الأمر مدارس دينية تعتمد على المساجد . فأضاء نور هاته تعلموت عارج العالم الإسلامي إلى مسافات بعيدة ، واجتذب إليها الطلاب من الشرق والغراب والفائد المياسة الطلاب من الشرق والغراث ورطبة ، والغراب وركانت قرطبة بصفة خاصة تمنوي اعداداً كبيرة من الطلاب المسيحين ، والغرب وكانت تأثير الفلسفة العربية الوافدة عن طريق أسبانيا على جامعات بلايس وأكم فود و

⁽¹⁾ هو أير حمران موس پن مهمون (۱۲۰۰ - ۱۳۰۶) فيلمســوف وطبيب بهروى ومعسنت تواتين . ولديفرطية ، ترانيج فلسفة ديمية لها وزنها وحمل طبيبا لصلاح الدين وأولاده بمصر ، وله مؤلفات منها و مشتة التوارة به و دوليل الحائرين »

وشمال إيطاليا وعلى الفكر الأورى الغربى عامة ، - جسيا جداً ولا جرم . ويعرز اسم ابن رشد القرطى (١١٩٦ – ١١٩٨) بمثلا لأقصى ما بلغه تأثير الفلسفة الغربية من سلطان على الفكر الأوربى . وهو الذى طور تعالم أوسطو على أسس فصلت العبدق الديني عن الصدق العلمي فصلا تاماً ، وبذا مهد الطريق لتحرير البحث العلمي من الملمب الاعتقادى (Dogmatism) اللاهوقى الذى كان يقيده فى ظلال كل من المسبحية والإسلام . وهناك اسم عظم آخر هو ابن سينا أمير الأطباء (٩٨٠ – ١٩٧٧) الذى ولد فى الطرف الآخر من العالم العربي ببخارى ، وتنقسل فى خواسان (١٠٣٧) الذى ودهشق والقاهرة وباسان (١٠ . وازدهرت صناعة نسخ الكتب فى الإسكندرية ودهشق والقاهرة لتعلم الفقراء ، وقرابة سنة ٩٧٠ كانت هناك سبع وعشرون مدرسة بجانية فى قرطية لتعلم الفقراء .

ويقول ثاتشر وشويل (٢) : « شاد العرب ما شادوه في الرياضيات على الأسس التي أقامها الرياضيون الإغريق. وأصل ما يسمى بالأعداد العربية يغشاه الإبهام . وقد حدث في عهد ثيودوريك الأعظم أن استعمل بويثيوس (Boëthius) علامات معينة ، كاقت من ناحية جزئية شبهة جداً بالأرقام التسعة التي نستعملها الآن » . وكالمك استخدم أحد تلاميذ جربرت علامات كانت أشد شها بأرقامنا ؛ على أنه يقال إن الصفر ظل مجهولا حتى القرن الثانى عشر ، عندما اخترعه رياضي عربي اسمه عمد بن موسى وص ، الذي كان كذلك أول من استعمل العلامات العشرية ، وأعطى الأرقام القيمة الوضعية في كان كذلك أول من استعمل العلامات العشرية ، وأعطى الأرقام القيمة الوضعية في خاناتها . على أن هذا يتازع فيه الكثيرون من الهنود اللين يدعون الأنقسهم الصفر والطريقة العشدية بوصف كونهما مساهمة فعالة وغضلا الهيند على الثقافة أ

و ولم يضف العرب إلى ما ابتكره إقليدس ف الهندسة إلا الشيء القليل ، ولكن الحدر يكان عصاب المثلثات الدائرى الحدر يكاد يكون من خلقهم ، وكذلك أدخلوا تحسينات على حساب المثلثات الدائرى غنر عن جيب الزاوية (Sine) وظل الزاوية (tangent) وظل عام الزاوية (optica) بعض الكتب .

(القريم)

⁽١) خواسان : هي منطقة ثمال شرق إيران المتاخة لبلاد التركستان .

[«]A General History of Europe» : ان كتابها (٢)

⁽٣) هو عبد أنه عبد بن موسى الخوارزور(ت٥٥٠) وياشي وظلكي وجفراني ، هربي عاصوالمألول (المدجم)

وتقدموا بعلم الفلك . فبنوا مراصد عديدة وركبوا كثيرا من الآلات الفلكية لاترال تستعمل حثى اليوم . وحسبوا زاوية سمت الشمس (Ecilptic) والموضع الدقيق لنقطتي الاعتدالين . وكانت معرفهم بالفلك جسيمة ولا مراء .

ه وتقدموا في الطب أشواطاً بعيدة على الإغريق. و درسوا علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلم تدبير الصحة ، ويكاد علم الأقراباذين (١) (المادة الطبية (materia medica) لديم أن يكون هو نفس ما لدينا اليوم . ولا يعرح كثير من طرق الملاج عندهم مستعملا بين ظهرانينا إلى اليوم . وكان جراحوهم يفهمون استعمال التخدير ، ويقومون بطائفة من أصعب العمليات المعروفة . وفي نفس الوقت الذي كانت فيه المكنيسة تحرم عمارسة الطب انتظارا منها لإنجام الشفاء على يد المناسك الدينية التي يقوم بها الفساوسة ، كان لدى العرب علم طبي حتى .

الم وابتدأوا في الكيمياء بداية حسنة . واكتشفوا كثيراً من للواد الجديدة ، من أمثال البوتاس ونترات الفضت والسايافي وحض النتريك والكوريتيك . وكلمة والكحول ، عربية ؛ وإن كانت المادة معروفة بلمم و أدواح الحمر ، عند پليني كانت المادة معروفة بلمم و أدواح الحميم وإنقاناللسنمة . كانوا يشتغون في جميع أنواع المعادن : الله عين منها والفضة والنحاس والبرنز والمعلب . ولم يفقهم أحد أبد الدهر في صناعة المنسوجات . وصنعوا زجاجاً وخوفا أسرار الصباغة ، وصنعوا الورق . وكانت لديم طرائق عديدة لتهيئة الجلود ، وكانت مصنوعاتهم الجلدية شهرة في كافة أرجاء أوربا . وأنتجوا الأسياغ والعطور والأشربة . وصنعوا السكر من القصب ، وأوجلوا أصناع كثيرة ممتازة من الخدور . ومارسوا الزراعة بطريقة علمية ، وكانت لليهم طرائق جيدة الرى . وعرفوا قيمة المضبات ، بطريقة علمية ، وكانت لديهم طرائق جيدة الرى . وعرفوا قيمة المضبات ، يطعمون النباتات وكيف ينتجون أضرياً جديدة من الفواكه والأزهار . وأدخلوا رسائل الغرب أضجاراً كثيرة ونباتات متعددة اجتلوها من الشرق ، وكتبوا رسائل علمية في الزراعة ي . وكتبوا رسائل علمية في الزراعة » .

 ⁽١) الأفريادين : فرع الطب ألذى يبحث في مصادر الأدوية وطبيعتها وخصائصها وتحضيرها .
 (المترجم)

وثمة عنصر فى هــــذا البيان يجب أن يبرز هنا بسبب أهميته فى حباة البشرية الفكرية ، وهو صناعة الورق . ويلوح أن العرب تعلموا تلك العمناعة من الصيفين يعلريق آسيا الوسطى ، وأخداها الأوربيون عن العرب . وكان لزاما حتى ذلك الزمان أن تكتب الكتب على الرق ولا أو البردى ، حتى إذا فتح العرب مصر ، انقطع عن أوربا مورد البردى . وما كان فن الطباعة بكبير الغناء ، ولا كانت الصحف والتعلم الشعبى العام بوصاطة الكتب من الأهور الممكنة ، حتى أصبح الورق وفيراً . وركما كان هذا عاملا أعظم أثراً فى تأخر أوربا النسبي أثناء العصور المظلمة ، محا يبدر أن المؤرخين يميلون إلى الاعتراف به . . .

وتواصلت حلقات هذه الحياة العقلية فى العالم الإسلامى على الرغم مما شمله من فوضى سياسية ذريعة . ولم يحاول العرب من اليداية إلى النهاية أن يعالجوًا المشكلة التي لا تزال ننتظر الحل ، ألا وهي مسألة الدولة المستقرة التقدمية ؛ فقدكان نظام الحكم عندهم فى كل مكان مطلقاً وعرضة للهزات والتغيرات والمؤامرات والفتل ، وهي أموركانت على اللوام ولا تزال من خصائص الملكيات الشديدة التطرف . ولكن روح الاسلام ظلت بضع قرون تحتفظ للناس حامة بقدر من الاستقامة وضبط النفس من وراء آثام القصور والمعسكرات ومنافساتها ، وكانت الإمبراطورية البيزنطيسة أعجز من أن تحطم هذه المدنية ، كما أن الخطر التركي في الشهال الشرق لم يفتأ يشتد قوة ولكن فى بطءُكبِر . واستمرت حياة الإسلام اللهنية نابضة بالحياة. حتى أطبق الترك طبها . ولعلها كانت تمني نفسها في طويتها بأنها قادرة على البقاء بالرغم بما كان يتبدى في توجيها السياسي من آيات العنف والمخالفة لكل معقول . وقد كان هذا . حتى ذلك الحين ، هو الحاصة المسيرة للعلم والأدب فى كافة الأقطار . إذ كان الرجل ذو العقلية والفكر المثقف نافراً من الاصطدام برجل العنف والقوة . وكان على الحملة رجلا ممن حلقوا خدمة البلاط والمداورة مع مقتضيات الزمان . ومن المحتمل أنه لم يكن قط تام الثقة بنفسه ولل ذلك الحين ، لم يكن لأهل الحكمة والمعرفة شجاعة المتعصبالديني (الفنطيق) وثقته بنفسه . ولكن لا يكاد يساورنا أدنى شك في أنهم قد تجمعت لدسهم

⁽١) الرق بفتح الراء جلد رقبق يكتب فيه -- معجم الوسيط . (المترجم)

مقائد ثابتة ، واستجمعوا الثقة في أنفسهم أثناء القرون القليلة الأعيرة ، فاهندوا في بطء إلى سبيلهم إلى الفرة والسلطان بفضل تطور التعليم الشعبي العسام والأدب الراج بن الناس عامة ، وها هم اليوم أشد ميلا إلى التحدث عن الأشهاء بصراحة ووضوح ، وإلى المطالبة لأنفسهم بحق التسلط على تنظم الشتون البشرية أكثر مما سبق لم من قبل في أي عصر من عصور تاريخ العالم .

الفن العربي

رُبُط الفتوح الإسلامية بطرز جديدة في العارة ، وهي تسمى بأسماء متنوعة هي: المشرقية أو الإسلامية والمحمدية والعربية . على أن العربي الحق فيها يقول ١ جايت c Oayet ، لم يك قط فنانا . وليما شيد العربي المساجد والقصور والقبور والمدن ، لأنه اضطر أن يبتنها بمكم الحاجة . على أنه وجد عماله ومهندسيه ومعاريه بهن المصرين والسوريين والفرس الذين أخضعهم . قلم يكن النن العرث في قارس إلاعبرد استمرار للفن الفارسي ، ولكن حدث في مصر وسوريا تكييف حقيتي يسا ر الظروف الجديدة ، وظهور طراز جديد وخصيصة جديدة في المياني والزخرفة . كان هذا هو الفن ۽ المر ، بأدق معانيه . وإلى الغرب في شمال إفريقيا وأسبانيا نشأ تنويع خاص جديد يتميز بعقد حدوة الغرس . وكانت سوريا ومصر قبل عجىء العرب بزمن طويل ، قد انحرفتا عن الأشكال البزنطية باستبدال العقد المستدر بالعقد المدبب ؛ وكافتا تقدمتا على الفن البرزطي كثبرأ بإهمال الأشكال المصنوعة نماذج مجسمة ذلك بأنهم كانوا ينفلون الروح الواقعية الهلينية ويستبدلون بها التزيين الزخرق بالرسوم والنقوش . وكان المز اجالعربي المفطور على التأمل والنشوة ميالا بكليته إلى تقوية هذه العملية . ﴿ وَلَا رَجِّعُ ذَلِكَ ۖ كَمَّا يَقُولُ جايت _ إلى الرغبة في إطاعة ناموس ديني - لأن هناك كثيراً من التصاوير العربية المبكرة التي تمثل الأشكال الحية ــ بل إلى غريزة فطرية ركبت فهم » . والعربي يبدى في شئون الحياة العادية ، ويصرف النظر عن أية ثقافة ، كراهية شديدة لتعرية جسده أو النظر إلى جمد عار . وحدث تدريمياً في ثنايا تطور الفن العربي أن انتقلت الزخرفة من صور الحيوان والنبات المتواضع عليها إلى المقتابكات الهناسية المسهاة ٥ بالنسق الرخوق تاريخ الإنسانية جـ٣

المعرفي Arabesque ، وتصبح السقوف والأقبية منشاة بطبقة مشكلة لا يبرح تشكيلها يزداد عمقا ، فيتكاثر التلبيس بالأستار المنقبة ، بل إن الشكل الخارجي نفسه يصبر بجسها متعدد السطوح ، وتغدو الأقبية مغطاة بجيانات (studs) مستديرة ومتعددة الأضلاع (polygonal) تتدلى آخر الأمر تدلى المعلقات الكلسية(١٠) . ويتمخض هذا الخفض والرفع والبروز والتوهد عن جمال بجديد سحرى شبيه بجمال البلورات والتحوجات المائية والإيقاعات الساحرة المغامضة لغير الأحياء من الأشياء ، ولكنه جمال يضاد على خيط مستقم تلك الحريات المعالمة والسوقيات الفخمة والحيوية المتدفئة الهنيني .

وتقترن هذه التطوات البنائية بخصائصها العربية فى أذهاننا بالمتذنة والقبة البصيلية واستمال جميل القراميد المزججة التى غالبا ما تكون جزلة الحليات. وتمة توسع هائل فى استمال الزخرفة المكونة من آيات وفقرات قرآئية بالخط العربى الانسيابى الجميل.

⁽١) الملقات الكلمية : (Stalactites) : تكوينات كلمية مدية تننأ في الكهوف الطبيعية من رفت المياه الجيرية وتبدو مندلية كالثرمات والشموع من سقوف الكهوف . (المترجم)

الفضل لحادم الثلاثون

عالم المسيحية والحروب الصليبية

١ - الدالم النراي في أشد دركات تدهوره ٧ - نظام الإنساع.

٣ -- ملكة الميروثنيمين الفريجية . ٤ -- تنصيرالبرابرة النربيين .

ه - شركان يصبح إمير اطوراً على النرب. ﴿ ﴿ ﴿ شَخْصَيَةُ شَرِكَانَ ﴿

٧ - الفن والعارة الرومانسكيان . ٨ - الفرنسيون والألمان يتم انفصالم .

٩ -- ألنورمائه يون والعرب و المجريون . ١٠ - كيف استفائت القسطنطينية بروماً .

والأتراك السليوتيون . ١١ -- الحروب الصليبية .

١٢ – الحروب الصليبية اختبار المسيحية . ١٣ – الإمبر اطور فردريك الثاني .

12 - سايب البابوية وتحديداتها . م ١ - قائمة بأسهاء البابوات العظام .

١٦ - البارة والفن القوطيان . ١٧ - موسيق المصور الوسطى .

العالم الغربي في أشد دركات تدهوره

علينا الآن أن نحول التفاتنا مرة ثانية من هله النهضة الفكرية الى قامت فى مهد للمدنيات القديمة ليل شئون العالم الغربي .

ولقد وصفنا لك الانجيار التام الاجهامي والسياسي والاقتصادي الذي ألم بالنظام الإمبراطوري الروماني في الغرب ، وبينا الارتباك والظلمة اللذين أهقها ذلك إبان الهميراطوري الروماني في الغرب ، وكفاح رجال من أمثال كاسيودوراس في سبيل حقظ شعلة العلوم الإنسانية متقدة وسط هذه الارتباكات العاصفة . وتحر فترة من الزمان يكون من البلادة أن يكتب المرء عما قام فيها من الدول والحكام إذ لا دول هناك ولا حكام . وكل ما في الأمر أن بعض المغامرين الصغار أو الكبار كانوا يستولون على ظعة أو ناحية من الريف ويحكون منطقة غير ثابتة الحدود حكماً غير مستقر . فكانت الحزر البريطانية مثلاً . مقسمة بين حشد كبير من الحكام ؛ وكان هناك زعماء كلتيون عديدون

فى إبراندة واسسكتاندة وويلز وكورنوال ، يتقاتلون ويتفلبون أحدهم على الآخو أو يحضعون بعضهم لبعض . وكان الغزاة الإنجليز مقسمين أيضاً إلى عدد من المالك غير المستقرة ، وهى كنت ووسكس وساسكس وإسكس ومرسيا ونورتمريا وأتجليا الشرقية ، وهى دول لا تقطع الحرب بينها أبداً .

وكذلك كان شأن معظم أقطار العالم الغربي فأنت واجد هنا أسقفًا يتولى الملك ، كما كان جريجوري الكبير في روما . وواجد ها هنا مدينة أو مجموعة من المدن تحت حكم دوق أو أمير لهذه أو لتلك . وكنت تجد بين الخرائب الهائلة بمدينة روما ، أسرات نصف مستقلة من مغامرين شبه نبلاء ، كل يذود عن حياضه ومعه أتباعه . وكان البابا نوع من السيادة العامة هناك ، ولكن كان ينافسه في تلك السيادة وبرجحه تماماً فى بعض الأحيان شخص يطلق على نفسه « دوق روما » . وقد حُول المجتلد^(١) العظم في الكولوزيوم إلى حصن يملكه فرد ، وكذلك حُوّل قبر الإمبر أطور هادريان الهائل المستدر ؛ وكان المغامرون الذين استولوا على ثلك المعاقل يقطعون هم وأنصارهم الطريق بعضهم على بعض ، ويتقاتلون ويتناوشون في الشوارع الحربة المدينة التي كانت يوماً ما حاضرة الإمر اطورية . وكان قبر هادريان يعرف بعد أيام جريجورى الكبير باسم قلعة سانت أنجيلو أي حصن الملاك المقدس ، لأنه عندما كان البابا جريجورى يعبر الجسر من فوق التيبر في طريقه إلى كنيسة القديس بطرس ليصلي قه طالبًا رفع الوباء العظيم الذي كان يعيث في المدينة دمارًا ، أطافت به روَّيا مُـلَـك عظيم واقف فوق كتلة الضريح الدكناء وهو يغمد سيفًا ، وعند ذلك عرف أن دعوائه ستستجاب . وقد لعبت قُلعة سانت أنجيلو هذه دوراً عظيماً للغاية في الشئون الرومانية أثناء هذا العصر المضطرب .

وكانت أسبانيا على نفس التمزق السياسى الشديد الذي كانت عليه إيطاليا وفرنسا وبريطانها ، وكان النزاع القدم بين القرطاجي والروماني ما يزال مستمراً في أسبانيا متمثلا في العداء المرير بين أخلافهم وورثتهم من يهود ومسيحين . حتى أنه

 ⁽١) المجتله (Areax) هو كما سيق أن ذكرنا الجزء المتوسط من مدرجات الألماب العديقة ، وهو مقروش بالرمل السمارهات . انظر الحله الثاني ص ١٦٥ [ط ٢] . (المترج)

لما جوفت قوة الخليفة ما أمامها على امتداد الساحل الإفريقي الشهال إلى مضيق جيل طارق ، وجدت في بهود أسبانيا أعواناً متأهبين لمعاونتها في غزوها لأوربا . فإن جيثاً عظيها من العرب والعرب (وهم الشعوب الحامية للمرحلة في الصحواء الإفريقية والأراضي الجبلية اللماخلية اللين اعتنقوا الإسلام) ، قد عبر البحر وهزم القوط الغربيين في معركة عظيمة (٧١١) . وأصبحت البلاد بأجمعها في قبضة أيديهم في بضيع سنن (١) .

وما حلت (٧٧٠) حتى كان الإسلام قد بلغ جبال البرانس ، واندفع من حول الهائم الشرقية إلى فرنسا ؛ وانقضت فترة من الزمان لاح للناس أثناءها أن الدين الحديد موشك أن يخضع بلاد الغال (: فرنسا) ينفس السهولة التي أخضم بها شبه المجزيرة الأسبانية . على أنه ما لبث أن اصطدم من فوره بشيء صلب ، هو عملكة جديدة للفرنجة ، أخلت أجزاؤها تهاسك طوال قرنين تقريباً في أرض الراين وشيال فرنساتا .

ولدينا الشيء الكثير نقوله الآن عن هذه المملكة الفرنجية ، المبشرة يظهورفرنسا وألمانيا ، والتي كانت الحصن الغربي لأوربا ضد دين محمد ، كما كانت الإمبراطورية البير نطبة خلف جبال طوروس حصيها الشيرق ؛ على أنا نرى لزاماً علينا أولاأن نقدم إليك بياناً عن النظام الجديد لتلك التجمات الاجهاعية التي نشأت مها تلك المملكة .

⁽١) صحيح أن البود في أسبانها كالموا يسامون سوه الخسف ويعاملون معاملة سيئة أيام القوط المدون وكان متصباً للمرفق وكان المدون وكان متصباً للمرفق وكان أولاد غيلت عوامل أولاد غيلت والمدون الإيفاع به . وم ذلك فهاء موامل نظمتها متحفزين للإيفاع به . وم ذلك فهاء موامل نظمتها طرعة القوط في شريض ومكن أن يكون مبا قوة جيش الحليفة للمنوية ومهارة قواده المسكرية واساتة الجيش والقواد في نصرة الدولة والنين . (المترجم)

⁽٢) يشير المؤلف هذا إلى موقعة تور أو بلاط الشهداء التي من فيها جيئ العرب بالهزيمة أمام بيين شار ل مارتل وهو في إشارته يمزو الهزيمة إلى قوة الفرنجة وصلايتها يدرجة تحطلت على صغرتها قوة الدافق وجبيشه ، وذكته من العدل أيضاً أن نجيل أن جبين المسلمين كان قد توظل إلى مسالة لا يعية داخل حدود بلاد عالمة والمسلمين عملوط تحويه معده ومده ويسب الحمليات إلى أصطر إلى تركها خلفه كا أن كثرة يعند جا من رجال الجيئ كانوا أفعلتهم الشائم وأهمهم أمرها حتى شفلهم من تقاد معوهم بيض القوة والحابات الحى كالمشاهد والملاحم السابقة فكان ما كان من هزية ومى أمور أشار إليها المؤلف في فصل ماين . (المترج)

٢ _ نظام الإقطاع

من الضرورى أن يكون لدى القارئ فكرة محلدة عن أحوال أوربا الغربية في القرن الثامن . فإنها لم تكن على همجية بربرية . أجل كانت أوربا الشرقية ما تزال متبربرة ومتوحشة ؛ ولم تقدم الأمور هناك إلا قليلا عن حالها التي وصفها جببون في بيانه عن بعثة پريسكوس إلى أتبلا (راجع الفصل ٧٧ قسم ٢ص٣٠٦) . على أن أوربا الغربية لم تكن إلا حضارة محطمة ، لا قانون فيها ولا إدارة ، وطرقها تالفة وتعليمها غير منظم ، ومع ذلك فكان بها أناس كثيرون لهم فكرات وعادات وتقاليد مجدنة .

كان الزمان زمان فوضى ولصوصية وجرائم تلعب دون عقاب وأمن متعدم على وجه العموم . ومن الشائق المعتم أن نتبع ذلك التفتت والعراك الشامل الصاخب ونتين كيف تمخض عن ظهور بواكبر نظام جديد . ظو أن الهياراً حدث في عصرنا هذا لم على الراجع تكوين جعيات للإدارة والمراقبة الخلية ، تتحد فيا بينها وتقيم إدارة المويسية وحكماً ديمقراطياً بدائهاً خشاً . ولكن أفكار الناس في عهد حطام الإمراطورية المغربية المنهارة إيان القرون السادس والسابع والثامن ، كانت أكثر اتجاها صوب الرحماء والقادة منها إلى الجمعيات واللجان ، وكانت المراكز التي تبلورت حولها شئون الناس هي أحسد روساء البرابرة هنا أو أسقفاً قوياً هناك أو مدعياً لوظيفة رومانية قديم ، وهن عالى لم وبلا عن مرجل بمفرده عبالا للاطمئنان والأمي .

لذلك اضطر الرجال أن بربطوا أنفسهم يغيرهم ، مفضلين في ذلك من كان أقوى مهم من الرجال . وكان الرجل الفرد يختار أقوى وأنشط رجل في إقليمه ويصبح رجله وتابعه . وكان الرجل الحر أو المالك الصغير لقطعة أرض صغيرة يربعاً نفسه بسيد أقوى منه . وكانت حماية ذلك السيد (أو خطر عداوته) تزداد جسامة كلا تكام المنضوون تحت جناحه . وبذلك استمرت بسرعة شديدة عملية تبلور سياسي ، في خضم الارتباك وانعسدام القانون الذي هوت إليه الإمبراطورية الغربية . وهذه

الارتباطات والمحالفات الطبيعية تماماً بين الحامى والأتباع سرعان ما تدرجت فى الغركيب انحو فأصبحت نظاماً هو «نظام الإقطاع»، الذى لا نزال آثاره باقية فى المركيب الاجهاهى لكل مجتمع أوربى غرب الروسيا . وكان يختلف اختلافاً بينا فى مظاهره الحارجية .

ولم تلبث هذه العملية أن اتخذت لتفسها صوراً فنيسة وأصولاً وقوانين خاصة بها . فكانت في قطر كبلاد الفال متقدمة تقدما حسنا أيام القلاقل وانعدام الأمان السابقة لانقضاض قبائل البرابرة على الإمبراطورية الغربية ، ولما أن هبط الفرنجة بلاد الفال جليوا معهم تظاماً سبق أن لحظناه لدى المقدونيين ، وكان على الراجع واسع الانتشار إلى حد كبير بين الشموب الغوردية الشهالية ، وهو اجتماع هيئة من شبان الأسر المريقة حول الزعم أو حول الملك المحارب ، وهم رفقاوه أو للااته وبطانته من النبلاء (comitatus) (الكونتات) أو قواده . فكان من الطبيعي في حالة الشعوب الغازية أن تتخذ علاقات السيد الشعيف بالسيد القوى شكل العلاقة بين الكونت ومليكه ، وأن يوزع الرئيس الفاقع على رفاقه للزارع والمعلكات بين الكونت ومليكه ، وأن يوزع الرئيس الفاقع على رفاقه للزارع والمعلكات المستولي علمها والمصادرة . وتسربت من الإمبراطورية المنحلة إلى نظام الإنطاع فكرة التجمع بغية الحياية المتبادلة للناس والمعتكات ؛ وجاءت من الحانب «الثيوتوني» فكرات جميات الفرسان ، والإخلاص والحلمة الشخصية . وكانت الأولى هي فكرات جميات الفرسان ، على حين كانت الثانية ناحية الفروسية فيه .

والمائلة بين التجمع فى الإقطاع وبين علية التبلور بماثلة وثيقة جداً . وبينا المؤرخ راقب أثناء القرنين الرابع والحامس مراجل الارتباك ودواماته تدور وتهدر فى أوريا الفربية ، فإنه يبدأ فى ملاحظة ظهور هذه التكوينات الهرمية المكونة من روئساء وأتباع ، وهى تتدافع إحداها مع الأخرى أو تتفرع أو تنحل من جديد أو تلتج . وإذا لنستعمل مصطلح و نظام الإقطاع ، من أجل البسر والسهولة ، ولكن فى شىء من عدم الدقة إذا كانت لفظة نظام تحمل إليك معنى و المرتيب والتظامية ، فنظام الإقطاع فى فكرة المرتيب والتظامية . ونظام الإقطاع فى أزهر عصوره أبعد ما يكون عن فكرة المرتيب والتظامية . إذ لم يكن الأمر فيه إلا فوضى واضطراباً نظم على أعضن وجه ، وكان المتغار والاختلاف العظم بين أشكاله منتشراً فى كل مكان . ومن ثم ظن يدهشسنا



(شكل ١٣٢) خريطة أوربا حوالي عام ٥٠٠م م

و والأصل فى العلاقة الإنطاعية الصحيحة هو الإقطاعة (Fier) التى كانت فى العادة أرضاً . ولكنها ربما كانت أى شيء مرغوب فيه كالوظائف ، أو الدخل تقداً كان أم عيناً ، أو حتى جمع مكس أو (فرضة مالية) ، أو إدارة طاحون . وكان الرجل يصبح فى مقابل الإقطاعة تابعاً (vasau) لمولاه ؟ فكان يجثو أمامه ، ويعده

⁽١) ريسى أيضاً بالمُقطع [يضم الجم وفتح الطاء] أو النَّمَل (Vassal) . (المترجم)

 ويداه بين يديه - بالولاء والحلسة وكان الإخلاص في تنفيذ كل الواجبات التي اضطلع بها التابع في عهد الولاء قوام حقه في القتع بإقطاعته : فإذا أديت الواجبات ، احتفظ هو وورثته من بعده بالإقطاعة ملكاً حلالًا لهم من الناحية العملية وبالنسبة إلى كل من دونهم من المستأجرين كأنهم هم الملاك . وفي حفلة الولاء والتخويل الَّى هي الركن الأساسي في عقد الإقطاع ، كانت الالنَّرْامات الَّي يضطلع مها الطرفان ، ضر محددة في العادة تحديداً دقيقاً . وكان العرف المحلي هو الذي يحددها . وكانت خدمات التابع تختلف اختلافاً بيناً في كثير من دقائق التفاصيل بن أجزاء عالم الإقطاع المختلفة . على أننا نستطيع أن نقول مع هذا بأنها تنقسم إلى طبقين ، عامة وخاصة . فأما العامة منها فتضم كل ما تشمله فكرة الولاء : من المحافظة على مصالح السيد ، وكيَّان أمراره ، وإنشاء خطط أعدائه ، وحماية عائلته وهكذا ، والخدمات الخاصة يمكن أن تصاغ في عبارات أشد تحديداً ، ويحددها عادة تعريفات مضبوطة يقررها العرف أحياناً والوثائق المكتوبة في بعض الأحيان الأخرى . وكانت أبرز نواحها هي الحدمة العسكرية ، التي كانت تتضمن الحروج إلى الميدان عند النفعر يقوة معينة من الجند ، غالبًا ما تكون مسلحة بأسلحة من نوع محدد . وتبقى فيه زمناً معلوماً . وكانت كثيراً ما تشمل كذلك واجب حراسة قلعة السيد ، ووضع حصن المتابع (المقطع) تحت تصرف السيد وفق خططه في الدفاع عن إقطاعه (Fief) . . . وإذا نظرنا إلى نظام الإقطاع من الناحية النظرية ، ألفيناه يملأ أوربا بشبكة من هذه الإقطاعات التي تتدرج إحداها فوق الأخرى في مراتب مدرجة بادثة من أقلها شأناً فى القاع ، وهي أجز الفارس ، حتى الملك في القمة ، وهو مالك الأرض الأعلى . أو هو الذي وهبه الله المملكة و ٢٦٠ .

على أن هذه هى النظرية التى فرضت على الحقائق المقررة . ولكن الحقيقة الواقعية فى نظام الإقطاع كانت تقوم فيها هو عليه من تعاون اختيارى .

 ⁽¹⁾ الموسومة البريطانية - العلمة تدائمة شرة - مامة « الاقطاء - المؤسماني - دا الماعز -

وقد قبل ، إن الدولة الإنطاعية دولة اغتصب فيها الفانون الحاص مكان الهانون العام ، . ولكن أليس الأصح أن يقال : إن الهانون العام قد فشل وتوارى وأن الهانون الحاص جاء ليسد الفراغ الحاصل ؟ لقد صار الواجب العام إلزاماً خصوصياً .

٣_ مملكة الميروڤنچيينالفرنجية

سيق أن ذكرنا من قبل بمالك متنوعة القبائل الهربرية اللبن أقاموا لأنفسهم بمن أنقاض الإسراطورية سيادة هزيلة تتفاوت فى رثاثها فوق هذه المنطقة أو تلك ، وهى ممالك السويق والقوط الغربيين بأسبانيا ومملكة القوط الشرقيين بإيطاليا ومملكة اللومبارد الإيطالية التى عقبت القوط بعد أن طردهم چستنيان وبعد أن عاث الوباء العظيم فى إيطاليا تدميراً.



(شكل ١٣٣) خريطة حدود نمتلكات الفرنحة في عهد شارل مارتل

وكانت مملكة الفرنجة دولة بربرية أخرى نشأت في أول الأمر فيا هو الآن بلجكا ، ثم امتلت جنوباً حتى اللوار ، يبد أنَّها أظهرت من لقوة والتماسك ما يفوق كثيراً ما كان لدى الأخريات . وكانت أول دولة حقة تخرج من غمرة الدمار العام . ولم تلبث حتى أصبحت آخر الأمر حقيقة سياسية قوية متسمة الرقعة . ومنها نبعت دولتان عظيمتان في أوريا العصرية ، هما فرنسا والإمبراطورية الألمانية . وكان موسمها هو كلوڤيس (Clovis) (٤٨١ – ٥١٤) الذي بدأ أمره ملكاً صفىراً في بلچيكا وانتهى وحدوده الجنوبية تكاد تتاخم البرانس . وقد قسم مملكته بين أبنائه الأربعة . على أن الفرنجة احتفظوا بعرف من الوحدة بالرغم من هذا التقسيم ، وْثارت بين الإخوة حيناً من الدهر حروب تسهدف الانفراد بالسيادة فوحدتهم أكثر يما فرقت بينهم . على أنه نشأ بعد ذلك تصدع أشد خطورة بسبب اصطباغ الفرنجة الغربيين بالصبغة اللاتينية ، بعد أن احتلوا بلاد الغال الرومانية الصبغة ، وتعلموا اللاتينية الشوهاء المحرفة ، لغة السكان المقهورين ، على-مناحتفط فرنجة إقليمالراين بلغهم الألمانية الدنيا(١) . وتعولد عن الاختلافات اللغوية عند وجود مستوى خفيض للمدنية ، توترات سياسة قوية للغاية . وأقام العالم الفرنجي،ئة وحمسن سنة وهومنشق شطرين ، هما نوستريا (Neustria) ، و هي ثواة فرنسا وتتكلم لغة مصطبغة باللاتينية أصبحت آخر الأمر اللغة الفرنسية التي نعرف الآن ، وأوسَّر اسيا وهيأرض الراين التي ظلت ألمانية . وكان الفرنجة يختلفون عن السوابيين وسكان جنوب ألمانيا ، ويقاربون الأنجلو سكسون كثيرًا لأنهم كانوا يتكلمون لهجة ألمانية دنيا لا لهجة ألمانية طيا . وكانت لغهم تشبه اللغـــة الألمانية (Plattdeutsch) والأتجلوسكسونية ، وهي الأم المباشرة للهولندية والفلمنكية . والواقع أنه حيبًا لم يصطبغ الفرنجة بالصــبغة اللاتينية كانوا يتحولون إلى فلمنك ويصبحون هولندني جنوب هولندة (فأما هولندة الشهالية فلا تزال فريزية Friesisch أى أنجلوسكسونية) . 1 والفرنسية 1 التي كان يتكلمها القرنجة والبرجنديون ذوو الصبعة اللاثينية في القرن السابع إلى

 ⁽١) الألمانية الدنيا (Low German) واسمها الألماني (Pinttdeutsch) : من لمنه
 سكان المنسقنهات بشيال ألمانيا . والألمانية العليا من لغة سكان المرتفعات الحدوية بها . (المدرجم)

العاشر ، كانت عجيبة الشبه بلعة سويسرا الرومانشية (Rumansch) • – استنتاجاً منا من البقايا الباقية في الوثائق القديمة⁽⁵⁾ .

وقسم شارل مارتل دولته بين ولديه ، ولكن أحدهما اعترال الملك وترهب .
تاركاً أخاه بهين حاكما وحيداً على اللولة . وبهين هذا هو الذى قضى نهائياً على أحفاد
كلوفيس . إذ أرسل إلى البابا يسأله من هو ملك الفرنجة الحق ، صاحب القوة
والسلطان أو صاحب التاج ؟ وكان البابا فى حاجة إلى ناصر يعينه ، فقضى لصالح
عافظ القسر . وبذلك انتخب بين ملكاً فى جمع من نبلاء الفرنجة فى العاصمة
الميرو فنجية ، سواسون (Soissons) ثم مسح بالزيت المقدس وتوج . وكان ذلك في
(٧٥١) . وقد قوى ابنه شار لمان من أواصر التماسك بين البلاد الفرنجية والألمانية التي
وحدها بين . وظلت الدولة موحدة مناسكة إلى عهد حفيده لويس (١٩٤٨) ، ثم
انفصلت فرنسا وألمانيا إحداهما عن الأخرى من جديد ... ثما أنزل بالإنسانية أبلغ الضرر

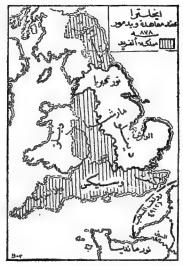
 ⁽١) الرومانشية عى اللغة التى يتكلمها الناس بعض المناطق الشرقية لسويسرا . (المترجم)
 (٢) عن هذا الموضوع بالتفصيل أنظر المترجم «ميلاد المصور الوسطى» تأليف موص (الألف كتاب ، وسكنية عالم الكفب) .



(شكل ١٣٤) خريطة انجلترة هام ١٤٠ م

ولم يكن ما فصل بين هذين الشعبين الفرنجيين فارقاً فى الجنس ولاالمزاج ، بل فارقاً فى اللغة والثقاليد .

ولا يزال ذلك الانفصال القديم بين نوستريا وأوستراسيا يشمر ثماراً مريرة إلى يوسنا هذا . فق ١٩٦٦ كان لهيب ذلك النراع التليد بين نوستريا وأوستراسيا قد تأجيح من جديد حرباً ضروساً . وفي أغسطس من تلك السنة ، زار كاتب هذه السطور مدينة سواسون ، وعبر الكوبرى الحشي المؤقت الذي بناه الإنجليز بعد معركة الإين (Aisne)



(شكل ١٣٥) خريطة انجلترة عند معاهدة وينسور عام ٨٧٨

مطردة . وكان الإله چوبيتر يتمثل هند الألمان فى الإله أودن (Oden) . والإله مارس (المربخ) يمثله أثور (Thor) والربة الرُّهرة تمثلها للسهم الربة فريبا (Freya) وهكذا . وتواصل إبان القرتين السابع والثامن تنصير هسلم القباش آثانة والسلافونة (الصقلبية ب

وربما كان من الشائق القراء الناطقين بالإنجليزية ، أن يشهوا إلى أن أشد المبشرين حاسة ونجاحًا بين السكسون والفرزين جاءوا من إنجليزة . وقد وضعت بذور المسيحية مرتين في الجزر البريطانية . فكانت موجودة بها فعلا حين كانت بريطانيا جزءاً من الإمم اطورية الرومانية . إذ يذكرون أن شهيداً اسمه القديس ألبان (Alban) خلع اسمه على مدينة سانت ألبانز ، ولا شك أن كل زائر لكانتربرى ، لن يفوته أن يزور كلك كنيسة القديس مارتن الصغيرة القديمة التي كانت تستعمل إيان المهد الروماني . كانت تستعمل إيان المهد الروماني . وانتشرت المسيحية من بريطانيا - كما أسلفنا - خارج حلود الإمبر اطورية إلى أيرلندة القديس كولما والمشتوطات الدينية بجزيرة أيونا (Land) . ثم جاء الإنجليز المتوحشون الوثنيون في القرنين الحامس والسادس ، ففصلوا كنيسة أيرلندة القديمة عن جسم الوثنيون في القرتين أنوا من الرلندة ، وفي الجنوب وافدين من روما . وقد أوفد بعثة (إرسالية) روما المبابا جريجوري الكبر عند باية القرن السادس بالضبط . وتقول المرواية إنه رأى غلماناً من الإنجليز بياءون في موق الرقيق بروما ، وإن كان من العسير عليا المي حد ما أن نفهم كيف وصلوا إلى هناك . كانوا شديدي الشقرة ووسامة الطلمة . طالم الم ملالكة (Angles) (٢) أو أن لديهم الإنجيل » .

وظلت البعثة الدينية تعمل طوال القرن السابع . وقبل أن ينهى ذلك القرن كان معظم الانجليز قد تنصروا ؛ وإن أبدت مرسيا (المملكة الانجليزية الوسطى) نحو التساوسة مقاومة شديدة ، دفاعاً عن العقيدة والطرائق الفليعة . وأصاب أولئك المتنصرون الجدد تقدماً مريعاً في العلوم . فأصبحت أديرة مملكة نور ثمر يا في شال انجلم ة مركزاً النور والعرفان . وكان ثيودور الطرسوسي من أوائل روساء أساقفة كانتربرى (٢٦٨) - ٢٩٠) . وعلى حين كانت الإغريقية مجهولة جهلا تاماً في غرب أوربا ، كان بعض تلاميد . ثيودور يجيدوها . وكانت الأديرة تضم كثيراً من الرهبان الذين بلغوا من العلم المدوة . ثيودور جميعاً بيد (Bed) ، المعروف يامم بيد الوقود (٢٧٣) - ٧٣٥) ، وهو

 ⁽١) هي جزيرة من جزر الهجياس الداخلية ياسكتلنة نصرها كولمها أن ٥٠٥ م.
 (١) منا يلسب الكانب على الجناس بين لمفتلي (Angles) أى الإنجليز و (Angels) أي لملاتك.
 (٢) منا يلسب الكانب على الجناس بين لمفتلي (Angles) أى الإنجليز و (Angels) أي لملاتك.

راهب من چارو (Jarrow) على نهر التاين (Tyne) . وتتلمذ عليه رهبان ذلك الدير الستمتة ، فضلا عن الأجانب الكثيرين الذين كانوا يفدون لسهاعه . ولم يبرح بيد حَيى أَثَقَنَ بِالتَّمْدِيْجِ كُلُّ عَلَوْمٍ زَمَانُهُ ، وتُركُ عَنْدُ وَفَاتُهُ خُسَةً وَأَدْبِعِينَ عِلْمُأ من كتاباته ، أهمها و تاريخ الإنجلىز الكنسي (١)، وترجمة إنجبل يوحنا إلى اللغة الإنجليزية . وذاعت شهرة مؤلفاته واستعملها الناس في كافة أنحاء أوربا . ثم إنه جعل ميلاد المسيح يداية لكل تواريخه ، وبفضل موثلفاته أصبح استخدام التواريخ الدقيقة للأحداث المسيحية شائمًا بكل أوربا . ونظرًا لكثرة الأديرة والرهبان في نورتمبريا ، تقدم ذلك الجزء من بريطانيا حيناً من اللـهر تقلماً كبيراً على الجنوب في اللـنية(٢٠) .

وإنا لنجــــد المبشرين الإنجامز في القرنين السابع والثامن يعملون ناشطين على الحلود الشرقية للمملكة الفرنجية . وأهم هؤلاء هو القليس بونيفاس (٦٨٠– ٧٥٠) ، الذى ولد فى كريديتون بمقاطعة ديڤونشير والذى نصّر الغريزين والثورنجيين والهيسين (Hessians) ثم استشهد في هولندة .

و في كل من إنجلترة والقارة الأوربية ، كان الحكام الذين أخذ نجمهم يعلو يستمسكون بالمسيحية ويتخلونها قوة موحدة لتشد أجزاء فتوحاتهم بعضها إلى بعض. وبذلك أصبحت المسبحية لواء يرفعه كل زعيم ينزع إلى العدوان ــ شأنها في أوغندة بأفريقية فى الأيام الدامية قبل أن يلحق ذلك القطر بالإمبراطورية البربطانية .

وخلف پینن المدی توفی ۷٦٨ ولداه ، شارل وأخوه ، فاقتسها مملکته ، ولکن أنعا شارل تونَّى (٧٧١) ، وعندئذ انفرد شارل بالحكيم (٧٧١ – ٨١٤) في مملكة الفريجة النامية . ويعرف شارل هــــا في التاريخ باسم شارل الكبير أو شارلمان ، وكما حدث في حالة الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ، فإن الخُلَف بالغوا الإشادة بذكراه . فإنه جعل من حروبه العلىوائية حروبًا دينية لا شك فبها ! ! وظل عالم شهال غربى أوربا بأجمه اللت هو الآن بريطانيا العظمي وفرنسا وألمانيا

[«]The Ecclesiastical History of the English» (1)

[.] انظر : «A General History of Europe» تأليف ثاتدر وشويل . تأريخ الإنسانية جـ٢

وللماتمارك والمرويج والسويد طوال القرن الناسع ، ممركاً لعبراع مرمر بين العقيدتن القديمة والحديدة . وأجرت شعوب بأسرها على اعتناق المسيحية بحد الحسام ، كما غمل الإسلام قبل ذلك ينحو قرن حين اضطر شعوباً بأسرها في بلاد العرب وآسيا الوسطى وأفريقية إلى اعتناقه .

فاستخدم شران السيف والنار في التبشر بإنجيل العليب لدى السكسون والبوهيميين ، بل توغل حتى الدانوب فيا هو الآن بلاد المجر ؛ وحمل نفس التعالم متحدراً بها حتى سواحل الأدوياتي ، خلال ما هو الآن دالماتيا⁽¹⁾ ؛ ودفع المسلمين خطف الدرانس حتى برشلونة .

زد على ذلك أنه هو الذى آوى إجرت (Egbert) ، يوم نهى من وسيكس بإنجلترة ثم ساعده من فوره فى أن يقيم نفسه ملكاً فى وسكس (۸۰۲) . وأُخضع إجبرت المبريطون (۲۲) فى كورنوال ، مثلاً أخضع شرلمان البريطون فى بريتانى (بفرنسا) ، ثم تبياً له بقيامه بسلسلة من الحروب التى والاها بعد وفاة نصيره الفرنجى ، أن يجعل نفسه آخو الأمر أول ملك لإنجلترة بأسرها (۸۲۸) .

على أن هجات شراان على آخر معاقل الوثنية أخلئت حركة مضادة قوية من جانب اللين لم يتنصروا . وكان الإنجار المتنصرون لم يحفظوا إلا بالنار اليسير من فن الملاحة الذي جاء جم من أرض القارة الأوروبية ، ولم يكن الفرنجة أصبحوا بعد من البحارة . وبينا كانت دعاية شارلمان تنساق نحو شواطئ بحر الشهال وبحر بعلمت ، فقد دُمُع الوثنيون دفعاً إلى البحر . وكان ردهم على اضطهادات المسيحية ، القيام بغارات سلب وبهب وحملات على سواحل فرنسا الشاليسة وعلى إنجلترة المسيحية .

وهوالاء السكسون والإنجلز الوثنيون فى أرض القارة الأصلية وذوو قرباهم من الدانيمركة والنرويج هم الدانيمركيون وأهل الشهال (Northmen) اللين تذكرهم

 ⁽¹⁾ دالمائيا : هي الفحم المثل من يوخوسادنيا على شرق الأدرياتي .
 (1) البريطون : سكان بريطانيا الفتماء الأسليدن ، أو سكان إتليم بريتاني بفرنسا .
 (١/١٠ البريطون : سكان بريطانيا الفتماء الأسليدن ، أو سكان إتليم بريتاني بفرنسا .

كتب تلريخنا القومى. وكانوا كلظك يسمون بالفيك إنجز (Vikinga) (۱) ومعناها وجال الخلجان أو الفيوردات ، لأنهم جاءوا من الثنايا الصيقسة فى الشاطئ الاسكندناوى. حضروا ف سفن طويلة سوداء تسمى القوادس (۱) ، مستعملين الشراع استمالا طفيفا. ومعظم معلوماتنا عن حروب وغارات الشيك إنجز الوثنين مستقاة من مصاهر مسيحية ، ولذا فإن لدينا معلومات مستفيضة عما كانوا برتكيونه فى غاراتهم من الملابح والفظائع ، وتزرآ يسيرا عما حلّ بإخوابهم الوثنين السكسون من قسلوات على يد شرلمان . وكان حداوهم العمليب والرهبان والراهبات وذبع من بها متطرفاً . ولشد ما كان يهجهم إحراق أديرة الى هبان والراهبات وذبع من بها من الأحياء .

وظل هولاء الفيك إنجز أو أهل الشهال طوال الفترة بين القرن الخامس والقرن التاسع يتعلمون فن البحرية ، ويزيدون جرأة ويوسعون مجال نشاطهم . ثم اجرأوا على البحور الشهالية حتى أهدت شواطئ جريناندة الثلجية مرتاداً مألوفاً للسهم ، وكانت لم عند حلول القرن التاسع مستقرات في أمريكا (لم تعرف أوربا عنها شيئا ، ولم يكن لأهل الشهال أي مستقردائم في أمريكا ، وفي زمان ما يقارب (١٠٠٥ م) والم يتعلكوا الأرض سوى سنتن انتين ، فإن قارباً من الجلد ظهر في أحد الأيام مليئاً ، بيتملكوا الأرض سوى سنتن انتين ، فإن قارباً من الجلد ظهر في أحد الأيام مليئاً ويلوح أن الطرفين تبادلا نظرات التفحص العمامت ، ولكن لم يحدث يينهما تجارة وبحال الشهال أنهم ضيوف سوء شديدو القبح . وحدثت المناهب فيا بعد ، وإذ أن وبال الشهال كانوا أقل صداً ويعيدين عن أوطامهم ، فإمم جموا متاههم واعتلوا وبجال الشهال على مستقر تحر لرجال الشهال على منتهم عادن المناهب له الشهال على منتهم كثير من ملاحمهم (Saga) المهادة ، ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى العالم بوصفه مسرحاً للمغامرة الجرية .

⁽١) تنبيه ؛ تنطق هسلم الكلمة قبك إنجز وليس في كتجز. ومنى قبك : wik هو فيورد أو علميج. . (المؤلف)

⁽ Y) الذاهس (Cally : سفينة قديمة طويلة ذات سطيع والحد تسير بالمجاديف والشراع . (المدجم

فلطالا هاهوا كلب البحر والدب والحوت وقد انتسج ق عيالهم صورة ضعمة لمدينة عظيمة غنية في المحنوب وهي ضرب من الحليط بين روما وبيرتطة وسهوها ميكلاجارد (Miklagard) أو ميكلاجارث (اى المدينة العظيمة) .. (قارن هاه بكلاجارد (Aliklabaer) الإيساندية ومعناها المزرعة العظيمة) . وبهلغ من قوة جاذبية الميكلاجارث هده أن اجتذبت أحفاد رجال الشهال هولاء إلى البحر المتوسط يطريقين ، أولهما من جهسة الغرب ، وثانهما عبر الروسها من جو المبلطيق كا سنبن ذلك فها بعد . وبالطريق الروسي ذهب كالملك أقرباؤهم السويديون .

ولم يكن الثيك إنجز إلا مجرد مغيرين ما عاش شارلمان واجبرت ؟ ولكن مع تقدم الآيام بالقرن التاسع ، تطورت هـله الفارات فأصبحت غزوات منظمة . فني كثير من تواحى إنجلترة ، لم يكن مركز المسيحية حتى آللمك وطبسدا بأى حال . إذ كان رجال الشهال الوثنيون يلاقون فى مرسسيا على وجه الخصوص كل عطف ومعاونة . وما أن وافت (٨٨٦) حتى كان قسم كبير من إنجليرة فى قبضة اللهانيمركيين ، وحتى كان الملك الإنجليزى القريد الكبر ، قد اعترف محكم لما فتحوه ، (وهو ما يسمى بالقانون الدانيمركي Dane-Law)

وبعد ذلك تقليل فى (٩١١) وطدت حملة أخرى بزعامة رولف العدّاء (Roff the ganger) ، أقدامها على ساحل فرنسا فى الإقليم الذى عرف منسلذ ذلك. الحين باسم تورماندى (أى بلدرجال الشهال Northmandy) .

على أثنا لا نستطيع أن تحدثك بأى تطويل عن كيف حدث على الفور خرو جديد لإنجلترة على يد الدانيمركين ، ولاكيف أصبح دوق نورماندى آخر الأمر ملكاً على إنجلترة . والفوارق العنصرية والاجهاجة بين الإنجليز (الأنجل) ، والسكسون والجوت والدانيمركين أو النورماندين ضليلة لا تكاد تذكر ؛ ومع أن هذه التغيرات ترتنم ضخمة في أخيلة الإنجليز ، إلا أنها والحق يقال تبدو مجرد تموجات طفيفة جدا في مجرى التاريخ عندما نقيسها بماير عالم أكبر .

وسرعان ما اختفت من مشهد النزاع مسألة الخلاف بين المسيحية والوثنية . إذ قبل

الدانيمركيون بمعاهدة ودمور (Wedmore) أن يعتنقوا النصرانية ، إذا ضمن لم بقاء ما غزوا بأيدسهم ، ولم يقف الأمر بأسفاد رولف في نورمندى عند حد التنصير ، بل إمه تعلموا الكلام بالفرنسية من الشعب المحيط بهم الأكثر مهم تمدناً ، نامين لسامهم الشمالي (النورسي Norse) الخاص على أن هناك شيئاً . له شأن أعظم قدراً في تاريخ المبشرية ، هو علاقات شرلمان بجيرانه في الجنوب والشرق ، وعلاقاته بالتقاليد الإمراطورية .

٥ ــ شرلمان يصبح إمبراطورا على الغرب

أعيدت تقاليد القيصر الروماني إلى الحياة في أوربا على يد شرلمان . كانت الإمبراطورية الرومانية قد ماتت وأخلت تتعفن ؛ وكانت الإمبراطورية البيزنطية محمنة في الاضمححلال ؛ على أن تعليم أوربا وعقليمًا كانا ترديا إلى درك كاد معه كل فكر سيامي جديد خلاق أن يكون ضرباً من الهال . ولعل أوربا بأكلها لم تكن لتحتوى مثقال ذرة من قوة النظر والتفكير التي نجسدها في الأدب(١) الأثيني في القرن الخامس ق . م . ولم تكن هناك قوة تتصور على سبيل الفرض قيام حالة جديدة أو تضع مهجاً سياسياً جديدة أو تضع منهجاً سياسياً جديدة أو تشعير المناس ق . م . ولم تكن هناك من هناك يا .

تعمدت المسيحية الرحمية أن تسدل منذ أمد بعيد ستاراً كثيفاً على تلك التعاليم العجيبة الراقعة ، تعالم يسوع الناصرى التى منها انبشت _ كما أنها روضت نفسه على ، تجاهلها . فأما الكنيسة الكاثوليكية فهى حين تشبثت ذلك النشيث الشديد بملكيّها للقب الحمير للأعظم (Pontifex Maximus) ، قد تنكرت منذ ذلك الزمان المعيد لواجها الذي خلقت من أجله ، وأخمى بذلك بلوغ بملكة السهاء . ذلك بأنها كانت مشغولة بإسجاء عزة الرومان على الأرض ، التى تصورت أنها تراثها التليد . لقد أصبحت هيئة سياسية ، تستفل إيمان بسطاء الناس وحاجاتهم للمضى غلماً بمشروعاتها وخططها . سياسية ، تستفل إيمان الحورية الرومانية وبفكرة أنها هى الطريق الطبيعى لوحدة أوربا .

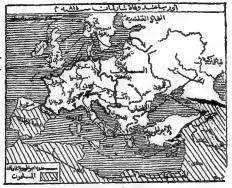
 ⁽١) المؤلف هنا كمادته يستخدم لفظة الأدب بمناها العام الشامل ويقصد بها كل ما ظهر في اللغة من أبحاث ومؤلفات أيا كان توصها . (المترج)

على أن أوربا فى ثنايا محاولاتها المتكررة إهادة تلك الإمبراطورية لملى الوجود ، قد انحرفت إلى تزييف مثان له! شائه محسوخ : وإلى ابتعاث كبوات الماضى وسقطاته الى أساءت تصورها .

وانقضت أحد عشر قر نا من عهد شرلمان فما بعده ، و « الأباطرة » و « القياصر » من هذه الأسرة أو تلك يظهرون على مسرح التاريخ الأوربي ثم يتوارون كأنهم خيالات مقيمة ثمر امى لله من مضطرب . ونحن على أن تحفرك عن عملية عظيمة من النمو العقلى فى أوربا ، وعن الساع الآفاق وتجمع القوى ، بيد أنها كانت عملية سارت فى طريقها مستفلة عن الأوضاع السياسية للعصر وبالرغم منها ، حتى ترامت آخر الأمر لملى تعطيم تلك الأوضاع تعطيا مطلقاً . وكانت أوربا أثناء حقبة الأحد عشر قرنا من القياص الرافين التي افتتحت بشرلمان ، والتي لم تنته إلا بمجورة (١٩١٤ - ١٩١٨) الرهبية لهو قي بعض الأحيان تافه لا أهمية له مطلقا ، وهو فى أحيان أخرى معطل للأعمال فهو فى أحيان أخرى معطل للأعمال نومه : فنمثلها بجفة هامدة تتخذ بالسحر سيا الحياة . فأنت تشهد الإمبراطورية نومانية تترفع ثم تفيطح على الأرض ، ثم يقلف بالخارج المسرح ثم تعود فتظهر » كل هذا وكنيسة روما — إن جاز لنا أن تنقدم بهده (الصورة الحيالية) خطوة أخرى كل هذا وكنيسة روما — إن جاز لنا أن تنقدم بهده (الصورة الحيالية) خطوة أخرى كل هذا وكنيسة روما — إن جاز لنا أن تنقدم بهده (الصورة الحيالية) خطوة أخرى

ويتواصل طوال تلك القرون كفاح متصل الحلقات ، حول التحكم فى الحلقة ينظل ناشبا بين القوى الروحية وغتلف القوى الزمنية . وقد صبق أن وجهنا الأنظار إلى ينطوى عليها كتاب و مدينة الله في للقديس أوضطين. وهوكتاب نعرف أن شرلمان طالعه ، أو استمع لتلاوته _ إذ أن معارفه الأدبية تكاد تكون موضع الشك . وكان يرى أن هذه الإمبراطورية المسيحية شيء يحكمه ويصون سلامته في أمثل صورة وأسلمها ، قيصر عظم مثله ، وأن له أن يمكم حتى البابا نفسه :

على أن وجهة نظر روما فى شأن الإمبراطورية المبتمة ، كانت تختلف قليلا عن ذلك . إذ أن الرأى المتخذ هناك هو أن القيصر المسيحي يجب أن يمسحه البابا بالزيت



(شكل ١٣٩) خريطة أوريا مند رفاة شرلمان عام ١٨٤ م

المقدس وسديه سواء السبيل ــ بل هو الذى تكون له حتى سلطة حومانه وعزله . وكان هذا انتضارب فى وجهات النظر واضحا حتى فى أيام شرلمان نفسه . على أنه ازداد حدة فى القرون التالية .

ولا شك أن فكرة الإمراطورية للبتخة لم تدر يخلد شرلمان فجأة ، بل بغاية البطء والتدرج. فإنه كتان فى مبدأ الأمر عجرد حاكم على مملكة أبيه الفرنجية ، وكان مهمكا بكل قواه فى الكفاح مع السكسون والبافاريين ومع العمقالية فى شرقهم ، ومع للسلمين فى أسباميا . وفيا شب فى ممتلكاته نفسها من ضروب العميان . وحمله شقاق دب بينه ويين حيبه ملك لومبارديا على فتح لومبارديا وشهال ليطالبا . وقد رأينا استقراد . اللومبارد فى شهال ليطالبا قرابة (٧٠) بعد الوباء العظيم ، وبعد خطع جستشان لملوك المترس فللشرقين . كان هولاء اللومبارد على الدوام مصدر خطر وحوف للباباوات ، وقد

أرمت ضدهم محالفة بين البابا وملك الفرنجة فى زمن پيين. والآن أخضم شرلمان لومبارديا تمام الإخضاع (٧٧٤) ، وأرسل حماه إلى أحد الأدبرة وحمل فتوحاته إلى ما وراء الحدود الثهائية الشرقية لإيطائيا : إلى دالماتيا (٧٧٦) . وفى (٧٨١) جعل ابته پيين (اللذى لم يعش بعده) ينصب ملكاً على إيطائيا ويتوج فى روما .

وجاء بابا جنيد هو ليو الثالث في (٧٩٥) ، وقد عقد العزم منذ البداية على ما يظهر على جعل شرلان إسراطوراً . وكان لبلاط بيزنطة حتى ذلك الحين شيء من السلطان غير المحدود على البابا . وكان أقوياء الأباطرة من أمثال جستيان يميغون اللباوات ويجبروهم على المتول إلى القسطنطينية ؛ وكان الأباطرة الضعفاء يضايقوهم مضايقة غير ذات أثر . ولطالما خامرت قصر اللاتبران (١) فكرة الاتفصال عن القسطنطينية انفصالا علمائياً وديناً ، كما تمثل له في الدولة الفرنجية السند الذي لا بد

ومن ثم أرسل البابا ليو الثالث إلى شرلمان عند توليته البابوية مفاتيح قبر القديس بطرس ولواء "، رمزاً لسيادته في روما بوصفه ملكاً لإيطاليا . وسرحان ما اضطر البابا إلى الالتجاء إلى الحامى الذى اختار . ذلك أنه كان مكروها في روما ؛ فهوجم في شوارعها وأسيئت معاملته أثناء مسسيره في أحد للواكب ، واضطر أن ببرب إلى ألمانيا (٧٩٩) . ويقول إجهاره إن عينيه سماتا وأن لسانه قطع . ويبدو مع ذلك أنه كانت له كل من العينين واللسان مرة ثانية بعد ذلك بسنة من الزمان . فإن شرلمان أمه كان ورما ورده إلى منصبه (٨٠٠) .

ثم حدث مشهد بالغ الأهمية . فني يوم عبد الميلاد (٨٠٠) ، وبينا كان شرلمان ينهض من الصلاة فىكنيسة القديس بطرس ، وضع البابا (وكان قد جهز كل شيء) ، تاجأ على رأسه وحياه قيصراً وأوضطس . وعج الشعب بالاستحسان العظيم . ولكن إجنهارد صديق شرلمان وللمرجم لمسرته ، يقول إن الإمعراطور الجديد لم تسره فعلة

⁽١) واللاثير إن هو قصر البايارت الأول في روما . ثم احتلوا الفاتيكان فيما بعد . (المؤلف)

البابا المفاجئة هذه بأية حال . فإنه قال : و لو أنه عرف أن هذا سبحدث لما دخل الكنيسة ، مهما بلغ العيد من الجلال [٤ . ولا شك في أنه كان يفكر ويتكلم عن جعل نفسه إمراطورا ، ولكن من الواضح أنه لم يكن يريد أن يجعله إلبابا إمراطورا . وكان يجول في خاطره أن يتزوج من الإمبراطورة إيريني ، التي كانت تمكم في القسطنطينية في ذلك الزمان ، وبذا يصبح عاهلا لكل من الإسراطوريتين الشرقية والغربية . ولكنه أصبح آنثذ مضطرا إلى قبول اللقب على الشاكلة التي رسمها ليو الثالث ، أي بوصفه هبة من البابا وبطريقة أغضبت القسطنطينية وأكدت انفصال روما عن الكنيسة البرنطية . وكانت يرزنظة في بادئ الأمر غىر راغبة في الاعتراف بلقب شارلمان الإمر اطورى . ولكن حنث في ٨١١ أن حلت بالإمر اطورية البرنطية كارثة عظيمة . فإن البلغار الوثنين بقيادة أميرهم كروم (Krum) (٨٠٢ – ٨١٥) ، دحروا وشتنوا جيوش الإسراطور نقفور الذي أصبحت حمجمته كأساً لكروم . وفتح هؤلاء القوم القسم الأكبر من شبه جزيرة البلقان . (وبللك يكون الشعبان البلغارى والإنجليزى ظهرا كوحدتين سياسيتين في وقت واحسد للإميراطورية في الغرب ، وفي (٨١٢) اعترف رسمياً بشرائان إميراطورا وأوغسطس على يد مندوبين بيزنطيين .

وبذلك تكون إمراطورية روما التي ماتت على بدى أودواكر (Odoacer) ف ٤٧٣ ، قد بعثت من جديد ف ١٨٠ م باسم و الإسراطورية الرومانية المقدسة و ١٤٧٠ م باسم و الإسراطورية الرومانية المقدسة و على حين أن جسمها وقومها الحيانية كانت كان روما ، فكانت من ثم ، منذ بدايها شيئا موزعا له قوة غير محددة ، كانت دعوى وجدلا أكثر مها حقيقة لا يستنني عنها ، كيف كان صليل السيف الألماني يسمع على اللموام في مسيره من قوق جبال الألب إلى إيطاليا ، وكانت بعوث المبشرين والقاصلون الرسوليون يدلفون من قوقها في الانجاء المفاد . على أن الألمان لم يتبياً تم البنة أن يحفظوا بإيطاليا باستمرار ، إذ لم يكن في طوقهم تحمل الملازيا التي كانت تلك البلاد في المفالة غير المصرفة المياه مياءة لها . وتمة تقليدقد بم كانت جلوته تنقد خل الرارماد في

روما وفى مدن إيطالية أخرى صديدة ، تقليد أهرق منبتا ، هو أحدُ التقاليســـد . المتوارثة عن الجممهورية الأرستقراطية ، تلك التقاليد الممادية للإمبراطور والبابا . على السواء .

٣ ... شخصية شرلمان

من العسير علينا أن نتمثل خلق شراان وضخصيته ، وبالرغم من أن لدينا سرة مكتوبة عنه كتبها معاصره إجنهارد (0) . ذلك أن إجنهارد يعوزه الإشراق والنصاعة . فيم إنه يدلى الينا بتفاصيل كثيرة ، ولكتها ليست التفاصيل التى تبعث الحياة في صورة الربيل المسجلة . وهويقول إن شراان كان رجلا طويل القامة ، له صوت ضعيف أو يكاد ، وكانت له عينان براقتان وأنف طويل . « وكانت قة رأسه مستليرة » ، وما ندوى لذلك القول معنى) . وكان أشيب الشعر . وكانت وقبته غليظة قصيرة نوعاً و « بطنه شديد البروز » . وكان يليس إذارا Trais مطرز الحواشي بالفضة وجروبا له أربطة الساق . وكانت له عبامة زرقاء ، وكان على الدوام متقلدا سيفه ،

وواضع أنه كان رجلا جم النشاط وإن الإنسان لبتصوره يتحرك بسرعة مـ ولم تمل غرامياته العديدة قط دون قيامه بأهماله الحربية والسياسية التي لم تنقطع . كانت له زوجات عديدات وخليلات كثيرات . وكان يكثر من مزاولة الرياضة : وكان مغرماً بالأمهة والحفلات الدينية ، كريماً يجول العطاء . كان رجلا متعدد نواحي النشاط حظم الإقدام اللحثي ، وكان على ثقة بالنفس تكاد تذكر المرء يخلوم الثانى إمراطور ألمانيا السابق الملى هو آخر – وريما كان ذلك إلى الأبد – هذه الحجموعة من القياصرة الزائفين بأوربا اللذين يقوم على رأس قائمهم شرلمان .

والحياة العقلية التي يسجلها عنه إجنهارد شائقة لاتخلو من متعة ، لأنها لا تقف عند إهطائنا لمحات عن شخصه مستطلعة ، ولكنها تمثل لنا تموذجا من عقلية ذلك الزمان . كان له إلمام بالقراءة ؛ والراجع أنه كان أثناء تناوله الطعام « يصغى الما

⁽¹⁾ انظر : «Life of Karl the Great» تأليف إيتبارد (جلايستر) .

⁽٢) هورداء روماني يشد بطاق حول المصر . (المترجم)

الموسيقي أو القراءة ۽ ، ولكن محدثنا مؤرخه بأنه لم يتعلم فن الكتابة ، و وكان من عادته أن يضع دفتره وألواحه تحت وسادته ، حتى بمرن بده على كتابة أشكال الحروف إذا آسيات له قسحة من وقت الفراغ ، ولكن تقدمه كان طفيعاً في ذلك الفن الذى ابتدأه في وقت متأخر جداً من حياته ۽ . ومع ذلك فقد كانت نفسه تنطوى على الحرام حتى العلم ورفية صادقة في المعرفة ، وبلك قصارى جهاده ليجندب رجال العلم إلى بلاطه ، ومن بين الكثيرين اللين وفدوا عليسه الكوين (Alcula) وهو عالم إنجازى .

وكان كل هؤلاء العلماء بالطبع من رجال الكنيسة (الإكليروس) ، إذ لم يكن هناك أى علماء آخرين ، وطبيعي أنهم كانوا يصبغون المعلومات الى يقلمونها لسيدهم يصبغة قوية من الدين . وكان مقر بلاطه في العادة إكس لاشايل أو مايانس ، فإذاً حلت شهور الشتاء أقام فيه مؤسسة غريبة تسمى: مدرسته ي ، وفيها كان يتظاهر هو وخلطارُه اللوذعيون أنهم يتياون جانباً كل تفكير في المراكز الدنيوية ، ويتخلون لأنفسهم أسماء مستقاة من كتبَّاب الآداب الكلاسيكية القديمة أو من الأسفار المقدسة ، ويتناقشون في اللاهوت والأدب . فأما شارلمان نفسه فكان يتسمى باسم و داود ۽ . فأفاد علما غزيرًا ومعرفة جسيمة باللاهوت ، وإليه ينبغي لنا أن ننسب اقتراح إضافة عبارة : ووعن الابن أيضاً Filio que ، إلى قانون إيمان العقيدة النيقية (١) ـــ وهي إضافة انتهت آخر الأمر بانفصال الكنيستين اللاتينية واليونانية إحداهما عن المآخرى . ولكنا نشك كثيرًا فى أنه كان يرى إلى مثل مله الفرقة . فإن كل ما أراده أن يضيف إلى قانون الإيمان المسيحى كلمة أوما إليها ، كما شاء الإمبراطور غليوم الثانى بالضبط أن يكتب المسرحيات الغنائية (الأوپّرات) وأن يدبيج الصور ، وكان بذلك يتمخذ لنفسه ما كان في الأصل بدعة أسهائية . فلم يقبل تلك الإضافة أحد إلا بعد زمن طويل ؛ واقتضت حكمة البابا ليومعارضها . وعنة ما ثم قبولها آخر الأمر ، كان ذلك على الأرجح عمداً بقصد إحداث الانفصال عن الكنيسة اليونانية . والنقطة الى ينطوى عليها الموضوع ، نقطة دقيقة خفية ولكنها حيوية ، غير أن كاتب هذه السطور

 ⁽¹⁾ يشير كا أسلفنا إلى الحبيم الذي مقده تسخطين (٢٧٥م) وأصدر قانوين إيااة إنظر
 (ص ٧٤١) بـ (المقريم)

لايستطيع أن يدلى فها برأى . فللسيحية اللانينية تعتقد أن و الروج القدس، يثبثن من الآب و و من ، الإبن ، على حين يعتقد المسيحية واللانينة الشرقيون بأن والروج القدس، إنما ينبئن من الآب دون أى ذكر للإبن . و هذا الانجاه الثانى يبدو كأنما يميل هولاً ما نحو وجهة النظر الآريوسية . ولن نسوق إليك هنا إلا القليل من القول فى تنظم شراان للإمبر اطورية . فقد كان من شدة القلق وعدم الاستقرار وكثرة المشاغل بحيث لم يتهيأ له أن يدرس صفة خلفه أو يبحث فى شروط الاستقرار السياسى ، وأجلو الأمور باللذكر فى هذا الصدد هى أنه أوصى ابنه وخليفته ، لويس الورع (١٩٤٨ – ١٨٥) ، بأن يأخذ التاج من الملجع و وتوج نفسه بنفسه » . على أن لويسن الورع كان أتي من أن يتمسك جذه التعليات عند ما اعترض البابا .

وتأثر تشريع شرلمان أعظم التأثر بقراءته للكتاب المقدس ؛ فإنه أصبح مع تقدم الزمن ، جيد المعرفة بالكتاب المقدس ، ومن خصائصه المأثورة أنه بعد ما توج إمر اطوراً ، طلب إلى كل ذكر من أفراد رحيته تجاوز الثانية حشرة أن يجدد له قسم الولاء والطاعة ، وأن يتعهد بأن يكون لا مجرد فرد طيب من أفراد الرحية بل مسيحياً صالحاً . وكان رفض التعميد والارتداد بعد التعميد جرائم حقوبتها الإعمام .

فعل الشيء الكثير لتشجيع فن العارة ، قاستحضر معاريين إيطاليين عديدين ، من رافئنا (Ravenna) بصفة خاصة ، ونحن مدينون لهم بكثير من المبانى الجميلة التي ما زالت تبيج السائمين في ورمز وكولونيا (كولن) وغيرهما من بلدان أرض الراين . وبدل جهدا كبيراً للبوض بغن العارة و الرومانسكي ه(١) الذي ستصفه في القسم التالى . وأسس عدداً من الكاتدرائيات ومدارس الأديرة ، وفعل الشيء الكثير للشجيع دراسة اللاتينية (الكلاسيكية) القديمة ، وكان هاوياً ممتازاً شديد الولع بموسيقى . الكنيسة . على أن احيال تحدثه باللاتينية وفهمه للإغريقية مسألة فها جدال ونظر ، ولمله كان يتكلم الملاتينية الفرنسية . ومع ذلك فإن الفرنمية (Frankish) هي لفته العادية . وقام بجمع مجموعة من الأغاني والأقاصيص الألمانية القديمة . على أن خافه لويس الورح دمر هذه لوثنها .

 ⁽١) الدومانسكي طراز من فؤه العارة وسط بين العطرازين الدومانى والقوطى . انتشر يغرب أوربا
 ين القرن التاسر والثالث مشر . (المترج)

وتبادل الرسائل وهرون الرشيد الخليفة العباسى بيغداد ، الذي يمتمل أن مودته له لم تتأثر قط بما لقيه العرب الأمويون في أسبانيا على يديه من شديد النكال و برى جيبون أن هله ه المراسلات العلنية كانت تقوم على الغرور » ، وأن ه مركز سما المتباعدين لم يقركا أى مجال لاحتكاك المصالح » . ولكن لما كانت الإمراطورية البينطية تقوم بينهما في الشرق ، والخلافة المستقلة بأسبانيا في الغرب ، والحلم المشرك من أثراك السهول العظيمة ، فقد كانت لهما أسباب ثلاثة قوية تدعو إلى تبادل من أثراك السهول العظيمة ، فقد كانت لهما أسباب ثلاثة قوية تدعو إلى تبادل سفرائه فسطاطاً فاخراً وساعة مائية وفيلا ومفاتيح الناووس المقدس . والهيئة سفرائه فسطاطاً فاخراً وساعة مائية وفيلا ومفاتيح الناووس المقدس . والهيئة الأخيرة تشير إلى أن المليك العربي كان يعد شران إلى حديما ، حامى المسيحين والممتلكات المسيحية في مملكته ، ويعلن بعض المؤرخين صراحة ... أنه قد كانت هناك معاهدة عبلا الصدد .

٧ – الفن والعمارة الرومانسكيان

كان يحدث فى الشرق بدافع المؤثرات المسيحية ، أن فن حمارة الإمراطورية الرومانية الفاخر الانزان والجمود ، أى فن الهارة الذى يوجد فى تدمر وبعبك . قد ألم به نحوير مربع عميق تمحول به نحو جود الجزالة الأثرية التى الطراز البيزنطى ؟ أما فى الغرب فكانت تلم به تطورات مشابه وإن لم تكن مناظرة لتلك تماماً . وقد شاخ إطلاق اسم الرومانسكى » على أضرب جة من المبانى تعيدى فها حميماً من التقاليد الفنية الرومانية ، التى أو هن قوتها وكبحها انتشار الفقر بعيمة عامة فى أرجاء العالم ، ولكتها تشهد أيضاً فى كل مكان بوجود تأثيرات حصرية جديدة وضرورات اجهاعية جديدة . فلم تعد هناك بعد أية مدرجات ولا أية سقايات حضود صخيمة الماء ولا أى أقواس نصر ولا معابد تقام للآلفة . يل كانت هناك حصود وقلاح ضخمة مستدرة أو مربعة ، وكتائس وأبراح . ويصبح المرج آنذاك لأول مرة مهما فى أوربا ، ذلك أن فن المارة أخذ يعلو صُحُداً . وقد كتا حتى الآن لا نشاهد



(شكل ١٣٧) رسم بارز من قير فرلمان في إيكس لاشابل يمثله وهو يكرس كنيسة العذراء

الأبراج إلا في أرض الجزيرة بالعراق. ولم تحاول المباني في العالم للصرى ولا الهليني ولا الهليني ولا المليني ولا المومانية ولا الروماني أن تشق عنان السموات. حقاً إنه توجد أبراج في التحصينات الرومانية والهلينية وفي سور الصين العظم ، وهي أجزاء من الاستحكامات الدفاعية ، ولكن هلما يكاد يكون كل مظهر من الأبراج حتى الحقبة المسيحية . ثم يصبح البرج ضرورة لا بد منها في عالم يغير عليه الهون والعرب وقراصنة البحر من كل الأنواع سوسنحدثك في قسم قابل عن أهل الشهال (Northmen) والعرب والمجرين . وتصبح الكنيسة ضرورة أخرى بسبب صلاة الجاعة التي يدعو إليها الدين الجديد ، وطبيعي أن يظهر الاثنان جنبا إلى جنب .

وتشرك ديانتا (الكتاب والفكرة) الجديدتان : النصرانية والإسلام ، في هذه المصفة ؛ فإسما جهدتا أن تصلا إلى قلب كل إنسان . فكان لابد من حشد الناس في مكان المبادة والقربان ؛ وكان لا بد من تذكيرهم بالصلاة والعقيدة . ولذا أطلق فن المهارة الإسلام أرق زهراته ، وهي المثانة التي يمكن من فوقها دعوة الناس

وهدايتهم . ولم تعد المسيحية تستطيع الاكتفاء بالمبد المظلم الصغير الخاص بالآلفة الأقدين ؛ فكان لزاما أن تبنى الكنائس كيرة مقسحة الجنبات ؛ لتضم كل من في الناحية من المؤمنين . وكان لا بد من دعوة الناس برج الجوس . فهجر طراز المعبد الإمراطورى ، ودعت الحاجة إلى المبانى الفسيحية المجارين المسيحين للتحول بوجههم إلى نموذج دور الفضاء الرومانية وأعنى با البلسلية المبارية (Baallicse) (1).

ومن المستحيل طبينا في هذا الحيال المتاح لنا أن تقفو القن و الرومانسكي » يمختلف أنواعه وأشكاله الجلمة ، فنراه وهو ينتقل متحولاً إلى فن بنرنطى ناحية الشرق ثم وهو يُعُدّل على يد النورماندين والسكسون والفرنجة . على أن عهد الاستقرار المدى حل إيان حكم شرلمان جمع تحت وعايته كل ما في أوربا الغربية من قوى فنية ، وإنما يصل الطراز الرومانسكي إلى أبرز مستويات تعبره عن ذاته في مباني كاتدرائية اكعر، الاشايا. (آخر:) ، أشالها .

وكما حدث من اختفاء الأشكال الهسمة المطلة المكاتنات الحية الذي لاحظاناه في الفندن البيرنطي والعربي ، تواصل في أوربا الفربية أثناء تلك العصور المفسطية ، المختفاء مناظر له وإن لم يكن تاماً . حتى أن المثال الذي كان يسطيع أن يعالج يقوة أوضاع الإنسان أو الحيوان ، لم يعد له وجود على ظهر البسطة في أية متطقة غربي بلاد الهند . والتجأ فن النقش والتصوير إلى الأديرة . إذ أن عملية الكتب بالصور ارتفعت إلى مستويات عالية من الإنقان في الإمراطوريتين الومانية والهلينية ، ولم تندشر قعل اندثاراً تاماً . وإنما أيقاها على تسلم الحيساة غلوات الرهبان المسيحين وروساتهم ، كما كان يتبعدد فيها المنشاط بيتادل الأساليب والفكرات . وكانت الأديرة الإرلندية تخرج منذ عصر مبكر يتناهي إلى The Book of Kella () .

 ⁽١) الباسيلة أو الباذيليك أصلها عند الرومان قامات سنطيلة ذات سنين من الأعمنة ولها عمر ب
 تصف دائرى فى تجايتها ، تستخدم فى الشئون القضائية وبالمائية - وتحول أكثرها فيما بعد إلى كناشي
 مسيدية . (المرجر)

 ⁽۲) كلمة معناها ألحلة الرقيق أو العشاء أو المشبكات (على نحو ما يراه الإنسان في الشبكة من خيوط متقاطعة تاركة بينجا ثقوباً أو منافذ) وطيه يمكن تسمية هذا الكتاب ياسم وكتاب الرقائق أو المشبكات به (المترجم)

اللكي هو نسخة من الأناجيل بكلية ترينتي (Trinity College) بدبلن ، إلى ذاك المهيد . ويماثل الإنتاج الكلتي الانتاج العربي الأول مماثلة غريبة في امتناعه عن استخدام صور الأشكال الحية في زخارفه . وألوانه وتصمياته بديعة ، ولكن الرسم فيه زرى حقير . واختلطت المؤثرات الكلتية بالمؤثرات الكلاسيكية والبرنطية في النهضة الفنية بلاط شرلمان . وهناك ارتفت المخطوطات المحلاة بالصور المثلة بالذهب إلى أبدع وأروع مستوياتها .

على أن يعض المنتجات الإنجليزية والتورماندية تبدى شيئاً من الحمرد بإظهارها ميلا يلى الفن التمثيلي ورسم الأشكال بالخط المحيطي⁽¹⁾ Outline ، وسرعان ما تنطلق نحو عمل الصور المصغرة Miniatures أو المتمات . على أن الانحطاط التلويجي اللك لحق فن تملية المخطوطات بالصور ، واختفاء روح المبادهة والاختراع فها يسبب انحراف الطاقة الفنية إلى أوساط Media أخرى⁽⁷⁾ ، لم تصبح ملموسة إلا في القونين للناني مشر والثالث عشر .

ـــ الفرنسيون والألمان يتم انفصالهم

لم تعش إمراطورية شرئان بعد ابنه وخليفته لويس الورع ، فإنها انشطرت إلى أجرائها الرئيسية الأصلية . ذلك أن سكان بلاد الغال من الكلت والفرنجة فوى الصبغة اللاتينية يأخلون عند ذلك في أن يتميزوا ثحت اسم فرنسا ، وإن كانت فرنسا للك منقسمة إلى عدد من الدوقيات والإمارات انقساماً لم يجعل لها معه في معظم الوقت إلا وحدة إسمية ، وشرحت الشعوب الناطقة بالألمانية بين ثهر الراين وبين الصقالة في الشرق تكون بالمثل صورة لألمانيا أشد من صورة فرنسا القساماً . حتى إذا ظهر آخر الامراطور حقيق في أوربا الغربية (٩٦٢) ، فإنه لا يكون فرنميا بل سكسونيا فقد أضحى المفاويون في ألمانيا هم السادة .

وإنا لنرى هاهنا أول الإشارات إلى صنف جديد من أصناف التجمع السياسي فأوربا ، وهو فجر ما نسميه الآن و بالقومية Nationaliam ، وهي شيء أشبه ما يكون بداية إحدى عمليات التبلور ، أو قل إنها عملية تخارج وفرز حدثت في الخليط المتلاطم النام الاضطراب الذي جاء في أعقاب تحطم النظام الإمبراطوري .

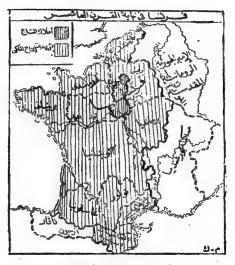
 ⁽١) الحل الهيطي : طريقسة في الدم تبرز نيها الطوط الخارجية الدي. من غير تقليل . انظر
 الدترج كتاب ه التربية من طريق الفن ، لهربرت ريد ((الالت كتاب)

 ⁽٢) الوسط : المواد والأساليب والوسائل الفنية والمادية والتكنيكية للتعبير الفنى . (المترجم)

وعال أن نقفو في هذا المقام أحداث القرنين التاسيع والعاشر بأى قدر من المخالفات والحيانات والادعامات وصنوف الفم والاستيلاء . فقد كانت تهم أوربا حالة من الفوضى والحروج على القوانين وحروب وكفاحات من أجل القوة والسلطان . وفي (۹۸۷) انتقل ملك فرندا الإسمى من أيلدى الكارلوفنجين ، وهم تحور سلالة شرلمان إلى يد هيو كاييت ، الذى أسس أسرة عملكية جديدة . وكان معظم أتباعه المزعومين مستقلين في الحقيقة ، نزاعين إلى خوض محملكية جديدة . وكان معظم أتباعه المزعومين مستقلين في الحقيقة ، نزاعين إلى خوض محمل الحرب على الملك لأقل استفزائ . فكانت ممتلكات دوق نورماندى مثلاً أشد مسعة فرة مما كان يملكه هيو كاييت نفسه . وتكاد الوحدة الوحيدة التي تجمع شتات فرنسا هذه ، التي كان يملك علم السلطة إسمية ، تتحصر في عزم ولاياتها الكرى جمياً على مقاومة أى اندماج في أية إمراطورية يتسلط هلها حاكم ألماني أو يسودها البابا . وفي عدا ذلك التنظم البسيط اللهي كانت عليه تلك الإرادة المشركة ، فإن فرنسا المجاوع وإقامة تمصينات ، وفيرة ما يسمونه و بالحرب الحاصة ، في كل أرجاء أوربا . واقامة أورة ما يسمونه و بالحرب الحاصة ، في كل أرجاء أوربا .

وتكاد حالة روما في القرن العاشر أن تعجز القلم عن أي وصف. فإن انحلال إممر اطورية شريان ترك البايا ولا حامى له : تهدده بنزنطة والعرب (الذين استولوا على صقلية) ، ويتحوش به نبلاء روما الشرسون . ومن أقوى هولاء النبلاء امرأتان ، هما تبردورا وماروزيا وهما أم وابتهالا) ، تعاقبنا في الاحفاظ بقلمة سانت أنجطو (انظر ص ٨٣٠) ، التي استولى علمها ثيوفيلاكت زوج تبودورا النبيل ، كما استولى على معظم سلطة البابا الزمنية . وكانت هاتان المرأتان من الحرأة وموت الفسمو على معظم سلطة كأى أمير ذكر في ذلك الزمان ، والمؤرخون يسبومها كأعا كائنا أسوأ من الأمراء عشر مرات . وقبضت ماروزيا على البابا يوحنا العاشر وصحنته (٩٢٨) ، من الأمراء عشر مرات . وقبضت ماروزيا على البابا يوحنا العاشر وصحنته (٩٢٨) ، من سرعان ما توفى في ظل رعايها ! ! . . . فأما أمها ثيودورا فكانت خليلة له . ثم نصيت ماروزيا بعد ذلك ابنها غير الشرعي على عرش البابوية ، باسم يوحنا الحادي صش .

 ⁽۱) ویاد کر جیبون امنم تیردورا آخری ، هی شقیقة ماروزیا . (الموافد)
 تاریخ الانسانیة هـ ۲



(شكل ١٣٨) خريطة فرنسا ي نهاية القرن العاشر

ومن بعده شغل كرسى القديس بطرس حفيدها يوحنا الثانى عشر. وإن ما سطره جيبون عن سلوك يوحنا الثانى عشر وأخلاقه ، ليتوارى آخر الأمر خجلا وراء ستار من الهوامش اللاتينية . وقد جُرد هذا البابا يوحنا الثانى عشر من منصبه على يد الإمراطور الألمائى الحسليد أوتو ، الذى عبر جبال الألب وانصد إلى إيطاليا ليحرج (٩٦٢) .

وهذه السلالة الجديدة من الأباطرة السكسون ، التي ارتفعت على هذا النحو إلى



هنري الصياد ، انتخته ملكا لألمانيا جمية من النبلاء والأسراء والأحيار الألمان ق (۹۱۹) . وق (۹۲۹) خلفه في الملك امنه أوتو الأول الملقب بالكبر ، اللى انتخب كذلك خليفة له في إكس لاشايل، وهو الذي أنحلس آخر الأمر إلى روما بدعوة من يوحنا الثاني عشم لكى يتوجه امىراطورا في (٩٦٢) . وقلد أجبره على تجريد يوحنا فيها بعد خيانة

وتبة الصدارة إلى شخص معبن الهيه

ذلك البابا له . ولمسا تسلم (شكل ١٣٩) خريطة اللبراطورية أوتو الكبير

أوتو الأول مقاليد سلطته الإمىراطورية ، لم يكن ذلك منه تغلبا على روما قدر ما كان إعادة للنزاع القديم على السلطان بين البابا والإسراطور إلى حالة تدانى الاعتدال والكرامة . وتبع أوتو الأول على العرش أوتو الثاني (٩٧٣ – ٩٨٣) ، الذي أعقبه أتو الثالث (٩٨٢ – ١٠٠٢) .

وربما جاز لنا أن نشر هنا أنه ظهرت ثلاث أسرات من الأباطرة في أوائل القرون الوسطى ــ هي السكسونية : من أوتو الأول (٩٦٢) إلى هنرى الثاني ، وتنهى في (١٠٢٤) ؛ والساليانية (١) : من كونراد الثاني إلى هنرى الخامس وتنهى

⁽١) كلمة Salian مثنتة من سالو Salti وهم كهنة إله الحرب مارس Mars عند قدماء الرومان . والمقصود هنا من كلمة ساليان هو النسبة إلى قبيلة من قبائل الفرنجة استوطنت الرابين الأدنى . (المترجم)

قرابة (١١٧٥) ؛ ثم أمرة هو هنشتاوفن ، كونراد الثالث إلى فردريك الثانى : وتنهي في (١٢٥٠) . وكانت أمرة هو هنشتاوفن سوابية الأصل . ثم جاءت أسرة هابسبرج ، مبتدئة برودلف الأول في (١٢٧٣) ، واستمرت حتى (١٩١٨) . وإنا لتتكلم عن الأسرات المالكة هنا ، وإن جرت العادة بإقامة احتمال عظم لانتخاب كل إمبراطور عند تولّيه العرش .

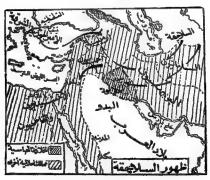
ويلعب الكفاح بين الإمبراطور والبابا على السيادة في الإمبراطورية الرومانية المقدمة دوراً كبراً في تاريخ الشطر الباكر من القرون الوسطى ، وسرمم لك من فورانا صورة تخطيطية الأدواره الرئيسية . ومع أن الكنيسة لم تنحدر بعد ذلك أبداً إلى مستوى يوحنا الثاني عشر ، فإن تاريخها يتقلب بين أدوار من القسوة العظيمة والفوضي الشديدة والمؤامرات الحامحة .

ومع كل هذا فإن التاريخ الظاهرى لعالم المسيحية ، ليس التاريخ الكامل للدلك العالم و فأما أن قصر اللاتبران كان يضارع فى الدهاء والحمق والإجرام معظم البلاطات المعاصرة له ، فشيء لا مناص من تسجيله ، على أننا إن أردنا أن نحافظ على التناسب التام اللازم فى هسلما السفر التاريخي ، فواجبنا يحتم هليا ألا نشيط فى توكيد ذلك . ويلبغى لنا أن نتذكر أنه على أكر تلك العصور جميعاً ، ظل ما لاحصر له من رجال ونساء لم أثرهم العميق فى هده الدنيا ، وإن لم يخلفوا من ورائهم أن أثر تسجله صفحة المؤرخ ، أقول ظلوا يعيشون متأثرين يتلك الروح الصادرة عن يسوع الناصرى التى بقيت حمية بل لن تبرح حية فى لباب المسيحية وسويدائها ، يعيشون متأثرين بذلك تأثراً حميم على اتخاذ سبيل للحياة كريم فى جملته ينطوى على متبادل العون ، كما دفعهم على اتخاذ سبيل للحياة كريم فى جملته ينطوى على متبادل العون ، كما دفعهم يلى بذل كل عمل يتجلى فيه الإخلاص وعدم الأنانية . كالت مثل تلك الأنفس لهي بذل كل عمل يتجلى فيه الإخلاص وعدم الأنانية . كالت مثل تلك الأنفس بهركة تزيل من جو تلك المعصور كل ما علق به من أدران ، ونعمة تليح للناس عالماً أفضل . وكان ذلك على غوار ما كان فى العالم الإسلام حيلا بعد جيل عمارها من الشجاعة والأمانة والرفق

· ٩ – النورمانديون والعرب والمجريون والأتراك السلجوقيون

وبيناكات الإمراطورية الرومانية المقدسة وضعوب فرنسا وإنجلترة تظهر كما ترى قى وسط التمرق السياسي البالغ الذي أصاب مدنية أوربا الغربية ، فإن كلا من هذه المدقية والإمراطورية البيزنطية قد تعرضت لهجوم مثلث الجوانب : من دول العرب ، ومن أهل دول النهال ، ثم من شيء ثالث هو أبطؤها جيماً تطوراً وأشدها بأساً : من وحف جديد نحو الغرب قامت به الشعوب التركية خلال جنوب الروسيا ، ومن آسيا الوسطي كذلك بطريق أرمينية وإمراطورية بغداد .

فيمد أن أسقط العباسيون خلافة الأمويين ، تناقصت قوة الدافع العربي ضد أوربا . لم يعد العالم الإسلامي متحداً : إذ كانت أسبانيا تحت حكم خلفة أموى متفصل ؟ هلى حينأن ثهال أفريقية وإن كان خاضعاً بالاسم للعباسيين ، كان في حقيقت . مستقلا ؛ وما لبثت مصر أن أصبحت في (٩٦٩) دولة متفصلة لها خلفة شيعي خاص مها ، وهو رجل ادعى الانتساب إلى على وفاطعة «وأسس الخلافة القاطعية » .



(شكل ١٤٠ خريط ظهور السلاجقة

وكان هؤلاء الفاطعيون المصريون وهم المسلمون ذوو العدّم الأخضر ، متعصيين بالمقارنة إلى العباسين ، وقعلوا الشيء الكثير لتشويه ما بين الإسلام والمسيحية (١) من صلات طبية . فاستولوا على بيت المقلس ، وتدخلوا في زيارة المسيحين القمر المقدس ، وكان هذاك كذلك في الناحية الأخرى من الأملاك العباسية المتقلصة ، مملكة شبعية مقرها فارس . وكان أهم فتح قام به العرب في القرن الناسع هو صقلية ؛ ولكن ذلك في تجهد جهيد خلال قرن كامل من الزمان ، ومع نكسات كثيرة في كفقة الحرب . في جهد جهيد خلال قرن كامل من الزمان ، ومع نكسات كثيرة في كفقة الحرب . يميزمون ويتخلون عن أرضها أمام بهضة جديدة بلخا المسيحيون . ومع ذلك فإن الإمراطورية البرنطية وعالم المسيحية الغربية كانا ما يزالان من الضعف في البحر المتوسط عيث استطاع المفعرون والقراصنة العرب من شهال إفريقية ، أن يغيروا على المتوسط عيث استطاع المفعرون والقراصنة العرب من شهال إفريقية ، أن يغيروا على حديب إيطاليا والجزر اليونانية دون أن يجروا على عمديم .

على أن قوة أخرى جديدة أخادت تظهر آ نذاك فى البحر المتوسط. وقد سبق أن أثر نا أن الإمبر اطورية الرومانية لم تيسط نفوذها مطلقاً على شواطىء البلطيتى ، ولاكان للسها قط القوة لدفع سلطانها إلى بلاد الدانيمرك . وتعلمت الشعوب الآرية النوردية فى تلك الأقالم المهملة الشيء المكتبر من الإمبر اطورية التي لم تستطم إخضاعهم ، وقلد استطاعوا كما أسلفنا النهوض بفن بناء السفن وأصبحوا ملاحين ذوى إقدام ، فانتشروا عبر بحر الشهال غرباً ، وعبر بحر البلطيق وأعلى الأنهار الروسية إلى صميم ما هو الآن الروسيا . وكانت نوشجورود الكبرى من أقدم مستعمراتهم فيها .

وإن دارس التاريخ لا يفتأ يجد فى حالة هذه الشعوب الشهالية ماكان يثقله من المشقة والربكة لدى دراسته للإسكيذيين فى الأزمان القديمة ، والشعوب التركية

⁽۱) أطلق هذا المؤلف القول على مواهنسه ، إذ المعروف سقيقة أن تسامح الفلطمين مع السقين والكتابين كان مشرب الأمثال ، فقد اتمفوا من المسيحين واليهود على السواء وزراء وكائمي أسراو وتزوجوا منهم ، وكان بعض خلفائهم من أمهات كتابيات .

الهوئية في آسيا الشرقية والوسطى. فإنها تظهر تحت عدد وفير من الأسماء ، كما أمها تتخبر وتعدفالط . في حالة بريطانيا مثلا ، ترى أن الإنجلز والسكسون والجلوت قد غزوا معظم ما هو الآن بريطانيا في القرنين الخامس والسادس ، وجاء في أعقابهم في القرنين الثامن والتاسع الدائيمركيون وهم موجة ثانية من نفس الشعب نقريباً ؟ ولى المرنين الثانيم في ايجلزة بل تعداها إلى المدائيمركي ، هو كانوت الكبير ، ولم يقتصر ملكه على إنجلزة بل تعداها إلى المدائيمرك والبرويج . وكان رعاياه بمخرون البحر بسفهم إلى أيسلندة وجريئلندة وربما إلى القارة الأمريكية ، وجاء حين من الدهر تبدت في الأفق فيسه إيان حكم كانوت وأبنائه ، بوادر احيال إنشاء أعاد عظيم من أمرا الشيال .

ثم اظالت في (١٠٦٦) موجة ثالثة من نفس الشعب إلى إنجلترة ، من دولة و النورمان ، في فرنسا ، حيث كان أهل الشهال مستقرين منذ أيام رولف العداء ا (٩١١) ، وحيث تعلموا أن يتكلموا الفرنسية . وأصبح وليم دوق نورماندى وليم الفاتح (١٠٦٩) في التاريخ الإنجلزي .

وإذا نظرنا إلى هذه الشعوب من زارية التاريخ العام ، وجدناها جميعاً تكاد تكون شمياً واحداً ، وألفيناها موجات من زارومة نوردية (شهالية) واحدة . ولم تكن هذه لهوجات تنجه غرباً فحسب بل شرقاً كلك . ولقد سبق لنا أن سجلنا حركة جد شائقة قبل هذه لنفس الشعوب تحت اسم القوط تنجه من البلطيق إلى البحر الأسود . وتتبعنا تفرع هوالاء القوط إلى القوط الشرقية والقوط الغربية ، كما تأثرنا التجولات المليئة بالمفادوات التي انتهت آخر الأمر بتكوين مملكة القوط الشرقين في إيطاليا ودويلات القوط الغربين في أيطاليا ودويلات القوط الغربين في أسانيا . في القرن الناسع ، كانت لأهل النجال حركة ثانية عمر الروسيا في نفس الوقت الذي كانت فيه مؤسساتهم في إنجلترة ودوقيتهم في نورماندى قد أعلنت تظهر إلى عالم الوجود .

 والعادة . فهم جمعاً من الناحية الأساسية شعوب قوطية ونوردية . وإن القرابة بعن الروس والإنجلز لنلحظ حتى في موازين الطرفين ومكايبالهم . فإن لدى كل مهما البوصة والقدم النماليان (Norse) ، كما أن كثيراً من الكتائس النورماندية الأولى في إنجلترة قد بنيت على مقياس يعن استمال الساچيى (وهو يعادل ٧ أقدام) وربع الساچيى ، وهو مقياس نورسي (شهالى) لا يزال مستعملا في الروسيا . وكان أهل الشهال و الروسيون ، هوالاء يسافرون زمن الصيف ، مستعملين الطرق النهرية الوفترة في الروسيا ؛ وكانوا يحملون سفهم على الأراضي القاصلة بين الأنهار المتجهة شهالا وتلك التي تنساب جنوباً . وقد ظهروا على صورة قرصان أو مغدرين و بمار في كل من يمرى قزوين والأسود . وذكر المؤرخون العسرب ظهورهم على بحر قزوين ، وتعلموا أن يسموهم الروسيين . وقد أغاروا على فارس ، وهددوا القسطنطينية بأسطول عظم من الزوارق الصفيرة (في ١٩٤٥ ، ١٩٤٥) .

وفى عام ١٨٠٠ م تقريباً نصب روريك أحد أهل الشهال هولاء ، نفسه حاكماً على نوفجورود ، واستولى خليفته الدوق أوليج (Oleg) على مدينة كييف وبدلك وضع نوفجورود ، واستولى خليفته الدوق أوليج (Oleg) على مدينة كييف وبدلك وضع أسس روسيا الحديثة . وسرعان ما قدرت القسطنطينية ما لدى اللهيك إنجز الروس من صفات حربية ؛ وكان الروم (البرتان) يسمونهم الفارانجيين من هولاء الفارانجين حرس إمراطورى خاص . وبعد غزو النورماندين لإنجلرة (١٠٦٦) د تع يعدد من الدانيمركين والإنجليز إلى المنتي فلحقوا جولاء الفارانجيين الروسيين ؛ وواضح أنهم لم يجدوا إلا شيئاً لا يكاد يذكر من الفوارق في اللغة والمادات يحول دون اختلاطهم بعضهم بيغضى .

وفى نفس الوقت كان النورمانديون النازحون من نووماندى كذلك يكتشفون طريقهم إلى البحر المنوسط من الغرب. فهبطوه بادئ ذى بدء مرتزقة ، ثم مغيرين

⁽۱) هاه التواريخ منقولة من جيبون بينا محدها برنل ه ۸۱، ۹، ۹ ــ ۹۰، ه ۹۲۰، ۹۶، ۵، ۹، ۹۰، ۹۶، ۹۶، ۵، ۹۷۱ - ۹۷۱ - ۹۷۱ (المولف)

لحساسم الخاص فيا بعد ؟ وجمنا أن تسجل هنا أن انتقالم الرئيسي لم يكن بطريق البحر ، بل في شرافه متناثرة بطريق البر . جاءوا عدرتين أرض الراين وإيطاليا ، يبحثون من ناحية عن الخدمة الحربية والأسلاب، ومن ناحية أشوى بوصفهم حجاجاً . ذلك أن القرنين الناسم والعاشر شهدا إقبالا عظها على الحجج :

وحين بلغ هولاء النورمانديون مبلغ القوة ، تنبوا لأنفسهم وإذا بهم لصوص سلابون ذوو بأنس ، حتى لقد أرنحوا الإمبراطور الشرق واللبا أن يبرما ضدهم معاهدة ضعيفة غير فعالة (١٠٥٣) . فهزموا البابا وأسروه ثم عفا عهم . وثبتوا أنقسهم في كالابئريا وجنوب إيطاليا وانتزعوا صدقية من العرب (١٠٩٠ - ١٠٩) ، ثم هددوا الإمبراطورية البرتطية نفسها (١٠٨١) تحت إمرة ووبرت جويسكارد ، الذى هبط إيطاليا حاجاً معامراً ويداً حياته قاطعاً الطرق في كالابريا . كان جيشه يضم كتيبة من الصقلين المسلمين ، فعير به البحر من برنديزى كالابريا . كان جيشه يضم كتيبة من الصقلين المسلمين ، فعير به البحر من برنديزى المواتية ، قبل ذلك بثلاثة عشر قرنا (٢٧٣ ق . م) . فألق الحصار على مدينة دراؤو البرنطية المنبعة و

وفتح روبرت دورازو (۱۰۸۲) . على أن حرج الحالة فى إيطالبا استدعى عودته إليها ، ووضع حداً نهائياً لهذا الهجوم النورماندى الأول على إمبراطورية برنطة ، مهيئاً بذلك فرصة لحكم أسرة آل كومنين(۱) القوية نسيناً (۱۰۸۱ – ۱۲۰۶) .

وحدث أن روبرت جويسكارد تمكن فى أثناء منازهات أشد تقيداً من أن يقسع لما المقام هاهنا ... من محاصرة روما وسها (١٠٨٤) ؛ ولهذه المناسبة بنبه جيبون الممادى المسيحية فى غيطة واطمئنان ... إلى وجود تلك الكتيبة من مسلمي صقلية بين الناهين . ثم حدثت فى القرن الثانى عشر ثلاث هجات نورماندية أخرى على الدولة الشرقية ، إحداها على يد ابن روبرت جويسكارد ؛ والأخريان من صقلية مباشرة بطرين البحر

ولكن لم يقيض للعربولا للنورماندين أن يدقوا الإمبراطورية العجوزف بيزنطة

 ⁽١) انظر الدرجم في مجموعة الألف كتاب ومكتبة النهضة كتاب والحضارة البؤلطية ع تأليف متيفن رانسيان.

أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة تلك الإمبراطورية الشيخة المتصابية فى الغرب ، يمثل تلك القوة التي جاءت بها الطعنة المزدوجة من المراكز الطورانية فى آسيا الوسطى ، التي يجب أن تتحدث عنها الآن .

لاحظنا فيا سلف حركة الآفار نحو الغرب والمجريين الآثراك الذين ترسموا خطاهم . فنذ أيام پين الأول فا بعدها ، كانت الدولة الفرنجية وما خطفها من دول في المانيا ، في نزاع مع هولاء المغيرين الشرقيين على امتداد أراضي الحسدود الشرقية بأسرها . وقد صدهم شراان وأنزل بهم النكال وأسس لتفسه ضرباً من السيادة العليا بمنطقة امتدت شرقاً حتى جبال الكربات ؛ ولكن هسده الشعوب عادت في فترة الضعف الذي تلا وفاة شراان - وقد تخلطت عند ذاك تخلطاً ببراوح زيادة ونقصاناً وتسمت في البيانات التاريخية بامم الهنغارين - عادت فاسردت بقيادة المجرين حريبا كاملة غير منقوصة وأخلت تغير كل عام إغارات كانت تصل أحياناً إلى نهر الواين ، ويذكر بجيون أبهم دمروا دير القديس جال كان تقصى جهد بذاره مو الذي توغلوا به خلال ألمانيا إلى فرنسا ، مه . موا من فوق جبال الألب ، عائدين إلى وطنهم ثانية بطريق شهال إيطاليا وذلك ساروا من فوق جبال الألب ، عائدين إلى وطنهم ثانية بطريق شهال إيطاليا وذلك في معتمد في موطنه يحرية عظيمة جداً . إذ يقال إنهم كان لم في القرن العاشر دستور

وإذ أن هذه لاضطرابات وأخرى سنلحظها من فورنا دفعت بالبلغار جنوباً و فإنهم وطدوا أقدامهم كما ذكرنا آنفا بين الدانوب والقسطنطينية تحت إمرة كدُّوم (Krum) . والمبلغار شعب تركى الأصل ولكنهم منذ ظهورهم لأول مرة فى شرق الروسيا ، كادوا يصبيخون بالتخليط المتكرر صقالية تماماً فى جنسهم ولغهم . وأقاموا على الوثنية حينا بعد استقرارهم الأولى فى بلغاريا . وقد أولم ملكهم بوريس (٨٥٢ – ٨٥٤) الولائم لمبعوثين من المسلمين ، ويلوج أنه فكر فى اعتناق الإسلام ، على أنه تزوج آخر الأمر أميرة بيزنطية ، وسلم نفسه وشعبه العقيدة المسيخية .

وبمن أدب الهنغاريين (الحبر) حتى أخذوا يحترمون الحضارة الغربية بعض الشيء همرى

الهمياد ملك ألمانيا المتتخب وأوتو الأول أول إسراطور سكسونى في القرن العاشر. بيد أتهم لم يوطنوا النفس على اعتناق المسيحية حتى قراية ١٩٠٠ م. وهم وإن تنصروا ، فإلم م احتفظوا بلغهم الركوفناندية (المجرية) ، ولا يزالون بحافظوا علها إلى يومنا هلما . واحتفظوا كذلك بقدر معن من الحرية تحت الملكية التي فرضت علهم . وحستورهم المكتوب والحاتم اللهبي Golden Sea ، يرجع تاريخه إلى ١٢٢٢ ، وهو عديل و شرق » (الماجناكارتا) أى العهد الأعظم الإنجليزي في تقييده لسلطة المالك الملطقة . واشرط الملك استيفن أول ملوك الهر عند ما قبل المسيحية رسمياً ، أن الهيد . على عكس بوهيميا و يولندة .. يجب ألا تدخل في نطاق الإمبر اطورية الرومانية المقدسة .

ومع ذلك فإن البلغار والهنغارين ليسوا آخر الشعوب اللبن كانت تحركاتهم نحو الغرب قوام الزحف الركى عبر جنوب الروسيا . إذ اندفع الخزر من خلف الهنغارين والبلغار ، والحزر شعب تركى اختلطت به نسبة عظيمة جداً من البهود المطرودين من القسطنطينية ، فاختلطوا بهم واجتلبوا إلى دينهم عدداً كبيراً شهم تحولوا عن الوثنية . وإلى مولاء الحزر البهرد يجيب أن تنسب مستوطنات البهود العظيمه في بولندة والروسيا . ثم جاء في أحقاب الحزر أيضاً فغلبوا عليهم وعمروهم قوم هم البتشنج (أو الباتشيناق) ، وهم شعب تركى متوحش نسمع عهم الأول مرة في القرن التاسع ، وقد كتب لهم أن ينحلوا ويختفوا كما فعل ذووقرباهم الحون قبل ذلك يقرون خسة .

وعلى حين كانت كل هذه الشعوب تسير غرباً ، فإن علينا عند ما تفكر في سكان تلك الأتباليم الروسية الجنوبية ، أن نتذكر أيضاً غدو أهل الشهال ورواحهم بين البلطيق والبحر الأسرد ، وتوثق صلاتهم بالمهاجرين الآثراك توثن السدى باللحمة ، وأن لا يغيب عنا أيضاً أنه كان هناك عدد ضخم من السكان الصقالية ، ورثة وخلفاء الإسكيذين والسرماتين ٥٦ ومن شابهم ، اللين استوطنوا آيفاً تلك المناطق الحصبة

⁽¹⁾ Sarmatians سلامة تتعنى إلى فسيلة تكلست نفس اللغة التي كانا يتكلمهة الإسكيليون ، ويعتلد أنها المعربة المسلمة المسلمين من المنس الإيران ؛ ولمو أن بعض الباحين يظن أنها تتعنى لما إلحس الآرال الفائد المسلمين . ويطلق الناس في حديثهم أحياناً لفظة سرماتيو على البولندين . النظر لممالم سي ٢٠٥ ط ٣ . (الماترج)

المفسطرية الهمرومة من كل قانون . اخططت كل هذه الأجناس أحدها بالآخر وتفاعلت بعضها مع بعض . ويدالك انتشار اللغات الصقلبية (السلاثونية) انتشاراً عاماً فى كل مكان حدا بلاد المجر ، على أن السكان ظلوا يفلب عليهم العنصر السلاقى . فأما ما هو الآن وومانيا ، فعلى الرغم من تكرار مرور الشعوب ومن الغزو تلو الغزو . ظلت تقاليد وتراث الولايتين الرومانيتين داكيا ومويسيا السفلى تحافظ على بقاء لغة وذكريات لاتينية .

على أن هذا التوغل المباشر للضعوب التركية ضد للسيحية في شمال البحر الأسود لا يكاد في النهاية يبلغ في الأهمية درجة توغلهم غير المباشر في جنوبيه خلال جولة الحلافة . وليس في إمكاننا أن تتناول هنا قبائل الشعوب التركية التركينانية وانقساماتها ولا الأسباب الحاصة التي أبرزت إلى مكان الصدارة القبائل التي كالت تحت حكم العشيرة السلجوقية . في القرن الحادي عشر انطلق هولاء الأتراك السلجوقيون بقوة لا تقاوم لا في جيش واحد ، بل في مجموعة من الجيوش وتحت إمرة أخوين ، -- وأطبقوا على الحطام المعدامي للإمراطورية الإسلامية .

ذلك بأن الإسلام كف من زمن بعيد عن أن يكون إمراطورية واحدة . فإن الحكم العباسي السنى انكش حتى لم يعد يشغل إلا رقعة الأرض الى كانت تسمي و بابل ، يوماً ما ، وحتى في بغداد نفسها لم يكن الحليفة إلا كاتناً يدين بمنصبه لحراص قصره الأثراك . فإن تركيا ذا سلطان كسلطان و عافظ القصر ، كان الحاكم الحقيق . وإلى الغرب منه في فلسطين وسوريا ومصر ، كان في الحكم طوائف شيعية مزندة (1) .

وكان هولاء الأثراك السلجوقيون سنين يأخلون بالعقيدة السلفية ، فأطبقوا عند ذاك على الحكام الشيعين ومفتصي السلطان ، وغليوهم ، وأقاموا أنفسهم هاة للخليفة البغدادى ونقلوا لأنفسهم سسلطة و محافظ القصر ، الزمنية . وانتزعوا أرميئية من يد الروم فى زمن مبكر جداً ، وإذ تهيأ لم النفاذ من الحدود التي صدت قوة الإسلام أربعة قرون ، اندفعوا لنزو آسيا الصغرى إلى ما يدانى أبواب القسطنطينية . فقد تتج

 ⁽١) لا إعال ألسنون يعدرن الشيعة من الكفرة ، الليم إلا عند بعض المصميين ، وذلك لاتهم في الواقع مسلمون يؤمنون بالله ونهيه وكتبه . (المترجم)

عن غرو أرمينية أيهم داروا من النهال الشرق حول حاجز قبليقية الجبل اللدى طالما صد جيوش المسلمين . ثم ما لبث النرك تحت قيادة ألب أرسلان الذى وحد في يلمه كل قوة السلجوق ، أن حطموا الجيش البيزلهلي تحطيماً تاماً في موقعة ما زيكرت (Manzikert) أو ملازجرد (Melaagird) (١٠٧١) . وكان تأثير هذه الموكة في أخيلة الناس عظيماً جداً . ذلك أن الإسلام الذى بدا عليه الانحلال البائع والذى كان منقسيا على نفسه دينياً وسياسياً ، قد تغيه الناس إليه فجأة ، وإذا به قد تهض ثانية من كبوته ، وكانت الإمراطورية البرنطية العجوز الآمنة هي التي لاح أنها على شفا الانبيار .

كان فقدان آسيا الصغرى سريعاً جداً . واستقر السلاجقة فى قونية (Iconium) ، فيا هو الآن بلاد الأناضول . ولم يمض طويل زمن حتى آلت إلىهم قلعة نيقيا المقابلة للعاصمة .

١٠ – كيف استغاثت القسطنطينية بروما

سبق أن تكلمنا عن هجوم النورماندين على الإمراطورية اليزنطية من الغرب ، وعن معركة دورازو (١٠٨٧) ؛ كما ألمعنا إلى أن القسطنطينية كانت لا تزال تعي ذكريات قوية وحية عن الغارات الروسية البحرية (١٠٤٣) . لا جرم أن بلغاريا و ورضّت و نُصُسِّرت . و لكن حرباً ضروساً غير فاصلة كانت تدور رحاها بينها و بين البثمنيج (البشاق) . وكانت يدا الإمراطور مليثين بالمفاظل في الشهال والغرب . وها قد جاء من الشرق ذلك التهديد الحطير الذي زاد الطين بلة . ولا يد أن تقدم الأتراك السريع في تلك البلاد التي طال ما العهد بأيدى بيزنطة قد لاح لها في صورة التذير النهائي بكارثة قاضية . لذلك انخياد الإمراطور البيزنطي ميخائيل السابع بدائم هده الأخطار التي تناوشته من كل جانب ، خطوة يرجح أنها بدت له ولروما على السواء ذات أهمية سياسية قصوى . فإن العالم إليوناني تطلع إلى أخيه اللاتيني الذي دب فيه السواء ذات أهمية سياسية قصوى . فإن العالم إليوناني تطلع إلى أخيه اللاتيني الذي دب فيه دبيب الحياة من جديد . و والتمس المساعدة من البابا جريجورى السابع . وما لبث خافه دبيب الحياة من جديد . و والم

ألكسيوس كومنينوس أن كرر ذلك الرجاء على البابا إربان الثانى فى مزيد من الإلحاح والاستحثاث .

ولا بد أن هذه الاستفائة بدت فى أعين مستشارى روما نهزة نادرة لتأكيد رياسة البابا على العالم المسيحي بأسره .

ولقد تنبعنا في هذا التاريخ بمو هاته الفكرة الذاهبة إلى إنشاء حكومة دينية لعالم المسيحية – والبشركافة من خلال عالم المسيحية ذاك – وأظهرنا كيف أنه كان من الأمور الطبيعية التي تقتضها الضرورة أن تجد تلك الفكرة في روما مركزاً لها بسبب ما اختصت به من متوارث التماليد عن فكرة الإمبراطورية العالمية . كان بابا روما هو البطريرك الوحيد في الغرب ؛ وكان رئيساً دينياً لمنطقة مرامية الأطراف ، لغتها السائدة هي اللاتينية ؛ فأما بطاركة الكنيسة الأرثوذكية الآخرون فهم قوم يتكلمون الونانية ، وبذا كان صوتهم هير مسموع في كل أرجاء ممتلكاته ؛ هذا إلى أن إضافة عبارة « ومن الابن أيضا وبعد المناط المنيقة الحفية التي يتعلم معها كل توفيق . البرنطين بوساطة إحدى النقاط المنيقة الحفية التي يتعلم معها كل توفيق .

كانت حياة قصر اللاتبران دائمة التغير من كل نواحيها بتغير شاغل كرسى القديس بطرس ؛ فكانت روما البابوية في بعض الأحيان مباءة فساد ودنس ، شأنها أما يوحنا الثاني حشر ؛ وكان يغللها في أحيان أخرى سلطان رجال يفكرون تفكيراً رحباً ونبيلا . على أنه كان من وراء البابا جمية الكرادلة والقساوسة وعدد كبير من الموظفين ذوى التعليم المراقى ، اللدين لم يغب عن أبصارهم قط حتى في أحلك الأيام وأفظميا ، تلك الفكرة العظيمة الفاخرة القائلة بمملكة دنيوية مقلمة ، وبسلام من المسيح يم أرجاء الأرض قاطة ، وهي الفكرة التي ترجم عنها القديس أوغسطن . ظل هذه الفكرة طوال العصور الوسطى هي القوة الحلية التي توجه روما . أجل ظل هذه أحياناً أن سادتها بعض العقول الحبيثة ، وعندللد تلعب روما في شئون العالم دور عجوز شرهه خوون ماكرة حكوراً جنونياً ؛ وربما جاء في إثر ذلك دور رجولة دور عجوز شرهه خوون ماكرة مكراً جنونياً ؛ وربما جاء في إثر ذلك دور رجولة

ودهاء دنيوى كامل أو دور رفعة وعظمه . ثم قد تأتى بين هدا وذاك فترة تعصب أو تقعر وادعاء للعلم ، يوم يغدو الامتهام كله منصبًا على الدقة المذهبية . أو ربما حدث الهيار خلقي ، يصبح معه اللاتيران عرشًا لأحد المستبدين بأمرهم المنتصدين في الملذات أو المغرمين بالحمال المستعدين لييم كل ما تستطيع الكنيسة أن تقدمه من أمل أو شرف مقابل نقود ينفقها على الملذات والمظاهر : ومع ذلك فإن سفيتة البابوية كانت على الجملة تسير في طريقها ، ولا تلبث حتى تبرز بعد ذلك أمام الربح ثانية .

وفى هذه الفترة التي وصلنا إلها الآن ، وهي مدة القرن الحادى حشر ، كانت وما تحت نفوذ شخصية سياسي عظم نادر المثال ، هو هلدبراند (Hildbrane) ، الذي تولى مناصب متنوعة تحت رياسة مجموعة متعاقبة من البابوات ، ثم أصبح آخر الأمر بابا باسم جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٧٥) . وإنا لنجد أن الرفيلة والثوانى والفساد قد بحيت بفضله من الكنيسسة تماماً ، وأن طريقة انتخاب البابوات قد أصدحت ، وأن كفاحاً عظها قد استمر لهيه مع الإمراطور على مسألة ذات حيوية بابرزة ، هي مسألة ذات حيوية بابرزة ، هي مسألة والتعينات Euvestitures » . فهل كان البابا أو العاهل الزمني هو صاحب القول الفصل في تعين الأساقفة على ابروشياتهم ؟ وإنا لندرك على وجه أحصن كم كانت تلك المسألة حيوية بالذة الأهمية إذا تذكرنا أن ما يزيد عن ويع الأراضي كان في كثير من الممالك ملكاً لرجال الكنيسة . وكان رجال الكنيسة الكاثوليكية يستطيعون حتى ذلك الحين أن يتروجوا ؛ ولكن العزوبة فرضت آلذاك الكامية على وجه م على جميع القسس رغبة في فصلهم فصلا فعالا عن العالم وجعلهم أداة طيعة في يد الكنيسة على وجه أكمل

على أن النزاع على مسألة والتعيينات ٤ حال بين جريجورى السابع وبين الاستجابة الفعالة لأول استصراخ جاءه من بيزنطة ؛ غير أنه ترك في شخص إربان الثانى خطيفة له ذا فضل وجدارة (١٠٨٨ - ١٠٩٩) ؛ فلما جاءته رسالة أليكسيوس ، استمسلك إربان على الفور بالفرصة التي هيأتها له لفهم كل الأفكار والقوة في أوربا الغربية في تيار واحد من الحمية والهدف . وكان يرجو من وراء ذلك أن يقضي على و الحروب المعاصة الدين يتصرف إليه طاقة النورماندين

الهائلة . ورأى فيها كذلك فرصة لتنحية الدولة والكنيسة البزنطية عن مكانتهما ؟ وبسط سلطان الكنيسة اللانينية على سوريا وفلسطين ومصر .

وسمعت أقوال مبعوثى أليكسيوس فى مجلس كنمى دُمى على عجل بمدينة پياتشنزا (بالانتشنيا) . وفى السنة التالية حقد إربان فى كليرمونت (١٠٩٥) مجلساً عظيا ثانياً ، نظمت فيه كل قوى الكنيسة إلتي تجمعت فى بطء القيام بدهاية لحرب عامة ضد المسلمين . وكان لزاماً أن تقف الحرب الحصوصية ويخمد كل ما بين المسيحين من حروب ، حتى يطرد الكافرون . . . [كذا ! ! . . .] وتصبح أرض القدر المقدم فى الأيدى المسيحية من جليد .

وإن هية الاستجابة التي قويلت بها تلك الدعوة المُكننا من أن نفهم ذلك العمل العظم من التنظم البناء الذي ثم في أوربا الغربية في للقرون الحمسة السائفة . فإنا في بداية القرن السابع ، رأينا أوربا الغربية خليطاً متناثراً من الحطام الاجتماعية والسياسية ، لاتجمعها فكرة مشركة ولا أمل مشرك ، وألفيناها نظاما قد تحطم حتى كاد أن يصبح ذرّات من أفراد لا يبحثون إلا عن أنفسهم ومصلحتهم . فأما الآن ، ونحن فى ختام القرن الحادى عشر ، فيسرى بين الناس فى كل ناحية اعتقاد مشترك : أه. فكرة جامعة ، قد يستطيع الناس أن يهبوها أنفسهم ، وبها يستطيعون أن يتعاونوا مماً في مسمى حماحي عام . وإنا لعرى بأنفسنا هنا ما صنعته الكنيسة المسيحية بعملها وجدها ، بالرغم من وجود كثير من الضعف وعد\$السلامة الدهنية والأخلاقية . وإنا لنستطيع أن نقدر الأدوار السيئة التي تردَّت فها روما أثناء القرن العاشر وما حوت من الفضائح والنجاسات والقتل والعنف ، ــ قدرها الحق إذا وزنَّاها بمزان هذه 🌱 الحقيقة الحديدة . ولا شك كذلك في أنه كان يوجد في كل أرجاء العالم للسبحي قساوسة كثيرون من الكسالى والشريرين الحمتى ، ولكن من البين أن حبء التعليم والتنسيق لم يتم إلا بواسطة عدد غفير من القسيسين والرهبان والراهبات الذين كانوا يعيشون عيش الصلاح . ذلك بأن حلفاً عظيا جديداً ، هو حلف العالم السيحي قد ظهر فى هذ العالم ، وقام ببنائه آلاف من الأنفس المحلصة المجهولة .

ولم تقتصر هذه الاستجابة للعوة إربان الثانى على من قد نسمهم بالتعلمين . فلم يكن الأمر بجرد فرسان وأمراء يرغون وحدهم فى الانخراط فى تلك الحروب العمليية . وإلى جوار شخص إربان يجب أن نضع شخص بطرس الناسك ، وهو طراز من الرجال جديد فى أوربا ، وإن كان يذكرنا يعض الشيء بالأثبياء العبرانين . قام هذا الرجل يدعو المحروب الصليبية بين عامة الناس . وكان يقص عل الناس _ إن صدقاً وإن كانياً ، إذ أن ذلك أمر لا يكاد يعنينا فى هذا المقام _ قصة حجه لى بيت المقدس ، ويحاشهم عن الاستهانة البائفة ، الذى أنزله بالبعر بالقدر المقدس الأتراك السلجوقيون ، الذين أستولوا عليه فى زمان ما يقارب (١٠٧٥) الجائر والفظائم الوحشية والقساوات المتعمنة التى يزلونها بالحجاج المسجين إلى الماكن المقدس الوحشية والقساوات المتعمنة التى يزلونها بالحجاج المسجين إلى الأماكن المقدسة . طوف هذا الرجل ، حافي القدمن وفي ثياب خشنة ومتعليا حاراً وحاملاً صليباً ضحفاً ؟ أتخاء فرنسا وألمانيا ، وهو يخطب فى كل مكان جاهير حاشدة في كنيسة أو شارع أو سوق .

وإنا لنتين أوربا هنا وقد ألفت بينها لأول مرة فكرة واحدة وروح جامعة ! وإنا لنلمس هنا استجابة عامة من الغضب من قصة ظلم يقع في مكان سحيق ، ونشهد تفهما سريعا لهدف مشرك يجمع بين الهني والفقير على السواء . وأيس في طوقك أن تنصور حدوث ذلك الشيء في إمبراطورية أوغسطس قيصر ، ولا في أية دولة سابقة لها في تاريخ العالم . وربما كان شيء من هذا القبيل ممكاً في عالم و هيلاس ، الأصغر حجماً بكثير ، أو في بلاد العرب قبل الإسلام ، فأما هذه الحركة فكانت توثر في الأمم و الممالك والألسن والشعوب . فن الجلم إذن أننا تعالج هنا شيئاً جديداً ظهر في العالم ، هو ارتباط جديد واضح بين المصلحة المشركة وبين ومي الرجل العادي من العامة .

١١ ــ الحروب الصليبية

كانت هذه الحماسة المتأجمة غتلطة منذ بدايتها بعناصر أكثر اتضاعاً . فقد كانت هناك الحطة الهادئة المضبوطة التقدير التي رسمتها الكنيسة اللاتبنية العلموحة الحرة الإخضاع الكنيسة البرنطية الخاضعة للإسراطور والحلول عملها . وكانت هناك خريزة النهب الذي لا حد له لدى النورماندين الذين كانوا يمزقون إيطالها إدباً ويبعثرونها أشلاء . وسرعان ما حولت وجهتها آنفاك إلى عا مغانم جديد أوفر ثراء . وكان يخم على الجموع الذي ولنت عند ذلك وجهها شطر الشرق ، شيء أعمق في التكوين البشرى من عاطفة الحب ، وأعنى به الكراهية الناجة عن الحوف تلك الكراهية الناجة عن الحوف تلك الكراهية التي أجمعتها دعوات الدعاة الحانقة والمبالفة في فظائع وقساوات الكفرة [كذا ! ! . . .] ناراً حامية .

وكانت هناك فضلا عن ذلك قوى أخرى تعمل عملها ؛ ذلك بأن السلاجقة والفاطمين غير المتساعين كانوا آنذاك عقبة كأداء في سبيل تجارة جنوا والبندقية صوب الشرق ، وكانت حتى ذلك الحين تنساب يطريق بغداد وحلب أو بطريق مصر . فلم يكن بد من فتح هذه المسالك المفلقة عنوة ، إلا إذا احتكر طريق القسطنطينية والبحر الأسود التجارة الشرقية احتكاراً تاماً . وفضلا عن ذلك فقد حدث في (١٠٩٤ ، ١٠٩٥) وباء وجاعة امتدا من ثهر الشلت (Scheldt) إلى بوهيميا ، وترتب عليها اختلال اجتاعي بليغ .

يقول المستر أرنست بارك و لا عجب إذن أن ينطلق نحو الشرق تيار من الهجرة ، شأن ما يحدث في الأزمنة الحديثة من انسياب الناس نحو متطقة للدهب حديثة الكشف ـ تيار بحمل في أمواهه العكرة أدراناً كثيرة من المشردين والمفلسين ومتتبعى المحكرات والمياعة المتجولين والرهبان اللاجئين والأشرار الفارين ، موسوم بنفس سمة الحليط المتعدد الألوان ، ونفس حمى الحياة ، ونفس التأرجحات بينالثراء والإدفاع التي تميز الاندفاع إلى منطقة الذهب اليوم » .



(شكل ١٤١) خريطة الحرب الصليبية الأولى

على أن هذه كائت أسبابا ثانوية مساعدة . فأما الحقيقة ذات الأهمية البالغة لدى مؤرخ البشرية فهمى هذه و الإرادة الثازعة إلى شن حرب صليبية ، المتجلية فجأة على صورة إمكانية جاهرية جديدة في الشئون الإنسانية .

وقصة الحروب الصليبية مليئة بتفاصيل رومانسية رائعة الحمال يلترم إذاءها كاتب معالم تاريخ أن يغفر لقلمه إذا هو انساب منه عند منعطف ذلك الميدان الجذاب. وكانت أول القوات التي سارت شرقا جاهبر غفيرة من أناس غير منظمين أكثر منها جيوشا ، وقد حاولوا أن يتخلوا من وادى الدانوب طريقا لهم ، ثم ينحرفوا جنوبا إلى القسطنينية . وكانت هذه هي « الحملة المصليبية الشعبية ، ولم يحدث البتة من قبل في تاريخ العالم بأسره أن كان هناك مثل ذلك المشهد من الجهاهير التي لا قائد لها أو تكاد والتي تحركها فكرة ، بيد أنها كانت قكرة بالغة الفيهاجة .

فلم أن أصبحوا بين ظهراني الأجانب ، لم يبد عليهم أنهم أدركوا أنهم لم يصلوا بعد إلى بلاد الكفرة (٧). وقد ارتكبت جماعتان عظيمتان من الغوغاء ، هما مقدمة الحملة ، من ضروب الخروج عن الاعتدال في بلاد المجر (حيث كانت اللغة ــ لا ريب ــ غير مفهومة لهم) ما استثار المجربين (الهنغارين) إلى القضاء عليهم . فأعملوا فيهم السيف ذبحا وتقييلاً . وابتدأ حشد ثالث عله بمذبحة كبرة أعملها في مهود أرض الرابن ــ خلك أن الدم المسيحي كان فائراً ــ ثم تمرق ذلك الجسم أيضاً في هنغاريا . واخترق خلك أن الدم المسيحي كان فائراً ــ ثم تمرق ذلك الجسم أيضاً في هنغاريا . واخترق حشلان آخران أوربا بقيادة يطرس ووصلا إلى القسطنطينية ، وكم كانت دهشــة الإمبراطور أليكسيوس وجزعه بالفين ! ! . . ذلك أنهم دأبوا على طول اللطريق ينجون وينتهكون الحرمات ، فحملهم الإمبراطور آخر الأمر بالسفن عبر البسفور ، وهناك لم يزمهم السلاجقة فقط بل ذبحوهم على بكرة أيهم (١٠٩١) .

ومما يؤسف له أن ظهور ١ المشعوب ، لأول مرة كشعوب فى تاريخ أوربا الحديث ، كان ظهوراً تصال غير موفق ، وقد أعقبه جميء القوات المنظمة ١٩٧٧ المخديث ، كان ظهوراً تصال غير موفق ، وقد أعقبه جميء الحرماندى المخمسة المحملة الصليبية الأولى . جاءوا من طرق شنى : - من فرنسا ونورماندى وفلاندر وإنجلترة وجنوب إيطاليا وصقلية ، وكان النورمانديون عصب الحملة وعزيتها ، فعبروا البعفور واستولوا على نيقيا التى اختطفها أليكسيوس منهم قبل أن ينهيوها .

ثم واصلوا مسرهم على نفس الطريق الذي اتخذه الإسكندو الأكبر في النالب عشرقين البوابة القبليقية ، تاركين الأتراك في قونية غير مهزومين ، وهيمتازين ميدان معركة ليسوس ثم مواصلين السير للى أنظاكية التي استولوا عليها بعد حصار قارب السنة . ثم هزموا جيئاً عظياً جاء من الموصل لنجاتها .

وظل قسم كبير من الصليبيين في أنطاكية ، وتقدمت قوة أصغرتحت قيادة جودفرى البويّوني (نسبة لمل بويّون Bouillan من أعمال بليجيكا) أماماً إلى بيت المقدس .

⁽١) غريب أن يشر الكاتب إلى المسلمين بالكفرة فإن كان ظلى منه متابعة لأهل النصر الذي يكتب فيه فعا كان أحراء أن ينزء نفسه من مثل هسفا الجهل بالإسلام وأمله ، فيأيهم يعبدون الله وحده فلا شوك ولا كفران .

« وبعد حصار دام أكثر قليلا من شهر ، استولوا على المدينة نهائياً (١٥ يولية ١٩٩٥) . كانت الملبئة رهيبة ؛ وكان دم المقهورين يجرى فى الشوارع حتى لقد كان الرجال يصبيهم رشاش الدم وهم ركوب . وعند ما أرخى الليل سدوله ، جاء الصليبيون وهم « يبكرن من فرط الفرح » إلى الناووس المقدس بعد حوضهم فيا أريق من دم سال كالحمر من معصرة العنب . ورفعوا جميعاً أيسهم الملطخة بالدماء أريق من دم سال كالحمر من معصرة العنب . ورفعوا جميعاً أيسهم الملطخة بالدماء يعملون شكرا الله . وبذلك التهم من شهر يعملون شكرا الله . وبذلك التهت الحوب الصليبية الأولى فى ذلك اليوم من شهر إلى إلى إلى إلى المحليد المحلون المحليد الله المحلون المحليد الأولى فى ذلك اليوم من شهر المحلون المحلو

وسرعان ما استحوذ رجال الدين اللاتينيون المرافقون للحملة على سلطة بطريرك يبت المقدس ، ووجد المسيحيون الأرثوذكس أنفسهم نحت الحكم اللاتيني في حال يكاد يكون أسوأ منه نحت حكم الأتراك . وكان أن تأسست إمارات لاتينية في أنطاكية والرها Edessa ، وابتدأ الذراع على السلطان بين غتلف هوالاء الملوك والقمور ، كما أخفقت محاولة كانت غايتها جمل بيت المقدس ملكاً للبايا . على أن هذه أمور ، معقدة تخرجنا عما بين أيدينا من مجال .

ومع ذلك فلنقتبس فقرة عامرة بما يتميز به جيبون من خصيصة : 9 وربما ملت في أسلوب أقل وقارآ مما يليق بالتاريخ ، إلى تشبيه الإمبراطور أليكسيوس بابن آوى، الملتى يقال إنه يتمقب خطى الأسد ويلتهم ما يفضل منه . ومهما يكن مبلغ مخاوفه وصنائه أثناء مرور الحملة الصليبية الأولى ، فإنه قد جوزى عليها أوفى جزاء بمسا اجتناه بعد ذلك من وراء مغامرات الفرنجة . فإن مهارته ويقظته أتاحت له احتياز نيقيا أولى فتوحهم ، ومن نقطة التهديد هذه اضطر الأتراك إلى إخلاء ما يجاور القسطنطينية من أرض .

و وعلى حين كان الصليبيون بشجاعتهم العمياء يتوغلون في داخل أقطار آسيا ، انتهز الميونانى الماكر الفرصة المواتية وأفاد من استدعاء الدك أمراء ساحل البحر ليلتفوا حول لواء السلطان . فد ُفع الاتراك من جزائر رودس وخيوس ؟ وأعيلت مدن

^(؛) باركر في مادة ﴿ الحروب السليبية ﴾ الموسوعة البريطانية .

إنهيوس وأزمر وسارديس وفيلادلنيا^(۱) واللاذنية إلى الإمراطورية ألى وسع اليكسيوس رقعبًا من الهلس بونت (اللادنيل) إلى ضفتى نهر المياندر وإلى شواطئ بامفيليا (۱) الصخرية . وعادت الكنائس إلى سابق أمنها ؛ وأعيد بناء المدن وتحصينها ؛ وعمر القطر الفاحل بمستقرات من المسيحين اللذين نقلوا برفق من التخوم النائية الحطرة .



ه وربما اغتفرنا كل أخطاء أليكسيوس من أجل هذه الرعايات الأبوية ، إذا نحن تناسينا خلاص الناووس المقدس ؛ و لكنه كان فى نظر اللاتين موصوما بتهمتى الحيانة والفادر النبيحين ! ! وكانوا أتسموا يمن الولاء والطاعة لمرشه ؛ بيد أنه وعد

⁽¹⁾ فيلادلفيا: منينة باقليم « ليديا » القديم بآسيا الصنرى واسمها الحديث « الأشهر » . (المترجم

⁽٢) يَامَفِيلِيا : سَطْقَة تَقَعُ بجنوب آسيا الصفرى . (المُرجم)

بأن يساحدهم فى مغامرتهم بشخصه أو على الأقل بجنوده وأمواك ؛ فأحلهم نكوصه الدفىء من يمينهم ؛ وعندئذ صار السيف الذى أبلغهم ذرا النسر ، هو الكفيل بضمان استقلائم العادل عنه . ولا يبدو أن الإمراطور حاول أن يبعث من جديد مدعياته القديمة البالية على مملكة بيت المقدس ، على أن عهده بامثلاك حدود قيليقية وسوريا كان أحدث كما أنهما كاننا أقرب إلى فراعيه منالا . وكان أن أبيد جيش المصليبين العرمرم أو تشتت ؛ وكان أن شغرت إمارة أنطاكية وأصبحت بلارتيس ، يماغتة بوهمنذ وأخذه أسراً ؛ وأجفلت الفدية كاهله بالدين ؛ ولم يكن لأتباعه الدورماندين كرة في المعدد كافية لدفع عدوان الروم والترك .

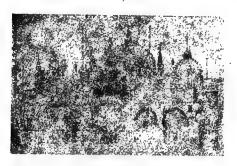
و وقد أضمر بوهمند أثناء هذه المحت هزماً كويماً على ترك الدفاع عن أنطاكية لقريبه المخلص تانكريد ؛ وحلى تسليح الغرب ضد الإمبراطورية البيزنملية ، وحلى تتفيد الخطة التي ورشا درساً ومثالاً عن أييه جويسكارد . وأحيط نزبوله إلى السفينة بالكتيان ؛ ولأن وثقنا بقصة تروبها الأميرة أثنا ، فإنه مر في البحار المحادية محتياء المحتباء شديداً في تابوت . (وتضيف أثنا كومنيالاً) إلى ذلك أنه رغبة في استكال الحديمة ، أفغل عليه التابوت مع ديك ميت ؛ ثم تتنازل أثنا فتعجب كبف استطاع المحجى المتبربر أن يتحمل الحبس وربح التعفن الرمعي . على أن هذه القصة السخيفة بجمولة لدى الملاتين) . واستقبل في فرنسا بحفارة لم يشبها أي ساس وذلك بفغل أن أشجع رجال العصر قد انفووا تحت إمرته المسكرية الخبيرة ؛ وعاد فعبر أن أشجع رجال العصر قد انفووا تحت إمرته المسكرية الخبيرة ؛ وعاد فعبر الأحرياتي على رأس خسة آلاف من الفرسان وأربعين أنفاً من المشاة ، اجتمعوا من أقصى أرجاء أوريا وعتبلف أجوائها . غير أن مناحة دورازو ، وحصافة أليكسيوس من المرتزقة على الدخلى عن رايته . وعقدت عالمة سلام كانت حداً موثقاً لمناوف من المرتزقة على الدخلى عن رايته . وعقدت عالفة سلام كانت حداً موثقاً لمناوف الروم ع .

عالجنا الحرب الصلبيبة الأولى على هذه الشاكلة من التطويل لأنها تبين تبيانًا تاماً صفات هذه الحملات جميعاً . وأخذت حقيقة النضال بن النظامن اللاتيني

 ⁽١) أتأكرمنينا : (١٠٨٣) هي ابنة الإمبراطور ألكسيوس ومؤرخة حياته ، ولعلها أول عارضة في التاريخ .
 (المأرجم)

والبيزنطى تنجلى للعيان شيئاً فشيئا . وفى (١١٠١) وصلت الأمداد التى لعبت فيها أساطيل الجمهوريتين التجاريتين البندقية وجنوا دوراً بارزاً ، وامتد سلطان مملكة بيت المقدس .

وشهدت (١١٤٧) حملة صليبية أخرى ، اشترك قيها كل من الإسراطوركونراد



(شكل ۱۶۳) كنيسة القديس مارك بالبنتقية ، وقد شادها فى القرنين ۱۱ و ۱۳ فنيون مطلمهم من اللومهارد والشرقيين

المثالث والملك لويس الفرنسي . كانت حملة أكثر فخامة وأقل نجاحاً وحماسة من المابقتها . وكان الدافع إلى إرسالها هو سقوط الرها في يد المسلمين في (١١٤٤) . وكان فيها فصيلة ضحمة من الألمان عمدت ، بدلا من أن تتجه إلى الأراضي المقدسة ، إلى سهاجة وإخضاع شعب الوند (Wend) (1) شرق تهر الإلب وكانوا لا بزالون وثنين . فوافق البابا على ذلك واعتبره من الحروب الصليبية ، وكذلك كان شأن

⁽١) شب الولد أو اللند : شب من مجموعة الشعوب السقلية كالبولندين . ولغم صفلية وأبحدهم لاتينية الأصل عددم ١٥٠ ألفاً . ويجيط بهم الألمان ، وسم ذلك يحافظون للان على تقاليدم ولفتم .

الاستيلاء على لشبونة ، وتأسيس الفصائل الإنجليزية والفلمنكية لمملكة العرتمال المسيحية .

وقى (١١٦٩) أصبح مغامر كردى اسمه صلاح الدين حاكاً على مصر ، ذلك القطر الذي قام فيه السنيون يفورة أسقطت الزندقة [كلا ! !] الشيعية التي أسسها الفاطميون بها . فوحد صلاح الدين هذا جهود مصر وبغداد ودعا إلى الجهاد ، أى الحرب الملمين على المساحيين . وقد أثار هذا و الجهاد ، في ديار الإسلام من المفاعر القوية ما يدائى ما أثارته الحرب الصليبية الأولى في عالم المسيحية تقريباً . وتغير الحال آتند وإذا هو حال صلبي ينازل نظيراً له و صلبيباً ، (حسب تعبير المؤلف) ، واستعيدت بيت المقدس (١١٨٧) .

وأثار هذا الأمر الحرب الصليبية الثالثة (١١٨٥) . وكانت هذه أيضاً هلة فاخرة وضع خطتها الإسراطور فردريك الأول (الشهير ياسم فردريك بربوسا(١) بالإشتراك مع ملك فرنسا وملك إنجلترة اللي كان يملك في ذلك الوقت كثيراً من أجمل المقاطعات الفرنسية) . ولعبت البابوية دوراً ثانوياً في هذه الحملة ؛ مذ كانت في أحد الرورا الضعف ؛ وكانت هذه الحملة الصليبية أشسد الحملات دماثة وفروسية الورمانسية . إذ خففت من حدة مرارة التعصب الديني روح الشهامة الفروسية التي غمرت كلا من صلاح الدين وريتشارد الأول (قلب الأسد) (١١٩٩ - ١١٩٩) ملك إنجلترة . فما أجدر عبي الرومانس أن يتوجهوا إلى الروايات الرومانسية الملبهة عن هذه الفترة ليتلوقوا طعمها وشاماها . وقد أنقلت هذه الحملة إمارة ألطاكية إلى حين . ولكنها أخفقت دون استراداد بيت المقدس . ومع ذلك فإن المسيحين ظلوا مسيطرين على سواحل فلسطين .

ولما وا زمان الحملة الثالثة ، كان عنصرا العجب والسحر قد زالا من هسله الحركات زوالا تامًا . فإن عامة الناس كانوا عرفوا خباياها . ذلك أن الرجال كانوا يذهبون ، فلا يعود إلا الملوك والنبلاء فرادى مشردين ؛ وغالبًا ما يكون ذلك بعد فرض ضرائب باهظة على الناس لجمع الفدية اللازمة .

⁽١) منى كلمة بربروسا هو ذو اللحية الحمراء . (المترجم)

لقد ابتذلت فكرة الحروب الصليبية لكثرة ما استعملت وتفاهة ما استخلمت فيه . فكلما تنازع البايا مع شخص من الناس ، أو إذا شاء هو أن يضعف من قوة الإمبراطور الحطرة بتوجيه هجهوداته وراء البحار ، راح يدعو إلى حرب صليبية ، حتى لقد كنت الكلمة عن أن يكون لها أى معنى إلا محاولة وضع شيء من النكهة فى حرب غير مسلماغة الطعم . فهناك حرب صليبية أعلنت على المراطقة فى جنوب فرنسا ، وتأنية على جون (ملك إنجلترة) ، وأخرى على الإمبراطور فردريك الثانى . فلم يكن الباباوات يفهمون أن الكرامة ضرورية للبابوية . أجل إنهم بلغوا فى صدارتهم لعالم المسيحية أوج الرفعة الخلقية . ثم أخلوا بعد ذلك يددونها شيئاً فشيئاً . ولم يقتصروا على ابتذال فكرة الحرب الصليبية وتضييع قيمتها ، بل جعلوا ما فى يدم من قدرة المائلة على الحرمان (أى طرد الناس من الرحات القدمية ، والآمال والسعادات التي يكفلها لهم الدين) — مثار السخرية باستهالها فى المنازهات السياسية البحتة. ولم يقتصر الأمر على إعلان الحرب الصليبية على فردريك الثانى بل إنه وحرم ؟ أيضاً — دون العمد ذلك إنوسفت الرابع فى (١٢٤٩) ، وجدد ذلك الخوسة تقال بأى ضرر ظاهر . ثم حرم مرة ثانية فى (١٢٣٩) ، وجدد ذلك الحكم إنوسفت الرابع فى (١٢٤٥) .

ولم تصل معظم الحملة الصليبية الليعة إلى الأرض المقدسة بتاتاً . خرجت من البندقية (١٢٠٣) ، واستولت على زارا وعسكرت فى القسطنطينية (١٢٠٣) ، وأخيراً نببت لللينة (١٢٠٤) . كانت الحملة هجوماً مشركاً صريحاً على الإمبراطورية البيزنطية . فاستولت البندقية على شطر كبير من شواطىء الإمبراطورية وجزرها ، وأقم أمير لانيني هو بلدوين الفلائدري إميراطوراً بالقسطنينية . وأعلنت عودة الوحدة بين الكنيستين اللانينية واليونائية ، وحكم أباطرة لانين بوصفهم غزاة في القسطنطينية من (١٢٠٤ – ١٢٦١) .

ثم حدث فى (١٣١٢) حدث رهيب ، هو دحملة صليبية للأطفال ، . فإن هياجاً لم يعد يستطيع أن يوثر بعد فى البالغين السليمى العقل انتشر بين الأطفال فى جنوبى فرنسا وفى حوض شهر الرون . فسار جمهور مكون من آلاف كثيرة من الغلمان الفرنسين للى مرسيليا ؛ فاستغواهم تجار الرقيق إلى النزول فى السفن ، وباعوهم فى فى مصر عبيداً . وسار أطفال أرض الراين على أقدامهم حتى انحدروا إلى إيطاليا ، وهناك تشتتوا بعد أن هلك منهم كتبرون فى للطريق .

واستفل البايا إنوسفت الثالث هذه الحادثة المجيبة لصالحه أيما استغلال. فقال : وحي الأطفال أنفسهم يلبسوننا ثوب الخزى والعار » . ثم حاول أن يستقيز الحماسة لحملة صليبية خامسة . وكان هدف هذه الحملة غزو مصر ، لأن بيت المقدس كانت عند ذاك في قيضة السلطان المصرى ؛ وعادت البقية الباقية من هذه الحملة المرد (١٩٧١) ، عجالة بالخزى بعد جلاء غير كريم عن مدينة دمياط ، الفتح الوحيد المدى فتحته ، ومعها آثار من الصليب الحق بيبت لمقدس كنحة جاد بها عليهم حمل صبيل العزاء حدوم المنتصر ، ولقد سبق أن لحظنا ما مر بلمك الأثر الحليل قبل أيام محمد كل عندما حمله كسرى (الثانى) أبرويز إلى المدائن (طيشفون) ، ثم استعاده الإدراطور هرقل. ومع ذلك فإن أجزاء من الصليب الحق ، قد بقيت على الدوام في روما بكنيسة (سانت كروتشي جروسالهي (S. Croco-Gerusalemme على عبته في رويا رأتها أثناء حجها إلى الأراضي المقدمة .

ويقول جيبون: « إن حراسة الصليب الحق الذي كان يعرض يوم أحد القيامة في جلال ووقار أمام أعين المناس ، كانت موكولة إلى أسقف بيت المقدس ؛ وكان هو وحده الذي برضى تقوى الحجيج المقسوقين بأن جديم قعلماً صغيرة منه ، كانوا يضعونها في أوعية من اللهب أو الجواهر ، ويحملونها إلى بلادهم ظافرين . ولكن لما لم يكن بد لهذه السلمة المربحة من أن تنضب سريعاً ، فقد وجد من الملائم الزهم بأن ذلك الحشب العجيب كانت له قوة إنبات خفية ، وأن مادته وإن كانت تتناقصي ياستمرار إلا أنها نظل مع ذلك كاملة غير منقوصة » .

فأما الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨) فهى حملة قاربت درجة السخف . ذلك أن الإمبر اطور فردريك الثانى كان أقسم على القيام بحملة صليبية ثم نكث بنذره . أجل إنه شرع فى الحملة شروعاً زائماً ولكنه عاد أدراجه . والراجع أله كان يتدم من مجرد فكرة القيام بحملة صليبة . ولكن النفر كان جزءاً من الصفقة التى ضمن بها نصرة اللها إنوسنت الثالث له فى انتخابه إمبراطوراً . فتشاغل بإعادة تنظيم حكومة بملكته المسقلية ، وإن كان أوهم البابا أنه سيتخلى عن هذه الممتلكات لو أصبح إمبراطوراً ؟ وكان البابا براقاً إلى الحيلالة دون ما يقوم به الإمبراطور من تنظيم ممتلكاته الصقلية وإحكام تماسكها ، برارصاله إياه إلى الأراضى المقدسة . ذلك أن البابا لم يكن لمرغب فى وجود فردريك المائى أو أى إمبراطور ألمائى بأى حال فى إبطاليا ، لأنه أصدر جربجورى الناسع عليه قرار الحرمان وأهل عليه حرباً صليبة ، وغزا ممتلكاته فى إبطاليا (١٣٧٨) . وعند ذلك أقلع الإمبراطور بحيش إلى الأراضى المقدسة . أصدر جربجورى الناسع عليه قرار الحرمان وأهل عليه حرباً صليبة ، وغزا ممتلكاته فى إبطاليا (١٣٧٨) . وعند ذلك أقلع الإمبراطور بحيش إلى الأراضى المقدسة . والمناك المن منها الراء المنات من بيبها المربية) ؛ ولقد يبدو أن هذين السيدين ، ولكل منهما آراؤه المتشككة ، تبادلا وجهات نظر متاثلة متجانية وتناقشا أمر البابا بروح علمانية ، وتباحثا فى الندفاع على عقد معاهدة تجارية وتسليم جزء من مملكة بيت المقدس إلى فردريك .

فكان هذا لا جرم نوعاً جديداً من الحروب الصليبية ، فهو حرب صليبية بالماهدات الحاصة . ولما كان هذا الصليبي المدهش عروماً ، كان لزاماً عليه أن أن يستمتع بتتويج علماني بحت في بيت المقدس ، آخذاً العاج من المذبح بيديه ، في كنيسة كان كل رجال الدين قد انصرفوا منها . والراجع أنه لم يجد هناك واحداً منهم يريه الأماكن المقدسة . والواقع أن هذه كلها حظرها عليه بطر برك القدس ، وأمر بإقفال أبواجا . وواضح أن الروح هنا تختلف تمام الاختلاف عن الروح التي أوحت تلك للذبحة الدامية الحمراء في الحرب الصليبية الأولى . ولم يكن فها حتى ذلك الاكرام للظريف الذي لقيته زيارة الحليفة عمر قبل ذلك بستمنة عام .

ورحل فردريك الثانى من بيت المقدسوهو وحيد تقريبًا ، حائداً إلى إيطاليا من ذلك

النجاح غير الرومانسي ، وسارع لماي تنظيم شونه هناك ، وطرد الجيوش البابوية من ممثلكاته ، وأجبر البابا على أن يحله من حرمانه (١٣٣٠) . وق الحق إن هذه الحوب الصليبية ودليلا غير مباشر على سخفها وحدها فحسب ، بلوسخف الحرمان البابوى أيضاً . وسنحدثك في قسم تال عن فردريك الثاني هذا ، لأنه كان طرازاً تموذجياً في تمثيله قوى جديدة بأحياتها ، أخذت تظهر في الشئون الأوربية .

ثم فقد المسيحيون بيت المقدس مرة ثانية (١٢٤٤) ؛ إذ استرجمها منهم سلطان مصر بغاية السهولة عندما حاولوا أن يدروا مؤامرة ضده . فتسبب عن ذلك الحرب الصليبة السابعة ، وهي حرب القديس لويس ملك غرنسا (لويس التاسع) الذي أعد في مصر أسراً ثم افتلن (١٢٥٠) . ولم يحدث أن أفلنت بيت المقدس مرة ثانية من قيضة المسلمين حتى (١٩١٨) عندما صقفات في يد قرة مختلطة من الجنود القرنسية والإنجلزية والمندية .

وثثبتى بعد ذلك حملة صليبية أخرى ؛ وهى حملة على ثونس قام بها نفس لويس التاسع ذاك ، الذي مات هناك بالحمى .

١٢ ــ الحروب الصليبية اختبار للسيحية

تتحصر الأهمية الجوهرية للحروب الصليبية لدى مؤرخ البشرية فى موجة المواطف وتوحيد الشعور اللذين أفعها الحملة الأولى بالحيوية الناشطة . ثم أحلت الحملات بعد ذلك تتحدر إلى منزلة العمليات الروتينية المعادية ، وأخلت قيمها تقل بالتدريج كأحداث لها أهمية حيوية . كالت الحرب الصليبية الأولى حدثاً ضخماً يماثل اكتشاف أمريكا ؛ على حين لم تزد الحملات التالية عن رحلة اجتياز عادية للمحيط الأطلسي فني للقرن الحادي عشر لا بدأن فكرة الحرب الصليبية كانت أشبه شيء بنور غريب رائع أضاء في المساعاء ، فأما في القرن الثالث عشر، على الإنسان ليستطيع أن يتصور سكان الملك الأمناء وهم يقولون بصوت المختج وماذا ؟! أحرب صليبية أخرى !! ا - مالم)

ولم يكن ما لقيه القديس لويس فى مصر ، شيئًا يعدَّ من قبيل خورة جديدة اكتسبتها البشرية ، بل هى أقرب شها بجولة جولف على ملعب معروف . . . جولة لاحقها سوء الطالع وهى مجموعة من أحداث لا وزن لها . ذلك أن مناط اهتهام الحياة قد تمول إلى اتجاهات أخرى .

وتكشف بداية الحروب الصليبية عن أوربا بأجمها وهي مشبعة بمسيحية ساذجة ، ومستعدة في ثقة وبساطة لأن تقيم قيادة البابا . إذ كانت فضائح قصر اللاتيران أثناء أيمه الشريرة تلك ، التي نعرفها نحن جيماً الآن ، هجهولة خارج روما أو تكاد . أجل أصلح جريجورى السابع وإربان الثاني كل ذلك وحوسا الكنيسة عما أصابها . ولكن خطفاءها في اللاتيران والشاتيكان(أ) لم يكونوا من الناحية العقلية والحلقية كنُعواً لما بين أبليهم من نهزات . وكانت قوة البابوية تقوم على الثقة التي أولاها الناس إياها ، في يقد استغلابها البابارية في غير حرص أو عناية حتى أوهنتها . ذلك أن روما ظلت على للموا تنطوى على قدر أكثر مما يغيني من حصلفة والكاهن ، ومكره ، وعلى الزر اليسير من قوة والنبي ، وروحه . وللما فبينا كان القرن الحادي عشر قرن أناس جهلة ذوى ثقة عياء ، كان القرن الثالث عشر قرن أناس حيلة ذوى ثقة عياء ، كان القرن الثالث عشر قرن رجال عارفين غير علموعين .

وكان الأساقفة والقساوسة والمؤسسات الديرية فى عالم المسيحية اللاتينية قبل أيام جريجورى السأبع على شىء من الارتباط المفكك العرى تقريباً ، كانوا من حيث الكيف والكنه غاية فى الاختلاف والتفاوت ؛ ولكن من الواضح أنهم كانوا فى العادة على أعظم درجة من المودة الحالصة مع الناس اللين كانوا يعيشون بين ظهرانهم ، كما كانوا ينطوون على نصيب وافر من روح يسوع التى ما برحت حية فى شخصهم ؛ كانوا . موضع الثقة ، وكان لهم نفوذ هائل وعلى ضائر أتباعهم » . وكانت الكنيسة بالمقارنة إلى

⁽١) سكن اليابوات تصر اللائيران شق (١٣٠٩) ، عندما أتمام بايا فرنس البلاط البابوى ق أخيرة . فلما ماد البايا إلى روما في (١٣٧٧) ، كان تصر اللائيران تد تخرب أو كاد ، فأضبح تسر الفاتيكان متر البلاط البابوى . وكان ذلك القصر ، بالإضافة لى ميزات أخرى ، أقرب كثيراً إلى قلمة. انت افجهار حصن البابوية . (للؤلف) .

حالتها فيها بعد ، واقعة بدرجة أكبر فى قبضة العلمانيين المحلين والحاكم المحلى ؛ وكانت تنقمها الروح العالمية العامة التى صارت لها فيها بعد .

وقد أفضت جهود جريجورى السابع الفعالة فى تقوية الكنيسة وتنفيطها تنسطة يستهدف زيادة قوة روما المركزية ، إلى فصم كثير من الروابط الخفية بن القسيس والدير من ناحية ، وبن منطقة الريف التي من حولهما من الناحية الأخرى . فإن ذوى الإيمان والحكمة من الناس يومنون بأن الغو سنة الحياة كما يومنون بإخوانهم من الناس ؟ فأما الفساوسة حتى من كان منهم من أضراب جريجورى السابع نفسه ، فيعتقدون في والكفاية ، الزائفة التي ينطوى عليا نظام مغروض على الناس . وأفضى الذراع على مسألة والتهيئات ، بكل أمير في عالم المسيحية إلى الاسترابة من أمر الأساقفة واعتبارهم عالا لدولة أجنيية . وتسربت هذه الاسترابة حتى وصلت إلى مكان الأبروشيات (١) . ولقد قصت مشروعات البابوية السياسية بأن يزداد الباباوات طلباً الممال على الأيام . وشاع بين الناس في كل مكان إبان القرن الثالث عشر القول بأن ربطال الدين ليسوا بالرجال الطيبن ، وأنهم لا يفتأون يتصيدون الأموال .

وفى أيام الجهالة الأولى كان الناس دائماً على أتم استعداد للاعتقاد بأن طائفة الكهنوت المكاثو ليكية طيبة حكيمة . وكانت بالفعل خيراً وأحكم نسبياً فى تلك الأيام . ذلك أنه وكلت إلى المكنيسة سلطات هائلة تتجاوز أعملها الروحية — كما أبيحت لها حويات خارقة لكل معناد . فاستغلت هذه الثقة أتم استغلال . وقد أصبحت الكنيسة فى القرون الوسطى دولة داخل الدولة فكانت لها محاكها الخاصة ، التي لم تقصر على النظر فى قضايا القساوسة (رجال الدين) بل تناولت كذلك قضايا الرهبان والطلاب والصليبين والأرامل واليتامى ومن لا معين لم م إذ يحتفط بقضاياهم للمحاكم الكنسية . وحياً كان لطقوس الكنيسة أو قواعدها دخل فى أى موضوع ، اد عت أن لها الاختصاص و تدخلت فى مسائل من أمثال الوصية والزواج والأبدان " ، وطبعا للفرطة والسحر والتجديف . وكانت

⁽١) الأبروثية : هي منطقة اختصاص إحدى الأسقفيات (المترجم)

⁽٢) المقصود هذا من الأيمان جمع يمين وهو القسم (الموجم) .

هناك سجون كنسية عديدة ربما قضى المذنبون فيها كل حياتهم كاسفين . وكان البابا هو المشرع الأعلى المسيحية ، محكمته بروما هي محكمة الاستثناف النهائية الحاسمة . وكانت الكنيسة نجبى الفرائب ؛ ولم يكن لها بمتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب ، بل إنها فرضت ضريبة العشر (العشود) على رحاياها . وهي لم تدع إلى هذا الأمر بوصفه عملا من أعمال الإحسان والتقوى ؛ بل طالبت به كحق . وأخذ رجال الكنيسة من الناحية الأخرى يدعون عند الك حق الإعفاء من الناحية الأخرى يدعون عند الك حق الإعفاء من الناحية الأخرى المتحون عند الله حق الإعفاء من الناحية الأخرى المتحون عند الله حق الإعفاء من الناحية المتحون عند الله حق الإعفاء من الناحية المتحديد المتحديد الله عليه المتحديد المتحد

ولا شك أن هذه المحاولة منهم للاتجار بنفوذهم المحاص فى بابه والتملص من نصيبهم فى الأعباء المالية ، كانت عاملا جسيا فى السخط المتزايد على رجال الدين . وبصرف الشطر عن كل ما يتعلق بالعمالة فإنه كان أمراً لا يتطوى على إلحنكة . كان أمراً يجعل المضراف فى أعين من عليهم دفعها تبدو عشرة أضعافها ؛ ويجعل كل إنسان مرهف الحسر إذاء ما تستمتم به الكنيسة من حصانات

وثمة دعوى أخرى ادعتها الكنيسة كانت هي أيضاً أكثر سرفاً وبعدا عن الحكة هي قولها بأن لها وحق التحلة ع . ومعنى ذلك أن البابا كان يستطيع في كثير من الأحيان أن بهمل قوانين الكنيسة في حالات فردية خاصة ؛ فهو قد يأذن لأبناء الهم وأبناء الحال أن يتراوجوا ؛ وقد يسمح لرجل بأن تكون له زوجتان ، أو يحل أي إنسان من نلره ولكن إتيان مثل هذه الأمور ينطوى على اهتراف بأن القوانين التي تتصل بها ليست قائمة على أسس من الفرورة اللازية والصلاح الفطرى ؛ وأنها في الواقع إنما تنطوى على التضييق والمضايقة . فإن مشرع القوانين للبشر قاطبة ملزم أكثر من كل إنسان بالولاء القانون . وهو دون الناس كانة ملزم أن يتصرف كأغا القانون . وهو دون الناس كانة ملزم أن يتصرف كأغا القانون سيف مسلط تمليه قبل كل الناس . ولكنه ضعف الإنسانية عامة ذلك الذى يوحى إلينا بأن تتخيل أن الوديعة التي تسلم إلينا لإدارتها إما هي مما ملكت أيماننا .

17 ــ الامير اطور فردريك الثاني (٢

يعد الإمبراطور فردريك الثانى خبر مثال لطراز المتشكك المتمرد الذى استطاع القرن الثالث عشر أن ينبته . وربما كان من الشائق أن تحدثك قليلا عن ذلك الرجل الذكى الساخر . وهوابن الإمبراطور هنرى السادس الألمانى وحفيد فردريك بربروسا ، وأمه ابنة روجر الأول ملك صقلية النورمندى . فورث هذه المملكة (١٩٩٨) وهو بعد في الرابعة من عمره ؛ وظلت أمه وصية عليه ستة أشهر ، فلما أن ماتت أصبح المابا إنوسلت الثالث (١٩٩٨ - ١٩٢٦) وصياً على العرش وقياً عليه .

ويبدو أنه حظى بتعلم استثنائى فى جودته عجيب فى تنوعه ، وأكسيته مزاياه لقباً ينطوى على الملتى والإطراء هو وأعجوبة ألعالم subor mundi ، وكان من تتيجة جمعه بين النظرة المربية إلى السيحية ، والنظرة المسيحية إلى الإصلام ، أن أصبح يعقد أن كل الديانات دجل ، وهو رأى ربما ذهب إليه كثير من ذوى الرأى المكبوقى الألمنة فى وعصر الإبمان ، بيد أنه تحدث دونهم معبراً عن آراته ؛ ذلك بأن كثيراً من تجديفه وإلحاده مدون مسجل .

وإذ أنه ترحرع تحت حكم إنوسنت الثالث ذلك المتطرس الشامخ بأنفه ، الذي لا يبلو عليه أبداً أنه أدرك أن القاصر قد رشد ، فقد نحت فيه روح تحلص فكهة وكانت سياسة البابا أن يمنع قيام أى اتحاد جديد بين قوة ألمانيا وإيطاليا ، ويعادل هذا التحصيم من جانب البابا عزم فردريك على أخذ كل ما يستطيع الحصول عليه . فلما أن هيأت له الفرص الساعة تاح ألمانيا الإمبر اطورى ، استطاع أن يضمن عون البابا له بأن ما في ألمانيا من هو انتخب - على ترك ممتلكاته في صقلية وجنوب إيطاليا ، وأن يقضى على ما في ألمانيا من أحظم البابوات ولما بالاضطهاد ، ما كاكان رجلا مقتدراً طبع على المشع والعدوان . (كان بحسيانه بابا ، صغير السن صغير السن مفراً ، مؤراً ، إذ ارتجى عرش البابوية وهو في السابعة والثلاثين) . وإنوسنت

أصدرت الهيئة المصرية العامة الله الدراط المور العظيم تعتد امم والزنادية الإمارة والمهاء ألفها الجوذيف جوذيف جوذيف جاء ديس وترجمها الأستاذ أحد نجيب هاشم . وهي سيرة رائمة تستحق لفتة من كل قارئ مورف .
 (المترجم)

هو الذى حض على شن حرب صلبيبة قاسية على الهراطقة فى جنوبى فرنسا ، وهى حرب صليبية انقلبت من فورها إلى حملة نهب وسلب أفلت معهما الزمام من يده .

وما أن انتخب فردريك إسراطوراً (۱۲۱۲) ، حتى ألح عليه إنوسنت بأن يبر بالأيسان والوحود التى انترعها من «قاصر» » (الإسراطور) الفنى ! ! وقد تعهد أن يرفع عن رجال الدين التشريع العالمان ويعفهم من دفع الفرائب ، ووعد أن ينزل على الملاحدة (الهراطقة) من ألوان القساوات ما يجعلهم عبرة لمن عداهم . ولكن فردريك لم يقم بشىء من كل هاته الأمور . وكما قلنا قبلا ، لم يقبل حتى أن يتخلى عن صقلية . إذ كان يوثر المقام في صقلية ويفضلها على ألمانيا .

ومات إنوسنت الثالث وقد أحيته منه الحيل (١٢١٦) ، ولم يصل خفه هونوريوس الثالث معه إلى أية نتيجة . ومات إنوسنت الثالث دون أن يتوج فردريك ، ولحن هونوريوس فعل ذلك (١٢٢٠) . وجاء جريجورى التاسع (١٢٧٧) بعد هونوريوس ، والظاهر أنه تولى عرش البابوية معزماً عزماً أكيداً مغيظا الحيمنة على هونوريوس ، والظاهر أنه تولى عرش البابوية معزماً عزماً أكيداً مغيظا الحيمنية على ذلك الإسراطور الشاب الهيشر . فحرمه على الفور لنكوصه عن القيام بحملته الصليبية الموعودة ، التي تأخر موحدها المنتى عشرة سنة ؛ ثم شهر برذائله وهرطقاته وذنوبه عامة في رسالة علنية نشرها (١٢٧٧)) . فرد فرديك على هذه بوثيقة على درجة أكر من الاقتدار ، إما أن يكون هو كاتبها أو أنها كتبت له ، موجهة إلى كل إمراء أوربا ، وثيقة ذات أهمية قصوى في التاريخ ، لأنها أول بيان واضح صريح عن أوربا ، وثيقة ذات أهمية قصوى في التاريخ ، لأنها أول بيان واضح صريح عن الأواع بين مدعيات الجالم العلمانيين ، وقد كان هذا الذراع يسرى على الدوام كالنار تحت الرماد . ولكنه كان يضطرم هنا على صورة ما ، ويتأجيج هناك على صورة أخرى ؛ ألماد . ولكنه كان يضطرم هنا على صورة ما ، ويتأجيج هناك على صورة أخرى ؛ أماما الاتحادم بعضهم بيضهم بيض .

حتى إذا كال هذه الفهرية ، ارتحل فى حربه الصليبية السلمية التى تحدثنا عنها من , قبل . وفى (۱۲۳۹) كان جريجورى للتاسع يحرمة للمرة الثانية ، ويجدد حرب الشتائم العلنية التى قاست منها البابوية الويلات من قبل . وانبعثت الحصومة من جديد بعد وقاة جريجورى التاسع ، عند ما أصبح إنوسنت الرابع بابا ؛ والمعرة الثانية صدرت عن فردريك رسالة قاضية كتبها ضد الكنيسة ، صار لزاماً على الناس أن يتذكروها ، وسالة شهر فيها بكبرياء رجال الدين وانعدام التدين فيهم ، وعزى كل مفاسد الزمان إلى استكبارهم وثرائهم واقدر على زملائه الأمراء مصادرة أملاك الكنيسة مصادرة عامد خدر الكنيسة نفسها . فكانت تلك منه إشارة لم تبارح بعد ذلك أبداً أخيلة الأمراء الأفراء الأوربين .

ولن نواصل الكلام عنه سنواته الأخيرة ولا عن الكوارث التي نشأت من علم اكتراثه ، فألقت على خاتمته ظلا من الإخفاق . وبلسبى أن حوادث حياته الحاصة أقل قيمة من جوها العام : ومن الميسور أن يجمع الإنسان شتات صورة لحياة بلاها في صقلية . فإنه ليوصف ـ وقد دنت آخرته ـ بأنه الحرائب أصله الرأس ضعيف الميصة بالميساء الجلميلة . وهو يوصف بالإغراق في الملذات . ولكن من الواضح أن مولعاً بالأشياء الجلميلة . وهو يوصف بالإغراق في الملذات . ولكن من الواضح أن خده لم يشعر بالاقتناع لما ملأه من الشكوك الدينية ، وأنه كان وجلا أوتى توثى أصلمان استطلاع و يحث فعالتن للغاية . وكان بلاطه يجمع بين الفلاسفة البود والمسلمين والمسيحين على الدواء ، وبدل جهداً كبيراً في سبيل لدواء الذهن الإيطالي مواثرات شرقية عربية . وعلى يديه أدخلت الأرقام العربية والحبر إلى الطلاب المسيحين ، وكان من بين الفلاسفة الكثيرين في بلاطه ميخائيل سكوت ، الذي ترجم أجزاء من أرسطو وتعليقات الفيلسوف العربي العطيم ابن رشد (القرطبي) عليها .

وف (۱۲۲۶) أسس فردريك جامعة نابولى ، ووسع مدرسة الطب الكبيرة. بجامعة سائر ثو أقدم الجامعات وأغدق عليها الأموال. كذلك أنشأ حديقة للحيوان . وترك كتاباً فى التصقر (۱) يكشف فيه عن نفسه خييراً بعادات الطير له ملاحظات دقيقة ، وكان من أوائل الإيطالين الذين كتبوا الشعر بالإيطالية . والحق إن الشعر الإيطالي قد ولدفى بلاطه . وقد أطلق عليه كانب مقتلر امم «أول المحدثين» ، وهى

⁽١) التصقر : كما وردقى مسيم الرسيط ، الصيد بالصقور . (المرجم) .:

عبارة تترجم فى براعة عما كانت عليسه نواحيه الذهنية من استقلال وحياد فى الرأى برىء من كل تميز . كان ذا أصالة تامة من جميع نواحيها ؟ وقد وفتى فى إيان أزمة أحدثت بعض النقص فى الذهب إلى إدخال عملة مصنوعة من الجملد المختوم أو الرأق ، تحمل وعداً منه بأن يدفع قيمتها ذهباً ، وهو ضرب من (الهنكنوت) المصنوع من الجملد . وبذلك ابتحث طريقة النقد ، لم ير العالم منذ أيام قرطاجة لها نظيراً .

وبالرغم من سيل الشتائم والسباب الذي أغرق فيه فردريك ، فإنه ترك أعمق الآثر في محيلة الشعب . ولا يزال جنوب إيطاليا يذكره بشكل يكاد يضارع في قوته ذكرى نابليون الأول لدى الفلاحين الفرنسيين ؛ وهو لديهم ٥ فريدريجو العظيم ٤ ويصرح العلماء الألمان أنه بالرغم من كراهبة فردريك الظاهرة لألمانها ، فإنه هو ، وليس فردريك الأول ، فردريك بربروسا ، الذي تنسب إليه أصلا تلك الأسطورة الألمانية وهي الأسطورة التي تمثل ملكاً عظيا قد أخله النعام في خارعمين ، وقد نمت لحيته حول منضدة حجرية ، انتظاراً ليوم يُشتشل فيه العالم على يديه من وهدة فوضي بالفة إلى سلام شامل . ويبدو أن بطولة القصة نقلت فيا بعد إلى المعلي يربروسا جدفردريك الثاني .

كان فرديك الثانى طفلا حسر القياد على أمه الكنيسة ، على أنه لم يكن إلا موطئاً مهمد السبيل وطليعت للكثيرين من أمثاله من الأطفال العسرين . وكان الأمراء والمتعلمون نى أرجاء أوربا كافة يقرأون وسائله ويتباحثون فيها : فأما طلاب الجامعات الأشد إقداماً ، فراحوا يلتمسون ويشخصون بأبصارهم بل ويهضمون : — كتب أرسطو العربية الأصل التي جملها فردريك في متناول أيديهم باللاتينية . وألقت سالرنو على روما نوراً مهلكاً مؤفياً . ولا بدأن الناس على اختلاف أصنافهم قد راعهم قلة غناء ما انهال على رأس فردريك من ألوان الحرمان والعزلة عن الجماعة .

١٤ – معايب البابوية وتحديداتها

أسلفنا أن إنوست الثالث لم يبد عليه قط ما يدل على أنه أورك أن القاصر فرديك الثانى كان ينمو و برشد . ولا يقل عن هذا صدقاً أن البابوية لم يبد عليها أحركت أن أوربا كانت آخلة بلباب النضج والرشاد . ومن المستحل على دارس ذكى عصرى للتاريخ ألا يسطف على ما كان يجول في ضمير البلاط البابوى ، من فكرة تقول بوجوب قيام حكم عام المصلاح والعر يحفظ على الأرض السلام ، وألا يميز عناصر النبل العديدة التي دخلت في سياسة اللاتبران . فلا بد البشرية من أن تصل إن عاجلا وإن آجلا إلى سلام عام واحد ، اللهم إلا إذا قضت على جنسنا البشرى قوته المتزايدة التي تعود عليه من غير عاته المهلكة ؛ ولا مناص لهذا السلام العام من أن يتخل شكل حكومة ، أو بعبارة أخرى ، هيئة قدم القانون بطريقة دينية يأحسن ما في كلمة دينية من معان .. حكومة تحكم الناس بواسطة التعليم اللي ينظم المناس ال

وطينا الآن أن ننظر لمل البابوية على أنها أول محاولة واهية واضحة القصد ترمى لمل تزويد العالم بمثل هذه الحكومة . وما يجوز لنا أن نشتط فى الحهاسة والجد ونحن نفحص عن تقائمها وضروب عجزها ، إذ أن كل درس نستطيع أن نستفيده منها ، إنما له بالضرورة أعظم القيمة لدينا فى تكوين فكراتنا عن علاقاتنا الدولية الحاضرة . ولقد حاولنا أن نشير إلى العوامل الرئيسية التي أفضت إلى انهيار الجمهورية الرومائية ، ومن المناسب لنا الآن أن نحاول تشخيص الأسباب التي أدت إلى إخفاق كنيسة روما الكائوليكية دون تجميع وتنظيم حسن نية البشرية وطواياها الطبية .

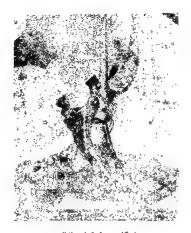
وأول ما يسترعى انتباه الدارس هو تقطع جهود الكنيسة فى تأسيس ومدينة الله يا العالمية . فلم تكن سياسة الكنيسة منجهة يكل قواها وفوادها وباستمرار إلى تلك الغاية . فلم يكن يحدث إلا يين الفينة والفينة أن شخصية ما ممسازة أو مجموعة ما من

الداية تقريباً احتجب مملكة الرب التي دعا إليها يسوع الناصرى كما يينا آ تفاً واستمرت البداية تقريباً احتجب مملكة الرب التي دعا إليها يسوع الناصرى كما يينا آ تفاً واستمرت وراء المبادئ والتقاليد الطقوسية الراجعة إلى عصر أقدم وإلى طراز أدفى عقلية . وقله كفت المسيحية منذ بدايتها تقريباً عن أن تكون محض ديانة نبوية وخلاقة . إذ أنها أوقعت نفسها في شراك التقاليد المتيقة المحاصة بالتفسحية الإنسانية ، وبالتعلهير اللموى لدى و المثرائية هذا) ، وبالكهانة القديمة قدم الجهاعة الإنسانية ويتفاصيل النواحي المدقيقة لطبيعة الإله . ومن حجب أن أصبع الحبر الإنروري (الإترسكي) الأعظم المفسية بالمدم أصبحت المداعية المتشددة التي تؤكد الناس تعالم يسوع الناصرى ! لم المفسية بالمدم أصبحت المداعية المتشددة التي تؤكد الناس تعالم يسوع الناصرى ! لم نفيله من تعقيد ذعنى . حتى إذا وقعت الكنيسة في معمعان هذا التطاحن الذي لا مقر منه بين هسلم المتفارقات المتنافضة ، اضطرت أن تصبح إعتقادية (دوجانية) تأخذ بالمذهب المتعارة الى الاستبدات إلى الاستبدات إلى الاستبدات إلى الاستبدات التعلق .

فأصبح تساوستها وأساقفتها على التدريج رجالا ممكنية من وفق مذاهب واعتقاديات حتمية وإجراءات مقررة وثابتة ، حتى إذا ما آن أوان توليم متصب الكرادلة أو البابوات إذا بهم فى العادة كهول قد ألفوا من الكفاح السياسى ذلك الضرب الذي يقصد إلى غاية قريبة مباشرة ، ولم يعودوا أهلا لقبول آراء رحيبة يشمل أفقها العالم بأسره . ولم تعد لم بعد رخبة فى روية عملكة الرب موطلة فى قلوب الناس ، فقد نسوا خلك الأمر ، وأصبحوا برخبون فى روية قوة الكنيسة التي هى قوتهم هم ، متسلطة على شتون البشر . وكانوا فى سييل توطيد تلك القرة على أثم استعداد للمساومة مع أى شيون البغض والخوف والشهوات المستقرة فى قلوب البشر . ونظراً لأن كثيراً منهم كانوا على الأرجع أيسرون الرية فى صلامة بنيان مبادئهم الفسخم الحمكم وصمحته الملقة ، لم يسمحوا بأية ماقشة فيه . كانوا لا يحتملون أسئة ولا يتساعون فى عالجة ،

⁽١) النظر المنالم ج ٢، ص ١٩٣

 ⁽٢) الاعتذاء الحتى أو الفعلى (Dogma) : مجموعة المبادئ الله تسيط الكنيسة صعيسة تصهاوز
 كل ربب والمزم كل إنسان باعتناقها ولا تقبل قبها نقاشا . (المترجر)



(شكل ١٤٤) الصليبي المثال

لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم ، بل لأنهم كانوا غير واثقين منها . وكانوا ويلدون ممن حولهم موافقتهم على رأبهم لأسباب تتصل بالسياسة .

وقد تجلى فى الكنيسة عندما وافى القرن الثالث حشر ما يساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التي تنخر بناء مدعياتها بأكلهوقد نجعله أثراً بعد عين . فلم تكن تستشعر أى اطمئنان نفسى . وكانت تتصيد الهراطقة فى كل مكان ، كما تبحث العجائز الحائفات ح فيا يقال ح عن اللصوص تحت الأسرة وفى الدواليب قبل المحجوع فى فراشهن .

ولقد سبق أن أشرنا إلى مانى الفارسى الذى صلب وسلخ جلده ف (۲۷۷) . وكانت طريقته فى تمثيل الكفاح بين الحير والشر تتمثله كفاحاً بين قوة من نور ، كانت فى الواقع فى ثورة ضد قوة من ظلمة ملابسة للكون . وكل هذه المعميات العميقة تمثلها بالضرورة بعض الرموز والعبارات الشعربة ، ولا تزال فكرات مانى تجسله استجابة لذى كثير من الأمزجة العقلية اليوم . ولربما سمع الإنسان المبادئ المانوية من فوق كثير من المنابر المسيحية . على أن الرمز الكاثوليكي الصحيح كان رمزاً مغايراً .

انتشرت هذه الفكرات المانوية انتشاراً واسعاً جداً في أوربا ، وبخاصة في بلغاريا وجنوب فرنسا . وكان القوم الذين يعتنقونها في جنوبي فرنسا يسمون الكاثارين أو الألبيجتسيين (Albigenses) . وكان اختلاف فكراتهم عن الأصول الجوهرية المسيحية من الفيالة بحيث جعلهم يحسبون أنفسهم مسيحين علمسين . وكانوا كهيئة يعيشون عيشة فضيلة وطهر ظاهر في عصر طافع بالعنف والفوضي والرفيلة . يبد أنهم أظهروا الشك في صبحة مبادئ روما وفي التفسير الصحيح للكتاب المقدس . وكانوا يرون في يسوع ثائراً على قسوة رب « المهد القديم » ، وليس ابناً له [كلنا ! ! . . .] متسماً وإياه .

وعمن يرتبطون ارتباطاً وثيقاً مع الألبيجنسيين طائفة أخرى تسمى الواللدونيون ، والوالدونيون هم أنباع رجل اسمه واللسو ولكنه لم يكن يقل عن الآخرين مضايفة للكنه كان ينمى على رجال الدين ثراءهم وترفهم . ويخيل إلينا أن اللاهوت الذي كان يلحو إليه كان كاثوليكياً صميحاً . وكان في ذلك الكفاية لدى قصر اللاتيران ، ومن ثم نرى مشهداً يبدو فيه إنوسنت الثالث وهو يحرض على حرب صليبية ضد هاته الشيم التميسة ، ويأذن لكل نفل زنم أو متشرد أثم بأن ينضم إلى الجيشوأن يعمل السيف والنار واقتصاب الحرائر ويرتكب كل ما يمكن أن يتصوره العقل من أنواع انتهاك الحرمات ضد أشد رعايا ملك فرنسا مسالمة . والقصص التي تروى عن هذه الحرب الصليبية تمكي لنا من أضرب القسلوة ألى امتشهاد

للمسيحيين على أيدى الوثنين ، وهي فوق هذا تسبب لنا رعباً مضاعفاً لا هي عليه من صحة لا سبيل إلى الشك فيها .

كان هذا التمصب الأسود القاسى روحاً خيبتاً لا يجوز أن يخالط مشروع حكم الله في الأرض. وإنه لمروح يتعارض تماماً مع روح يسوع الناصرى . فا سمعنا قط أنه فعلم الرجوه أو خلع المعاصم لتلامياء المخالفين له أو غير المستجيبين للحوته ولكن المايوات كانوا طوال قرون سلطائهم في حتى مقم ضد من تحدثه نفسه بأهون تأمل في كفاية الكنيسة اللهفية .

وتم يقتصر تعصب الكنيسة على الأمور الدينية وحدها . فإن الشيوخ الحصفاء المولعين بالأمية السريعى الهياج الحقودين الذين من الجلي أنهم كانوا الأغلية المتسلطة في مجالس الكنيسة ، كانوا يضيقون فرحاً بأية معرفة عدا معرفتهم لا يفتون بأى فكر لم يصمحوه وبراقبوه . فنصبوا أنفسهم للحد من العلم ، الذى كانت غيرتهم منه بادية للميان . وكان أى نشاط حقلي عدا نشاطهم يعد فى نظرهم نشاطاً وقحاً . وقد خاضوا بعد ذلك يقليل معركة عظيمة مدارها مسألة موضع الأرض من الفضاء ، وهل هى لدور حول الشمس أم لا تدور . ولم يكن هذا فى الحقيقة من شئون الكنيسة بناتاً . وربما كانت تمسن صنعاً لو أنها تركت للعقل ما للعقل من أمور ، ولكن يبدو أن ضرورة داخلية كانت تسوقها إلى تنفير ضمير الناس الفكرى منها .

ولو أن هذا التعصب نشأ عن عمن يقين حقيقي لكان فيه من السوء ما فيه ، ولكن كان يصحبه عنصر لا يكاد يستترمن الاحتفار للذكاء والكرامة العقلية عند الرجل العادى عجمله أقل استساخة بكثير في عن تقديرنا العصرى ، ولا شك أنه جمله أقل قبولا لمدى النفوس الحرة في ذلك الزمان . ولقد سردنا بمنهى الهدوء سياسة كنيسة روما نحو أختها المضطرية في الشرق . ولا شك أن كثيرا بما استعملته من الآلات والوسائل كان بغيضاً مقيناً . وإنك لتشهد في معاملتها لشعها بالذات مسحة من السخرية الحقة . ولقد قضت على هينها بعدامهم اعاتها لتعاليها ذاتها اللداعية إلى الصلاح والد . وقد صبحرك النغران ، عن نظام التحلية . وكانت خاتمة هاقاتها في القرن السادس عشر بيع ه صكوك النغران ،

التى جا يمكن افتداء الروح من صاب المطهر بدفعة مالية . هلى أن الروح التى دفعتها آخر الأمر إلى هذه القعلة المتبجحة التى كانت نكبة عليها ، كانت واضحة ملحوظة من قبل فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

وقبل أن تنبت بذرة النقد التي ازدرعها فردريك الثا بزمن طويل في أذهان الناس ، وتوثى ما لا مناص منه من ثمار العصيان ، كان يخم على عالم المسبحية شعور واضح القوة يوسى إلى الناس بأن حال الجو الروحاني ليست على ما يرام . فابتدأت داخل الكنيسة الحركات و الانعاشية ، ، والتي تقسم في نفسها النقد لكفاية طرائقها وتنظياتها القائمة أكثر بما تنطق به . وعندئلا أتحل الناس يلتبسون أشكالا جنيدة من حياة البر والهدى خارج الأدبرة وصفوف الكهنوت .

وهناك شخص جدر بالذكر هو القديس فرنسيس الأسيسي (١٩١١ - ١٧٢٦) . ولسنا بمستطيعين أن تحمر ك ها هنا في أى تفصيل كيف أن هذا الشاب المترف الظريف قد نزل عن كل ما وهبته الحياة من متعة ودعة وانطلق يطلب الله ؟ وليس استهلاك قصته بعيد الشبه هن تجارب جوتاما بوذا الأولى . إذ أصابه تحول فجائى إلى الهداية وصط حياة ناعمة بالمسرة والمللمات ، حتى إذا نفر حيثة القاقة الشديدة ، وهب نفسه لحياة تشبه حياة المسح ، ولمقة المرضى والبائسين وبوجه أخص لحدمة المصابين بالجلام ، الذين كانوا يكثرون عند ذاك في إيطاليا .

وانضمت إليه جماهير غفيرة من الآنياع ، وبلما ظهر في عالم الوجود أول الرهبان في د عقد على الدسبة الفرنسكانية (أو الفرنسكية). وأقع عقد من النساء المتينلات المخلصات إلى جوار عقد الأخوة الرهبان الأصلى ، وبالإضافة إلى هذا ، ضموا إليهم أعداداً غفيرة من الرجال والنساء ارتبطوا بهم كريدين ارتباطاً رسميا بدرجة أقل . فأخد يعذ الناس في مصر وفلسطين ميشرا بدعوته لا يعرض المسلمون عليه ، وهو أمر يجب ملاحظته هنا وتسجيله – وإن كان ذلك إبان الحمسلة الصليبية وهو أمر يجب ملاحظته بالكنيسة موضوع الأخط والرد . وقد أقر البابا أباسمة ، ولا تزال علاقاته بالكنيسة موضوع الأخط والرد . وقد أقر البابا في أبست تكوينه وهو أبست الثالث عمله ؛ غير أن عقد تشكيل الجماعة أعيسد تكوينه وهو غائب بيلاد الشرق بصورة تقوى روح النظام ، وتجمل الرياسة ذات

السلطة الموجّهة محل الدافع الاستجان . فأفضت هذه التغييرات إلى تحليه عن وباستها. وقد ظل حتى نهاية أيامه متمسكاً أشد التمسك بالفقر كمثل أعلى ، ولكن لم يكد يمضى على وفاته أمد طويل ، حتى كان العقد يحتاز الأملاك عن طريق القوامة على الأوقاف ويبى كنيسة عظيمة ودبراً تخليداً لذكراه في أسيسى . هذا إلى أن النظم التي طقت بعد وفائه على خلطائه وأتباعه المباشرين لا تكاد تفترقعن الاضطهاد في شيء ؛ فجلد كثير من أمرز المتحمسين للبساطة ، وسجن آخرون ، وقتل واحد أثناء محاولته الهرب ، وقضى الأخ مرنار ، أول تلاميذه ، سنة في الغابات والتلال ، وهو يطارد مطاردة الوحش الشارئ .

إن هذا الزاع الذي نشب داخل العقد القرنسكافي (الفرنسكي) ، نزاع دائق جداً . لأنه ينفر بالمناعب العظيمة التي كانت النصرانية ملة علها ؛ وقد ظل قريق من الفرنسسكاتيين يجاهد طوال القرن الثالث عشر ضد حكم الكيسة ، وقى قريق من الفرنسسكاتيين يجاهد طوال القرن الثالث عشر ضد حكم الكيسة ، وقى صلاح . ويبدو أن الفارق كان طفيفاً بين تعالم القديس فرنسيس وروحه وبين تعالم والدو وروحه في القرن الثاني عشر ، وهو مؤسس طائقة الوالدنين التي وتدت وقضي علها . وكان كلاهما متوقداً هاسة لروح يسوع الناصرى . ولكن يبينا خرج والدو على الكنيسة ، بذل القديس فرنسيس قصاراه لكي يكون ابناً باوا بالكنيسة ، ولم تكن تعليقاته على روح المسيحية الرسمية إلا تلميحاً ضمنياً همر صريح . ولكن كلا منهما كان مثالا لثوران الفحمر على السلطة المستهذة وعلى الإجراءات العادية التي تتبعها الكنيسة . ومن الجلى أن الكنيسة اشتمت ربيح العصيان في المثال الثاني

وكان القديس دومينيك الأسباق (١٩٧٠ - ١٩٧١) شخصية معارة جدا القديس فرنسيس ، فقد كان قبل كل شيء تقليدى المقيدة . وكان ولوماً بهداية المراطقة عن طريق الجدال ، فندبه البابا إنوست الثالث الذهاب والتبشير بين الإليجنسين . وكان عمله يسر جنياً إلى جنب مع القتال والمذابح التي تحت أثناء

الحملة الصليبية عليهم: فن لم يستطع دومينيك أن يهديهم إلى سبيل اللعين ، أعمل فيهم صليبيو إنوست السيف والنار ؛ ومع هذا فإن مناشطه ذاتها واعتراف البابا بعقد رهانيته وتشجيعه إياه الشهد بتصاعد سيل المناقشة ، وباعتقاد الناس كافة بما فيهم البابوية نفسها بأن القوة ليست علاجا للموقف .

وتطور عقد الرهبان السود أى الدومينكيين (الدومينيكان) ... (إذ كان القرنسكانيون هم الرهبان الشهب (١) يين لنا من عدة أوجه أن الكنيسة الكاثوليكية كانت وهي عند مفترق الطرق تتردى مستسلمة رويدا في أعماق الاعتقادية الحجمية (Dogma) المنظمة ، وبلما تقع في نزاع لا رجاء فيه مع ذكاء الإنسانية المتوقد وشجاعها المشبوبة . وبلمك تحدرت الكنيسة طريق القسر والإجبار ، وهي التي واجها الأوحد أن ترشد وتهدى . ولا يزال آخر حديث ألقاه القديس دومينيك لملى الهرافقة اللين جهد أن جهدهم إلى الهريق السوى باقيا لنا إلى اليوم . وهو من صوى (٢) التاريخ الهامة . وإنه ليكشف لنا عن رجل تغلى مراجل غيفه القتال الأنه فقدة المصدق فقد إعانه في قدمة المصدق فقد إعانه في قدة المصدق فقد إعانه في قدمة المصدق فقد إعانه في قدمة المسدق فقد إعانه في فيتصر .

قال : وقد نصحتكم سنين حديده بلا جدوى : باللطف والموحظة والرجاء والبكاء . ولكننا تبعاً للمثل القائل في بلادى : وحيها تفشل البركات عن إتمام ألى شيء ، فن الجائز أن تفيد اللكمات ، ـ سنثير عليكم الأمراء والأحبار اللدين سوف ـ ـ ويا للأسف ! . . . وبدا تفيد ـ . . . وبدا تفيد اللكمات حيث كانت البركات واللطف غير ذات جدوى (٢) ،

شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة فى الكنيسة ، هى محكمة التفنيش اللباوية . ذلك أنه جرت عادة البابا قبل ذلك الزمان بأن يقوم فى بعض الأحيان بتحقيقات أو استعلامات عن الإلحاد فى هذا الإقليم أو ذلك ، ولكن إنوسنت الثالث

⁽١) الشبب : جمع أشهب وهو الرمادى اللون . (المترجم)

⁽٢) الصوة : بالغم حمير يكون علامة في الطريق ، وجمه صوى . (المدجم)

⁽٣) الموسوعة البريطانية – مادة دوميتيك .

وجد الآن في عقد الرهبان الدومينيكيين الحديد أداة قوية لقمع ومن ثم نظمت عاكم التفتيش كأداة تحقيق مستديمة تحت إدارتهم . وجده الأداة نصبت الكنيسة نفسها لهاجة الضمير الإنساني بالنار والعداب وعملت على إضعافه مع أنه مناط أملها الرحيد في السيادة على العالم . وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الإعسدام إلا نادراً بالملاحدة والكفار . فأما الآن فإن كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون في مثة ساحة من صاحات الأسواق في أوربا لبراقبوا أجسام أعدامها حوهم في غالية الأمر قوم فقراء لا وزن لهم حتمرة بالمنار وتخمد أنفامهم بحالة عزنة ، وتحترق وتحمد معهم في نفس الحين الرسالة العظمي لرجال الكنيسة إلى البشرية فتصبح رماداً تدوه الرياح . على أن بدايات الفرنسكيين والدومينيكين لم تكن إلا المتخين من بين القوى الكثيرة على المناسة المناسفي المناسفيات والدومينيكين لم تكن إلا المتخيرة من بين القوى الكثيرة

طي ان بديوت متر تسميلين و المورييديين لم بحن إد السال عن بين الهوى المحلم المح

ونظم عدداً من فقراء القساوسة ، هم الويكليفيون لنشر آرائه فى كل أرجاء إنجلترة . ولكى يحكم الناس بينه وبين الكنيسة ، ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية .

كان رجلاأوسع علماً وأكثر اتعداراً من أيَّ من القديسن فرنسيس أو دومينك . كان له مويلون من ذوى المراكز العالمية ، وأتباع كثيرو العدد من بين أفراد الشعب ؛ ومع أن روما ثارت حنقاً عليه وأمرت بسجنه ، فإنه مات رجلا حراً ، وهو ما يزال يقوم بالطقوس الدينية والأسرار للقلسة بوصفه قسيساً لأبروشية لوترورث على أن الروح الحبيثة القديمة التي كانت تسوق الكنيسة الكاثوليكية إلى حتمها لم تكن لتسمح لعظامه بأن تستقر في قبره . فبمقتضى قرار صادر من مجمع كونستانس في (١٤١٥) انتبشت عظامه وأحرقت ، وهو قرار نفذه الأسقف فلمنج في (١٤٧٨) بأمر من البابا مارتن الحامس . ولم يكن هذا الانتهاك لحرمة المقار من عمل متعصب بمفرده ؛ بل كان عملارسمياً أثنه الكنيسة .

١٥ ــ`قائمة بأسماء البابوات العظام

إن تاريخ البابوية مربك للقارئ العادى لكثرة البابوات ووفرتهم . كانوا فى الغالب يعتلون منصة الحكم شيوخاً قد تقدمت بهم السنون ، وكانت مدة حكمهم قصيرة تقل عن سنتين فى المتوسط .

على أن من البابوات من يعرزون وجيئون لدارس التاريخ نقاطاً بارزة يستطيع أن يمسك جا ويحس أثرها . ومن أمثال هؤلاء جريجورى الأول العظيم (٥٠٠ – ٦٠٤) ، وهو أول بابا مترهب ، وصليق بندكت ، وصاحب الفضل فى إرسال بعثة التبشير الإنجليزية .

. ومن البابوات الآخرين الجديرين بالذكر ليو الثالث (٧٩٥ – ٨١٦) ، الذي توج شرلمان ؛ واثنان من البابوات اشهرا بالفضائح هما يوحنا الحادى عشر (٩٣١ – ٩٣٦) ، والأخير هو اللبي تحلمه الإمبراطور أود الأول ، ثم يجيء هلديراند العظم ، الذي ختم حياته تحت امم جريجورى السابع (١٩٧٠ – ١٠٨٥) ، والذي فعل الشيء الكثير بتقريره العزوبة على رجال المدين ، وتشبئه بسيادة الكنيسة على الملوك والأمراء ، لكي يركز قوة الكنيسة في روما .

وحدث نزاع عظم بين هلدبراند والإمبراطور المنتخب هنرى الرابع على مسألة التعيينات . فحاول الإمبراطور أن يخلم البابا ؛ فحرم البابا الإمبراطور وأحَـلَّ أتباعه الأمراء من ولائهــم له . واضطر الإمبراطور أن يذهب ثائباً إلى البابا في كانوسًا (١٠٧٧) ، وأن ينتظر النفران ثلاثة أيام متدثراً بالخيش ، وهو حافي القدمين في الثلج فى فناء القلمة . على أن همرى ما لبث أن عاد فيا يعد إلى فرض حقوقه وإبراز قوة شكيمته إذ أعانته أكبر العون هجات قوية قام بها المفامر النورماندى روبرت جويسكارد على ممتلكات البايا .

وكان البابا التالى لخليفة جريجورى السابع هو إربان التانى(١٠٨٧ – ١٠٩٩) ، وهو البابا الذى دعا ليل الحرب الصليبية الأوتى .

وكانت الفترة من جريجورى السابع إلى ما بعده بقرن ونصف من الزمان هي الفترة العظمى للكنصة : فترة اشتداد طموحها وجهودها . وفيها بذلت المحاولات الصادقة المتواصلة لتوحيد عالم المسيحية بأجمعه في ظل كنيسة مطهرة مجددة التنظيم .

وإن في إقامة الممالك اللاتينية بسوريا والأراضى المقدسة على مذهب روما بعد الحرب الصليبية الأولى ، لعلامة ملحوظة آذنت باستهلال مرحلة جديدة لغزو روما المسيحية الشرقية ، مرحلة وصلت إلى ذروتها أثناء الحكم اللاتيني في القسطنطينية (١٢٠٤ - ١٢٢١) .

وق (۱۱۷۷) ركع الإمراطور فردريك بربروسا (فردريك الأول) اللبابا المكندر الثالث في مدينة البنفة واعرف بسيادته الروحية وأقسم يمين الإخلاص والولاء له . ولكن بعد موت اسكندرالثالث (۱۱۸۱) ، تجلى ضعف البابوية الراجع إلى احيال وقوعها في أيدى كهول محطمن . فإن خسة من البابوات دلفوا إلى اللاتبران متر نحين لكي يموتوا في مدى عشر سنوات . ولم يتح للبابوية إلا في شخص إنوسنت الثالث (۱۱۹۸ — ۱۲۲٦) بابا قوى جديد يتناول بيديد السياسية العظيمة ولمينة الرب » .

وفي عهد إنوسنت الثالث – الوصى على الإسراطور فردريك الثانى ، اللمي سبق أن درسنا رجمته – والباباوات الخمسة الذين خلفوه ، أصسبح بابا روما أقرب إلى ملك لمالم مسيحى متحد منه في أى زمن سابق أو لاحتى . ذلك بأن الإسراطورية ضعفت لما نشب فها من منازعات داخلية ، على حين صارت المسطنطينية في أيدى اللاتين ، ومن ثم صار البابا هو السيد الأهلى فها بين بلغاريا

وإدلندة وما بين النرويج وصقلية وبيت المقلم . ومع ذلك فإن سيادته هذه كانت ظاهرية أكثر منها حقيقية . ذلك أنه على سين كانت العقيدة كما رأينا آنفاً ، قوية أيام إدوسلت الثالث قدية أيام إدوسلت الثالث قد نقدت سيطرتها على قلوب الأمراء ، كما أن إيمان الناس وضميرهم كانا آخلين في الحمول إلى العداء لكنيسة لا تنطوى إلا على السياسة والعدوان(١٧) .

وكانت الكنيسة فى القرن الثالث عشر تقوى وتبسط سلطتها القانونية فى العالم وتفقد سيطرتها على ضهائر الناس . وكانت تفسدو أقل إقناعاً وأكثر عنفاً . ولا يستطيع أى إنسان ذكى أن يتحدث أو يقرأ عن هذه العملية الفاشلة دون أن غلجه مشاعر بالغة التضارب . لقد آوت الكنيسة بين أحضائها أوربا جديدة كونتها بغمها خلال العصور الطويلة من الظلمة والفوضى ؛ وكانت هى القالب الذى صبت فيه المدنية الجديدة أل وكانت هى القالب الذى صبت المفطرية الكوين إنما دفعتها إلى الفو حويتها المعلمية الكانية الجديدة ألكوين إنما دفعتها إلى الفو حويتها المعلمية الكانيسة) فكان ينقصه القدر الكافى من قوة التنمية والتيسير . وكان الزمان الذى لا بد فيه من كسر هذا القالب يقترب حثيثاً .

وجاءت أول إشارة قوية لانحلال القوى الحية الداعمة البابوية ، عندما حدث بعد ذلك نزاع بعن البابوات وقوة الملك الفرنسي النامية . إذ حدث فى حياة الإمبراطور فرديك الثانى أن وقعت ألمانيا فريسة الفرّقة ، وأخذ الملك الفرنسي يقوم نحو البابا بدور الحارس والمساحد والمنافس ، وهو الدور الذي كان يؤديه إلى ذلك الحين أباطرة آن هوهنشتاوفن واتبعت مجموعة متنالية من المبابوات سياسة مناصرة الملوك الفرنسين ، فنصب أمراء فرنسيون في ممالك صقلية ونابولى عناصرة روما وموافقها ، ورأى الملوك الفرنسيون أمامهم فرصة سائحة لاستعادة إمراطورية شريان وحكمها . ومع ذلك فإنه لما أنهت فدر خولك الثانى آخر أفراد آل ها فيهم هو منشاوفن ، وانتخب رودلك المابسرجي أول إمبراطور من آل هابسعرج هوهنشتاوفن ، وانتخب رودلك الملابوات يتذبلب بين فرنسا وألمانيا تيعاً لميول البابوات المتاقين .

⁽¹⁾ كانت الكنيمة في ذلك الحبين تعد نفسها مجاهدة في سهيل الستياء (Church Militani). انظر مقال أو منتصرة على شرور الدنيا ومستفرة في ملكوت السحوات (Church Triumphant). انظر مقال عن چان دارك في كتاب a أحلام وأفكار a تأليف يوهان مورنجنا ترجمة المترجم البيئة المصرية التأليف .

فني (١٧٩٤) تبوأ بونيفاس الثامن دست البابرية . وكان رجلا إيطاليا معادياً للفرنسين ، وافر الإيمان بتقاليد روما العظيمة ورسالتها الكبرى . فعالج الأسور حيناً من الدهر بقوة واستبداد . وفي (١٣٠٠) عقد مهرجاناً ليوبيل واجمع له جمهور حاسلا من الحجاج في روما . و بلغ من عظم انشيال المال إلى خزائن البابوية ، أن ظل موظفان يجمعان بالمجاريف الحبات التي وضعت عند قبر القديس بطرس يالا . على أن هذا المهرجان كان نصراً خداعاً . فإن جم جيش عظيم من الرحالة المتزهن أيسر كثيراً من جمع ثلة من الصلبيين . وتنسازع بونيفاس مع الملك الفرنسي في أيسر كثيراً عن جمع ثلة من الصلبيين . وتنسازع بونيفاس مع الملك الفرنسي في أيسر كثيراً عن وفي (١٣٠٣) ، بيناً كان على وشك إصدار قرار الحرمان ضد ذلك الملك ، فلجأه غليوم دي نوجاريه في قصر أجداده الموروث بأناجي (Anagni) واعتقله . وقد دخل هذا الملدوب عن الملك الفرنسي القصر عنوة وسار حتى وصل إلى مخدع والإيزا المرتاع حوالي المدينة سراح البابا بعد ذلك بيوم أو بعض يوم ، وأعادوه والإهانة . وأطلق أهل المدينة سراح البابا بعد ذلك بيوم أو بعض يوم ، وأعادوه بضعة أسابيع حتى مات الرجل المشيخ الهرم مصعوقاً وقد وفعث عنه غشاوة الملدام ، بضعة أسابيع حتى مات الرجل المشيخ الهرم مصعوقاً وقد وفعث عنه غشاوة الملدام ،

وقد غضب أهل أناجني بالفعل للاعتداء الأول وثاروا ضد نوجاريه لتخليص بونيفاس ، ولكن أناجني كانت مسقظ رأس البايا . والثقطة الهامة التي علينا ملاحظها هي أن الملك الفرنسي ، كان في هذه المعاملة الحشئة لرأس المسيحية الأكبر ، يتصرف علم استحسان شعبه ؛ فإنه دعا مجلساً من طبقات فرنسا الثلاث (النبلاء والكنيسة والعامة) وفاز بموافقهم قبل البده في الإجراهات المتطرفة . ولم تبد أي من إيطاليا أو ألمانيا أو إنجلترة أدني مظهر عام ينم على عدم الموافقة عن هذا التصرف الجوىء مع الحبر الأعظم صاحب السيادة العليا . فقد انجلت الفكرة الداعية لتوحيد العالم المسيحي المحمى العظانها على عقول الناس .

⁽١) چ . ه . روپئس ،

وفى الشرق استرد اليونان مدينة القسطنطينية (١٢٦١) من الأباطرة اللاتين ، ولم يلبث مؤسس الأسرة اليونانية الجديدة ميخاتيل باليولوجوس أوميخائيل الثامن ، بعد محاولات زائفة للصلح مع البابا ، أن انفصل عن مجتمع روما الكفسى انفصالا نهائياً ، وبهاما الانفصال وبسقوط المالك اللاتينية في آسيا ، زال ماكان للبابوات من سيادة في الشرق .

ولم تعمل البابوية شيئاً طوال القرن الرابع عشر لاسترداد هيتها المعنوية . وكان عليفة المايا التالى ، وهو كلمنت الحامس ، رجلا فرنسياً ، اختاره الملك قيليب الفرنسي . فلم يحضر إلى روما أبداً . بل أقام بلاطه في مدينة أفنيون ، ولم تكن عند ذلك تابعة لفرنسا ، بل كانت تابعة الكرسي البابرى وإن وقعت في صميم الأراضي الفرنسية ؛ وهناك أقام خلفاؤه حتى (١٣٧٧) ، عندما عاد البابا جريجورى الحادى عشر لم يحمل معه الحادى عشر الفاتيكان بروما . ولكن جريجورى الحادى عشر لم يحمل معه ومشاربهم شديدة الارتباط بأفنيون . فلم أن مات جريجورى الحادى عشر (١٣٧٨) ، وانتخوا بابا آخر هو البابا المضاد كلمنت السابم .

ويسمى هذا الانقسام « بالصدع الكبر » . وظل البابوات في روما ، وبقيت كل الدول المعادية لفرنسا ، من الإسراطور إلى ملك إنجلرة إلى هنفاريا وبولندة وشهالى أوربا ، موالين لهم . وذلك على حين استمر المبابوات المضادون في أثنيون يناصرهم ملك فرنسا وحليفه ملك اسكتلندة وأسبانيا والبرتفال وأمراء ألمان متنوعون . وكان كل بابا في الجانبين يحرم أنصار منافسه ويلعهم ، حتى لقد خدت للسيحية بأجمعها ملعونة أثناء ذلك الزمان لعنا صحيحاً كاملا بهذا المعيار أو ذلك (١٣٥٨ – ١٤١٧) .

ومن المستحيل أن نبالغ فيا ترتب على هذا الانقسام من أثر محزن على قوة أسلك العالم المسيحى. فلا غوو إذن أن رجالا من أمثال ويكليف شرعوا يعلمون الناس أن يفكروا لحسامهم الخاص ، عند ماكان معين الصدق يتطاحن ويفرى يعضه بعضاً على النحو الذي ترى ! !

وفى (١٤١٧) التأم الصدع الكبير في مجمع كونستانس ، وهو نفس المجلس الذي إنتبش عظام ويكليف وأحرقها ، والذي تسبب كما سنبين فيا بعد في إحراق چون هس (Huss) . وفي هذا المجمع استقال البايا والبابا المضاد أو قدف بهما جانباً ، وأصبح مارتن الحامس البايا الوحيد على عالم مسيحية موحدة رسمياً ولكنها مضمضعة بادية الإحياء روحياً .

ولسنا بمستطيعين أن نقص هاهنا كيف أن مجمع بازل (١٤٣٩) أدى إلى صدع جديد وإلى بابوات مضادين آخرين .

هذه نيذة موجزة عن قصة القرون العظيمة لرفعة البابوية وتدهورها . وهي قصة الإخفاق في الوصول إلى تلك الفكرة النبيلة الرائعة ، فكرة قيام عالم ديني موحد . ولقد أشرنا في القسم السابق كيف أن ميرائاً من الاهوت معقد المام على الاعتقاد الحشي (Dogma) ، قد أنقل كاهل الكتيسة في منامرتها الطموحة هذه . كان لديها من اللاهوت ما تجاوزالغاية ومن الدين ما دون الكفاية . على أنه ربحا الا يكون من اللغو الإشارة هنا إلى مدى ما ساهم به صدم الكفاية المشخصية البابوات في أمييار خطة الكنيسة وكرامها ، لم يكن في الهمالم ذلك ورحابة الأفق اللازم لترويد سلسلة متعاقبة من الكرادلة والبابوات بسعة الموقة ورحابة الأفق اللازمين الواجب الذي أخلوا على عائقهم المهوض به ؛ فهم ورحابة الأفق اللازمين الواجب الذي أخلوا على عائقهم المهوض به ؛ فهم يتشاموا على هانه النقيصة بمحض قوة المبقرية . وكما سبق أن نوهنا ، كانوا عند ما يصلون آخر الأمر إلى النفوذ والسلطان ، أسس وأضعت من أن يقدوها على استخدامه . وقبل أن يحكوا المبضة على الموقف الذي كان علهم أن جيمنوا عليه ، بكون معظمهم قل فارق الحياة .

ومن الشائق أن يتسامل الإنسان كم كان الميزان يجنح إلى جانب الكنيسة لو أن الكرادلة كانوا يتقاملون فى سن الخمسين ، أو حرم انتخاب أى إنسان لمنصب البابوية بعد سن الخامسة والخمسين ؟ كان ذلك لا جرم يطيل متوسط مدة حكم كل بابا ، وكان يزيد زيادة هائلة فى استعمارا سياسة الكنيسة . وربما كان من المحتمل

كذلك أن تُستَنبَع طريقة أكثر كمالا فى انتخاب الكرادلة ، وهم أصحاب القول الفصل فى انتخاب البابا وفوو الرأى والمشورة لديه . فإن القواعد والطرق التى بها يصل الرجال إلى مناصب السلطان لعلى درجة عظيمة جداً من الأهمية فى المشتون الإنسانية . وإن سيكولوچية الحاكم لمصلم لا يزال على العلماء أن يدرسوه دراسة صحيحة . لقد رأينا الجمهورية الرومانية تتحطم ، وها نحن فرى الكنيسة تحقق فى رسالها العلمية لسبب يرجع على الأغلب إلى طوائق انتخابية عقيمة .

١٦ ـ العمارة والفن القوطيان

هناك تطورات معاربة وفنية خاصة تميز أهوار تاريخ المسيحية من العصر الرومانسكي لمل عصر الشك واضمحلال العقيدة الذي كان فردريك الثانى بشره . ولقد حدث إقبال عظم على بناء الكاتدرائيات في القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وتطور سريع في العمارة الرومانسكية الغربية ، تمول بها إلى ما يسمى في أدق معانيه باسم الطراز القوطي . فإن السقوف المتحدة في الأبراج الرومانسكية قد استطالت وأصبحت مناثر مستدقة (Spires) ؛ وأدخل السقف المقبو المتفاطع الحنايا ، وجرف العيقد المدبب ... اللي انتشر من قبل في الفن العربي طوال مثى سنة أو تزيد .. أمامه المقد المدور . وظهر مع هذه المظاهر تطور عظم وتنمين كبد في النوافذ وفي الزبياج الملون .

. والراجع أن نمو هيئات الأديرة وازدياد ثرائها هو الذى أطلق ضراح فيض الطاقة الفنية التي أصلت العالم كنيسة فوتردام بياريس مثلا وكالدرائية شار تروكاتدرائية أميان والبداية الفاخرة التي تشهدها في بوغيه (Beauvais) . وظل الدافع الفني القوطي متواصلا طوال قرون عديدة . ومنذ القرن الثالث عشر أخلت النافذة ذات الحلي الحجرية المتشجرية المنتررة من أعلى تصل إلى أقصى درجات تطورها . وفي القرن الرابع عشر أصبح الفني القوطي : نشراً بالحيوية فترة طويلة من الزمان ثم ارتد قاسياً سماملاً . أصبح الانجلوز ما إنحاراً العارم المسيح الناراز المرتفع العمار) المسيح الناراز المرتفع العمار، المسيح

و بالعمودى ع (Perpendicular) . وانخلت الأشكال القوطية سمة وكيفاً جديداً باستهال الطوب في مناطق مترامية الأطراف من شرق ألمانيا وشهالها حيث حجر البناء نادر أو يعيد المنال . ولقد ذوى فن العارة القوطى مع بداية القرن الحامس عشر . ذلك أن أيام عظمة الكنيسة في أوريا قد ولئت ، وكان لا بد المطروف الاجهاعية الجديدة من أن تعبر عن نفسها بطرائق جديدة . وما زلنا نجد الكائدرائيات نقصة لم يستكمل بناؤهما في بعض مدن بلجيكا وهولندة ، وإلى جوارها بناء البلدية عظم سلب ماكان المكنيسة من موارد البناء ومواده . في لاير (Yprea) مثلا ، وقبل أن تمتد يد الحرب بالتخريب ، كانت قاعة « بورصة الأقشة » المظمى تبز الكائدرائية إتقاناً وقفوقها جمالا .

وقى آسبانيا كان الفن القوطى يقفو المسبحين من مقاطعة إلى أخرى اثناء استردادهم شبه الجنزيرة من العرب. فالفن العربي المغربي (Mauresque) والفن القوطى الأسباني قد تطورا كل في حدوده الحاصة . هذه أشيلية تقوم فيها إلى جانب المقصر المغربي الطراز المسمى بالكازار ، كاتدرائية قوطية عظيمة ، وكأن داخلها السامى يستشمر فرحاً تغشاه العتمة لما تم من فوز على الغزاة المقهورين .

ولم يتغلغل الفن القوطى فى إيطاليا بدرجة كبرة . وأبرز مثال له هو كاندرائية ميلانو . على أن إيطاليا كانت أثناء اللمرة القوطية فى أوربا الفربية ، ساحة قتال بين التقاليد المشقة والطرز المتنازعة . فإن كنيسة سانت مارك البرنطية الطواز فى البندقية تضاهى بطرازها الطراز القوطى المتجل فى كاندرائية ميلانو ، وإن النورماندين والعرب لهزجان روحهما بالروح الرومانية فى عثل ميافى كاندرائية أمالي . وتشكل الكاندرائية ومكان التعميد و برج الجرس الكبر فى يعزا مجموعة من أشد مجموعات المبانى الإيطالية تعبراً ، وكلها ترجع إلى حوالى القرن الثانى عشر تقريباً .

⁽١) طراز العارة الممودى : طراز إجمليري مقاضر من العارة القوطية (أواخر القرن ١٤ إلى منتصف ١٦) و وعائل بالحليات الحبرية المنقورة بأعل النوائلة أو بالعقد الخفض ذى الزوايا الأوبعة وبالتقيية ذات الخليات الحبرية المنقورة على شكل مورسة وبالملغوان المرفشة بالصور. (المترجم)

وظل الميل إلى فن التشكيل التمثيلي(1) طوال العهد القوطي ، وهو الميل القوى المشبوب في كل من الشعوب الآرية والحامية ، ـ يكافح كفاحاً ظاهراً ضد الميل الغريزي إلى كبته ، الذي ظهر في العالم الغربي بعد الانتشار الأول للمسيحية والإسلام. وينبغي أن يكون من المفهوم أنه لم تكن هناك عداوة صريحة ضد الفن التشكيلي التمثيلي عند المسيحين. وقد اختفى فن التصوير الروماني القديم من سراديب الدفن والقبور المسيحية المزخرفة . وظل قدر معن من التصوير الجداري المنمط النوع يكافع خلال القرون الوسطى ثم تكاثر في القرنين العاشر والحادي عشر .

ومع زيادة أسباب الاطمئنان في الحياة جاءت الرغبة المتزايدة في تجميل الكنائس ومبانى الأديرة . وانتشر التصوير منتقلا من العمل الضيق المحدود لمن يحلي الكتب بالصور إلى الجدران واللوحات العصرية . فأصبح القديسون الجامدون أكثر مرونة ؛ وأضيفت الخلفيات الظاهرة من ورائهم ، فأتاحت للرسام المجال لإضافة التفاصيل المتمشية مع الطبيعة الحقة Naturalistic . فاما اللوحة المصورة ٢٦٠ التي كانت تعمل في مكان ثم تنقل إلى آخر وتثبت فيه ، فكانت بشيرًا وسلفًا للصورة المستقلة . والقضت فترة من الزمن في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت فرنسا وألمانيا سابقتين فها لإيطاليا في هذا الابتعاث لفن التصويري . وفي نفس الوقت كان نحات أحجار البناء ينفث ف الحليات المضنية التي علمها المبائي القوطية حيوية وروحاً واقعية متزايدتين. فهو يحول الميزاب إلى رأس حيوان كاشر الوجه مضحك ، ويضع وجوهاً وأشكالا مصورة على تبجان العمد والأبراج المرتفعة الدقيقة للأبنية Pianacie . وينقل القديس المنحوت من الحفر البارز Relief إلى التجسيد الصلب الماثل (أي يحوله من نقش بارز مسطح إلى تمثال مجسد) . وفي ذلك أيضاً كانت ألمانيا هم القائدة صاحبة السبق . وهذا الانسلال إلى المحاكاة للطبيعة أمتع حقيقة عامة في تاريخ العصور الوسطى الفهي .

⁽١) فزالتشكيل التمثيل : (Representative Art) هو القائماني تمثيل أو تصور الأشياء للطبيعة والكائنات المية . (المترجم) (Y) اللوحة المسورة (Panel) هي التي يسميها أهل الغنز باسم يانوه (Panneau) (المترجم)

ولقد سبق لنا أن لحظنا من قبل اختفاء نحاكاة الطبيعة مشاسها لهذا ، ثم ظهوراً جديداً لتلك المحاكاة في تاريخ الإنسانية . فالإنسان في أواخر العصر الحجرى القديم كان يمفر الأشكال الواقعية ويرسمها بحرية وقوة ولكن إنسان العهد المبكر من العصر الحجرى الحديث لم يترك لنا رسوماً جيدة ولانحاثت جيدة تمثل الكاثنات الحية . ثم لم يكد فن التشكيل يظهر مرة ثانية حتى جاء عصر البرونز . وقد حدث نفس هذا الأمر بالضبط وإن على مقياس أكر بين الأيام العظيمة للإمبراطورية الرومانية وبن العصور الوسطى ، لا في ظلال المسيحية فحسب بل في رحاب الإسلام كذلك. ولم يقم أحد قط بتقديم أى تفسير كامل مقنع لظهور هذه البدائل المتناوبة . فإن الفن تراجع عن محاكاة الحقيقة والطبيعة وحبس نفسه على الإتقان والتنميق الشكلي . ومنذ ذلك التاريخ بلت موجة عظيمة أخرى من روح المحاكاة المشرقة العلبيعة ، لعلها بلغت ذروتها من أمد غير بعيد . ومنذ خسين سنة كان كل من التصوير والنحت أكثر على الجملة امتلاءً بروح لمحاكاة للطبيعة والتمثيل لأشكالها ، وأقل رمزية وأدنى تلويمًا وإشارة بما هو عليه الآن(٠٠) . ولسنا بمسطيعين أن نقدم هاهنا أي تفسير مرض لهذه للوحات التي تلم بالباعث الفني العــــام ، وأعني بها الترجحات للتناوبه بنن الحقيقة الجذلة القوية النقل والأداء وبين النرفع والتزمت . وكأنما الروح الواقعية المفرطة والجذل المفرط بالجسم والحركة والانفعال والتفاصيل العرضية كانت تنتهي آخر الأمر إلى إحداث رد فعل يتجه إلى عملية التجريد والشكلية ويسبب التجاء ٌ غريزيا إليهما .

١٧ ــ موسيتي العصور الوسطى

كانت تلم بالموسيق تغيرات عظيمة فى أيام الحروب الصليبية . إذ أن أى نوع من أنواع الانسجام (الهرمونى المستعجم (الهرمونى المستعجم (الهرمونى المستعجم (الهرمونى الإيقاع واللحن ؛ وقد ابتذا آلذاك تطور جديد تمام الجدة - كان فى مبدأ الأمر خباء "موزعاً من نوع بدأى (Part-singing) ، ثم تطور فأصبح حبكة معقدة من ألحان يزداد تناسجها على مر الزمان إحكاماً وتفصيلاً . إذ جنعلت الأصوات المختلفة

⁽١) انظرالمثر م ه التربية من طريق الذن ه تأليف هريرت ريد (حيثة الكتب والأجهزة العلمية) ، وفي طد للفترة بليد الكتاب إلى ما خلب عل فن الفرن العشرية من درح عصرية تنشل في التجريفية والدريائية والدكنيية والدرشية والدرقيلية وفير ذلك من أشكال إليان المعاصر . (للدريم)

تغنى فى نفس الوقت أنفاماً مختلفة يجمعا الانسجام الهارمونى . وفى الحين نفســـه تطور تدوين للنوتة الموسيقية قادر على التعبير عن الموسيتى الجديدة المتعددة الأصوات الهوليفونية (Polyphonic) وتسجيلها . وكان التدوين ضروياً للتطور الموسيتى الحر، ضرورة الكتابة لظهور «أدب» نام متنوع .

ويبدو أن البدايات الأولى لهذا التجديد في صوع الموسيقي إنما ظهرت في أوريا الغربية ، والراجع أن ذلك كان في ويلز ووسط إنجلترة . إذ نحن إنما نجد هناك أول ما سجل لنا من حالات الفناء الموزع ، ولعله بدأ هنا في ذمن مبكر يرجع إلى القرن الناس عند كان على التحقيق أمراً قائماً يجارسه الناس عند نهاية القرن الناني عشر . وهناك قطعة ممتازة من الندوين الموسيقي الإنجليزي الموزع ترجع إلى (١٩٤٠) لا تزال موجودة حتى الآن . وهي الروتا (Rota) ومطلمها معاضر ، ويقول السر و . ه . هادولا كاتبا هو چون الفورنسيتي وهو راهب عاضر ، ويقول السر و . ه . هادولا والا تدوين الفوزيع قها مدهش في صحنه وإرضائه للنفس ، ومن الممكن سماعه في الوقت الحاضر بسرور عظم وهي أول صوت في تطور فننا الغربي ، ما يزال يستطيع أن يجادثنا في نبرات صديقة أول صوت في تطور فننا الغربي ، ما يزال يستطيع أن يجادثنا في نبرات صديقة

وكانت تلك الأيام أيام المفامرين الجوالين ، كما كانت أيام الموسيقى العلوافة أيضاً . فإن جماعات الدوبادور كانت تنتفل من قصر الى قصر ، وكان ثمة كثير من المغنين المسولين ، وانتشرت فكرة الانسجام الموسيقى (الهارمونى) بأرجاء قرنسا وإيطاليا والى أوربا الوسطى . وكانت معظم التلحينات غناء معمد الأصوات يوليفونيا غير مصحوب بموسيقى . على أن تطور التوزيع الموسيقى على الآلات جاء فيا بعد مع ظهور المود (لمود (Lute) والمفرجينال (٢) واللهول (٢) وزيادة استخدام ومجال الأرغن بصورة متشية مع الزيادة في مهارة صانعيه . وكان لا يزال على القصر والملاط أن يصلا إلى

^{(1) :} هو السير وليم مترى هادو : (1009 -- 1979) من كباد رجنال الثريبة ومن أعظم طعاء علم المارسيتى وتحليلها وظلسفتها وعور : تازيخ اكتسفورد العوسيقى » (المترجم)

⁽٢) آلة ربرية قديمة ذات مفاتيح .

⁽٣) ضرب تدم من الكمان .

تلك الذرى العائبة من الترف والتنميق التي لا بد مها لإنتاج موسيق علمانية أرفع من . هذه التي لا يتجاوز نطاقها هذه الموسيق الصوتية والشعبية الصرقة وفي مبدأ الأمر ، كانت أهم مهاد لإنتاج الموسيق الجديدة هي جوقات (كورس) المرتلين والعازفين يالكاندراتيات والأدرة . فهناككافح الروساء المجدون لجوقات المرتلين (الكورس) ضد الذعات الدينية الشديدة المحافظة والتمسك بالقدم ، بل لقد كافحوا كفاحاً طويلا يعبد المدى .

وكانت الصيغة الغالبة في أثناء طور الانسجام الهارموني الصوتى البحت هي المادريجال (٢). وكان الملحن الإيطالي بالسرينا (١٥٢٦ – ١٥٩٤) هو الأستاذ الملت به تلك الفترة من الموسيقي الكورالية الجاعية ذووها . وفي الفرن السادس عشر كان الصناع الإيطاليون قد صاروا فعسلا بالكمان (الشيولينا) في سبيل الكمال ، وكان الأرغن الحديث في دور التطور النهائي ، فقد أخلت ظروف اجماعية جديدة في الظهور ، وتمة مشاعر جديدة أخدت تبحث عن يترجم عها ، وثم طرائق ومناهج جديدة أخدت في التطور فتيسر بها ظهور طراز من التلحينات الموسيقية أرحب أفقاً وجب فيه على فن التوزيع الموسيقي على الآلات أن يلعب الدور الأعظم .

⁽١) لحن موضوع لقصيدة غزلية .

الكِيّابُ البيابع

الامبراطوريات المغولية صاحبة الطرق البرية والامبراطوريات الجديدة صاحبة الطرق البحرية

الفصِلات في الشَّالِين وَالْمِيْلِالَّوْنُ چنكيز خان وخلفاؤه و إمبراطوريتهم العظيمة (عصر الطرق البرية)

١ - أسيا منذ نباية الترن الثانى على . ٢ - تيام المنول والتصارائيم .

٣ - رحلات ماركر پولو . ٤ - الأتراك المُهانيون والقعطاطينية .

ه - لماذا لم يعتنق المغول للسيجية . ٢ - أسرتا يوان ومنبع في الصين .

٧ – المنول يرتدون إلى الروح القبلية . (٨ - إمبراطورية القهپهاق وتيصر موسكوڤيا (الروسيا).

٩ -- تيمورلنك . ١٥ -- أمير اطررية الحند المدولية .

١١ ـ النجر (الدور) .

١ _ آسيا عند نهاية القرن الثاني عشر

الآن نحدثك عن آخر وأعظم غارات نظام «البداوة» والدرحل على مدنيات الشرق والغرب. ولقد تثبعنا في هذا التاريخ تطور طريقة العيش هاتين جنباً إلى جنب، وأشرنا إلى أنه كلما اتسعت رقعة المدنيات وتحسن تنظيمها، كانت تتحسن كالملك أسلحة المترحلين وتزداد مرعة حركتهم و مرتفع مستوى ذكائهم. ولم يكن المترحل

أو البدوى مجرد رجل غير ممدن ، بل كان إنساناً متخصصاً في طريقة عيشه لايبرح تخصصه يعمق ويزداد . ومنذ بداية التاريخ فاتها ، كان المترحلون والمستقرون في تفاعل دائم . وقد سبقت الإشارة إلى غارات الساميين والعيلامين على سومر . ورأينا الإمبرطورية الغربية وكيف حطمها مترحلو السهول العظيمة ، ورأينا فارس تسقط في أيدى مترحلي بلاد العرب الذين ميزون بيزفطة هزا . والعدوان المغولي الذي ايتدأ مع ابتداء القرن الثالث عشر ، يعد حتى الآن تمنو غارة أعيد فها خرث الجاعة الإنسانية حرثاً مدمراً .

ظهر المغول على مسرح التاريخ فجأة هابطين من غياهب المجهول قرب بهاية القرن الثانى عشر . وكان ظهورهم فى القطر الواقع شمالى الصين بأرض الأرومة الأصلية للهون والترك ، وواضح أنهم ينحدون من نفس سلالة هذين الشعبن . تجمعوا بعضهم مع بعض تحت لواء رئيس ما نحن يمثقلن ذاكرة القارئ باسمه ، وما لبث قوتهم أن نمت تحت قيادة ابنه چنكير خان بسرعة خارقة للمادة .

ولعل القارئ لايزال يذكر التفكك التنديجي الذي ألم بوحدة الإسلام الأصلية و فقد كان هناك صند بداية القرن الثالث عشر ، عدد من الدول الإسلامية المتغرقة المنازعة في غرب آسيا . كانت هناك مصر (ومعها فلسطين وجزء كبر من سوريا) تحت حكم خلفاء صلاح الدين ، وكانت هناك اللولة السلجوقية في آسيا الصغرى ، وكان ما يزال هناك خلافة عباسية في بعداد ، وثمة إمبراطورية ضخمة تحت إلى المشرق من هذه أيضاً هي الإمبراطورية الحوارزمية ، وهي إمبراطورية الأمراء الأثراك في خيرة الذين غزوا عددا من الإمارات السلجوقية الصغيرة المتنارة ، وحكموا الشقة المعتدة من وادى الجانج (الكنج) إلى الدجلة . ولكن سلطامهم على السكان الفرس والهنود كان غهر وطيد .

وكانت الحضارة الصينية كقريقتها العربية على حال من الوهن تغرى ما أى فاتح مقدام مغامر . ولعل القراء يذكرون شحة ألفيناها على الصين فى هذا التاريخ وأنها كانت فى القرن السابع إبان السنوات الأولى من حكم أمرة تانج ، يوم كان ذلك الإمبراطور الأريب المقتلس و تاى تستُونج Tai Tsung ، يوازن بين مزايا كل من المسيحية النسطورية والإسلام والبوذية وتعالم و لاوتزى Lao Tae ويميل فى جلة الأمر لملى الاتحد بأن لاوتزى معلم يضبارع فى الفضل أى واحد من الآخرين . وقد وصفنا استقباله للرحالة يوان تشوانج . وتسامح تاى تسنج مع جيسم الديانات . ولكن كثيرين من خلفائه أنزلموا بالعقيدة البؤذية اضطهادات ، لا تداخلها رحمة د على أنها أدهرت بالرغم من هذه الاضطهادات . ولعبت أديرتها دوراً مشاجا بعض الشهد للدور اللدى لعيته المنظات الديرية المسيحية فى الغرب فى أخلها بناصر العلوم بادئ لرأى ثم فى اعتياقها سبيل العلم بعد ذلك .

ستى إذا وأى القرن الماشر ، كانت أسرة تائج القوية بلغت من الانحلال أقسى المدى . إذ استمرت عملية الاضمحلال المألوفة المسببة عن تعاقب مجموعة من الناحية الفساق والعاجزين على عرش الإمراطورية ، وانقسمت الممين مرة ثانية من الناحية السياسية إلى عدد معنبر من الولايات المتطاحة في أثناء ما يسمى و عصر الولايات المشرى ، وهو عصر من فوضى استمرت طوال النصف الأول من القرن العاشر ه ثم نفأت أمرة جديدة هي أمرة صنح (Sung) الثيالية (٩٦٠ – ١١٧٧) التي تشرت في البلاد ضرياً من الوحدة ، ولكنها ظلت مع ذلك في حالة كفاح مستمر مع عدد من الشعوب الحونية الزاحفة من الشهال ، والضافطة جنوباً على امتداد الساحل الشرق ، وجاء زمن تغلب فيه شعب من هوالاء هم شعب الخيتان (Khitan). هونية أخرى ، هي إمبراطورية الكن (الله) التي جعلت عاصمتها بيكين وحداها الجنوبي المناطق الواقعة جنوب بهر هوانج هو .

وتقلصت ظلال أمبراطورية صنيح أمام إمبراطورية الكن هذه . وفي (١٩٣٨) نقلت العاصمة من نانكن التي أصبحت عند ذلك شديدة القرب من التخوم الشالية ، إلى مدينة هان تشاو على الساحل . وتعرف أسرة صنيع منذ (١٩٢٧) إلى (١٢٩٥) ولعم صنيح الجنوبية . وإلى الشهال الغربي من أراضيها ، كان هناك عند ذلك إمبراطورية الهميا (Hisia) التنارية ، وإلى الشهال إمبراطورية الكن ، وكان السكان الصيليون



(شکل ۱۹۵) شریطة أوریا رآیمها حوال ۱۲۰۰ م

فى كلتا الدولتين تحت حكام ما تزال تقاليد المترحلين قوية الأثر فيهم . ومن ثم ترى . أنه هاهنا فى الشرق الآسيوية تحت . المنا فى الشرق الآسيوية تحت . حكام من غير بنى جلدتهم ، كما كانوا على استعداد لقبول أى فاقع إن لم يبلغ بهم . الأمر . حد الترحيب به .

فأما ثبال الهند فكان كما سبق أن لاحظنا أرضاً يمثلها الفاتحون عند مستهل القرن الثالث عشر . وكانت في مبدأ الأمر جزءاً من إمبراطورية خيوة ، ولكن حدث في (١٢٠٦) أن حاكماً مغامراً اسمه قطب (Киtub) - كان عبداً مملوكاً وارتنى حتى أصبح والياً على الولاية الهندية - أنشأ في دلمي دولة إسلامية متفصلة هي المندوستان . وكانت البرهمانية كما صبق أن ذكرتا ، قد طردت البوذية من الهند منذ أمد بعيد ، على أن المعتنقين للإسلام كانوا ما يزالون أقلبة حاكمة في المبلاد .

تلك عجالة وجيزة عن -ءالة آسيا السياسية ، عند ما شرع چنكيز خان يوطك (١٦-معام) هولته بين المترحلين فى الفطر المحصور بين بمعرتى بلكاش وبايكال عند مفتتح القرن الثائث عشر .

٧ _ قيام المغول وانتصاراتهم

كالت سيرة فتوح چنكيز خان وخلفائه المباشرين مثار دهشة العالم ، ولعلها . لم تدهش أحدًا أكثر مما أدهشت هولاء الحانات المغول أنفسهم .

كان المفول في القرن الثانى عشر قبيلة خاضعة لمولاء والكن الدين فنحوا شهال شرق الصن . وكانوا قبيلة من الفرسان المترحلين يعيشون في خيام ، ويعتمدون في طعامهم بوجه رئيسي على منتجات لين الأفراس ولحومها . وكان الرحى والصيد عمهم الذي تدخل الحرب عليه شيئاً من التنويع . وكانوا عندما تقوب الثلوج ينتقلون شهالا انتجاعاً للمراعى الصيفية ، كما ينتقلون مع الشتاء جنوباً إلى المراعى الشتوية على جارى عادة أهل المهوب . وابتدأ تلوجم على الشئون العسكرية بعصيان ناجع قلموا به على والكن ع . كانت موارد نصف الصين في قبضة إميراطورية الكن ، وما واقت المغول أثناء الكفاح شيئاً كثيراً جداً عما لدى المصينيين من العلوم المسكرية . وما واقت نهاية القرن الثانى عشر حتى أصبحوا قبيلة مقاتلة من طراز عمتاز .

وقد أنفق چنكيز الأحوام الأولى من حياته العملية فى النهوض بعدته الحربية وقى تمثّل المغول والقبائل المخالطة لهم والمحيطة بهم وإدماجهم جميماً فى جيش واحد منظم . وقده وجه أول امتداد عظم لسلطانه نحو الغرب ، وهناك استطاع الحان أن يضم قبيلتي القرغير والبويغور (Uighura) ...

⁽١) يظهر اليويفود الاول مرة في الذرن السادس ، حين كانوا يمرقون بامم الكاوكد (Kao-Ku) أي المربات العالية وهم أحد فرص الترك الرئيسيين في منثوليا الشالية وما سولها . وتنظي مدة مظهم واستقلالم ما بين ٧٥٠ حـ ٥٨٥ وهو زمان يقابل رفعة ونجد أسرة تانج الشهيرة .

وبلغ اليويغور مستوى ثقافياً حالياً جداً ، وأظهرت البسوث الأركيرلوجية الحديثة مقداراً ضسغا مق الأدب وأثنن اليويغورى ، ومنها نعلم أن المسيسية والبوذية والملاوية كانت تمارس كلها في علكتهم ، إذ كانوا يرامون أقصىفاية لتساسح الديني طرحين كانت المانوية حي دين الدولة . وكان اليويغور طل التحقيق هم أشد •

إلى جيشه عن رغبة واقتناع لا عن قهر وغلبة . وعندئذ هاجم إمعراطورية الكن واستولى على يبكن (١٩٦٤) . فانضم إليه شعب خيان اللين أخضعهم الكن منذ قريب وبذلك ضموا مقد راتهم إلى مقد راته ، فأسلوا إليه بذلك معاونة عظيمة جداً . فأما السكان المسينيون المستقرون فقسه استمروا فيا هم فيه من بدر البدور وحصد ، الحصاد والتبادل التجارى أثناء تغير السادة هذا دون الانضمام بثقلهم لأى من الطرفين .

ولقد سبق أن ذكرنا الإمراطورية الحوارزمية القرية المهدالتي شملت التركستان وفارس وشالى الهند . كانت هذه الإمراطورية تمتد شرقاً حتى قشغر ، ولا بد أنها كانت تبدو من أكثر إمراطوريات زمانها تقدماً وأملا في المستقبل . وقد أرسل چنكىز خان رسله إلى خوارزم وهو ما يزال مشتغلا بالحرب مع إمعراطورية الكن. وأقدمت خوارزم على قتل الرسل — وهى غباوة لا يكاد يصدقها عقل . ذلك أن

— بيران المين المناليون حضارة ، ومع أن ملكتهم دمرتها (٥٨٠) قبيلة تركية فيالية عي قبيلة المناسس مشر القدون عن المناسس مشر إمارات ودويلات يوبغور ية حبيرة تشفأ ، على حين أنه أثناء المدة كلها كان اليويغور يستحدون بكثرة في القضاء الإسلامي - ويقوسون في مصالح الحكومة بالتركستان بنفس الدور الذي لدبه المقدوس تحت حكم المدول في دلهي والهنالون أثناء المكيم اليريطاني بالمند .

وتحدثنا فترة تاريخ الشرق التي تبدأ بطهور جنكيز خان في القرن الثالث مشر وتقبى يطنع الفسطنطيلية هل يد الأتراك العناقيين ، عن قيام وسقوط مدد كبير من الأسرات الذركية الحاكمة في آسيا الوسطى والهند وفارس . ومن العبيب أن هذه الأسرات كان يؤسسها في معظم الحالات رجال يدأوا حياتهم عاليك . وقد ورد هذا البيان الدريب التالي عن الأتراك في تحطوط فارسي لم ينشر بعد ، يرجم إلى القرن الثالث عشر :

" من المملوم الشائع أن جميع الأجناس والطبقات ، تكون مكرمة عمر مة وهي مقيمة بين ظهراقي شعبا وأن يلادها ، والكنهم عندما يفادرون بلادهم ، هميمون تعساء أذلاه . والترك طن نقيض ذك ، فإنهم عندما يكولون بين بني جلدتهم ، يكونون مجرد تبيلة بين قبائل كثيرة ، ولا يستمتون بأن قرة أو منزلة خاصة . ولكنهم هنسدما يفادرون موطنهم إلى دولة إسلامية - (وكالم ابتعدوا من بلادهم وأفاريهم ، نادت قيمتهم رفعة وتقفيرهم سموا) - يصبحون أمراه وقادة المبيوش . ولم يحدث منذ أيام آمم حتى العمر الحاضر أن أصبح علموك مشترى بالمال ملكا قط إلا بين الأتراك ؛ ومن الأتوال المأثورة من أفراسياب (Afrasyah) الدى كان ملكاً على الدرك وكان خارقا المادة في حكمه وهامه توله ؛ تيجان الملوك وآذان الدواق ع .

الحكومة الخوارزمية _ إن جاز أن نستعمل لغة اليوم السياسية _ رأت ألا تعرف · بجنكبز محان وسلكت حياله ذلك المسلك الجرىء ﴿ وعنسله ذلك (١٢١٨) اجتاح جيش الفرسان العظيم الذي وطد أركانه چنكيز خان ونظمه ، هضبة الپامبر وهبط إلى التركستان . كان جيشاً حسن العدة والسلاح ، والراجع أنه كانت مُعه بعض المدافع والبارود يستعملها في الحصار . ذلك أن الصينيين كانوا على التحقيق يستعملون البارود في ذلك الزمان ، وأن المغول تعلموا استعاله منهم . فسقطت قشغر وخوقند وَبُخارى ثُم سمرقند عاصمة الإمىراطورية الخوارزميــة . ومن بعدها لم يعد شيء بالإمراطورية الحوارزمية يستطيع صد المغول ، فاندفعوا غرباً نحو بحر قزوين ثم جنوباً حتى لاهور . وإلى الشبال من بحر قزوين التتى جيش مغولى بقوة روسية آتية من كييڤ . ونشبت بين الفريقين سلسلة من المعارك ، كسرت فيها الجيوش الروسية كسرًا نهائياً ، وأخل غرندوق كبيڤ أسراً . وهكذا ظهر المغول على الشواطئ الشمالية للبحر الأسود . وتولى الذعر القسطنطيلية ، التي وجهت كل جهدها إلى إعادة بنساء تحصيناتها . وفي نفس الوقت كانت جيوش أخرى تشتغل بفتح إمبراطورية هسيا في الصين فألحقت هذه بمُثلث المغول . ولم يبق من إمبراطورية الكن سلما غير مقهور إلا الجزء الجنوبي . وفي (١٢٢٧) مات چنكىز خان في أوج حياة حافلة بالنصر بعد أن أصبحت إمبراطوريته تمتد من المحيط الهادى إلى نهر الدنيىر . وفوق ذلك فإنها كانت إمبراطورية لا تبرح رقعتها تتسع بقوة .

على أنها ، شأن كل الإمبراطوريات التي أسسها المترحلون ، كانت قبل كل في المبراطورية حسكرية وإدارية بحتة ، وكانت هيكلا وإطاراً أكثر منها نظام حكم و وكانت تتمركز حول شخصية العاهل ، وكانت علاقتها بكتلة الشعوب اللين تحكمهم مجرد علاقة ضرائب تجبى الإنفاق على القبيلة . على أن چنكيز خان كان قد دعا لمعاونته سياسياً عظيم الكفاية من مدبرى إمبراطورية الكن واسع الحبرة عليا بكل تقاليد الصينيين ملماً بعلومهم . وقد استطاع هسادا السيامي المختلف يليوتشونزاى تقاليد الصينيين ملماً بواصل إدارة شئون المغول مدة طويلة بعد وفاة چنكيز خان ، وليس هناك أدني ريب في أنه من أعظم أبطال السياسة في التاريخ . فكم روض من شراسة

سادته وهميميتهم ، وأنقذ مع يد التلمير مدناً لا تحص ومنتجات فنية قيمة لا حصر لما . ودأب على جمع السجلات والمخطوطات والنقوش ، ولما أنهم بالرشوة ، ظهر أن كل ما في حوزته من ثروة يتكون من الوثائق ومن بعض آلات موسيقية . وربما جاز أن ينسب إليه ، بقدر ما يعزى إلى جنكيز خان ، ما استمتحت به الأداة الحربية المفولية من كفاية . وربما جاز لنا أن ننبه الأذهان أيضاً أن آخاق آها بأكلها كان يسودها إبان حكم چنكيز خان أتم وأكل أنواع النسامح الديني .

كانت عاصمة الإمراطورية الجديدة عند وفاة چنكرز ما الزال هي مدينة قر، فورم المتدررة العظيمة في منفوليا . وهناك انتخب جعية من زعماء المغول أوجداى خان ابن چنكرز خليفة له . فواصل المغول في عهده الحرب على بقايا إمراطورية العمينية التي الكن ، حتى أخضعت إخضاعاً تاماً (١٢٧٤) . وكانت الإمراطورية العمينية التي تحت حكم أسرة صنيح في الجنوب عوناً المغول في هذا العمل ، وبلا دمروا حصنهم الواقي المدي يمنعهم من الغزاة الفائمين أعداء الطرفين . ومن ثم سارت الجيوش المغولية عبر آسيا إلى الروسيا لا تلوى على شيء (١٢٣٥) وهو زحف عسكرى والع سأحذ بالألباب . فدمرت كبيف (١٢٤٠) وأصبحت كل الروسيا تقريباً تابعة للمغول وتببت بولندة وخربت وأبيد جيش عنطط من البولنديين والألمان بمعركة ليجنز (Llegnitz) . ويبدو أن الإمراطور فردريك الثاني لم يقم بأى مجهود عظم ليوقف ذلك السيل المنهم .

يقول بيورى في ملحوظاته على كتاب واضمحلال الإمبراطوريه الرومانية وسقوطها لجيبون »: ولم يحدث إلا في المعمر الحديث أن أخط العالم الأورى يفهم أن نجا الجيش المغولي اللمي اجتاح بولندة واحل هنظريا في ربيع (١٢٤١) قد تم يفضل خطط اسر التيجية بالمقة خاية الكال وأنه لم يكن واجعاً إلى مجرد تفوق عددى جارف ولكن هذه الحقيقة لم تصبح بعد من المعلومات الشائعة المجروفة الناس أجمعن . إذ لا يزال من الأفكار الشائعة بين الناس تلك الفكرة السوقية التي تتمثل التار في تربيل السائية عنه الرسائية عشل التار في

صورة قبيلة ضارية متوحشة تجرف كل شيء أمامها بمحض كثرة العدد ليس غبر ، وتركض بخيولها خلال أوربا الشرقية دون خطة استراتيجية مرسومة ، وتنافع من فوق كل عائق يعترض سبيلها وتتفلب عليه بمجرد الثقل العددى



(شكل ١٤٦) خريطة إمبر اطورية چنكيز خان عند وقاته سنة (١٢٢٧)

و وكم كان من المدهش أن تنفاد في الوقت المحدد وفي قوة تأثير فعالة ــ ترتيبات القائل في عمليات حربية تمتل من المسسسولا الأدنى إلى ترانسلفانيا . فمثل هذه الحملة كانت فوق طاقة أي جيش أوربي في ذلك الزمان ، وكانت وراء أحلام أي قائل أوربي . ولم يكن بأوربا ، ابتداء من فردريك الثاني فما دونه قائلد لا يعد من المبتدئين الأشمار في فن القيادة الاستراتيجية بالقياس إلى سوبوتاي (Subutai) . كذلك يجب أن يلاحظ أن المغول قد أقدموا على هذا الأمر وهم على معرفة تامة بموقف ألمجر (هنغاريا) السيامي وظروف بولندة ــ وذلك لأنهم عنوا مقدماً بتعرف الأشبار بواسطة هيئة من الجواسيس حسنة التنظم . على حين أن المحربين والدول المسيحية ، كانوا شأن المتر برين الأشبه بالأطفال ، لا يكادون يعرفون عن أعدائهم شيئاً » .

ومع أن المغول انتصروا قرب ليجنتر ، فإنهم لم يراصلوا تقدمهم غرباً . وذلك لأتهم أخلوا يدخلون إلى أواضى خابات ومناطق تلال لم تكن لتوافق ما لديهم من تكتيك (١٠ حربي . ولذا عرجوا جنوباً وأعلوا عدة الاستقرار في بلاد المجر ، وهم يقيّعون المجريين ذوى قرباهم أو يتمثلونهم ، على طريقة تدانى ما أعمله هولاء من الملهج والمتقل من قبلهم في الإسبكذين والآفار والمون المخلطان . والراجح أنهم كانوا يجيفون أن يقوموا من السهل الهنفارى بالفارات غرباً وجنوباً كما فعل المنفاريون في القرن التاسع والآفار في القرن السابع والثامن والمون في الخامس . غير أن للغول كانوا في آسها يحاربون أسرة صنح حرب غزو عنيفة ، وكانوا كذلك يغيرون على خارس وآسيا الصحفى ، ومات أوجداى موت الفجاءة ، وحدث في (١٩٤٧) نزاع حول ولاية المرش من بعده ، و دعاهم هذا الأمر إلى المودة إلى بلادهم . ولذا فإن حرومانيا عليون .

ومن حسن طالع أوريا أن الحلافات على العرش في قره قورم دامت يضيع سنن، ويدت على هـــلده الإمراطورية المائلة الجديدة بوادر التصدع. وأخيراً أصبح ه مانكوخان ، خانا أعظم في (١٢٥١) ، فين أخاه قربلاى خان حاكماً عاماً على الصين . وأخضمت إمراطورية صنح بأجمها في يطء ولكن في غير تراخ ، وبينا هي بسيل الإخضاع ، كان المغول الشرقيون يتحولون أكثر فاكثر إلى صينين في ثقاقتهم وطرائق عيشهم ، وغزا مائهو بلاد التبت وأعمل فيا تلميراً ، وفزيت فارس وسوريا بمنتهى الحد والهمة . وكان على إمرة هذه الحرب الأخيرة أخ آخر لمانكو هو هولاكو . فوجه جبوشه على الحلاقة واستولى على بغداد ، وفي هذه المدينة تلوثت يداه بإعماله اللمبح في سكانها برمهم . وكانت بغداد ما تزال عاصمة الإسلام الدينية . وكان المغول قد أصبحوا معادين للمسلمين طداوة مربرة . وزادت هذه العدادة من وكان المخول قد أصبحوا معادين للمسلمين طداوة مربرة . وزادت هذه العدادة من أوار المحلان الطبيعي بين المرحلين وأهل المدن . وفي (١٢٩٩) مات مانكوخان والتخب قويلاك عاناً أعظم في (١٣٧٠) ، إذ أن تجمع قادة المغول من أطراف هذه والتخب قويلاك عاناً أعظم في (١٣٧٠) ، إذ أن تجمع قادة المغول من أطراف هذه

 ⁽١) التكتيك : فن أو طم تجويك الغوات والمداورة بها أن المعركة وفق سهادي. مقررة .
 (١ المقرجم)

الإمراطورية الماثلة من المجر و وريا والسند والصين قد استغرق شطراً كبيراً من سنة كاملة . ولمسا كان قوبلاء من قبل عميق الاهمام بالشئون الصينية ، فإنه اتخذ بيكن عاصمة له بذلا من قره قورم ، وأصبحت قارس وسوريا وآسيا الصغرى مستلة نملا تحت حكم أخيه هولاكو ، على حين أن قبائل المغول في الروسيا والمناطق الآسيوية المجاورة للروسيا وجماعات صغيرة مغولية متنوعة في المركستان ، قد أصبحت أيضاً منفصلة تقريباً . ومات قوبلاى (١٢٩٤) ، و بحوته ذالت كل سيادة للخاد الأكبر حتى الإسمية منها .

وعند موت قوبلاى كانت هناك إمر اطورية مغولية رئيسية عاصمتها پيكن ، نضم كل الصن ومنغوليا ، وثمة إمر اطورية مغولية عظيمة ثانية هي إمر اطورية التهجاق (Kipchak) في الروسيا ، وثم إمر اطورية ثالثة في فارس ، وهي تلك التي أسمها هولاكو ، وهي الإمر اطورية الإيلخانية (Ilkham) التي كان الآتراك السلجوقيون في آسيا الصغري تابعين لما ، وكانت هناك دولة سيبرية تقع بين اللهجاق ومنغوليا ، ودولة أخرى منفصلة ، تركيا الكبرة ، في الركستان . ومما هو جدر بالملاحظة بوجه خاص أن الهند فيا وراء البنجاب لم يغزها المغول أبداً أثناء تلك الملدة ، وألك بقيادة ملطان مصر دحر قطبغا قائد هولاكر في فلسطين دحراً تاماً وأن جيشاً بقيادة ملطان مصر دحر قطبغا قائد هولاكر في فلسطين دحراً تاماً الفريقية . وذلك أنه عند (١٧٦٠) كان دافع الفرول من بعدها في غرات الفرقة والاممحلال .

ودامت أيام الأسرة المتولية التي أسسها قوبلاي خان في الصين ، وهي أسرة يوان من (١٢٨٠) إلى (١٣٦٨) . ثم تجادد من بعد ذلك نشاط المقول في غرب آسيا تجادا قدر له أن يؤسس ملكية أرسخ قاساً وأطول عمراً في بلاد الهند . ولكن كان الأفغان في القرنين الثالث عشر والرابع عشر هم سادة شهالي الهند وليس المغول ، وامتدت لم إميراطورية أفغالية حتى صمح منطقة الد"كنّ

٣ – رحلات ماركو يولو

لا جرم أن قصة الفتوح المغولية من أعجب القصص وأجدرها بالتديه في موكب التاريخ بأكمله . وما تستطيع فتوح الإسكندر الأكبر أن تدانيها في العظم وإنساع المدى . كما أن أثرها فى نشر الأهكار بين الناس وتوسيع آ فاقها وفى استنارة أخيلتهم كان هائلا ضخماً . ذلك أن آسيا وأوربا الهوبية جميعا أقامتا زمانا وهما تستمتعان بالاتصال الحر والاختلاط المباشر ؛ وفتحت كل الطرق الموصلة بينهما فتحا موقوتا ؛ كما ظهر ممثلون لجميع الأمم فى بلاط قره قورم .

وأزيلت الحواجز الفاصلة بن أوربا وتسيا وهي التي نشأت عن الحلافات الدينية بن المسيحية والإسلام . وأخلت الآمال الكبار تداعب اليابوات في تحويل المغول إلى المسيحية . وكانت ديانهم الوحيدة حتى ذلك الحين هي الشامانية(١) وهي ضرب بدائي من الوئلية . وكان البلاط المغولي مسرحا اختلط فيه مبعوثون من لدن البابا وكهنة بوذيون من الهند ، وحمال صناع باريسين وإيطالين وصينين ، وتجار بيزنطيون وريونمين من الفرس والمنود . وإنا النسم وأرمن ، بموظفين من العرب وفلكين ورياضين من الفرس والمنود . وإنا النسم في التاريخ الشيء الكثير المستفيض عن حلات المغول وملمابهم ، ولكنا لا نسمع القدر الكافي عن استطلاعهم ورغبتهم في العلم . ولعل تأثيرهم في تاريخ العالم لم يكن بالغالج سداً بوصفهم شعباً مبتكراً خلاقاً بل بوصفهم نقلة المرفان وحملة المناهج بالغالب . فكل ما قد يستطيع المرء أن يحصل عليه من العلم بشخصيتي جنكيز وقوبلاي الغامضيتين الروءافسيتين يصلو بنا إلى أن نوقر في أذهاننا الإنطباعة التي تقول بأن هدين الرجلين كانا عاهلين فكهمين خلاقين بدرجة لا تقل عن الإسكندر الأكمر تلك الشخصية الوهاجة الأنانية ، ولا عن شران ذلك المبتعث للأشباح السيامية الدفينة واللاهوقي الناشط والأمي في نفس الوقت .

ياءت جهود البعثات التيشيرية التابعة البابوية فى منغوليا بالنشل والإخفاق. ذلك أن المسيحية كانت تفقد قدرتها على الإقناع. وما كان المغول يضمرون المسيحية أى تحامل ، بل الواضع أنهم كانوا فى بداية الأمر يفضلونها على الإسلام. على أنه كان من الجلي أن البعثات التبشيرية التي حلت ببلادهم كانت تستعمل ما استقر فى

 ⁽١) الشامائية : هي المحتدات والمائدسات الدينية الل كان مليها سكان آميا الثابانية القدماء وتقوم على فكرة أن الحير والشر يمكن التصرف فيصا بوساطة السحر .

تعالم يسوع من قوة ضخمة فى تزكية مدعيات البايا الجسام فى السيادة الدنيوية . لذا فإن المسيحية – وقد أتلفت على تبك الشاكلة – لم تكن تحوى من عناصر الجودة ما يجعلها مقبولة لدى الذهن المغولى . وربما جاز أن تروقهم فكرة جعل الإمبراطورية المغولية جزءاً من ملكوت الرب ، لا جعلها إقطاعاً تابعاً لجماعة من القساوسة الفرنسين والإيطالين ، الذين كانت مدعياتهم ضخمة ، بمقدار ما كانت قدراتهم وآفاقهم ضعيفة هزيلة ، والذين كانوا آناً من صنائع إمبراطور ألمانيا ، وآناً ممن يتصمهم ملك فرنسا ، وآونة من ضحايا أحقادهم الصغيرة وغرورهم التافه .

فنى (١٢٦٩) أرسل قويلاى خان إلى البابا بعثة كان من الواضح أن الهذف منها هو الرصول إلى وسيلة ما التعامل المشرك مع المسيحية الغربية . فطلب أن يرسل البابا إلى بلاطه مئة من رجال ذوى علم ومقدرة ليضعوا أسس التفاهم بن الطرفين . ولكن يعتنه وجدت عرش البابوية في العسالم الغربي شاغراً وألفته منهمكاً في إحدى تلك المناز حامت، التي يكثر اشتجارها في تاريح البابوية حول وراثة الكرمي البابوي . وظل منصب البابوية شاغراً سنتين كاملتن لا يشغله أي بابا . فلما أن تقلد المنصب أحد البابوات آخر الأمر ، أرسل راهبين من الدومينيك لينقلا إلى حكمه ودينه أقوى دولة في آسبا ! ! ! . وقد هال هذين السيدين الفاضلين ما كان ينتظرهما من بعد الشقة في وماعب السفر ، واقسا منذ البداية المهاذر التعلمي من المهمة .

على أن هذه البعثة العقيمة لم تكن إلا ولحدة من بين عدة محاولات للاتصال ، ولكنها كانت على الدوام عاولات ضعيفة واهنة الروح ويعوزها ذلك المضاء النادى القاهر الذى كانت تنسم به البعثات المسيحية الأولى . وقد أرسل إنوسئت الرابع بالفعل بعض رهبان الدومينيك إلى قره قورم ، كذلك أرسل القديس لويس الفرنسي المبوث واغفلفات المقدمة بطريق فارس . وكان لدى مانكوخان عدد جم من النصاوى النساطرة يقيمون فى بلاطه ، كما أن مرسلين البابا وصلوا إلى بيكين بعد ذلك فعلا ؛ فإنا نسسم عن تعين بعض القاصدين الرسوليين وأساقفة متنوعين فى بلاد الشرق ، على أنه يلوح أن الكثيرين من هولاء كانوا يفقدون شجاعتهم أو يفقدون الشرق ، على أنه يلوح أن الكثيرين من هولاء كانوا يفقدون شجاعتهم أو يفقدون

حاتهم قبل وصولم إلى الصين . فكان هناك قاصد رسولى بابوى في يبكين في المدور (١٣٤٦) ، ولكن يلوح أنه كان مجرد دبلوماسى بابوى . ولما أن سقطت أسرة يوان المنولية (١٣٤٨) ، دهب بسقوطها كل ما كان للبخات التبشيرية من فرصب ضيّلة مضمحلة ذهاباً لا رجعة له . وخلف يبت منج (Ming) بيت يوان ، وكان بيت منج أسرة شديدة النمك بالقومية الصينية ، فأظهر في بادئ الأمر عظم المداوة للأجانب كافة . ولعلهم أحدثوا ملبحة أوقعوا فيسا بالبخات التبشيرية التصرائية . فإنا لا تعرد نسمع بعد ذلك حتى المهد المأخر لأسرة منج (١٦٤٤) إلا النزر القليل عن المسيحية في الصين سواء منها الكاثوليكية أو الفسطورية . ثم بللت محلولة جديدة تكاد تكون أكثر توفيقاً من سايقتها لقشر المسيحية الكاثوليكية في الصين قام ساليسوعيون (الحزويت) ، على أن هذه الموجة الثانية من البخات التبشيرية وصلت الى الصين عراً .

حدث في (١٢٩٨) أن شبت معركة بحرية بن الجنوبين والبنادقة ، انهزم فيها الأخيرون . وكان بين الأسرى السبعة الآلاف الذين أسرهم الجنوبين سيد من البندقية المحمد ولا ين أصدهم الجنوبين سيد من البندقية وقد اشترك في قلك البعثة الأولى التي أرسلت إلى قوبلاى خان ، غير أنه واصل السير على حين عاد الراهبان الدومينيكيان أدراجهما . وكان ماركو بولو هذا يقتل السأم وهو سمين في چنوة ، بأن يقص قصة رحلاته على مسامع كاتب بعينه اسمه رستشانو وهو سمين في چنوة ، بأن يقص قصة رحلاته على مسامع كاتب بعينه اسمه رستشانو المتعلقة بمدى ما في قصة رستشانو من صدق المطابقة الواقع . ولمنا نعرف على وجه المتحقيق بأى لفة كتبت . ولكن لا يتطرق أى شك إلى الصدق العام الذي يكتنف هذه المتحقيق بأى لفة كتبت . ولكن لا يتطرق أى شك إلى الصدق العام الذي يكتنف هذه ولا سيا كل من أوتى الذكاء المتوقد من الرجال . وكتاب و رحلات ماركو بولو ، ولا سيا كل من أوتى الذكاء المتوقد من الرجال . وكتاب و رحلات ماركو بولو ، من أعظم كتب التلايخ . فهو يفتح أمام هن خيالنا رتاج عالم القرن النالث عشر — ذلك القرن الذل شهد حكم فودوك الثانى وبدايات عاكم التعنيش ... يفتحها بصودة القرن الذل شهد حكم فودوك الثانى وبدايات عاكم الفتيش ... يفتحها بصودة القرن الذل شهد حكم فودوك الثانى وبدايات عاكم الفتيش ... يفتحها بصودة القرن الذي شهد حكم فودوك الثانى وبدايات عاكم الفتيش ... يفتحها بصودة القرن الذي شهد حكم فودوك الثانى وبدايات عاكم الفتيش ... يفتحها بصودة

لا يبلغها أى تدوين تاريخي سطره مؤرخ. فإنه أدى بصفة مباشرة إلى اكتشاف أمريكا ،



ر شكل ١٤٧) خريطة الولإيات المغولية حوالى (١٢٨٠) م ورحلات ماركو پمولو

يداً الكتاب بالحديب عن رحلة نقولو يولو والد ماركو وعمه مافيو يولو إلى الصن وكان هدان الرجلان تاجرين من البنادقة من فوى المكانة يعيشان فى القسطنطينية ، وحدث فى زمن ما يقارب (١٣٦٠) أنهما رحلا إلى بلاد القرم ومها إلى قازان ، وصدت فى زمن ما يقارب (١٣٦٠) أنهما رحلا إلى بلاد القرم ومها إلى قازان ، ومن ذلك المكان او تحملا إلى بخارى ، حيث صادفا جاعه من رسل قويلاى خان فى الصين موفدين إلى أخيه هولا كوف قارس . وألح عليهما هولاء المندوبون أن يصحباهم الحاملة ألمان العظيم ، الذى قم ير قبل ذلك الزمان أى رجل من الشعوب اللاتينية . فواصلا سيرهما ، وواضيح أنهما أحدثا وقعا حسنا جداً لدى قوبلاى ، وملاً صدره بالاهيام عضارة النصرائية . فحملهما الخان تلك الرغية المتعلقة بطلب مئة من الملمين والعلماء ، ويكونون رجالا أذكياء ملمين بالفنون السيمة وقادرين أن يخوضوا المحمات الحدل ، الثقاش ، ويستطيعون أن يثيتوا بشكل بين لعبدة الأصنام ومن اليهم من أقورام ، أن شريعة المسيح خير الشرائع ، وهو الأمر الذى أشرنا إليه من فورنا .

على أنهما عندما عادا كالت المسيحية في دور من الفوضى لم يستطيعا معه إلا بعد سنتن أن يحصلا على التغويض بالرحيل إلى الصين ثانية في سحبة هذين الراهبين الدوميليكيين الجبانين . وأخذا معهما ماركو الصغير ، وإلى وجوده وإلى ما حل به من السأم فيا عقب ذلك من أسره في چنوة ، يرجع الفضل في حفظ هذه الذكريات والحبرات الممتمة وبقائها لنا .

ارتحل أفراد أسرة بولو الثلاثة بطريق فلسطين وليس بطريق بلاد الفرم ، فيملّهم في الرحلة السابقة . وكانت معهم لوحة ذهبية وأمارات أخرى من الحان العظم ، والرحلة السابقة . وكانت معهم لوحة ذهبية وأمارات أخرى من الحان العظم قد سألم أن يجلبوا معهم شيئاً من الزيت الذي يوقد في مصباح الناووس المقدس ببيت المقدس ، ومن ثم ذهب الحياعة إلى هناك أولا ، ثم ساروا بطريق قبليقية إلى أرمينية . وقد أو غلوا الإلى هــــادا الحد لأن سلطان مصر كان يغير في ذلك الزمان على الممتلكات الإلىخانية () . ومن أرمينية انجدروا في أرض الجزيرة حتى هرمز (Ormuz) على الخليج الفارسي ، كأنما كانوا يفكرون في القيام برحلتهم بحراً . والقوا في هرمز بتجار من المند . على أنهم لسبب ما لم يسافروا بالسفين ، بل انجهوا بدل ذلك شالا عشر قن الصحارى الفارسية ، ومن ثم بطريق بلشخ إلى قشفر من فوق الهامر ، غير هوانيج هو ومنسه إلى بيكن ، ويسمى بولو مدينة بيكن باسم (كامبالوك) ، ثم يسمى الصين الشهالية باسم و مانزى » .

وكان الحان العظيم في پيكن ، فأقيمت لم وليمة تجلى فيها كوم الفيافة . ومسر قوبلاى من ماركو خاصة ، إذ أنه كان صغير السن ذكياً لبقاً ، وواضح أنه أنقن اللسان التيرى إتفاناً تاماً . فأسند إليه منصب في الجكومة وأرسل في مهام حديدة ، وخاصة في الجنوب الغربي للصن . والقصت التي رواها تتحدث عن مساحات

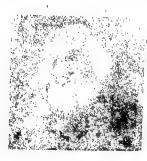
 ⁽١) الإيلىغانية , أسرة منولية حكت فارس بين السنه والعراق وآسيا الصغرى في القرئين
 ١٤ ١ ١ . (للشريج)

 ⁽٢) لب نور (Lobsor) مجموعة من البحيرات النسطة في صحراء تكلامكان بالفركستان الدرقية .
 (١ المقرح)

منهسطة فسيحة من الأرض البسامة البادية الرخاء و حيث توجد على طول الطريق
دور الضيافة المسافرين ٤ ، و وكرمات الأعتاب البديعة والحقول والبساتين المونقة ،
و وعن أديرة كثيرة » ، و وعن رهبانٌ بوذيين ، وعن صناعات القباش المصوع
من الحرير واللهب ، وكثير من الديباج (التافتا) البديع ، وعن مجموعة لا آخر لما
من المدن والمبلدان الكيرة وهلم جر » ، فأثارت في أوربا لأول وهلة رنة من عدم
التصديق ، ثم ما لبثت أن ألهبت خيالها على بكرة أبيها

م إنه تحدث عن يورما ، وعن جيوشها العظيمة الحاوية منات من الفيلة ، وكيف هزم ناشبة (Pegu) . هزم ناشبة (Pegu) . هذم ناشبة (Pegu) . هذم ناشبة (Pegu) . هذه عند المغول هاته الحيوانات ، وكالك حدثنا عن فتح المغول لهيجو وأحدث عن البابان مبالغاً عبالغة عظيمة في كية اللهب في ذلك القطر . وأدّ عني من ها الم المعجب ، حديثه عن المسيحين وعن الحكام المسيحين في بلاد العبن ، وعن شخص يعينه هو القسيس يوحنا (Prester John) اللي كان و ملكاً ، على شعب نصراني . فأما ذلك الشعب فإنه لم يره . والظاهر أنهم كانوا قبيلة من التمر النسطورين يسكنون منغوليا . والراجع أن عاطفة يمكن إدراكها وقهمها غلبت على رستئشائو فجملته يبائم في توكيد ما لا يد أنه

لاح في عينية أصغم أعاجيب القصة جماء ، ومن ثم أصبحت قصة بريسر جون (القسيس يوحنا) من أعظم الأساطير إثارة للأشمان أثناء القرنين شجع روح الإقدام الأوربية تشجيعا مائلا زعمهم أنه يوجد في الصين تلك البلاد السحيقة البعد، عجتمع من لمنواتهم في الدين ، مفروض أنهم مستعلون للرحيب بهسم وبدل العون لحم وظل ماركو متولياً حكم مدينة



(شکل ۱۱۸) سادکو پولو (تصویر تیتیان)

وافيح تشو (Yang Chow) ثلاث سنوات ، والراجح أنه لم يختلف كثيراً كأجنبي فى فغل الصيلين عن أي تتارى آخر . ولعله أوفد أيضاً فى بعثة إلى الهند . إذ تدكر السجلات الصينية اسم شخص منين هو يولو تصفه بأنه ملحق بالمجلس الإمبراطورى فى (١٢٧٧) ، وهو مصداق ثمن جداً يثبت صحة قصة يولو بوجه عام .

استفرقت رسلة آل بولو إلى الصين زهاء ثلاث سنوات ونصف وظلوا هناك قراية ستة عشر هاماً . ثم أخذ الحنين إلى الوطن يداخلهم . ذلك أتهم كانوا صنائع قربلاى وموضع حايته ، ولعلهم أحسوا أن إيثاره إيام بالرعاية ربما جر عليهم غيرة وخيمة العاقبة بعد نماته . فالتمسوا منه الإذن بالرجيل إلى بلادهم فأى عليهم ذلك ردحا من الزمان ، ثم سنحت لهم بعد ذلك فرصة . ذلك أن أرجون ملك فارس الإيذخاني وحفيد هو لاكو شقيق قوبلاى ، كان أرمل من زوجته المغولية ، ووهدها وهي على فراش موتها ألا يتروج إلا مغولية من نفس قبيلتها . فأرسل السفراء إلى يبكن واختبرت له هناك أسرة موائمة ، وهي فتاة ألمانية عشرة . ولكي يبكن واختبرت له هناك أمرة موائمة ، وهي فتاة ألمانية عشرة . ولكي وطلب النبلاء المكلفون بمرافقتها أن يستصحبوا معهم آل بولو لأنهم رحالة مجربون وحكاء حصيفون ، واغتتم آل بولو هذه النبزة التي تتبح لهم ركوب الطريق المتبح المل وطنهم .

أقلمت البحثة من مرفأ ما فى شرق الصين الجنوبية ؛ وأطالت المقام فى سومطرة وجنوب الهند، ووصلوا إلى أرض فارس بعد رحلة دامت حولين . فسلموا الأميرة الشابة فى سسلام الله إلى خليفة أرجون سلوالة أرجون قبسل وصولهم وتزوجت الأميرة ابنه . وعند ذاك سار آل يولو بطريق تبريز إلى طرايزون ، ثم أجروا إلى التسطنطينية وعادوا إلى البناقية قرابة (١٢٩٥) .

ويروى أن الرحالة العائدين وهم فى ثبابهم التعربة حيل بينهم وبين الدعول الد منزلم . وانقفىي بعض الزمان قبل أن استطاعوا أن يثيتوا شخصيتهم . وكان الكثيرون بمن سلموا بأشخاصهم ، ما يؤالون يميلون لملى أن ينظروا اليهم شزراً بوصفهم جوالع حقراء ، ولكى يبددوا عن أذهان الناس مثل تلك الشكوك أقاموا وأيمة صظيمة ، وصناحا كانت الوايمة فائمة على ساق أمروافأحضرت لمم بدلاثهم القديمة ذات البطائن ألم صرفوا الحدم ، ثم شقوا تلك الثياب ، وإذا يمجموعة لا يصدقها حقل من الباقوت المادى والياقوت الأزرق (Sapphires) والعقيق الأحمر (الهرمان / والزمرد والماس ، تنهال أمام أعين الضيفان المنهرين . وحدث حتى بعد هذا كله أن قوبلت بيانات ماركو عن حجم الصين وسكانها بشيء من السخرية الخفية . وأطلق عليه أهل اللكتة اسم د الملوفي (IL Milione) لأنه كان دائم الكلام عن الملايين من الخاس والملايين من الخوية .

تلك هي القصة جعلت الناس يحملقون بعيونهم دهشا ، في البندقية بادئ بده ثم في أفياد الأوربي وخاصة قصصي ثم في أقطار العسلم الغربي وخاصة قصصي الرمانس الأوربي في القرن الحامس حشر ، صدى الأسماء المذكورة في قصة ماركو پولو أمثال كاثاني وكاميالوك .

٤ - الأثراك العثمانيون والقسطنطينية

لم تكن رحلات ماركو بولو هذه إلا مقدمة لاختلاط جسم جداً بين الشعوب. ومع ذلك ، فإنا قبل أن نواصل وصفنا للاتساع العظيم الذي ألم با فاق أوربا الفكرية والذي أخدت تباشره تبدو ، والذي كان لكتاب رحلاته عليه فضل جوهرى ملموس جداً ، — برى من المناسب أن نسجل هنا أولا نتيجة جانبية غريبة تمخضت عنها الفتوح المغولية العظيمة : تلك هي ظهور الأثراك المأنيين على ضفاف الدوديل ، ثم نردف ذلك بأن نذكر في عبارة مجملة تقسيم إمبراطورية جنكزخان إلى أجزائها . العديدة وتطورات كل جوء منها .

كان الآتراك العبانيون فئة صغيرة من اللاجئين فروا نحو الجنوب الغربى أمام غزوة چنكيز الآولى لبلاد الركستان الغربية . قطعوا ذلك الطريق المديد من آسيا الوسطى ، عترقين الفيافى والجبال ومارين بأقوام أجانب عنهم لعلهم يعثرون على أرض جديدة يستطيعون أن يستفروا فيها . يقول السير مارك سايكس : و ثلة صغيرة من رعاة أغراب بهيمون على وجوههم لا يردهم أحد ، ماضين بين الحملة الصليبية من ناحية والصليبية المفادة من ناحية أخرى ، وبين الإمارات والإمراطوريات واللول . فأين كانوا يشيمون ؟ ، وكيف كانوا يتحركون ويحافظون على قطعائهم ورعلائهم ؟ وأين كانوا يجدون الكلا ؟ وكيف كانوا يحافظون على السلم مع الرؤساه المتنوعين اللين كانوا يحترقون أواضهم ؟ تلك أسسئلة يجوز للإنسان أن يتساملا متحراً » .

وأحراً عثروا على مستقر فم وعلى جران من ذوى قرباهم ومن يشاكلومهم في الطبيعة والمشرب على هضاب آسيا الصغرى بين ظهرانى الآثر الد السلجوقيين . وكان غلب هذا القطر الذى هو بلاد الآناضول العمرية قد أصبح آنداك تركيا لغة مسلما دينا ، فيا عدا وجود نسبة كبيرة من الروم والبود والأرمنيين بين سكان المدن ، ولامرية في أن النبعات (١) المتنوعة الموروثة من الحثين والفريجين والطرواديين واليديين والإفريق الآيونيين والسحريين والفلاطيين والإيطاليين (من أزمان برجامة) كانت ما تزال تسرى في دماء المتاس ، بيد أنهم نسوا من أمد بعيد تلك العناصر السلفية القديمة . على أنهم كانوا في واقع الأمر نفس الحليط المكون من بيض اليحر الموسط الداكنين (٢) القدماء ، والآريين النورديين والسامين والمفول ، وهو الخليط الذي كان عليه سكان شبه جزيرة البلقان ، بيد أنهم كانوا يظنون أنفسهم شعباً طورانيا كان عليه سكان شبه جزيرة البلقان ، بيد أنهم كانوا يظنون أنفسهم شعباً طورانيا خاصاً متفوقاً تفوقاً تاماً على المسيحيين في الضفة المقابلة من البسفور .

وازداد الأثراك العيانيون أهمية شيئاً فشيئاً ، حتى آلمت إليهم آخر الأمر السيادة على الإمارات الصغيرة التي تمزقت إليها الإمبراطورية السلجوقية أى إمبراطورية الوم ع. وظلت علاقاتهم مع إمبراطورية الفسطنطينية المتلصة علاقات عناء يشوبها شيء من التسامح . فلم يقوموا بأى هجوم على البسفور ، ولكتهم اتخلوا لأقدامهم في أوربا على الدردنيل موطئاً ، فاستخدموا هذا الطريق ـ وهو طريق إجزرسيس وليس

⁽١) النمية : هي الأصل والنسل والمترة. ﴿ (المَرْجَمِ)

 ⁽٧) الداكنين : وردت للطة الأبيض الداكن في مواضع كثيرة بهذا الكتاب وسناها الغي
 لأبيض الشارب إلى السعرة المهلا ، الأسود الشعر والسين .

طريق دارا ... ثم دأبوا يشقون طريقهم متوغلين فى مقدونيا ولمهروس واللبريا ويوغوسلافيا وبلغاريا .

ووجد الآثراك في الصريين (اليوخوسلاف) والبلغار أقواماً شديدى الشبه بهم في المتنافق ، كما وجدوهم فيا برجح شديدى الشبه بهم في المنسم الخلط عنصرياً وإن لم يدرك أي من الطوفين ذلك ، مع فارق بسيط هو أن دماءهم كان يخالطها من نبعة البحر المتوسط الداكنة والنبعة المغولية قلمر أقل مما لدى الرك كما يخالطها قلم أكبر قليلا من العنصر النوردي. بيد أن هؤلاء الشعوب البلقانية كانوا مسيحين تفرق بيهم الانقسامات تفريقاً مربراً . وكان الرك على التقيض من ذلك يتكلمون بلسان بيمم الانقسامات تفريقاً مربراً . وكان الرك على التقيض من ذلك يتكلمون بلسان المسكرات والقصد في الطعام ، كما كانوا في مجملهم جنوداً أفضل . فأدخلوا في دبهم الإسلامي كل من استطاعوا إدخاله من أفراد الشعوب الى غزوا ، ونزعوا سلاح المسيحين واختصرهم دون غيرهم بدفع الضرائب. وما لبث الأمراء العمانيون أن وطلوا المسيحين واختص مدن أمراد كل صوب شيئاً فشيئاً أركان إمراطورية امتدت أمرنة كبرى مدائهم ، وأحاطوا من كل صوب بإمراطورية المسطنطينية في ذلك الزمان هي حصن أوربا الواقي ودعامها ، وإنما كانت الدعامة هي المجر ؛ فقد استوطاها شعب تركي مسيحي دافع عن أوربا ضد الآثراك المسلمين .

ونظم الأثراك قوة عسكرية مستديمة ، هى الانكشارية (Janissaries) على أساس أشبه ما يكون بسلك الماليك الذين سيطروا على مصر .

وكانت هذه الجيوش تتكون من مجندة من الفتيان المسيحين لا برتفع صدهم عن ألف في كل عام ، وكانوا يُشمون إلى طائفة الدراويش البكتاشية ، ومع أنهم كانوا في البداية لا يجرون على اعتناق الإسلام ، فإمم كانوا بأجمهم يصبغون صبغاً قوياً بالفكرات الصوفية ومبادئ الأخوة التي تعتنقها الجاعة الدينية التي كانوا يلحقون بها . هولاء الانكشارية الذين كانوا يتقاضون أجوراً عالية وينظمون تنظيا جيماً

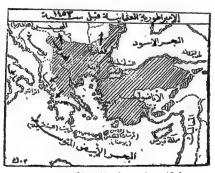
ويشكلون جماعة سرية متماسكة غيورة ، أمدوا الدولة العيانية الحديثة التكوين بقوة وطنية النزعة من الجنود المشاة المدرين ، كانت تعد ثروة لا تُنْفَوَّم بمال فى عصر صادت فيه الراكبة (الحيالة) الخفيفة وفرق المرتزقة المأجورة. . . .

وكانت العلاقات بن السلاطن العيَّانين والأباطرة فريدة في نوعها في تاريخ الدولة الإسلامية والمسيحة . فإن البرك قد أقحموا في المنازعات العائلية وخلافات الأسرة المالكة فى المدينة الاسراطورية ، كماكانت تربطهم بالعائلات الحاكمة وشائح رحم وقربى . وكنوا ما كانوا يقلمون الجنود لللغاع عن القسطنطينية ، وكانوا يستأجرون أحيانا فريقاً من جنود حاميتها ليساعدوهم في حملاتهم المتنوعة ، يل لقد بلغ الأمر أن رافق أبناء الأباطرة ورجال السياسة البيزنطيون الجيوش التركية فى ميادين القتال ، ومع ذلك فإن الميَّانيين لم يكفوا قط عن أنْ يلحقوا بممتلكاتهم الأراضى والملنن الإمبراطورية فىكل من آسبا وتراقياً. وكان لهذا الاختلاط العجيب بن بيت آل عَبَّان والحكومة الإمراطورية أثره العميق في كل من النظامن : فإن . الروم ازدادوا ضعة على ضعة وانحلالا خلقياً على انحلال بسبب التقلبات والحيل التي اضطرهم إلى اللجوء إليها ضعفهم العسكرى حيال جيرانهم ، ودب الفساد إلى الترك مما حولهُم من جو أجنبي مشبع بالمؤامرات والخيانات التي تسللت إلى داخلية حياتهم . وكانت عاقبة ذلك أن قتثل الآخ لأخيه والإبن لأبيه وهما الجريمتان اللتان غالباً ما لطخنا تاريخ القصر الإمبر اصوري ، ما لبثنا أن صارتا جزماً من سياسة الأسرة المالكة العيَّانية . فإن أحد أبناء مراد الأول ينخرط في مؤامرة أندوونيكوس ابن الإمراطور الروى ليقتل كل منهما أياه .

و وكان البيزنطي يجد التفاوض مع الباشا العماني أيسر من التفاوض مع البابا . وظل الدرك والبيزنطيون أعواماً طوالا يتزاوجون ويتابعون مماً في تصيدهم في مياه التبارات الملتوية للديبلوماسية والمؤامرات . وكان العمانيون قد حرشوا البلفار والصرب في أوربا بالإمبراطور الأمراء الآسيويين على السلطان ، وكان الأمراء الملكيون (: أولياء العهد) من الأروام والأتراك يتعاهدون فيا يينهم على أن يحفظ كل منهم بمنافسي الآخر أمرى ورهائن ؛ والواقع أن

السياسة التركبة والبيزنطية بلغت من التشابك والالتفاف بعضها ببعض حداً يعسر علينا لزاءه أن تقول هل كان الترك يعلمون الروم حلفاء لهم أو أعداء أو رعايا . وهل كان الروم ينظرون إلى الأتراك بوصفهم الطفاة المستبدين بهم أو الملمرين لهم أو الحاة(١) ؟

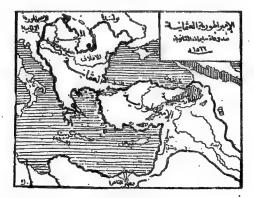
. وسقطت القسطنطينية آخر الأمر بيد المسلمين في ١٤٥٢ إبان حكم السلطان عمد الثانى . فإنه هاجمها من الجانب الأوربى ، وبقوة عظيمة من المدفعية . فقتل الإمبراطور الرومى وعظم الهب وكثر الذبح ، وجهت كنوز الكنيسة العظيمة كنيسة القديسة صوفيا التي بناها چستيان الكبر (٥٣٢) ، وحولت على الفور إلى مسجد . فبعث هذا الحادث موجة هياج شديدة تردد صداها في كل أرجاء أوربا ، وبدلت بعض الجهود لتنظم حرب صليبية ، ولكن أيام الحرب الصليبية كانت ولت.



(شكل ١٤٩) خريطة الإسبراطورية الشَّالية قبل سنة ١٤٥٣

يقول السر مارك سايكس : « كان فتح القسطنطينية لدى الثرك نعمة توجت مفرقهم ولكنه كان إلى ذلك ضربة قاضية . فإن القسطنطينية كانت معلم البرك Sfr Mark Sykes, "The Caliphs' Last Heritage" (1)

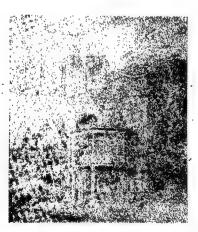
ومهلمهم . فطالماكان المبانيون يستطيعون أن يسقوا العلوم والمعارف والقلمة والفن التسامح من نبع للمدنية جياش زاخر بالحياة في صميم بمتلكاتهم ، أم يكن لهم (أعنى العبانين) القوة الرحشية فحسب بل القوة المنحنية أيضاً . وطالماكان الإمراطورية المبانية في القسطنطية مرفأ حر ، وسوق ومركز للمالية العالمية ومتجمع مركزى لللحب ومتبادل التجارة (بورمة) لم يعوز المبانين قط المال والعون المالى . وكان عمد الثاني من عظاء رجال السياسة . فما أن دخل القسطنطية حتى شرع يحاول المقاف الأضرار التى سببها مطامعه ، فناصر البطريرك وأرضى الروم ، وبذل كل المالى وسعه لتظل القسطنطينية كما كانت لعهد الأباطرة ولكن الخطفة القاتلة كانت لعهد الأباطرة من مد هي القسطنطينية بأية حوال ، إذ ماتت الأسواق وفرت الثقافة والملنية وفوت المالية ذات العمليات المعقفة ووارت عن الأبصار ، وفقد الترك حكامهم وعضدهم القوى . ومن الناحية الأخوى استمرت مفاسد بيزنعاة ، فأما البيروقراطية والحصيان وحراس القصر والجواسيس



(شكل ١٥٠) خريفة الإمبراطورية المبالية عند وفاة سليمان الغانونىسنة ١٥١٦ تاريخ الإنسانية جـ٣

والرشاة والوسطاء ، فإن العانيين انخلوا هولاء بحيماً لأنفسهم ، وظل هولاء جيماً أقوياء زاخرين بالحياة . لقد أضاع الأثراك باستيلائهم على اسطنيول كنراً ثميناً وأخلوا في مقابله وباء وبيلا » .

وما كانت أطاع محمد لتقديم بفديع القدملنطانية . فإنه شخص بيصره كذلك إلى روما . فاستولى على مدينة أو ترنتر الإيطالية ونهبها . وكان شبه الجزيرة منقسها على نفسه . والراجع أن ما أعده من عدة قوية لفتحها كان سيكلل بالنجاح ، لولا أن وافته منيته في ١٤٨١ . اشتبك أيناؤه من بعده بنزاع يقتل فيه الأخ أشاه . وفي عهد خلقه بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٧) حلت رحى الحرب إلى بولندة ، وفتحت معظم بلاد اليونان . فأما سليم (١٥٨٧ - ١٥١٧) ابن بايزيد ، فإنه وسع الدولة



(شكل ١٥١) داخل كنيسة سانت سوؤيا وقد لمتلت النفوش العربية الفسيفساء الأصلية

المُهانية بضم أرمينية وقتع مصر. وكان آخر الخلقاء العباسين يعيش في مصر في رعاية سلطان المماليك ، ذلك أن الخلافة العاطمية كانت شيئاً أصبح في ذمة التاريخ. فاشرى سلم لقب الخلافة من هذا العباسي الآخير المتتكس ، واستولى على الراية المقلسة وغيرها من الحلقات النبوية . وبلما أصبح السلطان المهافي أيضاً خليفة الإسلام كله . وخلف سلها ابنه سلهان القانوفي (١٥٧٠ – ١٥٦١) ، الذي فتح في الشرق فد صمدت أمام السلاطين ثلاثة قرون كاملة ، ولكن الكارثة التي أحقت بهم فد صمدت أمام السلاطين ثلاثة قرون كاملة ، ولكن الكارثة التي أحقت بهم في موهاكس (١٥٧٦) وقتل فيها ملك المجر ، أأنت يتلك الملاد صريعة تحت قدى مؤام كثيرة . وكان في أثناء معظم حروبه مع الإمبراطورية متحالفاً مع الفرنسين .

٥ ـ لماذا لم يعتنقاللغول المسيحية

لتنظر الآن نظرة موجزة حجل إلى التعلورات التي ألمت بعد ذلك بالأجزاء لكبرى لإمبراطورية الحلن الأحظم . ولم تفلح للسيحية قط فى الاستيلاء على أخيمة مائد الدول المغولية لأن المسيحية كانت فى دور إفلاس خلق وذهني ، لا يجمع المتاما البنة أى رابط من إيمان أو همة أو شرف ، وقد سبق أن أخبرنك حديث ملمين الراهبين الله عبين الراهبين الله عبين الراهبين الله عبين المحالة المجارة المحالة ال

و في (١٣٠٥) – كما سبق أن ذكرتا – أصبح البابا وهو الحبر الأصفم رهينة في قبضة الملك الفرنسي . فكأن كل ما لجنا إليه الباباوات من غاتلات وما دبروا من سياسة في القرن الثالث عشر لاستبعاد الإسراطور من إيطاليا ، لم تتمخض إلا عن حلال ملك فرنسا محله . واستمر الباباوات في أفنيون من (١٣٠٩) لك (١٣٧٧) ، وحدثة لم يكن الجهد الضيل الذي بذلوه في إرسال البعوث التبشرية ، إلا مجرد جزء من الحطط الاسراتيجية التي رسمها السياسة الأوربية الغربية. وفي (١٣٧٧) استطاع البابا جريجورى الحادي عشر أن يعود فعلا إلى روما وأن يبقى بها حتى تمتو حياته ، ولكن الكرادلة الفرنسين انشقوا عن إخواجم عنسد انتخاب خطفه ، وكانت تنيجة ذلك أن انتخب المتان من الباباوات ، أحدهما في أغنيون والثاني في روما . واستدام هذا الانقسام المسمى بالصدع العظم (١٠ من (١٣٧٨) إلى المدار (١٤١٨) . وكان كل بابا يلمن الآخر ويضع الحرمان على كل أنصاره . تلك هي حال المسيحية يومئد . . وهولاء هم حملة تعالم يسوع الناصرى ! ا كانت آسيا كلها ناضجة دانية القطوف ولكن يدا لم تمتد إليها لتجنى ثمارها .

حتى إذا عادت إلى الكنيسة وحلسها آخر الأمر وتجددت فيها طاقتها على إرسال المعثاث الدينية بإنشاء جماعة المحزويت ، كان أوان البزة قد فات . وولى معه كلك كل احيال لتوحيد الشرق والغرب بوساطة المسيحية . فتحول المغول فى المصين وآسيا الوسطى صوب البوذية ، واعتنقوا الإسلام فى جنوب الروسيا والتركستان الغربية والإمراطورية الإيلخانية .

٣ – أسرتا يوان ومينج في الصين

كان المغول في الصين مقشيعين آنفا بالحضارة الصينية يوم اعتلى قويلاى عرشه . قبعد (۱۲۸۰) تعاليج كتب التاريخ الصينية و قويلاى و بوصفه عاهلا صينيا ، وموشسا لأصرة يوان (۱۲۸۰ – ۱۲۹۸) . ثم شبت حركة قومية صينية خلعت هله الأسرة المغولية آخر الأمر وأقامت أسرة منج (۱۳۹۸ – ۱۳۵۶) ، وهي سلالة من أباطرة مثقفين خوى نزعة فنية ، حكوا البلاد حتى فتحها شعب شمالى ، هو شعب المانشو – وهم نفس شعب الكن الذين هزمهم چنكيز – وأسسوا أسرة مالكة لم تتخل عن السلمان إلا لحكومة أهلية جمهورية في ۱۹۹۷ .

وأمرة المانشر هي التي أجرت الصينين على إدخاء ضفائر المانشر إشارة إلى (١) السدة العظيم أو الانتفاق العظيم Oreat Schisma (١١)

الخضوع . وعلى ذلك يكون الصينى ذو الضفيرة شخصاً حديثاً تمام الحداثة فى التاريخ. ثم ثم تعد الشفائر إجبارية متذعهد الجمهورية ، كما أثها البوم مجهولة معدومة أو تكاد . .

إن هذه التغيرات السياسية التي حدثت بالشرق الأقصى والتي نرى لزاماً علينا أن للحظها بمثل هذا الإيجاز هاهنا سارت في طريقها فوق سطح حياة تمدن زاخرة بالوفرة. وكان من دأب الفن الصيني على الدوام أن يختار أوساطاً (Media) هشة قابلة لقناء ، وللما فليس في حوزتنا من المادة الني تشهد بالتقدم الفني أللم كان في زمن أسرتي صنج ويوان ، تُروة ضخمة مثل تلك الباقية عن فن أوريا المعاصرة لمها الذي كان أدنى فى التطوركميًّا . ولكن القدر الذي فى أيدينا كاف لإقناصنا بالصفة الفنية المتازة للملك العسر . ومع أن أسرة صنج تسجل عصر "براجع سياسي حدث تتيجة لضغط قوى الحيتان والكن والهسيا ، فإنها لفترة نشاط فني عظيم . والناس يتحدثون بأن فن التصور الصيني وصل إلى أعلى مستوياته في عهد أسرة صنح الحنوبية . كتب المسر لورنس بنيون يقول : 3 إنها لفاخرة في القنون فاخرة في الفلسفة ، تلك المدة التي تقف من آسيا فى التاريخ موقف عصر پريكليس من أوربا . . فنى هُيَام كَلُّف بالطبيعة لا يضارعه قط في أوربا أي كلف حتى أيام وردس ورث(١) ، صور فنانو أسرة صنيع جلم بالجبال والضباب والسيول الغامرة وطيران الأوز البرى عن أحراش القصب ، وأحلام الحكماء سابحين في نجواهم تحت ضياء القمر في الغابات وصائد السمك جالساً في زورقه على أمواه البحيرة أو الحدول ۽ .

وظل دافع أسرة صنج فى النصوير مستمراً بلاانقطاع ولا تفير بجوهرى حى باية أسرة يوان ، حى إذا ابتدأ حكم أسرة منج ظهر معه قدر معين من الضعف والتنمين . ونحن إنما نصل بظهور أسرة منج إلى فترة خلفت لنا آثاراً وفيرة . إذ يتبق صها كثير من الحفر على الحسب والعاج ، وصلاطين حفر فى المكهرباء الأسسود

 ⁽۱) وليم وروس ورث (Wardsworth) : (۱۸۰۰ -- ۱۸۰۰) شاهر انجليزی مشتق العليمة حتى بلغ هيامه بها حد العيادة . (المترجم)

حجر اليشم) والبلور الصخرى وعدد وفير من مصنوعات البرونز الممتازة . وإن الشوارع المحفوفة بالتماثية بالتماثية الحجرية الهائلة والمؤدية إلى قبور أسرة منج ، لمعروفة ذائمة الصيت وإن لم تمثل بأى حال خير النحائت الصينية . وما لبث فن الحفر الصيني أن غزته على التدريج نوية من المبائفة في التنميق حتى اختنق آخر الأمر تحت وابل من الأفاعث الرمزية .

يقول وليم برتون : و ومع أن خز ما تمتازاً جديراً باسم البورسلان ، كان يصنع في زمن برجع في تقلمه إلى عصر أسرة تانج . فإن أقدم ما لدينا من خزف البورسلان في زمن برجع إلى عهد أسرة صنح ه . وقد شرع البورسلان أن يتخل طريقه غرباً مع الحدير ، ويسجل التاريخ أن صلاح الدين أرسل هدية من أربعين قطعة منه إلى سلطان دمشتى . ويمجيء أمرة منج تلقت صناعة الخزف دافعاً منها هو الرعاية الإمبراطورية المباشرة وتطورت في نشاط ونجاح خارقين المعتاد . وأخذ الصناع في استخدام الحليات المصيفة . وكان أن وصل الصيدون في القرن الحامس عشر إلى أبلح أنواع البورسلان الخرم ، الأزرق والأبيض . وثمة البورسلان الجرم ، والمعتر المعلى بالصقال (under giaze red) وهما من مناخر هذا الوصل الدي هد المدي .

٧ ــ المغول يرتدون الى الروح القبلية

حدث في هضية الهامر ، وفي قسم كبير من التركستان الشرقية والغربية ، ولمل الشيال من ذلك ، ان المغول انحدوا ثانية إلى حال البداوة القبلية التي رقسهم صما چنكيز . ومن اليسير علينا أن نتعقب إلى ما يكاد يداني زماننا هذا تضاؤل شأن كثير من الحانات الصغار أثناء تعاقبهم على الملك ، منذ استقلوا في غضون تلك الفيرة ، وأسس القلموق إمبرأطورية ضخمة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولكبي

⁽١) الأقامين جمع أنسوان . (المترجم)

للنازعات بين أفراد الأسرة المالكة حطمت تلك الإمبراطورية قبل أن تتجاوز رقعها آسيا الوسطى . واسترد الصيفيون مهم التركستان الشرقية قراية (١٧٥٧) .

وزادت التبت ارتباطاً بالصن ، وأصبحت المثابة العظيمة العقيدة البوذية والرهبانية البوذية البوذية والرهبانية البوذية البوذية والرهبانية البوذية . وما يزال التمييز القديم بين الرحل والمستقرين مستمرا إلى المدن في معظم آسيا الوسطى الغربية وفارس وأرض الجزيرة . فإن سكان المدن يستطون على المترحلين ويفشونهم ، كما أن الرحل يسيتون إلى أهل الحضر ويمتقرونهم .

٨ ــ إمبراطورية القبچاق و قيصر موسكوڤيا (الروسيا)

طل مغول مملكة القهجاق العظيمة رحلا يرعون ماشهم عبر السهول القسيحة في جنوبي الروسيا وغرب آسيا الغربية المتاخم للروسيا ٥ وأصبحوا مسلمين غير تامي الإخلاص للإسلام عتفظين بيقايا كثيرة الشامانيهم الهمجية القديمة . وكان خان و الحشد اللهجيء هو الحان الأعظم بيهم . وليل الغرب وفوق أجزاء عظيمة من الأرض البراح ، وعلى الأخص فيا يعرف الآن باهم أوكرانيسا ، ارتد السكان القدامي الإسكيديون ، وهم من السقالية اللين يخالطهم شيء من الله المغولي ، إلى حياة ترحل مشاجة لهله . فهولاء الرحل المسيحيون ، أي هولاء القوزاق ، كونوا على الحلود ضب التقرض قرباً من الستار الواقي وبلغ من جاذبية حياتهم الحرة المطلوت الحكومات إلى إصدار القوانين المسارمة لمنع حدوث هجرة واسعة النطاق من أرض الحراث إلى المتوزاق بعن مارملاك الآراضي أصاب موالي الأرضي (Serfs) في بولندة ينظرون إلى القوزاق بعن مارملاك المعدارة والحد، وكثرت الحروب بين الفروسية البولندية والقوزاق ، كثرتها بين المعروس، وبين التر و هواء التر و

وبينها كان الرحّل في إمبراطورية القهجاق كما بلاد الرّكستان إلى مايكاد يداني العصر الحاضر ، يضربون في الأرض فوق متسعات فسيءة ، كان هناك عدد من المدن والأقالم الزراعية التي يسيش عليها سكان مستقرون ويدفعون والعادة الجزية لخان المترحلين . فني مدن من أمثال كييڤ وموسكو وما إليهما كانت حياة السكان المسيحين المدنيين الموجودة قبل المغول لا تزال مستسرة تحت حكم دوقات من الروس أو ولاة من التنتار ، ممن كانوا يجمعون الجزية لخان \$ الحشد اللمبي ٤ . واكتسب غراندوق موسكو ثقة الخان ، وارتفع شأنه شيئًا فشيئًا تحت سلطان الخان حتى ساد كثيراً من زملائه الأتباع . وفي القرن الخامس عشر نبلت موسكو تحت حكم غرانلوقها إيثان الثالث وهو إيثان الكبير (١٤٦٧ -- ١٥٠٥) ولاءها للمغول وأبت أن تدفع الجزية بعد ذلك (١٤٨٠) . ولم يعد خلفاء قسطنطين يحكمون في القسطنطينية ف ذلك الزمان ، فاستولى إيثان على النسر البيزنطي ذي الرأسين واتحذه شارة له . وادعى أنه وارث بيزنطة بسبب زواجه (١٤٧٢) من الأميرة زوية پاليولوجوس (Zoe Palaeologus) وهي من السلالة الإصراطورية . وهاجنت هذه الغرائدوقية المسكوقية الطموحة جمهورية أهسل الشهال التجارية بنوفيجورود إلى الشهال منها وأخضعتها ، وبلما أرسيت أسس الإمبراطورية الروسية العصرية ، وأنشئت حلقة الصال تربطها بالحياة التجارية في بحر البلطيق . على أن إيثان الثالث لم يدفع ادعاءه بوراثة حكام القسطنطينية المسيحين إلى حد اتخاذ اللقب الإمعراطورى بل خطا هذه الخطوة من بعده حفيده ، إيثان الرابع (وهو إيثان الملقب بالرهيب لقساوته الجنونية ﴿ ١٥٢٣ – ١٥٨٤) . ومع أن حاكم موسكو وصل بلغك إلى التلقب بلقب القيصر (Tsar) ، فإن تقاليده كانت في كثير من الأوجه تتارية أكبر منها أوربية . كان مستبداً على النسق الأسيوى المطلق السلطان ، وكانت المسيحية التي انخذها هي الشرقية الأرثوذكسية التى يسيطر عليها البلاط ، والتى وصلت إلى الروسيا قبل الفتح المغولي بزمن مديد على يد مبشرين من البلغار جاءوا من القسطنطينية .

ولمالى الغرب من ممتلكات القهيهاق خارج بجال الحكم المنولى قام فى بولندة مركز ثان لهاسك الصقالبة أثناء القرنين العاشر والحادى عشر . أجل اكتسحت الموجة المغولية بولندة ، ولكنها لم تخضعها قط . ولم تكن بولندة أرثوذكسية بل كانت عقيدتها هى الكاثوليكية ، وكانت تستعمل أحرف الهجاء اللاتيئية بدل الأحرف الروسية الغريبة ، ولم يتخذ عاهلها قط ممة الاستقلال المطلق عن الإمبراطور . والواقع أن بولندة كانت
 من حيث أصولها قسما أمامياً ناتئاً من عالم المسيحية ومن الإمبراطورية الرومانية
 المقدمة . ولم تكن الروسيا في أى يوم من الأيام شيئاً من هذا القبيل .

٩ - تيمورلنك

ربماكانت طبيعة وتطور إمبراطورية أسرة إيلخان فى فارس وأرض الجزبرة وسوريا وما ألم بتلك الإمراطورية من تطورات ، أشوق قصص هذه النول المغولية كافة ، لأن نظام الترحل في هذه المنطقة حاول بالفعل ــ ووفق في الحقيقة أيما توفيق ــ أن يقضى قضاء مبرماً على نظام ممدًّان مستقر . فعند ما غزا چنكيز خان الصين ف بداية الأمر ، حدثت ـ كما يخروننا ـ مناقشة خطيرة بن الروساء المغول حول ضرورة أو عدم ضرورة تدمىر كل المدن وإبادة السكان المستقرين . فإن هؤلاء البسطاء المارسين لحياة الهواء الطلق ، كانوا برون أن السكان المستقرين فاسلمون متزاحمون تنتشربيهم الرذيلة ويغلبهم التخنث وأنهم خطرون لا يمكن فهمهم ، وأنهم طفح جلنت إنساني جدر بالزراية يعيش على سطح بلاد لولا وجودهم لكانت أرض رعى طيبة . فأما المدن قلم يكن من ورائها أى نفع لهم . ويلوح أن قدامى الفرنجة والأنجلوسكسون غزاة جنوبي بريطانيا ، كان بجول يخاطرهم نفس الشعور حيال سكان المدن . ولكن تلك الفكرات لم تجسد في صورة سياسة متعمدة إلائحت ظل هولاكو في أرض الجزيرة . فإن المغول هاهنا لم يقتصروا على إعمال النار والسيف إحراقاً وتذبيحاً ، بل دمروا نظام الرى الذي استدام ما لا يقل عن ثمانية آلاف سنة ، وبلاك قضي على المدنية الأم التي ولدت المدنيات الغربية جميعاً . ولقد ظلت هذه الأقاليم الحصبة منذ أيام الملوك للكهنة فيسومر تزرع زراعة مستمرة لا تنقطع ، وتواصل تجميع التقاليد ، وحشد عدد عظيم من السكان وإنشاء مجموعة متعاقبة من المدن النشيطة العاملة : ـــ مها إريدو ونبهور وبابل ونينوى وطيشفون (المدائن) وبغداد ، والآن زال الخصيب ، وأصبحتأرض الجزىرة . أر ضربت الدم حشة و قفار خاورة ، تحدى فيها مياه عظيمة بددا ، أو تفيضر على ضفافها مكونة بركاً تمرح فيها الملاريا . ثم حدث فيا بعد ذلك من الزمان أن انتعشت بغداد والموصل انتعاشاً ضعيفاً وصارتا مدينتين من الدرجة الثانية



(شكل ١٥٢) خريطة إسراطورية تيمورلنك

ولولا هزيمة قطبغا قالد هولاكو ومقتله فى فلسطن (١٩٦٠) لحل بمصر نفسر المصر . ولكن مصر كانت حنسد ذاك سلطنة تركية ، تسودها هيئة حسكرية هى الماليك كان يوضح أفرادها (شأن مقلدها الانكشارية بالدولة العيانية ، وتجدد قومها ، بمشرى الغلمان الأرقاء وتدريهم . فإن كان السلطان مقتدراً ذا كناية أطاعه هذا النوع من الرجال ، وإذا كان ضعيفاً أو شرراً عزلوه وتبدلوا به غيره . وظلت مصر محمد حولة مستقلة حتى (١٥١٧) ، عند ما آلت إلى الأتراك الشيانين .

وسرعان ما ضعفت القوة المدمرة الأولى لدى مغول هولاكو ، ولكن قامت المعرّ حلين في القرن الخامس عشر بهضة أخيرة أشبه ما تكون بعاصفة هوجاء البعثت. في التركستان الغربية تحت قيادة تيمور الأعرج أو تيمورلنك . كان نسبه من الناحية النسائية (أمه) يتصل بمجنكيزخان . فيمل قصبة ملكه في سمرقند ، ومد سلطانه على القهجاق (الدركستان حقى جنوب الروسيا) وعلى سيبريا وبسطه جنوباً حتى حوض مهر

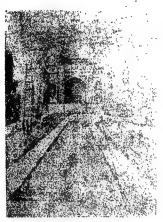
السند . واتخذ لنفسه لقب الحان الأعظم فى (١٣٦٩) . كان مرحلا بمت إلى المدرسة الرحشية بسبب . فأنشأ إمىراطورية تقوم على الحراب من شمال الهند إلى سوريا ٥ وكالت أشهى تسلية ممارية لديه إقامة أهرامات من الجاجم ، فبعد أن فتح أصفهان أقام على هذه الشاكلة هرماً مكوناً من سبعين ألف جمجمة .

وكان يطمع فى أن يستميد إمر اطورية چنكبر خان كما يتصورها هو ، وهو مشروع فشل فيه فشلا تاماً . على أنه بث الحراب والدمار فى طول البلاد وعرضها ، وأدى إليه الجزية الآثر الى الشهانيون – وكان ذلك قبل فتح القسطنطينية وقبل أيامهم المطيمة — كما أدتها إليه مصر ، ثم أعمل فى الهنجاب تحريباً وعاث فها فساداً ، واستسلمت له دلمى . وبعد أن سلست المدينة أعمل السيف فى أهالها قتلا وتنبيحاً رهيباً . وعندما حانت وفاته (١٤٠٥) لم يق له إلا القليل مما يشهد له يالفوة اللهم إلا اسم يقترن بالرعب وإلا الحرائب والأقطار الموحشة المقفرة وعملكة متقلصة الظلال قد عضها الإعمال والموز فى بلاد غارس .

وبعد خسين سنة قضى فوج آخر من المرحلين التركمان على الأسرة المالكة التي أسمها تيمور الأعرج في فلوس .

• ١ ـــ امىراطورية الهند المغولية

وفى (١٥٠٥) اضطر رئيس تركمانى صغير ، اسمه بابر وهوسليل تيمور وبالتبعية چنكيز أيضاً ، أن يفر عامراً جبال الهندوكوش إلى يلاد الأفغان مع ثلة من الأثباع بعد بضع سنين قضاها فى حرب ناله فيها بعض النجاح الموقوت - إذ وقعت فى قبضته سمر قند ردحاً من الزمان ، وهناك تزايد أنصاره ، ونصب نفسه سيداً على كابول ، فضد جيشاً وأكثر من جع المدافع ، ثم ادعى لنفسه ملك الإنجاب ، لأن تيمور كان ؛ غزاها قبل ذلك بمائة وسبعة من السنن . وتقدم ظافراً إلى ما وراء الإنجاب . وكانت الهند فى حالة انقسام وهى مستعدة تمام الاستعداد للرحيب بأى قاتح يعدها السلام والنظام . والتي بابر بعد تقلبات عديدة فى حظه يسلطان دلمى قرب يابيات (١٩٥٧)



(شكل ١٥٣) تاج عل بآجرا إن تاج عل المثوى الأخبر لشاه جيمان وزوجته الهبرية يعترف الناس جميعاً بأنه أكثر أبنية العالم استيفاء الكال. وهو مبنى من الرخام الأبيش ، ويقال إن ضرين ألفاً من الرجال ظلوا يمعلون فيه بلا انقطاع سهة عشرها أ

على مبعدة عشرة أميال شالى للدينة ، فانتصر نصر أكاملا مبيتاً مع أنه لم يكن معه سوى خمسة وعشرين ألف رجل ولكنهم مع ذلك مزودون بالمدافع مقابل ألف فيل عند أعدائه وعسد من الرجال يضارع أربعة أمثال عدده، والأعداد ــ لهذه المناسبة ــ كانت من تقدره هو. فكفُّ عن تلقيب تفسه علك كابول ، واتخسذ لقب إسراطور المندوستان . كتب يقول : و إن هذا العالم يختلف اختلافاً بيناً عن بلادنا ۽ ۽ إذ أنموجده عالمآ أجمل وأخصب وأغنى غني مطلقاً . ثم واصل الفتح

حتى البنغال ، ولكن وفاته قبل الأوان (١٥٣٠) أوقفت موجة الفتح المغولى زهاء ربع قرن ، ولم يأخل مد الفتوح يفيض من جديد إلا عند تولى حفيده و أكبر ه المرش . وأخضع أكبر كل بلاد الهند حتى بدار ، وأصبح اين حفيده أورانغزيب (١٦٥٨ – ١٧٠٧) سيداً لشبه الجزيرة الهندية بأكلها تقريباً . فهذه الأسرة العظيمة ، المكونة من بابر (١٥٣٠ – ١٥٥٠) وهومايون (١٥٣٠ – ١٥٥١) وأكبر (١٥٣٠ – ١٦٥٧) وشاه چهان (١٦٠٩ – ١٦٧٧) وشاه چهان (١٦٠٨ – ١٦٥٧) و فاورانغزيب في (١٦٥٨ – ١٦٠٧) ، التي ظل فيها الاين يخلف أباه ألمدستة أجيال متعاقبات ، هذه الأسرة المغولية تسجل أزهى عصر بزغ فجره على الهند حتى ذلك الحين . وكان و أكبر ٤ سولعله الملك الوحيد الجدير بأن يردف

بأسوكا ... من أعظم عياهل الهند ، وأحد القليلين من الشخصيات الملكية الذين يوتفعون إلى قريب من مرتبة العظاء بين الرجال .

ويجب أن نولى ﴿ أَكْبِرِ ﴾ نفس الاهتمام الخاص الذي أظهرناه نحو شرلان أو قسطنطين الكبير . فإنه أحد الأقطاب التي يدور حولها التاريخ . ولا يزال الشيء الكثير من عمله في سبيل توثيق الترابط وتوطيد النظام في الهند باقياً إلى يومنا هذا . إذ تناوله البريطانيون وواصلوا العمل به عندما صارت إليهم وراثة مُلك الأباطرة المغول ، والواقع أن العاهل البريطاني كان يتخد لنفسه لقبا ه:ديًّا هو لقب الأباطرة المغول ، وهولقب « قيصر الهند » (Kaisar - i - Hind) . ولقد تبسددت جميع النظمِ الإدارية الكبرى التي أقامها حقاءة چنكىزخان في الروســـيا وفي أرجاء آسيا الوسطى والغربية كافة وفي بلاد الصن ، حيث بادت منذ زمن بعيد وحلت محلها أشكال حكومية أخرى . والحق إن حكوماتهم لم تزد كثيراً عن كوبها حكومات تفرض الضرائب ، وأنها فظام لجمع الإيرادات لتكون طعمة لمؤمسة الحاكم المركزية ، شأن ۥ الحشد الذهبي ، في جنوبالروسيا ، أو المدينة الإسراطورية بقره قورم أو پيكىن . فأما حياة الشعب وفكرائه فشيء كانوا جملونه ويدعونه جانبًا ، فلا يىنون بطريقة معيشته ما دام يدفع . فليس عجيبًا إذن أن يحدث بعد خضوع دام قرونًا طويلة ، أن يعود كل جزء من أجزاء إمبراطوريُّهم إلى سابق عهده ، فتقوم من جديد موسكو وكيبڤ مسبحيتان وتبعث فارس شيعية وصين تامة الصبغة الصيدية بعد أن زال عبن كابوس المغول وانجلت غربهم . بيد أن وأكبر ۽ أقام صرح هند جديدة . ومنح أمراء الهند وطبقائها الحاكمة بادرات أو على الأقل تلميحات تشير ولو من بعيد ، إلى أن هناك مصلحة مشتركة تجمعهم . فلئن أصبحت الهند اليوم مكونة من شيء أفضل ولو قليلا من مجموعة متنافرة غبر مترابطة من الدولات والأجناس أشبه ما تكون بكيس بمثل " بالحرق البالية ، وأمنع من أن تكون فريسة لكل مضر عرضى من الشيال ، فإن أعظم الفضل ` ذلك يرجع إليه .

وكانت سمته المميزة هي انفتاح ذهنه . فإنه نصب نفسه لجمل جميع أنواع . الرّسال المقتدوين في الهند ، مهما يكن جنسهم أو دينهم ، صالحين لأداء الخدمة

العامة للحياة المندية . وكان يتصف بسجية رجل اللولة الحق من حيث قدرته على جع الشمل والتأليف بين مختلف العناصر . وما كان يرضى لدولته أن تكون إسراطورية مسلمة ولا مغولية ، وماكان رضي لها أن تكون راچپوتية ولا آرية ، ولا دراڤيدية ولا هندوسية ولا منتسبة إلى الطاففة العليا أو الطاففة الدنيا ، بلكان بريدها و هندية . . و وأتيحت له أثناء سي تدريبه فرص كثيرة أدرك فيها الصفات الطبيسة والوفاء والإخلاص - وف كثير من الأحيان - نبل التفس التي يتصف بها أولئك الأمراء الهندوك ، الذين كان رجال حاشيته المسلمون يرون فى قرارة أذهانهم أن مصيرهم هو العدَّابِ الأبدى لأنهم من أتباع براهما . ثم إنه لحظ أن هوَّلاء الرجال والرجال اللمين يفكرون على شاكلتهم ويؤمنون بعقيدتهم ، كانوا هم الأغلبية الساحقة من رعاياه . ولحظ فضلا عن ذلك أن الكثير مهم - وكانوا أشلهم اكتسابًا لثقته - ظلوا مستمسكن بدينهم الخاص ، وإن تجلى أمامهم ما يعود عليهم من المغانم الدنيوية إن هم اعتنقوا دين البلاط . من أجل ذلك كان ذهنه المتفتح ، رفض منذ البداية قبول النظرية القائلة بأن الإسلام يجب أن يعتنقه الناس جميعًا لمجرد الصدفة التي جعلته وهو الحاكم والفاتح ولد مسلماً يومن بمحمد . وأخلت أفكاره تتبلور شيئًا فشيئًا في هذه الكلمات : ﴿ مَّي كان لى أن أدعى إرشاد الناس قبل أن أجد من يرشدني؟ ٤ . ثم إنه كلما أصغى إلى التعالم الدينية الأخرى وإلى العقائد الأخرى ، توقر في نفسه ماكان يجول بها من شكوك شريفة ، وإذ ظل يلحظ في كل يوم ذلك الضيق المرير الذي عليه روحالتشيع الطائني ، مهما يكن شكل الديانة الذي ينتسب إليه ، تزايد تعلقه بمبدأ التسامح مع الحميع ۽ ،

يقول الذكتور إميل شميت: وكان ابناً لإمبراطور مخلوع وقد ولد الصحراء، وتربى في حبس اسمى ؛ فعرف الناحية المريرة من الحياة منذ شبابه فما تلاه من سنين وحياه الحظ بجسم قوى ، دربه على احيال أبعد غايات الإجهاد . فكان التدريب الحياني لديه غراماً وكلفاً ؛ وكان مولماً بالطراد ، ويخاصة بالانفعال العنيف المصاحب لصيد الحصان الوحشى أو الفيل أو ذبح البر الحطر. وقد حدث ذات مرة عنلما كان من الضرورى إقتاع راجاجودهبور بالتخلى من اتجاهه إلى إجبار أرملة ابنه المتدوق أن تعتلى كومة النار الحنازية ، أن قطع أكبر مشين وعشرين ميلا في يومين على ظهر الحيل وكان يظهر في معمرك القتال أقصى غاية الشجاعة . فكان يقود جيوشه بشخصه في أخطر أوقات الحملات ، تاركا لقواده ما دون ذلك من واجبات إنهاء الحرب . وكان يبدى في كل ظفر يناله إنسانية نحو المفلوب ، ويعارض معارضة حاسمة في كل مظهر من مظاهر الفساوة : ولما كان بريئاً من كل أثر لذلك المحامل المدى يقرق المجتدات الأخرى ، غير متحزب إزاء من هم من أجناس أخرى ، مسواء أكانوا من الهندوس أم من الدرافيديين، فإنه كان الرجل الذي خصصته الظروف تخصيصاً واضحاً لإيجاد التلام بين عناصر بملكته المتنازعة بعضها مع بعض وجعلها كلا قوياً ماسكاً برفرف عليه الرخاء .

و حيس نفسه بكل ما أوتى من جد وقوة على خدمة السلام . وإذ كان معدلا في كل مسراته ، غير عتاج إلا إلى القليل من النوم ومعتاداً أن يقسم وقته بأقصى دقة ، فإنه كان يجد فسحة من الوقت يكرس فيا نفسه للعلم والفن بعد فراغه من مهام دولته . فكانت الشخصيات الناجة الصيت والعلماء المشهورون الذين تزدان بم العاصمة الى ابتناها لنفسه في فاتيپور سيكئرى أصدقاء له في نفس الوقت ؛ فكانت تجتمع من هوالاء حلقة في مساء كل خيس لتبادل المحادثات الفكرية والمناقشات الفلسفية . وكان ألمتي أصدقائه به أخوين أوتيا مواهب عالية هما فيضي وأبر الفضل ، وهما ابنا عالم حر الفكر (Free-Thinker) . وكان أسن هذين الأخوين عالماً ذاتم الشهرة في الأدب المخادوكي ، و عساعدته وتوجهه أمر أكبر فترجت أهم الموافقات السنسكرينية إلى الهناديكي ، وعساعدته وتوجهه أمر أكبر فترجت أهم الموافقات السنسكرينية إلى الهنارسية . فأما أبو الفضل ، وكان طان صديقاً حيا بوجه خاص الأكبر ، فكان قائداً

 ⁽١) المذكر الحر الشخص الله الله الله المسائل الدينية وغيرها ما تواضع الثان طيه من تقاليد أو أواه متوافرة .
 (المائرج)

ورجل دولة ومنظماً صاحب تلمِعر ، وإلى نشاطه تدين مملكة أكبر بعرابطها وبتنظيمها اللماخلي بوجه خاص(٢٠ ۽ .

وكان أكر شأن شرلمان وشأن تاى تسنج يوجه لملى الأمور الدينية بعض عنايته ويقيم طباتجدل مسهة مع الميشرين اليسوعيين ما تزال تفاصيلها مدونة فىالسجلات.

(على تلك الشاكلة كانت الحلقة التى اعتادت أن تلتم فى قصور فالنيور سيكرى التى لا تقتأ مبانها تسبح فى ضياء شمس الهند المشرقة ، والتى أصبحت الآن خاوية موحشة ، ذلك أن مدينة فالنيور سيكرى شأن مدينة أمبار ، أصبحت البرم مدينة ميتة . وحدث منذ سنوات قلائل أن قتلت أفهى فى أحد شوارعها الساكنة ابنا لأحد المرظفين الإنجلزى .

وكان أكر ، شأن كل الرجال جميعاً مهما عظم خطرهم أو هان أمرهم – يعيش في حدود زمانه وفي دائرة فكرات عصره . وكان بوصفه تركمانياً يحكم الهند ، يجهل بالضرورة الشيء الكثير مما ظلت أوربا تعلمه في ألف سنة بالألم والعناء . كان يجهل كل شيء عن نموه الوعي الشعبي ، في أوربا ، كا كان يعلم الشيء الذي لا يكاد يلدكو عن تلك الإمكانات والصليمية ، الرحية التي كانت تنتجها الكنيسة في الغرب . إذ كان مثل هذا الأمر يتطلب شيئاً أعظم من جدل عارض مع مبشر مسيحي . وجعلته تربيته على الإسلام وعبقريته الفعلرية يعتقد اعتقاداً بيناً أن ليس في الإمكان ربط الهند في شعب واحد عظيم إلا على فكرات عامة تقوم على أساعي ديني ، ولكن أني له المعرفة التي يمكن بها خطق مثل هذا التملم والإيقاء عليه حياً بإنشاء المدارس العامة والكتب الرخيصة وإقامة نظام جامعي يجمع بين خلى التنظيم وحرية الفكر ؟ وهي أمور ما تزال الرخيصة وإقامة نظام جامعي يجمع بين خلى التنظيم وحرية الفكر ؟ وهي أمور ما تزال الدي المدن الله المدن المناه المدن في المدن شكل الإسلام المدى يجيد معرفته المسلمون إلا أقلية بين السكان . وكانت المشكلة التي تواجهه في الواقع شديدة المائلة المي واجهت قسطنطين الكبر . ولكنها كانت تنطوى على همويات فريدة المشكلة التي واجهت قسطنطين الكبر . ولكنها كانت تنطوى على همويت قريدة للمشكلة التي واجهت قسطنطين الكبر . ولكنها كانت تنطوى على همويت فريدة للمشكلة التي واجهت قسطنطين الكبر . ولكنها كانت تنطوى على همويات فريدة للمشكلة التي واجهت قسطنطين الكبر . ولكنها كانت تنطوى على همويات فريدة للمشكلة التي واجهت قسطنطين الكبر . ولكنها كانت تنطوى على همويات فريدة

Dr. Schmit: Helmolt's History of the World (1)

خاصة بها . ولهذا فإن كل ما فعله أنه حاول أن يكيف الإسلام تكيبهاً يكفل له عند الناس قبولا أوسع وأشمل بأن يتبدل بعبارتي « لا إله إلا الله ومحمد رشول الله » عبارة و لا إله إلا الله وأن الإمبراطور رافله(١٠) الله ۽ إذ زعم أن ذلك سيكون دعامة عامة لكل ما حوت الهند من ضروب العقائد والنحل . وربط جده العقيدة طقمًا بسيطًا استلفه من الزرادشتين الفرس (وهم الفارسيس (The Parsees) ، الذين كانوا - ولا يزالون إلى اليوم -- موجودين بالهند . ومع هــــذا فإن هذه الديانة الرسمية الجديدة ماتت بوفاته ، إذ لم يكن لها جلور مستقرة في أذهان من حوله من الناس . والعامل الجوهرى فى تنظيم الدولة النابضة بالحياة ذلك العامل الذي أخد العالم في إدراكه ، هو إنشاء نظام تعليمي. وذلك أمر لم يفهمه أكبر البتة. ثم إنه لم يتوافر له طبقة من الرجال يوحون إليه بهاته الفكرة أو يعينونه على تنفيذها . فلم يكن المعلمون المسلمون في الهند بمعلمين قدر ماكانوا حرّ اساً لعقيدتهم محافظين على تعصب ديمي حاد ، فكانوا لا رغبون فى وجود عقلية مشتركة فى الهند بل مجرد تعصب عام للعقيلة الإسلامية وعدم تسامح مشترك في الإسلام . وكان البراهمة اللبين كان بيدهم احتكار التعليم بين الهندوك يتصفون بكلما للهيئة ذات الامتياز الوراثى من غرور وتقاعس . ومع ذلك فعلى الرغم من أن أكبر لم ينشئ للهند أية خطة تعليمية عامة ، فإنه أنشأ عدداً من المدارس الإسلامية والهندوكية .

ولا تعرح البقايا الفنية والمصادية المتخلفة عن المغول وفعرة جداً . وعندما يتكلم الناس عن د الفن الهندى » يدون تحديد ، فإسم يعنون بالمك تلك الفترة العظيمة . وفن تصوير ذلك الزمن ممتاز حميل ، وهو في طرازه وصنفه وثبق القربي بالإنتاج الفارسي المعاصر له .

فأما في المبانى فقد كان من نصيب الهند دواماً أن تستور د بلرة الأساليب العالمية التطور وأن تفرض علمها تعديلات وتنميقات من عندياتها . ولم يتم لفن العارة الحجرى الانتشار إلا بعد الفتح الهلليبي ، وإن انتشار الإستريالاً والعمد التذكارية والنصب

⁽١) الرافه (Regent) هو التائب . (المترجم) .

 ⁽٢) الإستويا (Stupa) أثر أو مقصورة مقامة بوذية عل هيئة رابية ذات تمية . (المترج):
 ناريخ الإنسانية جـ٢

الأعرى في حكم أسوكا ليشهب في كل مكان يوجود الفنانين القرس والهليلين . وفضلا عن ذلك فإن الفن البوذى اللى خلف لنا مثل تلك البقايا العظيمة في منطقة جندهارا على الحدود الشهائية الغربية ، والراجع إلى القرون الأربعة الميلادية الأولى ، تبدو فيه كللك الروح المطالبية قوية واضحة . فيرى الإنسان واجهات بها العمود الكي نثر الهادى .

ولم يصبح فنا البهارة والنحت هندوكيين بشكل طاهر مميز له صفة وكرامة تخصه إلا ني حكم أسرة چوپيتا وفي الفرنين الحامس والسادس الميلاديين . وحالت المؤثرات المدرافهدية الجنوبية دون انتشار الحطوط الرأسية ، كما أنها أوقرت البناء بكرانيش(١) (Mouldinga)أفقية مع نزوع إلى طراز الأهرام المدرجة . والهرم الأسود في كاناراك من أبدح المعابد الهندوكية وأشدها تمثيلا لطراز تلك المعابد قبل الإسلام .

واستقدم الغزو الإسلامي الأشكال الرئيسية للطراز العربي (Saracenic) وهي المناذنة والعقد المدب ، وعلى هذا الأساس الجديد اشتغلت الهند في حفر بديع الإتقان وأنتجت الشريفات التشجيرية الزخرفية للنوافلد (Window-tracery) والأستار المحررة . والمسجد الحامع بأحمد آباد (في القرن المامس عشر) من أبدع المساجد الهندية ، ولكن لعل أبدع مثال لكل فن العمارة المغوني هذا وأشدها تمثيلا لطرازه هو و تاج محل » ، وهو القبر الملكي ابتناه شاه جهان (۱۹۲۷ – ۱۳۵۸) لزوجته . ويتعاون المعاربون الإيطاليون والهنود في هذا البناء الرشيق .

١١ ـ الغجر (النوّر)

وهناك تتيجة جانبية عجيبة نشأت عن هذه الإضطرابات التي أحدثها مغول القرن الرابع عشر ، اللمين كان تيمورلنك رأسهم وقطب رحامم ... هي ظهور شراذم متنقلة في أوربا تتكون من شعب غريب شرق لاجئ هو النجر . ظهروا ببلاد اليونان في زمان ما قريب من نهاية القرن الرابع عشر وأوائل الحامس عشر ، حيث زعمهم الناس مصرين (Egyptims) ، (ومنها اشتقت كلمة Gipay) التي يطلقونها عليهم في أوربا ، وهو اعتقاد عم الناس جيماً وقبلوه هم أنفسهم وبثوه في كل مكان . ومهما يكن من شيء فإن زعماهم كانوا يلقبون أنفسهم بلقب وكونتات آسيا الصفرى ع .

⁽١) الكرانيش : هي صيات (جمع صبة بتشديد الباء) في قوالب . (المترجم)

والراجع أمم ظلوا يتنقلون في أرجاء آسيا الغربية قروناً هدة قبل أن دفعتهم مذابع ليمور لنك إلى جور (الهلسيونت) الدودنيل . وربما دفعهم عن أرض أرومتهم الأصلية – شأن الأتراك العرائيين – ذلك الطوفان المطلم الله أحدثه جنكز أو حتى قبله . تنقلوا في البلاد كما تنقل من قبلهم الأتراك العرائيون ، وإن كانوا أقل حطاً حسناً محسناً منهم . فانتشروا على مهسل متجهين غرباً عبر أوربا : حطاماً غريبة من نظام الرحل في علم قوامه الحراث والمدينة ، مطرودين من وطلهم القديم بمهوب (بلغ) تازلين في أراضي الشيوع الأوربية ، وبجوار السياجات المضروبة حول المزارع وفي أراضي الغابات المرية والبقاح المهالة . سماهم الألمان باسم و المنظريين، و و التتار ،

ولا يبدو أنهم حافظوا على تقاليد منهم الحقة ، هير أن لم لفة بميزة تشير إلى تاريخهم الضائع ؛ فإنها تحتوى على كثير من كلمات شهال الهنسد ، ويرجع أن ذكون في أصولها هندية شهالية أو باكبرية . ويحتوى لسانهم على هناصر ضخمة فارسية وأرمنية .

وإنك لتجدهم الآن فى كل أقطار أوربا ، منهم السمكرى والبهاع المتجول وتاجر الخيل ومنهم أصحاب دور الملاهى وللعرافون والمتسولون . ولقد يلتلد كثير من ذوى الأخمان الحيالية التلماذا قوياً بمخياتهم القائمة على جانب الطريق ، ونيرانهم المداعنة ، وخيامهم المدود عباهم المعانمين الدين لوحت الشمس وجوههم .

والمدنية شيء يبلغ من حداثته في التاريخ ، كما أنها ظلت معظم عهدها ذات صورة علية بالغة ، هيث لا يزال لزاماً عليها أن تقهر غالب غرائزنا وتتمثلها في نطاق احتياجاتها . فإن عرق الهداوة والرحل المندس في معظمنا يتحرك في سويدالثا كلما مسنا السأم بما عليه المدنية من أوضاع ومعقدات. وما نحن إلا أصاب بيوت فارو الحاسة ، غير علمين لمعيشتنا المنزلية . واللم الذي يسرى في عروقنا قد تكون في بلاد الميوب كا تكوّن في أراضي الحراث.

ومن بـن الأنواع الأخرى من العنـوى التي حملها الغجر من قطر إلى قطر ، ذلك اللون

من الموسيقي الشعبية الذي أشاعوه في الأقطار التي مروا با ، فلهم كانوا على الدوام موسيقين متحسين لفهم وإن لم يكونوا مبتكرين خلاقين ؛ ذلك بأنهم حملوا إلى كل مكان حلوا به ضرياً من فن الإنشاد الشعبي ، يضفون عليه نكهة وحيوية صادرة من ذات أنفسهم . ولطالما سرقوا ألحان الشعوب كما سرقوا في بعض الأحيان أطفالم وجعلوا مهم أغجاراً . وهم لم يستعملوا البتة أي تدوين موسيقي « نوتة » ، ولكن تقاليدهم الموسيقية كانت على الدوام قوية ، وللأغنية الفجرية اليوم أحفاد كثيرة هي موسيق هناريا وأسيانيا والروسيا .

الفيل لثالث واليلاثون نهضة المدنية الغربية

الطرق البحرية تحتل مكان الطرق البرية

١٠ ــ المسيحية والتعليم الشعبي

إن نظرة إلى الحرائط تحدثنا أن القرون الثلاثة منذ بداية الثالث عشر حى بهاية الخامس عشر كانت عمر الشعوب المخامس عشر كانت عمر الراجع للمسيحية . وكانت هذه القرون عصر الشعوب المغولية . في إيانها كانت البداوة : (الترحل) المقادمة من آسيا الوسطى تسود العالم المعروف . وكان على مفرق الدنيا ، وهذه الفترة في ذروتها ، حكام من الجنس المغولى أو ذي قرباه التركي ، يهضون بالحكم ومعهم تقاليدهم في كل من الصن والهند وفارس ومصر والمربقيا الثمالية وشبه جزيرة البلقان وهنفاريا والروسيا .

ولقد بلغ الأمر بالتركى العيانى أن جنح إلى البحر ، وقاتل البنادة على سطح يحرهم المتوسط نفسه . وحاصر الهرك في (١٥٢٩) مدينة ثبينا ، ولكنهم هزموا إذ ردهم الجو على أعقابهم أكثر مما ردهم اللنائدون عنها . ودفعتُ إمبرطورية شارل الخامس الهابسرجية الجزية السلطان . ولم يحدث حتى معركة ليبات (١٩٧١) ، وهي المعركة التي فقد فيها سرڤانتيز موالف دون كيشوت ذراعه اليسرى – « أن كسرت المسيحية (على حد قوله) أنفة الميانيين وكرياءهم ورفعت الفشاوة عن عيون العالم الذي كان بعد الأسطول التركي شيئاً لا سييل للي قهره » .

وكانت البلاد الوحيدة التي "بيا فيها للمسيحية التقدم هي أسبانيا . ولو "بيا لوجل خي بصيرة نفاذة أن ينظر إلى العالم في مفتتح القرن السادس عشر فلعله كان يستنجج أنه لن عضي إلا بضم أجيال قليلة لا يلبث بعدها العالم أجمع أن يصبح مغولياً — وربما أصبح إلى الاميا ، على نفس الشاكلة التي يلوح بها أن معظم الناس يسلسون اليوم بأن الحكم الأوربي ونوعاً من المسيحية المتحررة مقدر لهما أن ينشرا ظلالهما فوق العالم أجمع . ويباد أنه قل من الناس من يلمرك مبلغ حداثة هذه العظمة الأوربية ، وربما فاته أيضاً أن يلمرك عمي وقعية عارضة . ولم تبد أي دلائل واضحة تدل على مبلغ الحيوية المخورية الإدربا الغربية إلا عندما أخذ القرن الخامس عشر يدلف نحو نهايته .

ويقترب تاريخنا الآن من زماننا هذا ، ومن ثم تتحول دراستنا أكثر فأكثر إلى دراسة للأحوال القائمة بيننا . فالنظام الأوربي أو المصبوغ بالصباغ الأوربي الذي نميش تحت ظلاله اليوم هو نفس النظام الذي نراه يتطور في أوائل القرن الحامس عشر بأوربا اللماوية المهارة التي يتهددها المفسول . وما كانت مشاكلها آفداك إلاه الحنين بمشاكل اليوم ومن المستحيل علينا البحث في شئون ذلك الزمان دون البحث في شئون زماننا هذا . فرانا نخوض في السياسة بالرغم من أنفسنا . قال السير ج . ر . سيلي⁽⁷⁾ : » إن السياسة بلا تاريخ شجر لا جدور له والتاريخ بلاسياسة شيء لا ثمار له ه .

فلنحاول الآن مستمسكين جهد طاقتنا بالبعد عن التحيز ، أن نستكشف تلك الهوجة العظيمة القوى التي كانت تفرق طاقات نشاط أوربا بلدا وتعرقلها أثناء تلك الهوجة العظيمة التي قامت بها الشعوب المغولية ، وأن نرى كيف يتيسر لنا أن نفسر تجمع الطاقة العقلية والجيانية التي لا شك أنها مضت في طريقها قلماً أثناء فترة التفهقر الظاهرة هله ، والجي انفجرت عند نهايها على تلك الشاكلة الضخمة .

⁽۱) هو السيد چون روبرت سيل ، المؤرخ الإنجليزى (١٨٣٤ – ٩٥) . (المترجم)

فالموقف الآن كثيله في العصر المزوروى: فبيها كانت الزواحف الكرى تسوده على ظهر البسيطة ، كانت هناك زوايا متوارية منعزلة تنطور فيها قلك الثلاييات ذات الشسعر وتلك الطيور ذات الريش التي تمكنت في بهاية الأمر أن تمل عاماً عمل تلك المجموعة الحيوانية الهائلة متبدلة بها أخرى أكثر مزايا ومقدرة ، وكذلك نرى في المناطق المحدودة مناطق أوربا الغربية ، أنه بيها كانت المالك المغولية تسود العالم من الدانوب للي المحيط الهادى ومن البحار المتجمداة الشهالية إلى مدراس ومراكش والنيل ، كانت توضع أسس القواعد الجوهرية في طراز المجتمع الإنساني جديد أشد صلاية وأكثر كفاية ، فهذا الطراز من المجتمع ، المدى ما يزال في دور التكوين لم يتجاوزه بعد ، والمدى ما يزال تحد المتجارب ، قد نستطيع أن نطان عليه اسم و الدولة العصرية ، ونحن ندوك دون أدنى ربب أن تلك العبارة مبحة : على أنا جاهدون أن نبث فيها شيئاً من المعنى مع تقدمنا بمننا مادا.

وقد سبق أن سجلنا ظهور نواة الفكرات الأساسية لتلك الدولة المصرية في الجمهوريات الإخريقية وبمناصة في أثينا وفي الجمهورية الرومانية العظيمة وفي دين البودية والإسلام ، وفي قصة الكاثوليكية الغربية . وهـــله الدولة المصرية ، كما نراها اليوم وهي تنمو بحت أسماعنا وأيصارنا ، إنما هي بالضرورة مزج بجريبي بين فكرتين تلوحان متناقضين في الظاهر ، وهما فكرة و مجتمع من العقيلة والطاعة ، ، على غرار تلك المجتمعات الي كانت عليها ولا ربب الملنيات القديمة ، وفكرة و مجتمع من العزيمة والإرادة ، مثل التجمعات السياسية البدائية عند الشعوب النوردية والحونية . وفكرة و مجتمع من العزيمة والإرادة ، مثل التجمعات السياسية البدائية عند الشعوب النوردية والحونية . المؤلونية والمنافق المتوقاؤي الأساس المبادق والحضوم الشخصي على النفس المبادة والحضوم الشخصي على النفس بلوح أن المترحلين طوروا فكراتهم وعاداتهم على أساس الاعباد الشخصي على النفس بلوح أن المترحلين المواد أن تدأب الشعوب المترحلة على إماداد الملنيات بحدواً من من الطبيعي جداً في هذه الظروف أن تدأب الشعوب المترحلة على إماداد الملنيات عدورة من العليمة و الإيقاع ؛ المترحلة على إماداد المدنيات بمحكام جدد وأرستقراطيات جديدة ، فلملك هو و الإيقاع ؛ المنافق بن تنظماً في كل أحقاب التاريخ المبكر . وبعد الاف من السنين انقضت المادي بين من السنين انقضت المادي بين المعرب المادي بين المناف المنافق من السنين انقضت المادي بين المنافق من السنين انقضت المنافق من السنين انقضت المنافق من السنين انقضت المنافقة المنافقة على المنافقة المنافقة من السنين انقضت المنافقة عليه من السنين انقضت المنافقة المنافقة عن المنافقة المنافقة عند المنافقة عن المنافقة عند المنافقة



(شكل ١٥٤) حريطة أوربا عند سقوط القسطنطيلية

فى تغيرات دورانية يتعاور فيها الانتماش بفتح المرحلين فالمدنية فالاضمحلال ثم الفتح المديد ، ابتدأت العملية الحالية ، عملية المزج المتبادل بين النزعات المتحضرة ، أى العاملة الكادحة الطبعة ، وبين النزعات الحرة أى الأرستقراطية والمغامرة ، مزجاً أنتج طرازاً جليداً من المجتمع ؛ يتطلب منا الآن توجيه انتباهنا إليه كما أنه قوام التاريخ المعاصر لنا .

وقفونا في هذا ٥ التاريخ ٥ التطور البطىء لهجتمعات بشرية ٥ ممدنة ٥ أكبر فأكبر، منذ أيام قبيلة المائلة البدائية بالعصر الحيجرى القديم . ورأينا كيف أن مزايا الزراعة وضروراتها والحوف من آلمة القبيلة والفكرات القائلة بالملك الكاهن والملك الرب ٥ لمبت دورها في توثيق عرى التماسك داخسل جماعات إنسانية متزايدة الحجم والقوة في مناطق بلغت أقصى غاية الحجم . وراقبنا التفاعل بين الكاهن (وكان في العادة

من الأهانى) وبن العامل (وكان فى العادة فاتماً) فى تلك المدنيات القديمة الباكرة ، كا رأيتا تطور الكتابة والتقاليد المكتوبة وإفلائها من السيطرة الكهنوتية ، وظهور فوى جديدة نبدو أول أمرها عارضة طارئة ثانوية فى ظاهرها ، وقد سميناها و الفطنة الحرة » و « الضمير الحر » للبشرية ، وشهدنا حكام المدنيات البنائية فى وديان الأنهار يوسعون ممتلكاتهم ويملون سلطانهم ، وشهدنا فى نفس الوقت فى الأراضى الأقل خصباً ما كان مجرد « همجية » قبلية يتطور إلى « حالة ترحل » تزداد فى كل آن اتماها وكفاية سياسية .

ودأبت البشرية على مسيرها في أحد هذين النهجين أو في الآخر. وظلت المدنيات جمعاء عصوراً طويلة وهي تنمو وتتطور على أساس الملكية : أعنى فوق أساس من المملكية المستبدة المطلفة ، وشهدنا كيف حدث في كل ملكية وأسرة مالكة أن الكفاية والهمة كانتا تحليان مكاتبما للترف الباذخ والثراشي والإنحلال ، كأنما كان ذلك أمراً إيقاعياً عتوماً لا مفر منه ، ثم رأيناها وقد خضمت آخر الأمر إلى أسرة أحدث منها قادمة من الصحراء أو السهوب .

وتتجسم قصة المدنيات الأولى الزارعة ومعايدها ويلاطاتها الملكية ، ضخمة في التاريخ الإنساني ؛ على أنه من الحير أن تشكر أن مشهد هده القصة لم يتجاوز قط رقعة صغيرة جداً من سطح اليابس في الكرة الأرضية . في القسم الأكبر من الأرض والى ذمن قريب جداً لا يتجاوز الألفين الأخيرين من السنين ، كانت الشعرب القبلية الأصلب عوداً والأقل حددا النازلة في أراضي الفايات والأحراش المفيقة ، والشعوب المرحلة ساكنة أراضي الكلاً الموسمية تلزم طرائقها الحاصة ما في الحياة وتطورها .

ربما جاز لنا أن نقول إن المدنيات البدائية كانت و مجتمعات طاعة » . فكانت الطاحة المعلوك الأرباب والملوك اللدين فى رعاية الأرباب هى القوة التى تشدهم بعضهم إلى بعض ، فأما نزعة المترحلين فكانت من الناحية الآخرى تتجه على الدوام شطرطراز عالمف من الترابط سوف نسميه هاهنا بامم و مجتمع الإرادة » . إذ يحب فى مجتمع جوال مقاتل أن يكون الفرد جامعاً بين الاعهاد على اللمات وبين النزام النظام فى الموقت نفسه . ويجب أن يكون روساء مثل هذه المجتمعات رؤساء أيشيعون لاسادة يجبرون .

ومن اليسر تتبع أثر و مجتمع الإرادة ، ، هـــلما فى تاريخ الإنسائية بأجمع ، فنحن نجد فى كل مكان أن النزعة الأصلية للمسرحان كافة : النوردين مهم والسامين والمغول سواء ، كانت من الناحيــة الفردية أكثر نزوعاً وإرادة وأشد ترفعاً وشهامة من نزعة الأقوام المستقرين . هبطت الشعوب النوردية إيطاليا وبلاد الإغريق تحت ملوك قادة ، ولم يستجلبوا معهم آية نحلة معبد نظامية ، بل وجدوا تلك الأشياء فى الأراضى المفزوة ثم كيفوها حين استعملوها . ثم نحول الإغريق واللاتين ثانية لمل تكوين الجمهوريات بغاية السهولة ، وكذلك فعل الآريون فى بلاد الهند . وكان هناك أيضاً تقالبد للاتخاب فى ممالك الفرئية والجرمان الأولى ، وإن كان القرار يؤخذ فى العادة على عضو أو آخر من أعضاء طائفة أو عائلة ملكية . وكان الحلفاء الأولون ينتخبون ، وكان قضاة بمى إسرائيل وملوك قرطاحة وصور ينتخبون ، وكللك كان شأن الخان الأعظم المغول حتى أصبح قوبلاى ملكاً صينياً .

وعلى نفس هذه الشاكلة من الاطراد والاستمرار نجد الفكرة المضادة في أراضي الاستقرار المسكونة ، فكرة ربوبية الملك غير الانتخابية وفكرة حقه الطبيعي الفطرى في الحكم .

ولاحظنا فى ثنايا تطور تاريخنا ظهور عناصر جديدة أدخلت التعقيد فى قصة الجهامات البشرية ؛ ورأينا أن المترحلين انقلبوا إلى وسطاء ، وبلنك ظهر التاجر ، ولاحظنا أهمية السفن وهى تنمو فى العالم . ويلوح أنه لا مندوحة للرحلات والأسفار من أن تجعل الرجال أحراراً فى عقولهم وأفكارهم كما أن الاستقرار فى داخل أفق ضيق يجمل الناس جيناه خانعين . . . على أنه بالرغم من كل هذه الأمور المعقدة تجرى المصومة الإجمالية بين طريقة و الطاعة ، وطريقة و الإرادة ، ، عشرقة حقب التاريخ حتى تصل إلى زماننا هذا . ولا يزال التوفين بيهما ناقصاً غير كامل إلى يومنا هذا .

وقد جرت المدنية على الدوام ــ حتى ماكان منها في أحط العمور ــ على سُنة بلمل كثير من الأمور الحدابة المريحة للبشرية والموافقة لطبيعتها . على أن بجنسنا ناحية قلقة غير مروّضة تماول على الدوام أن تنقل المدنية من اعتبادها الأصلي على و الطلعة التي لا مشاركة فيها ؛ إلى مجتمع من « إرادات متشاركة » . وإن سمة النوحل الكامنة في دماء الملوك والطبقات الأرستقراطية ، تلك السمة التي يرجع إليها ولا مواء قسط كبير من فضل إنتاج الأجيال النالية ، لئيناً يجب أن ينسب إليه كللك تلك الرغبة الملحاح المستديمة التي تنزع بنا نحو توسعة المجال وتضطر كل دولة أن توسع حدودها إن استطاعت ، وأن تمد مصالحها إلى أقصى الأرض . ويظهر أن دوافع القلق الترحلي ، التي تنزع إلى جلب كل الأرض تحت سلطان حكم واحد ، هي بذاتها الروح التي تجعل مراجل معظمنا تفل في ظل التوجيه والتضييق ، وتدفعنا إلى أن تحاول « المشاركة » في أية حكومة نسمع يوجودها .

ظل هذا الكفاح الطبيعي ، هذا الكفاح للتمشي مع مزاج البشرية الهادف إلى التوفيق بين المدنية والحرية ، — (ظل) حياً عصراً بعد عصر بسبب العجز المسكرى والسيامي في كل ومجتمع طاعة ، وجد على ظهر البسطة حتى اليوم . ومتى أشرع الناس مرة للطاعة ، أمكن القبض عليها بناية السهولة ونقلها إلى الفير ؛ وما عليك إلا أن تلتى البصر إلى الدور السلبي الذي لعبته مصر وأرض الحريرة والهند : أرض الخصوع الأصلية الموزجية و و مهاد المدنية ، — وهي تنتقل من سيد إلى آخر الراد الأحراد اللحراد اللحراد اللحراد اللحراد اللكترية .

ولكن (مجتمع الإرادة) يحم صهر مواد حسوة بمضها في بمض ؛ وهو مجتمع إيجاده أصعب كثيراً ، وأصعب من إيجاده الإيقاء عليه . ولعلنا لا نزال نذكر أن قصة الإسكند الأكبر تظهر مجتمع الارادة للقواد المقدونيين وهو يلوب شيئاً فشيئاً تلقاء طلبه إليهم أن يعبده . وما حادث مقتل كليتوس إلا دلالة طرازية على الكفاح بين التقاليد الحرة والتقاليد الدليلة الذي كان مجرى كلا وجد فاتح جديد قادم من الأرض البراح والهواء الطلق نفسه متربعاً في قصر ملكية من الطراز القديم .

ويحدثنا التاريخ فى حال الجمهورية الرومانية عن أول 1 عبتمع إرادة 1 كبير فى التاريخ أى أول عبتمع حرحجمه أكبركثيراً من حجم مدينة ، ويخبرنا كيف دب الوهن إليه مع نموه وتبددت قواه مع النجاح الذى أصابه ، حتى استسلم أخر الأمر لملكية من

الطراز القديم ، ثم انحل مريماً إلى مجتمع من أشد مجتمعات المذلة ضعفاً ، مهاراً أمام حفنة صغيرة من الغزاة . ولقد أولينا في هذا الكتاب بعض انتباهنا إلى حوامل ذلك الانتخار ا ، لأن لها أهمية جوهرية في التاريخ الانساني ، ومن أوضح نلك الموامل الانتخار إلى منظمة واسعة النطاق التعليم لتوسس وتبنى عقول المواطنين العاديين على فكرة خدمة الجمهورية والارتباط بها ، أعنى على الابقاء عليهم راغيين به ذو ى إدادة » ، وعمة عامل آخر هو غياب كل وسيلة للإعلام العام تكفل دوام الانسبعام بين أوجه نشاطهم ، وعكمهم من أن « يصدروا إرادتهم » كهيئة و احدة وشخص واحد . بين أوجه نشاطهم ، وعكمهم من أن « يصدروا إرادتهم » كهيئة و احدة وشخص واحد . الإرادة » . ولم يعسح تركز الملكبة والأملاك في أيد قليلة وإحلال الرقيق على العمال الأحرار ، في الإمكان إلا بسبب انحلال الروح الغبرية العامة (Public Spiril)

وفضلا عن ذلك لم يكن هناك أية فكرة دينية ذات كفاية تستند إلها الدولة الرومانية ، فإن عقيدة روما الإرورية (الإرسكية) الفامضة الباحثة عن الكيد المختلج (٢٧ كانت لا تقل في سوء تكيفها والاحتياجات السياسية في مجتمع ضمخم ، عن الشامانية الشديدة الشبه بها لدى المغول و والواقع أن السر فيا بلغته المسيحية والإسلام من الأهمية التاريخية المائلة إنما يكن في أن كلامن المقيدتين على طريقها المميزة قد وعدت على الأقل أن مما لأول مرة في الحرة الإنسانية تلك الشرة الواضحة في نظام الجمهورية الرومانية تاريخ مشرك المماضي وفرية مشركة لحدف إنسافي ومصعر إنسافي وقد حدد كل من أفلاطون وأرسطو كما لحظنا آنفا عدد المجتمع المثالي في حدو د بضعة آلاف من أفلاطون وأرسطو كما لحظنا آنفا عدد المجتمع المثالي في حدو د بضعة آلاف من أفلاطون ، إذ أنهما لم يستطيعا أن يتصورا أن في الإمكان أن يترابط بجمهور أكبر من هلما بفكرة مشركة ، إذ لم تكن لدبها أية خيرة بأي نوع من التعلم يتجاوز طرائق التعلم بواصطة الموظه والمؤدين الحصوصين المتبعة في زمامهما . ذلك أن لا يقسع إلا لأرستقراطية عدودة العدد . على حن أظهر كل من الكنيسة المسيحية الميسية المسيحية المس

 ⁽١) الروح الذيرية العامة : من تلك الروح التي تدفع الأفراد إلى خدمة المجتمع والمحافظة هليه
 من طواعيه ورضا .
 (١) أنظر في ذلك الهلد الثنائي من المعالم .
 (١) أنظر في ذلك الهلد الثنائي من المعالم .

والإسلام صدم سلامة ذلك التحديد وعطأه. وربما جال بخاطرنا أمهما قاما بواجبهما في التعليم داخل مبادين فرصهما الفسيحة قياماً فيجاً أو سيتاً ، ولكن بحور الامتهام عندنا الذي يعنينا في هذا الشأن إنما هو مجرد قيامهما بهذا العمل. تقد قام كل مهما بدعايات تكاد تملأ العالم حول الفكرة والإلهام . واعتمد كل منهما بنجاح على قوة « الكلمة المكتوبة » في ربط جاهير عظيمة من أناس متوعن مخطى للشارب ربطاً يضمهم في مساع وجهود مشركة .

ولما وافى القرن الحادى حشر ، كاتت فكرة المسيحية قد فُرِضت كما سبق أن رأينا ، على ذلك الحليط المتقاتل فى الإمبراطورية الغربية المهشمة المتناثرة وعلى أوربا وراء حدود الإمبراطورية بكثير ، بوصفها فكرة موحدة ملهمة . فكونت و مجتمع إدادة ي ضحلا رقراقاً ولكنه فعال ، فوق منطقة لم يسبق لها مثيل فى الاتساع ، وبين جمهور من الكائنات الإنسانية لم يسبق له ضريب فى العظم . وكان البود يربطون بالفعل شتات مجتمعهم بالتعلم النستى المنتظم فى بداية الحقبة المسيحية على الأقل . ولم يحدث شيء كهذا لأى شطر عظم من البشرية فى أى عصر من حصور التاريخ إلا مرة واحدة ، وكان ذلك هو فكرة و عيتمع السلوك الحسن ، التي نشرها الأدباء (Literati) فى كافة أرجاء الصن .

وقدمت الكنيسة الكاثوليكية ما كان يُسوّرُ الجمهورية الرومانية : وهو نظام من التعليم الشعبي العام ، وعدد من الجامعات وبعض طرائق التواصل الله عن . وبها العمل الجليل مهدت السيل أمام الاحقالات الجديدة للحكم البشرى التي أصبحت الآن واضحة جلية في هذه و المعالم » ، وهي احقالات ما تزال موضع الحشية من الناس كما لا نزال في دور التكوين في العالم الذي نجيا بين ظهرانيه . وكانت حكومة أية دولة حتى آن ذاك ، إما أن تكون استبدادية يتولاها أتحاد يجمع بين الكاهن والعاهل لا ينتقده منتقد ولا يتحداه متحد ؛ أو ديمقراطية لا تنلي تعليا ولا إعلاماً ، وتنحل وتنكس حين تبلغ أي قسط جسيم من زيادة سعة الرقعة ، منحطة لمل مجرد حكم للرعاع ورجال السياسة كما فعلت روما وأثينا . ولكن عند ما حل القرن الثالث عشر كانت قد يزغت أول إشارة تلوّح بمثل أعلى للحكومات لا يزال إلى الآن يشق طريقه كانت قد يزغت أول إشارة تلوّح بمثل أعلى للحكومات لا يزال إلى الآن يشق طويقه

نمو التحقيق ، وهو المثل الأعلى العصرى : المثل الأعلى القاضى بإنشاء و حكومة تطيمية ، العالم أجمع ، لا يكون فيها الرجل العادى عبداً لملك مطلق ولا لدولة يحكمها ديماجوج ، يل يكون عضواً فى المجتمع يتلقى الإعلام ويوحى إليه ويستشار . ويجب أن يوجه التشديد والعناية إلى كلمة و التعليمية ، هذه ، وإلى الفكرة القائلة بأن و الإعلام ، ينبغى أن يسبق الاستشارة .

وكفيق هذه الفكرة تحقيقاً عملياً ، وأهنى بلدك أن التعليم وظيفة جماعية وليس علا خاصاً ونقطة أساسية يكمن فيها أحد الفوارق الجوهرية التي تميز والمولة العصرية ، من أية دولة أخرى سبقها . وقد شرع الناس أن يدركوا أن المواطن العصرى يجب أن يتلقى الإحلام أولا ثم يستشار بعد ذلك ، فلا بلد له قبل إعطاء صوقه من سماع الأدلة والمينات. ولابد له أن يعرف قبل أن يمكنه أن يفصل . وليس يكنى أن تقام غرفات الانتخابات وصناديقها ، بل أن توسس المدارس وأن تجعل الكتب والمعرفة والاخبار في متناول الناس جميماً ، حتى ينفتح الطريق الذي ينقل الناس من العبودية والارتباك إلى تلك المدولة التعاونية بالإرادة والرضا التي هي المثل العصري الأعلى . والارتباك إلى تلك المدولة التعاونية بالإرادة والرضا التي هي المثل العصري الأعلى . ويطاليا أصوات في زمن أسرة جر اكوس (Gracchi) . ولكن أصواتهم لم تنفعهم بشيء . ذلك أن حيازة الرجل للصوت الانتخابي تكون أمراً خطراً أو شيئاً لافائدة بخي من ورائه حتى يحصل الرجل على تعليمه . وليس المجتمع المثالي الذي نتجه صوبه وعجم عما للإرادة ، يحل على و عجمع عقبدة وطاعة ، والتعليم هو المكيف الذي يجمل دوح الحرية والاعتهاد على الملمات عند وطاعة ، والتعليم هو المكيف الذي يعمل دوح الحرية والاعتهاد على الملمات عند البلوي المدرح الميات التي تستظل بها الحضارة . اللبوي المدرح المربط المن المتعارة على المباد على المبادى المبلوي المدرح المربة والاعتهاد على المهادة .

٢ ـ أوربا تشرع في التفكير لنفسها

لاجدال فى أن الكنيسة الكاثوليكية بما اعتمدت عليه من دعايات واحتكامات إلى الرأى العام ومن مدارس وجامعات ... قلد هيأت السبيل لاحتمال قيام الدولة التعليمية العصرية فى أوربا ، غير أن من المحقق كذلك أن الكنيسة الكاثوليكية لم تتعمد قط

قعل ذلك قصداً . فهي لم ترسل المعرفة في صحبة بركاتها ، بل هي أطلقت سراحها عفواً وعن خفلة وسهاون ولم تكن الكتيسة الكاثوليكية برى نفسها وريئة المجمهورية الرومانية ، بل الإسراطور الروماني . ولم يكن تصورها عن التعليم هو إطلاق السراح له ، ولا اللحوة للمشاركة فيه ، وإنما هو إخضاع المقول . وهناك اثنان من كبار المملمين في القرون الوسطى لم يكونا في الواقع من رجال الكنيسة بتاناً ، بل كانا ملكين ومدبرى دولة هما : شراان ، وألفريد الكبير ملك انجازة ، اللمان استخدما هيئة الكنيسة ومنظلها . ولكن الحق أن الكنيسة هي التي أمديهما بالمنظلات . وكان كل من الكنيسة والملك في صراعهما المتبادل على القوة والسلمان يستجد بأفكار الرجل العادى . ومن ثم يظهر الرجل العادى استجابة لاحتكام هدين الحصمين إليه ، وهو الرجل الخارجي المستقل غير الموظف

ولقد رأينا فعلا في الفرن الثالث عشر البابا جريجورى التاسع والإمبر اطور فردريك الثان هناك هناك هناك بالفعل فردريك الثاني منتبكين في خصومة علية عامة عنيفة . فكأنه كان هناك بالفعل إذن إحساس بأن قد ظهر في العالم حكم جديد أعظم من البابا والملكية جميعاً ، أي أن هناك قراءاً ورأياً عاماً . وأفضى خروج البابوات إلى ألهينون وانقسامات البابوية واضطرابها ألبناء القرن الرابع عشر إلى تنبيه ذلك والحكم الحر ع على السلطة في كل أرجاء أوربا تنبها هائلا .

وابتدأ الأمر بأن اقتصر النقد المتداول في شأن الكنيسة على أمور أخلاقية و مادية ليس غير . فإن ثراء كبار رجال الإكابروس و رفهم والفيرائب البابوية الفادحة . كانت رأس أسباب الشكوى . كما أن الهاولات الأولى التي بللت لاستعادة البساطة المسيحية الأولى ، كتأسيس جاهة الرهبان الفرنسسكين مثلا ، لم تكن حركات فحرقة وانقصال ، بل حركات بهضة وانتماش . ولم يتطور النقد فيغلو أكثر عمقاً وأشد تدميراً إلا بعد ذلك بغيرة من الزمان يوم أنحك يوجه مهامه إلى الحقيقة المركزية في تعاليم الكريسة ، ومبررات أهمية القسوس وأعنى بها نقديم القرابين في الصلاة .

وُقد سيق لنا أن رسمنا لك في صورة إجمالية البدايات الباكرة المسيحية ، كما

بينا كيف أنه مرعان ما حدث لتلك الخاطرة العسرة المتزمتة ، خاطرة ملكوت الرب التي كانت الفكرة المركزية في تعاليم يسوع النَّاصري ، أن غطى عليها ابتعاث الفكرة القربانية العتيقة . وهي في واقع الأمر مبدأ أصعب فهماً ، ولكن التوفيق بينه وبين عادات وميول وخنوع الحياة البومية فى الشرق الأدنى أيسر وأسهل . ولحظنا كيف أن ضرباً من تمازُج العقائد (الثيوقرازيا) حدث بين المسيحية والبهودية ونحلة السراييوم والمداثية والنحل الأخرى المتنافسة ، وتم به تطعيم الديانة الناشئة ـــ وهي بعد في مراحل التطور – بيوم الأحد المثرائي ، وفكرة البهود عن الدم بوصفه ضرورة دينية ، والأهمية التي ناطبًا الإسكندرية بأم الرب ، والقسيس الحليق المصوَّام ، والزاهد المعذب لنفسه ، وأمور أخرى كثيرة من الإيمان والطقوس والمارسة . فهذه التكيفات قد جعلت ولا شك التعاليم أدنى كثيراً إلى الأفهام وأكثر قبولاً في مصر وسورياً وما أشبههما من بلاد . كانت أموراً تتمشى مع طريقة تفكر الحنس الأبيض الداكن في البحر التوسط ؛ كانت موائمة لفطرة ذلك الطراز من العرب ــ كما سبق أن أظهرناك على ذلك فى قصة محمد (ص) ــ بل كانت تلك المظـاهر تجعلها في رأيهم منتَفَّرة كريهة . وكذلك أيضاً يلوح أن الراهب الحليق والراهبة والقسيس أثاروا شيئاً يقارب العداوة الغريزية عند الهمج (البرابرة) النورديين في الشهال والغرب. ولحظنا العداء الغريب الذي أبداه الأنجلوسكسون وأهل الشيال نحو الرهبان والراهبات . ويخيل إلينا أنهم شعروا أن حياة هؤلاء المتبتلين القانتين وعاداتهم كانت شاذة غير طبيعية .

ومما زاد كثيرًا في أوار الصدام بين ما نسميه العوامل و البيضاء الداكنة ، والعناصر الأحدث منها في المسيحية ، أن البابا جريجورى السابع فرض العزوبة على القسوس الكاثوليك في القرن الحادى عشر . وقديما عرف الشرق رجال الدين العرّاب منذ آلاف السنين ولكن الغرب كان ينظر إلهم نظرة التشكك والربية .

وفى القرن الثالث عشر والرابع عشر ، وبينها حقل الشعوب النوردية ذو النزعة الدنيوية آخذ بأسباب تحصيل العلم وشرع يتعلم الفراءة والكتابة والتعبير عن النفس ، وبيها هو يتصل بما اجتمع للذهن العربي من مناشط منهة ، نجد الكاثوليكية تتلّى بداية نقد أعظم قوة بكثير ، ونلحظ همجوماً عقلياً على القسيس بوصفه قسيساً . وعلى مراسم القداس بوصفه الحقيقة المركزية فى الحياة اللينية ، هجوماً مصحوباً بطلب العودة إلى تعاليم يسوع الشخصية كما هى مسجلة فى الأناجيل .

أسلفنا إليك ترجم وبكليف الإنجليزي قرابة (١٣٧٠ – ١٣٨٤) وبينا كيف ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية لكي يقيم سلطة مناهضة لسلطة البابا . وقد شهر وبكليف بمبادئ الكنيسة المنطقة بالقداس ناعتاً لمياها بأنها خطأ ذريع ، وبخاصة تلك التعليمة الغائلة بأن الخبر المقدس الذي يتناول في ذلك الطقس يصبح بطريقة ما سحرية هو الجسم الفعلي النسيح . ولن نجاول أن نتبع موضوع و استحالة المادة ه(١) كما تسمى عملية التغيير السرى المناصر في و القربان المقدس » – تتبعاً يتغلغل بنا إلى دقائق معقداتها . فإن هذه أمور تبرك للإخصائي في علم اللاهوت . ولكن من الواضح أن ذلك المبدأ الكاثوليكي الذي يجعل تقديس ألعناصر و القربان المقسدس » عملية إعجازية يقوم مها القسيس وحده ، والمذي يمعل ، القربان المقسيس وحده ، والمذي يمعل ، القربان المقسيس وحده ، والمذي يمعل ، القربان المقدس وحده ، والمذي المقاوسة زيادة هائلة .

على أن وجهة النظر الأخرى - وهي وجهة النظر والبروتسانتية ، الأساسية المثالة بأن هذا والهربان المقدس ، إنما هو مجرد تناول للخبر وشرب للنبيذ يتحذان على سبيل الذكرى الشخصية ليسوع الناصرى - لا بد أن تقضى آخر الأمر على كل احتياج خاص إلى قسيس متكرس .

ولم يذهب ويكليف نفسه إلى هذا الحمد المتطرف، إذ أنه كان قسيساً كما أنه بنى كذلك حتى نهاية حياته ، وكان برى أن الله حاضر روحياً إن لم يكن حضوره مادياً في الحيز المقدم ؛ ولكن مبدأه أثار مسألة دفعت الناس بقوة حتى أبعدشهم عن

 ⁽١) استحالة المادة Transubstantiation : تحول المبرّ والنبيد أثناء طفس و التناول ٤ إلى جسد المسيح ودمه . (المترجم)

وجهات نظره . وإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر المؤرخ رأينا الكفاح مع روما اللدى بدأه ويكليف سرعان ما أصبح كفاحاً ناشباً بين ما قد نسميه الديانة العقلانية أو ديانة الرجل العلماني ، الى أخلت تحتكم إلى ما البشرية من ذكاء حُر وضمير حر وبين الديانة المستبدة التقليدية الطقوسية الكهنوتية . وكان الاتجاه النهائى في هلما الكفاح المعقد هو تجريد المسيحية حتى تصبح كالإسلام عارية تماماً من كل أثر من آثار الكهانة العنيقة ، والانقلاب إلى وثائق الكتاب المقدس بوصفها حجة يستند إليا ولمل استرجاع تعالم يسوع الأصلية إن كان ذلك في الإمكان . ولا يزال غلب ما أثير في ذلك الكفاح من خصومات قاعاً لم يفصل فيه بين المسيحين علي ومنا هله .

ولم تكن كتابات ويكليف أعظم أثراً فى أى مكان منها فى بوهيميا . فمى قربب من (١٣٩٦) ألني علم تشيكى اسمه چون همَسْ ؛ سلسلة من المحاضرات فى جامعة إ پراج تقوم على مبادئ المعلم الأكسفوردى العظيم . وعين هس عميداً للجامعة ، وأثارت تعاليمه الكنيسة حى أصلوت عليه قرار الحرمان (١٤١٧) .

كان هـ ال في إبان و الصدع الكبر ، و قبل انهقاد بجلس كونستانس (١٤١٤ - ١٤١٨) البحث فيا ترد تفيه الكنيسة من فوضى شائنة . وقد حادثناك آنفا كيف انهى الصدع بانتخاب مارتن الحامس . وكان المجلس يطمح أن يعيد إلى المسيحية وحديها إهادة كاملة . ولكن الوسائل الى حاول بها إهادة تلك الوحدة لا تتفق وضميرتا المصرى . فإنه قضى بإحراق عظام ويكليف . واسستلاج هكس حتى ذهب إلى كونستانس منخداً بوعد مهم بغيان سلامته ، وعئد ذلك قدم المحاكة بهمة الزنفقة (المرطقة) . وأمر أن يسحب بعض آرائه . فأجاب بأنه لا يستطيع أن يسحب بيئا حتى يقنعوه بخطئه . فأبلغوه أن من واجبه أن يسحب بأنه الأمر اطور لسلامته ، فإنه أن يقبل هذا الرأى . وبالرغم من ضهان الإمر اطور لسلامته ، فإنه أن يقبل هذا الرأى . من جل مبدأ معين ، بل من أجل ذكاء البشرية الحروضميرها الحر .

ومن المستحيل أن يعرض الإنسان النزاع بين القسيس وحدو القسيس على صورة أوضح تما تجلى فى محاكمة چون هس هذه ، أو أن يوضح شىء أكثر منها الروح الشريرة المنبثة فى أساليب رجال الكهنوت . وفى السنة التالية أحرق زميل لهس هو جبروم العراجى .

وتمخضت علمه الاعتداءات عن عصيان قام به أتباع هس فى بوهيميا (١٤١٩) وهو أول حلقة فى سلسلة من حروب دينية تسجل انقسام المسيحية . وفى (١٤٢٠) أصدر البابا مارتن الخامس مرسوماً يمُعلن حرباً صليبية و لقضاء على جميع أتباع ويكليف و هس وكل من عداهم من الحراطقة فى بوهيميا ٥ ، واستهوت هذه الدعوة الجنود المرتزقة العاطلين وكل وخد عاطل من أعوان السوء المتجولين فى أوربا فأطبقوا على القطر الشجاع من كل صوب . فوجدوا فى بوهيميا تحت قيادة زعيمها العظم زيسكا ، متاحب أكثر وغنائم أقل نما يطمع الصليبيون أن يلقوه . وكان أتباع هس يدبرون أمورهم على أسس ديمقراطية متطرفة ، وانبعثت الجاسة متأججة ضراماً فى يدبرون أمورهم على أسس ديمقراطية متطرفة ، وانبعثت الجاسة متأججة ضراماً فى ولا يلابد جماء . وحاصر الصليبيون مدينة براج ولكنهم فشلوا فى الاستيلاء علها : ولقوا سلسلة من الهزائم انتهت براجعهم عن بوهيميا . وجرت حرب صليبية تائية أخويان ، ثم حدث لسوء الحفظ أن دب بين الهسين دبيب الخلاقات الداخلية . أخويان ، ثم حدث لسوء الحفظ أن دب بين الهسين دبيب الخلاقات الداخلية . وتشجع الصليبيون بهنا الذراع فعبوت الحلمود قوة خاسة (١٤٣١) بقيادة فردريك مارجويش (٤٠٤) راندندرخ .

وكان جيش هولاء الصليبين يتكون ـ حسب أقل التقديرات ـ من ٩٠ ألفاً من المشاة ، و ٤٠ ألفاً من الفرسان . ولما كانوا يهاجمون بوهيميا من الفرب فإمهم ألقوا الحصار أولا على تاخوف (Tachov) ، ولكنهم وقد فشلوا فى الاستيلاء على تلك المدينة المنيعة التحصين ، فتحوا عنوة مدينة موست الصغيرة ، وفها وفى الريف المحيط بها ، اقرفوا من الفظائم أنكرها ، مع سكان كان قسم كبير مهم بريئاً تمام البرامة من التشيع ألى لاهوت .

⁽١) مارجريث (Margrave) لقب لأمراء بأعيائهم في للدولة الرومانية المقنمة . (المترجم)

وواصل الصليبيون توغلهم في يوهيميا وهم يسيرون سيراً بطيئاً ، حتى أصبحوا على مقربة من مدينة دومازليك (تاوس) . ﴿ وَكَانَ أَنْ حَدَثُ فَي السَّاحَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ اليوم الرابع عشر من أغسطس (١٤٣١) ، أن تلقى الصليبيون وقد عسكروا في السهل الواقع بن دومازليك وهورسوڤ تاين – الأخبار بأن أتباع هس يقتربون تحت قبادة پركوپ الكبير . ومع أن البوهيميين كانوا ما يزالون على مبعدة أربعة أميال ، فإن جلجلة عرباتهم الحربية وأغنيتهم : أيها المحاربون في سبيل الله ـــ التي كان جيشهم العرمرم ينشـــدها بأجمعه ــ كانت مسموعة واضحة للآذان s . عند ذلك تبخرت حماسة الصليبيين بسرعة مدهشة . ويصف لوتزو(١١) كيف اعتلى منلوب البايا ودوق سكسونياً تلا يستطيعان منه الاطلاع على الميدان . فعرفا من بوادره أنه لن يكون معترك قتال . ذلك أن المصكر الألماني كان في اضطراب تام . فكان الخيالة يثثالون منصرفين عنه فى كل صوب ، وكانت جلجلة المركبات الخالبة وهي تساق خارج الميدان ، تكاد تطغى على ذلك الفناء الرهيب . وكان الصلبيبون يتخلون عن كل شيء حتى غنائمهم . وجاءت رسالة من مارجويڤ براندنبرج ينصح فيها بالهرب ؛ فلم يعد هناك من سبيل إلى السيطرة على أى فريق من جنودهم . فَكَأَنْهِم لم يمودوا ألآن خطرين إلا على جانبهم هم دون غيرهم · وقضى منلوب البابا ليلة غير سعيدة عنبناً مهم في النابة . . . وهكذا كانت نهاية الحملة الصليبية البوهيمية .

وف (١٤٣٤) نشبت الحرب الأهلية مرة ثانية بين أتباع هم وانهت بهزيمة التسم المنطرت الأشد شبجامة ، وعقد اتفاق فى (١٤٣٦) يين مجلس بال وبين المسين المعتدلين ، سمح فيه الكنيسة البوهيمية بأن تحتفظ بفروق معينة تميزها عما يمارسه الكاثوليك عامة ، وهي تسوية خللت سارية حتى أوان الإصلاح الديني الألماني في القرن السادمي عشر.

⁽١) كتاب بوهيميا تأليف لوتزو .

٣ ــ الطاعون الكبير وبزوغ فجر الشيوعية

كان الانقسام بن أتباع هس راجعاً في معظم أمره إلى اتجاه القسم المتطرف مهم إلى اعتناق نوع بدائى من الشيوعية أزعج طبقة النبلاء النفيكين الأوفر ثروة ونفوذاً. ومن قبل ذلك ظهرت نزعات مشامة لهذه بن أتباع ويكليف من الإنجلز . ويلوح أن لك النزعات تجيء كنتيجة جد طبيعة لمانئ المساواة والأخوة الإنسانية التي تنبعث حيثًا حدثت عاولة للمودة إلى الفواعد الأساسية للمسيحية .

وتما ساعد على زيادة التطور في هاته الفكرات زيادة عظيمة كارثة هائلة اجتاحت العللم وكشفت عن أسس الجماعة الإنسانية كشفاً ذريعاً جردها تماماً للعيان . وهي وياء لم يسمم الناس بمثل ذراعته و فتكه . أطلق عليه الناس اسم الموت الأسود ، وقد أوشك أن يقفى على البشرية أكثر من أى شر أصابها قبل ذلك. كان أشد فتكاً بكثير من طاعون پريكليس ، أو طاعون ماركوس أوريليوس ، أو موجات الطاعون في أيام چستنيان وجريجورى العظم التي مهدت السبيل أمام اللومبارد في إيطاليا . نشأ ذلك الوباء في جنوب الروسيا أو آسيا الوسطى، وانتقل بطريق بلاد القرم وبوساطة صقينة چنوية إلى چنوة وأوربا الغربية . ومرَّ من أرمينية إلى آسيا الصغرى ومصر وهمال ألمريقيا . ووصل إلى إنجلترة في (١٣٤٨) . فات به كما يحدثوننا ثلثا الطلاب بأوكسفورد ، ويقدر عدد من هلك به في ذلك الأوان بما يتراوح بين ربع وتصف سكان الهِلمُرة . وكان عدد الوفيات في كل أرجاء أوربا كافة يقارب هذا المقدار ف العظم . ويقدر هيكثر مجموع الموتى بخمسة وعشرين مليوناً . وانتشر الوباء شرقاً إلى الصين حيث تقول السجلات الصينية إن ثلاثة عشر مليوناً من الأنفس هلكوا . ويقول الله كتور ك . ستاليبراس : إن هذا الطاعون وصل الصين بعد ظهوره لأول مرة في أوربا بثلاثين أو أربعين ســـنة . ولقيه ابن بطوطة الرحالة العربي الذي أقام في الصين من (١٣٤٧ إلى ١٣٤٦) – لأول مرة وهو في طريق عودته إلى دمشق . والموت الأسود هو الصورة البشرية كمرض متوطن بين البرابيع(١) والقوارض الصغيرة

 ⁽١) اليربوع: دريبة نحو الفأرة لكن ذنبه وأشاه أطول سَها ررجاده أطول من يديه .
 (١لهرجم)

الأخرى في المناطق المحيطة برأس بمحر قزوين . وبلغ من شدة الاضطراب الاجماعي المترتب عليه في الصين أن أهملت جسور الأنهار: فغمرت الفيضانات العظيمة ــ تليجة لهذا ــ الأراضي الزراعية المزدحة بالسكان .

ولم يسبق للإنسانية أن تلقت قبل ذلك تعدراً على مثل هذه الدرجة من الوضوح يهدوها على طلب المعرفة والكف عن المنازعات وإلى الاتحاد ضلد قرى الشرق الطبيعة . وما كانت جميع مدابع هولاكو وتيمورلنك تعد شيئاً بالقباس إلى هذا . ويقول ج . ر . جرين و إن فتكاته كانت أشد ما تكون عثقاً في المدن الكبرى حيث كانت الشوارع القذرة التي لا تصريف لمياهها بهي "للجزام والحمى مباءة لا ينضب معيها . ويقال إنه دفن أكثر من خسين ألف جنة في الجبانة التي اشتراها السير والتر ماني بدائم التقوى لسكان مدينة لندن ، وهي التي يمدد موضعها فيا بعد يموضع الشارتر هاوس (١) (Charter House) . وهلك آلاف من الناس في نورويتش الشارتر هاوس أن يدفعوا الموقى التي يعدد من الناس في نورويتش إلا بشق الأنفس .



(شكل ١٥٥) مشاهد من حياة الفلاحين منقولة من أحد كتب الأدهية

و على أن الموت الأسود قد انقض على القرى بقوة تقارب فى عشها حالته فى المدن . والمعروف أن أكثر من نصف قسوس يوركشير لقوا حتفهم ؛ وخلت

⁽١) ملجأً بلندن السنين المتقاعدين . (المترجم)

مناصب ثلثي الأبروشيات في أسقفية نورويتش فشغلها آخرون ، وفسد نظام العمل بأكمله . وصار من العسير على صغار المستأجرين أن يقوموا بالخدمات اللازمة لأراضهم لقلة اليد العاملة ، ولم يحمل الفلاحين على الامتناع عن هجر مزارعهم إلا تنازل أصحاب الأراخى تنازلا مؤتماً عن نصف الإيجار . وأصبحت الزراعة مستحلة ردحاً من الزمان . ويقول معاصر : إن الأغنام والماشية كانت تهم على وجوهها في الحقول والقمح لا تجد من يتصدى للغمها ۽ .

ومن هذه النوازل نشأت حروب الفلاحين فىالقرن الرابع عشر . إذ حدث هناك نقص كبير في اليد العاملة ونقص كبير في السلع ، وكان الرهبان الأغنياء والأدرة الثرية الذين كانوا يملكون قدراً عظيما من الأراضي ، والنبلاء والتجار الموسرون ، من الجلهل بالقوانين الاقتصادية بحيث لم يدركوا أنه لا يحسن بهم أن يضغطوا على العال . الكادحين في زمان المحتة العامة ذاك . فرأوا أملاكهم تتداعى ورأوا أراضيهم تبور ولا تزرع ، وأصدروا اللوائح القاسية لإجبار الرجال على العمل دون أى زيادة في الأجور ولمنع فرارهم بحثاً عن عمل أفضل . وطبيعي جداً أن يستثير هذا و تمرداً جديداً على نظام عدم المساواة الاجتماعي بأكمله وهو الذي ظل حتى ذَلكُ اليوم معمولا يه لا يناقشه أحد حسابًا برصفه النظام الذي قضت به الإرادة الإلهـ للعالم . ووجدت صيحة الفقر اء "رجماناً فظيعاً هو قسيس ۽ قسيس مجنون من کنت ۽ –کما يسميه فرو اسار(١) (Froissart) المؤرخ (١٣٦٠–١٣٨١) - فإن هذا القسيس ظل عشر ين سنة يلتي بالفلاحين الأشداء الذين كانوا يجتمعون فى أفنية كنائس كنت ويجد فيهم جمهوراً يستمع لمواعظه التي تحدى بها الحرمان الديني والسجن . ومهما يكن مجنوناً ، كما كان أصحاب الأراضي يسمونه ، فلقد أصغت إنجلترة لأول مرة في مواعظ چون بول (John Ball) إلى إعلان بالمساواة الطبيعية وحقوق الإنسان وكان ذلك الواعظ يصيح : وأبها الناس الطيبون ، لن تستقم الأمور في إنجلترة ما ظلت السلع في غير متناول الجميع ، وطالما كان هناك سوقة وسادة (چنتَالمانية) . فبأى حق يكون من نسميهم لوردة ٢٦ أناساً أعظم منا ؟ وعلى أي أساس استحقوا ذلك ؟ ولماذا يتخلون منا موالي للأرض ؟ وما دمنا

⁽١) هو چان فرواسار (١٣٣٨ ~ ١٤١٠ ؟) المؤرخ الفرنسي ، الذي عاش يفرنسا و انجائرة قسيسا لشيماى . (المترجم) (٢) الوردة : جم فورد ، كا أن الجنتالية جمع چنتابان .

⁽الترجر)

جيماً نتحدر من أب واحد وأم واحدة ، من آدم وحواء ، فأن كان لم أن يقولوا أو يقيموا البرهان على أبم حير منا ؟ إن لم يكن لأبهم بجعلوننا نكسب لم يكندخنا ما ينفقونه في كريائهم ؟ فهم برتلون القطيفة ويستدفئون بفرائهم وقاقهم (") النمن ، على حين لا يستر أبداننا إلا الأسمال ؟ لم الحمر والأفاويه والحبز الأبيض ، فأما نحن فأقراص الشوفان مطمماً والوقش مرقداً والماء شراياً . ولدبهم أوقات الفراغ والمتازل الجميلة . ولدينا الألم والنصب والعمل ، والربح والمطر في الحقول . ومع قذلك فنا وعلى أكناف كلحنا يحتفظ هو لاء الناس بما هم طيه من أبهة » . وثمة نفر نفل لنظام العصور الوسطى بأكله انطلق في أغنية شعبية فيلور مبدأ التسوية للدى قال به چون بول وهو « عندما كان آدم يعزق الفيطان و تغزل حواء الخيطان من ذا كان الجتلمان ؟ » .

واغتيل ، وات تيلر (wat Tyler) زعم العصاة الإنجليز على يد همدة لندن بحضرة الملك الشاب ريتشلود الثانى (١٣٨١) فانهارت حركته .

وكانت الناحة الشيوعية في حركة أتباع هس فرعاً من ثلك المجموعة من الإضطرابات . وحدث قبل شبوب الثورة الإنجليزية ، أن شبت نار اللجاكرى الفرنسية Jacqueria (١٣٥٨) وهي ثورة الفلاحين الفرنسيين التي قاموا فها بلحراق القصور والعيث فساداً في نواحي الريف المحيطة بهم . وقدر لنفس ذلك الدافع الملح أن يجتاح المانيا بعسد ذلك بقرن من الزمان جارفا إياها في سلسلة من حروب المعلاحين الدامية . وابتدأت هذه الحروب متأخرة في القرن الخامس عشر . وكانت الاضطرابات الاقتصادية والدينيسة عملطة بعض حالة ألمانيا على صورة أوضع مها في حالة إنمازة .

وهناك دور بارزلهذه الاضطرابات الألمانية هو ثورة التعميديين(٢٢) . ظهرت شيعة التعميديين في وتنبرج (١٩٢١) برياسة ثلاثة و أنبياء » وانقلبت إلى عصميان

⁽١) القائم : فواء حيوان من فصيلة ينات عرس . (المترجم)

 ⁽٢) التعميديون Anabaptists : طائفة دينية كاتمت تعتقد يوجوب التعميد بالغمر الكامل فى
 الملاء المقدس ، ووجوب إحادة التحميد حند من الشباب .

(1070) . وظل العصاة بين (1077 - 1070) قابضين على مدينة مونسر (Munster) بمقاطعة وستفاليا ، وبلغوا قصاراهم لتحقيق فكراتهم الحاصة بشيوعية دينية . فحاصرهم أسقف مونستر ، ودب في المدينة تحت ضغط ويلات الحصار ضرب من الجنون ، فيقال إمهم أكلوا لحوم البشر ، وقبض على السلطة شخص معين يدعى چون الليندن (Leyden) ، وأعلن نفسه خليفة المطك داود ، واقتدى بقدوة ذلك العاهل السيئة بجارسته تعدد الزوجات . وبعد تسلم المدينة أمر الأسقف المظفر بزعاء التعميديين فعلموا نعذيباً مرحباً جداً ، ثم أعدوا في ساحة السوق ، وعلقت جثهم بعد التمثيل مها في أقفاص مدلاة من برج إحدى الكتائس لتشهد أمام العالم أحم أن الوقار والنظام قد أعيدا إلى مونستر ! !

هذه الثورات التي قام ما العمال العاديون في الأقطار الأوربية الغربية في القرنين الرابع عشر والحامس عشر ، كانت أكثر خطورة وأطول أمداً من كل ما سبقها من أحداث التاريخ . وأقرب الأحداث السابقة شها ما ، حركات إسلامية شيوعية حدثت في فارس . وقد حدثت ثورة الفلاحين في نورماتدي قرابة (١٠٠٠ م) كا حدثت ثورات الفلاحين (باجوداي Bagoudae) في الإمراطورية الرومانية الشرقية ، ولكن هلم لم تقارب تلك في ضخامها وشناحها ، وهي كلها تظهر روحاً جديدة تنمو في الشتون الإنسانية ، وهي روح عالفة تمام المخالفة لبلادة الإحساس المستسلمة التي طبع علها موالي الأرض والفلاحون في الأراضي الأصلية للمدنية ، أو لحالة المأم الأمال عند الرأسمالية للمدنية ، أو لحالة المأس الأمالية للدين الرومان .

كانت كل هذه من حصياتات اليمال للبكرة التي ذكرنا تقمع بقساوة بالغة ،
بيد أن الحركة نفسها لم تخمد قط إخاداً تاماً . فنذ ذلك الحين إلى هذا الزمان وروح
التمرد موجود فى المستويات الدنيا من هرم المدنية . نهم كانت هناك أدوار عصيان ،
وأدوار كبح ؛ وأدوار تفاهم ومسالمة نسية ، ولكن الكفاح لم ينقطع قط انقطاعاً تاماً
منذ ذلك الأوان إلى وقتنا هذا فلسوف نراه مندلماً أثناء الثورة الفرنسية في نهاية القرن

 ⁽١) الهاجوداى هم خاصات الفلاحين الذين ثاروا على دولة الروم الشرئية بين القرن الثالث واتماس المهلادى .
 (المقرج)

الثامن عشر ، وستتعلا مرة ثانية فى منتصف القرن التاسع عشر وعند مفتتح الربع الأخير منه ، ونراه يصل لمل تسب ضخمة فى عالم اليوم . ولم تكن الحركة الاشتراكية فى القرن التاسع عشر إلا صورة من ذلك الترد المتواصل .

وقد حدث فى بعض الأحيان أن حركة الهال هذه انخلت فى كثير من الأقطار ، كفرنسا وألمانيا والروسيا مثلا خطة الهناء المسيحية ، ولكن لا بجال الشك أن هذا الضغط المستمر المترابد إرحالا اللمى يظهره الرجل العادى فى الغرب ضد حياة المشقة والنصب والتبعية الفير يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمتعاليم المسيحية . وربما لم تقصد الكنيسة ولا المبشرون المسيحيون أن ينشروا مبادئ المساواة ، ولكن كان من وراء الكنيسة شخصية يسوع الناصرى التي لا يمكن إخماد نارها ولا إخفاء ضيائها ، فالواهظ المسيحي كان يجتلب معه وإن بالرخم منه ، بلور الحرية والمستولية ، ولا بدلما إن صاجلا أو آجلا من أن تنبت و تربو حيثًا بشر .

ولا شك أن هذا الجيشان المتواصل المطرد الزيادة في نفوس و العال » ، وإنماه فيهم وصاً بأنفسهم كطبقة خاصة وبحه فكرة مطالبة العالم في جلته بمطالب محدة ، فضلا عن كثرة وجود المكتب المطبوعة فضلا عن كثرة وجود المكتب المطبوعة توفرتها ، وفضلا عن قيام عمليات البحث العلمي متطورة متوسعة ، هذه كلها أمور تقرق بين طراز مدنيتنا الحاضرة و المدنية المصرية ، وبين أية حالة سابقة مرت بها الجماعة الإنسانية ، كما أنها تسجل علها أنها شيء موقوت غير متقن بالرغم من كل أو لعلها شيء محتوم عليه الموت . فلك يأنها ربما استطاعت أن نحل هذه المسألة المعقدة . ولمالما شيء محتوم عليه الموت . فلك يأنها ربما استطاعت أن نحل هذه المسألة المعقدة . مسألة التوقيق بين تفسها واحتياجات الروح مسألة التوقيق بين المكلح والسعادة ، وبللك توفق بين تفسها واحتياجات الروح الإنسانية ، أو هي ربما فشلت وانتهت بكارثة شأن المقام الروماني . وربما كانت طريقة دور افتتاح لغظام المجاهة المهرية أكثر انزاناً وأوجب الرضي ، وربما كانت طريقة ما من الترابط الإنساني مدبرة بشكل .

وربما لم تزد مدنيتنا الراهنة شأن صابقتها ، عن واحد من تلك المحصولات التي يزرعها الفلاحون لتحسين تربة أراضهم يواسطة تثبيت الأزوت (التتروجين) المستخلص من الهواء . وويما لم تم مُ عُبِسُتُهُ تقالِيد بأعيانها [لا لكى تحرث في الأرض ثانية طلباً يتلو ذلك من نيت أفضل منها . إن هذه المسائل إنما هي حقائق التاريخ العملية . وسنجدها في كل ما يتلو هلما في صسورة أكثر وضوحاً وأعظم أهمية حتى تنهي في فصلنا الآخير ، كما تنهي أيامنا وأعوامنا ، باستعراض لآمالنا ومخاوفنا . وبعلامة استفهام .

٤ _ كيف حرر الورق عقل الإنسان

كان ظهور الكتب المطبوعة هوناً هاتلا لتطور البحث الحرق أوربا أثناء هذا العصر المدع بالقلق والتخمر وكان استقدام الورق من الشرق هو الذي جعل في الإمكان الوصول إلى طريقة الطباعة التي تمنت كوناً طال أمده . وما يزال من المسير علينا تعين صاحب شرف السبق إلى استمال الوسيلة البسيطة ، وسيلة الطباعة لتتكثير الكتب . وإنه لأمر تافه جرى حوله جدل طويل وعقم . على أن ظواهر الأمور توعى إلى أن ذلك الهيد أيًّا ما كان أمره من نصيب هولئذة إذ كان في هارلم شخص يدعى كوستر يطبع مجروف متحركة في زمان ما يسبق (١٤٤٦) . على أن جوتنبرج كان يقوم بأعمال الطباعة في ماينز (Mainz) في نفس ذلك الوقت تقريباً . وكان هناك طابعون في إيطاليا في (١٤٤٥) ، كما أن كاكستُن أقام مطبعته في وستمنسر (١٤٧٧) . وتاريخ أول كتاب طبع في هنفاريا هو (١٤٧٢) . معلى أنه كان يجرى قبل ذلك الزمان بأمد مديد استمال جزئي للطباعة . فإن مخطوطات ترجم إلى القرن الثاني هشر تظهر بها حروف في بداية الفقرات ربما كانت مطبوعة عن أختام عضيية .

وأهم من هذا كثيراً موضوع صناعة الورق. ولا يكاد يكون من المبالغة ، القول بأن الورق جعل إحياء أوريا أمراً في حيز الإمكان . اخترع الورق في الصين ، حيث برجع استماله في الراجع لي القرن الثاني ق . م . وفي (٢٥١) قام الصينيون سهجوم على العرب المسلمين في سمرقند ؛ فصدهم العرب وأسروا بعضهم ، وكان بين الأسرى جاعة من مهرة صناع الورق ، ومنهم تما العرب تلك الصنعة . ولا تزال هناك عطوطات على ورق عربي مرجع إلى القرن التاسع في تلاه . ودخلت الصناعة في البلاد المسيحية إما بطريق بلاد الروم أو بالاستيلاء على مصائع الورق العربية (الحقرية) إيان استعادة المسيحية بالمورق بلاد الروم أو بالاستيلاء على مصائع الورق العربية (الحقرية) إيان استعادة المسيحية بالمورق بلاد الروم أو بالاستيلاء على مصائع الورق العربية (الحقرية) إن المتعادة المسيحية بالمورق بلاد الروم أو بالاستيلاء على مصائع الورق العربية (الحقرية المورق العربية المورق المورق المورق العربية المورق العربية المورق المورق المورق العربية المورق المورق العربية العربية العربية المورق العربية المورق العربية المورق العربية المورق العربية العربية العربية المورق العربية العربية المورق العربية العربية العربية العربية العربية العربية المورق المورق العربية العر

أرض أسانيا . ولكن الإنتاج انحط فلال الأسان المسحين انحطاطاً عوناً . ولم يصنع الجيد من الورق في أوربا المسيحية حتى قريب من نهاية المقرن الثالث عشر ، وحند ذلك كانت إيطاليا زعيمة العالم في صناعته . ولم تصل تلك المصناعة إلى ألمانيا إلا عند القرن التاسع عشر ، ولكنها لم تصل إلا في نهاية ذلك الترن إلى الحد الكافي من الوفرة والرخص الذي يجعل من ممارصة طاحة الكتب حرفة تجارية ناجحة . وسارت الطباعة منذ ذلك الحين سيرها الطبيعي المضروري ، ودخلت الحياة الفكرية المعالم في دور جديد أكثر قوة بكير ، وكفت عن أن تكون رشحاً طفيفاً تفقل قطراته من عقسل إلى حقل ، وأصبحت فيضاناً عميا ، تساهم فيه آلاف من المقول ما لبثت أنصارت . حلى الفور حمل القرو . حشرات آلاف شم مئات آلاف .

وكانت هناك نتيجة مباشرة لهذا النجاح في مضيار الطباعة هي ظهور صد موفور من تسخ الكتاب المقدس في العالم . وعمة أخرى هي جعل ثمن الكتب للدرسية زهيداً . وانتشرت المعرفة بالقراءة انتشاراً سريعاً . إذ لم يقتصر الأمر على زيادة عظيمة في عدد الكتب في العالم ، بل إن الكتب التي أصبحت تصنع عند ذلك ، أضحت أوضح قراءة وبذلك كانت أيسر فهماً . وبدلا من العناء والكدح فوق نص حويص (معقرب) الحط ثم التسكير في معناه ، أصبح القراء عند ذلك يستطيعون أن يفكروا وهم يقرأون _ دون أن يعوقهم عائق عن التفكير . وجده الزيادة في سهولة القراءه ويسرها ، تما عدد الجمهور المقارئ المحالما . وشرع الناس يكتبون الكتب ليقرأها الناس العاديون مظما يشغها عالم من العلماء . وشرع الناس يكتبون الكتب ليقرأها الناس العاديون مظما يستمتعون بالنظر إلها .

ويونن القرن الرابع عشر بفاتمة التاريخ الحقيق للأدب الأوربي . إذ سرحان ما تجد أن اللهجات المحلية تمل علها الإيطالية المثلي والإنجليزية الفصيحي والفرنسية المثلي والأسبانية الفصحي ثم تقيمهن الألمانية المثلي فيا بعد . وأصبحت تلك اللغات لغات أدبية كل في موطنها ، فعولجت وجُربت وصقلها الاستعال وجعلها دقيقة قوية . وأصبحت آخر الأمر على درجة من الكفاية النهوض بحب، النقاش الفلسني تعاذل ما للإغريقية أو اللاتينية من كفاية .

ه ــ بروتستانتية الأمراء وبروتستانتية الشعوب

هنا نوردكلمة موجزة عن الحركة التي حدثت في فكرات الناس الديئية أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وهي مقدمة لا بد منها للتاريخ السياسي الذي بعقب ذلك في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

هر أنه لا بد لنا أن تميز تميزاً واضحاً بين طريقتين عنافتين كل الاعتلاف لمحارضة الكتيسة الكاثوليكية . وهما تتشابكان على مر الآيام تشابكاً يورث التبليل والمميزة كانت الكتيسة تفقد سيطربها على ضهائر الأمراء وفوى البسار والاقتدار من الناس ، كذلك شرعت تفقد إيمان عامة الناس بها وثقتهم فيها . وكان من نقيجة اتحطاط سلطانها الروحى على الطبقة الأولى أن جعلهم ينكرون تدخلها في شئونهم الحقيد على الطبقة الأولى أن جعلهم وادعاهما الحق في طرض المضرائب وفي حل ارتباطات الولاء . لللك كفتوا عن احترام ما لها من سلطان وتمتلكات . ولقد ظل هذا المروج عن الطاعة يصدر عن الأمراء والحكام طوال وتمتلكات . ولقد ظل هذا المروج عن الطاعة يصدر عن الأمراء والحكام طوال عن المدهب الكاثوليكي وإقامة كتائس جزئية منصلة ، إلا عندما أخلت المكتيسة في القرن السادس عشر تنضم علنا لمصمها القدم : الإمراطور ، عندما قامت اليه في القرن السادس عشر تنضم علنا لمصمها القدم : الإمراطور ، عندما قامت إليه التأثيد وقبلت منه المساعدة لها في حلها على الهرطة . وماكانوا ليقدموا على ذلك أبدأ المواهر قد ضعفت .

وكان تمرد الأمراء بالضرورة تمرداً لا دينياً على حكم الكنيسة الشامل للعالم أجم . وكان الإمبراطور قردريك الثانى هو الطليعة السباق إلى ذلك برسالاته إلى نظرائه الأمراء . وكانت ثورة الشعب على الكنيسة من الناحية الأخرى ، دينية بالضرورة كلك . فلم يكن اعتراضهم على قوة الكنيسة بل على مساويها ونواحى الضعف فيها . كللك . فلم يكن اعتراضهم على قوة الكنيسة بل على مساويها ونواحى الضعف فيها .

وكانوا بريلون كنيسة شديدة الصلاح والشجاعة لكى تعينهم وتنظمهم ضد شرور الأقرباء . وكانت حركات كم دعلها أو خارجها حركات لا يقصد بها الفكاك من الرقابة الدينية بل طلب رقابة دينية أتم وأوف . لم يطلبوا رقابة دينية أقل بل طالبوا بالمزيد منها – ولكنهم أرادوا أن يتحقوا من أنها دينية وقد اعترضوا على البابا لا لأنه الرأس الديني للعالم بل لأنه لم يكن كذلك ، أى لأنه كن أمراً ثرياً دنيوياً بينها كان يجب أن يكون قائدهم الروحى .

من أجل ذلك كان الزاع في أوربا مند القرن الرابع عشر نزاحاً ذا ثلالة أركان ، فالأمراء بريدون أن يستعملوا القوى الشعبية ضد البابا ، على ألا يسمحوا لتلك القوى أن تقوى وتطنى على قوتهم ومجدهم وظلت الكنيسة زمناً مديداً تنتقل من أمر للى أمير طلباً لحليث يحالفها دون أن تدوك أن الحليث المفقود الذي علمها أن تسترده إنحا هو توقير الشعب لها .

ومن أجل هذا الوضع الثلاثى المنازهات الفكرية والحلقية الى تواصلت إبان القرون الرابع عشر والحامس عشر والسادس عشر ، فإن سلسلة التغييرات المبرتية علمها ، تلك التغييرات المبرتية علمها ، تلك التغييرات المي يعرف مجموعها في التاريخ باسم الإحساح الديني كما يراة الأمراء ، الذين كانوا يريدون أن يقفوا انتيال التقود إلى روما ، وأن يستولوا على السلطة الخلقية ، والنفوذ التعلمي ، وما المكتبسة من ممتلكات مادية داخل إماراتهم . وكان هناك الإصلاح الديني كما يراه الشعب الذي كان يتغنى أن يجمل المسيحية قوة تناهض الفسوق وعدم التقوى ، وتناهض بخاصة فسوق أهل الثراء والقوة . وأخيراً كان هناك الإصلاح الذي كان القديس فرنسيس الأسيمي بشيراً به ورائداً ، والذي جهد في استرجاع صلاح الكنيسة وفي استرجاع قوتها بوساطة ذلك الصلاح .

وانحذ الإصلاح الدينى حسبا براه الأمراء صورة إحلالهالأمير ، بوصفه رأس الديانة والرقيب على ضهائر شعبه ، محل البايا ولم يكن يخالج الأمراء أية نية ولافكرة عن إطلاق سراح عقول رعاياهم كى تتولى الحكم على الأشياء ، ومجاصة وقد مثل أمام أعينهم



(شكل ١٥١) صفحة من طبعة جوننبرج لكتاب المقدس

تموذج الهسين والتعميدين بجسماً قوياً ، فحاولوا أن يؤسسوا كتائس قومية تعتمد على صاحب التاج . ولما أن انفصلت إنجلترة واسكتلندة والسويد والنرويج والدانحارك وشهال ألمانيا وبوهيميا عن الارتباط بروما ، أظهر الأمراء وغيرهم من الوزواء . أقصى بوادر القلق والاهيام بحفظ زمام الحركة فى قبضة أيلسهم . ذلك أنهم كانوا لا يسمحون من الإصلاح إلا بالقدر الذى يمكنهم من فصم العلاقة مع روما . فأما ما تجاوز ذلك ، وأما أى انفصام خطر يتجه بالأفكار إلى تعالم يسوع البدائية ، أو التضير الفج المباشر ولاكنية الإنجليزية

الرسمية مثال لواحد من أبرز وأنجح ما ترتب على ذلك من تسويات. وهى ما تزال كهنونية قطب رحاها قسيس متكرس وتدين بالقربان المقسدس⁽¹⁾. ولكن هيئها التنظيمية تتركز فى البلاط وفى قاضى القضاة. ومع أنه ربما صدرت عن الصفوف الدنيا لرجال الكهنوت فيها الأقل ثراء آزاء هدامة — بل الواقع أن ذلك كان يحدث فعلا — فإن من المستعيل عليهم أن يرتفعوا كفاحاً حتى يصلوا إلى مناصب التفوذ والسلطان.

على أن الإصلاح الديني حسبا يراه الرجل العادى شيء ، والإصلاح لدى الأمراء شيء آخر عُتلف جداً في روحه . وقد أسلفنا القول في المحاولات الشعبية فى سبيل الإصلاح الديني بكل من بوهيميا وألمانيا . وكانت الفورات الروحية الفسيحة النطاق (أحنى الشعبية) في ذلك الزمان أشرف نفساً وأشد اضطراباً وأثبت أثرًا وأطول عمراً وأقل نجاحاً مباشراً عاجلا من إصلاحات الأمراء . فقد نامو بين ذوى الأرواح المتدينة من الرجال ، من بلغ من الجوأة أن يخرج على كل تعاليم استبدادية أو بلغ من القحة أن يعترف بأنه خرج على ذلك النوع من التعالم ، وأنه أصبح عندئذ يعتمد اعهاداً كلياً على عقله وضميره . فإن ذلك كان يمتاج إلى شجاعة فكرية عالية جداً . وكان الاتجاه العام للرجل العادى في ثلك الفترة في أوربا هو أن يتخذ من ذلك الشيء الذي أحرزه حديثاً ، وأعنى به الكتاب المقدس ، حجة وقوة مضادة للكنيسة . وكان هذا بصفة خاصة ، حال زعيم البروتستانتية الألمانية العظيم مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦) . فإن اللي كان يجرى Tنذاك فى كل أرجاء ألمانيا ، بل فى الواقع فى كل أنحاء أوربا الغربية ؛ أن الناس قد أكبوا على صفحات الحروف السوداء للكتاب المقدس المترجم حديثاً والمطبوع حديثاً ، وعلى سفر اللاوين ونشيد الإنشاد لسلبان ورويًا القديس يوحنا الرسول ــ وهي كتب غريبة محيرة ــ يكبون عليها قدر ما يكبون على سيرة يسوع البسيطة الملهمة في الأناجيل ؛ وطبيعي أنهم كانوا يستنتجون آراء عجيبة وتفسيرات مضحكة

 ⁽١) ومنى ذك أنه لهس حناك فارق تقريباً بين الكثيسة الإنجليزية والكائوليكية في العقيدة و الحذمب والطفوس وإن اخطف الاسم والوائمة.
 (المترجم)

غريبة ، بل إن مما يدهش له الإنسان أبها لم تكن عجيبة أكثر وأشد إضمحاكاًوغرابة . ولكن العقل البشرى شىء عنيد ولا بد له من أن ينقد وينتني بالرغم من كل ما يعقد عليه للعزم من قصميم . وقد أخلت جمهرة دارسى الكتاب المقدس هوالاء ما تستحسنه ضمائرهم من الكتاب وتجاهلوا ألغازه ومتناقضاته .

وفي كل أرجاء أوربا ، وحيماً أقيمت كنائس الأمراء المروتسانية : كانت تنبى المبروتسانت الأقحاح بقية حية ناشطة تأي أن تصاغ لها ديانها على تلك الشاكلة . وكان هوالا هم و المخالفون أو المنشقون Nonconformists ، وهم خليط من الشيع ، لا يجمعهم جامع إلا مقاومهم لديانة أصحاب السلطان الاستبدادية سواء أكان مصلوها البا أم المدولة . فأما في ألمانيا فقد قضى الأمراء على الانشقاق والمنشقين قضاء تاماً في معظم الحالات . فأما بريطانيا فإن حركهم فها ظلت قوية ومتوعة الأشكال . معظم الحالات . فأما بريطانيا فإن حركهم فها ظلت قوية ومتوعة الأشكال . ويلوح أن الكثير من الفوارق بين سلوك الشعين الألماني والبريطاني يمكن تقمها وإدجاعها إلى ما تلقاه حرية الرأى وحوية إصدار الأحكام على الأشياء من كنت بألمانا .

وكان جل هولاء المنشقين ، ولكن ليس كلهم ، يستمسكون بالكتاب المقدس
بوصفه مرشداً حافلا بالإلهام القدسي جديراً بالاعتماد عليه بوجه قاطع. وكان موقفهم
هذا موقفاً اسراتيجياً لا موقفاً ثابتاً . والانجاء العصرى للمنشقين يبتعد بوماً بعد يوم
عن تلك النزعة الأصلية إلى المغالاة في إجلال الكتاب المقدس ، ويتجه نحو المركز
على تعالم يسوع الناصرى المجردة تركيزاً معتدلا غففاً ملوناً باللون العاطلي . وتوجد
في الحضارات العصرية في هذه الآيام أيضاً وراء عبال الانشقاق والمنشقين ووراء مجال
المسيحية لمعرف بها ، كتلة عظيمة ونامية من أقوام يؤمنون بالمساواة والتكافؤ بين
البشر وتمتليء نفوسهم بالدوافع الفيرية ، كتلة لا شك أنها تدين للمسيحية بروحها كما
سيق أن أكدنا .

ولنقل الآن كلمة عن الدور الثالث لعملية الإصلاح الديني ، وهو الإصلاح الديني داخل الكنيسة ٢٠٠ . فقد بدأ ذلك الإصلاح فعلا فى الفرنس الثانى عشر والثالث عشر بظهور جماعي الرهبان السود والشهب (الفصل ٣١ القسم ١٤٤) . وظهر فى القرن

⁽١) ويسمى أيضاً بحركة الإسلاح الدني للضاد Auti-Reformation (المرجم) تاريخ الإسلام الدنية

السادس عشر دافع جديد من نفس النوع ، جاء والحاجة إليه أشد ما تكون . وكان ذلك الدافع الجديد هو جمعة يسوع التي أسسها إيفيجولوپيزدى ريكالدى الشهير في عالم اليوم باسم القديس أغناطيوس لويولا .

استهل إغناطيوس حياته العملية شابا أسبانيا مجتمع القوة عظيم الشجاعة ه كان ذكياً



(شكل ۱۵۷) مارتن لموثر نفلا من صورة من عمل هولبين)

حاذقاً تملؤه الحدية همة وصدراً على المكاره ؛ وحباً للسجد في شيء من المتفاخر ؛ وكانت مغامراته الغرامية كثيرة خلابة . وفي ١٥٢١ انتزع المنرسيون من الإسراطور شاول الخامس مدينة باميلونا في أسبانيا ، وكان إغناطيوس أحد اللادة عبا . أخذ أسرا . ورُمت عظام لمحدى ساقيه ، على خطأ ، وكان لزاماً أن تكسر من جديد : وأوشكت هله المعليات المقدة

الأيمة أن تفضى على حياته ؛ حتى لقد تني السر المقدس الأخير . ولكنه حين امتذ به الليل بعد ذلك أخذ يتحسن وما لبث حتى أصبح في دور النقه ، وأخذ يواجه مقلماً حياة ربما عاش فيها مقمداً على الدوام . فانجمهت أفكاره إلى خوض تجربة دينية . وتطيف بخاطره في بعض الأحايين صورة سيدة ما عظيمة ؛ ويخيل إليه أنه سيفوذ المحجابها بالرغم مما به من سوء حال ، بعمل رائع عظيم ؛ ويطيف به في أحايين أخرى أن يكون فارس المسيح بطريقة ما خاصة شخصية . وهو يحدثنا أنه بينها هو يضرب في أسداس هذه الحيالات والحيرات ؛ إذ استرعت انتباهه في إحدى الليالي وهو وهي تعطيمة عبديدة ، وعملت أمامه في الروايا العلواء المباركة مرم وهي تحمل المسيح الطفل بن ذراعها ، ووتملكته على القور كراهية عظيمة لما قد متهاداً

 ف حياته ع . فعقد النية على أن يهجركل فكرة عن نساء الدنيا ، وأن يحيا حياة مقة مطلقة وإخلاص تام لأم الرب . وقرر الإكتار من الحيج إلى مختلف الأماكن للقدصة وأن ينذر نفسه لحياة الرهبة .

والطريقة التى حلف با يمين الترهب تظهر أنه كان بحق أخاً ومواطئاً صمياً للمدون كيشوت !! فبعد أن استرد عافيته ، خرج هائماً على وجهه فى أرجاء العالم لا يكاد يكون له هدف معين ، جندياً مرتزقاً مفلساً لا يملك من حطام اللدنيا إلا مسلاحه واليغل الذي يركب ، فألقته لمقادير في صحبة أحد المفارية (من عرب أسبانيا) . وسارا معا يتجاذبان الحديث ، ثم تنازعا الفور على الدين . وكان المفريه أحسن الرجلين تعليها ، فأضم صاحبه فى الجلل ، وتفوه بعبارات جارحة عن العلواء مريم وجد من العسر أن يرد عليها ، ثم افترق عن أهناطيوس فرحاً يفوزه عليه . وكانت نفس الشاب فارس « مولاتنا مرج » تغلى خجلا وسخطاً . فتردد بين أن يواصل ما عقد عليه العزم من حج . ولكنه ترك يقفو المغربي ويقتله » وبين أن يواصل ما عقد عليه العزم من حج . ولكنه ترك الأمور لبغله عند مفصه الطريق فكان في فلك نجاة المغرف .

ووصل إلى الدير البندكتيني في مونتي سيرات بالقرب من ماريسا ، وهناك قلد البطل اللت لا نظير له ، أماديس على جول (٢) بطل قصة المفامرة الرمانسية في القرون الوسطى ، وظل طول ليله ساهراً أمام مذبح المعلواء المباركة . ثم أهدى يغله المدير ، ووضع سيفه وخنجره على الملابح وارتدى ثياباً خشنة من قاش الجوائل وحداء من المعيش . ثم حمل نفسه المدبح وارتدى ثياباً خشنة من قاش الجوائل وحداء من المعيش . ثم حمل نفسه إلى إحدى التكايا حيث استسلم لضروب حمة من التعليب والتقشف . واستمر أسبوعاً كاملا وهو صائم صوماً مطلقاً ، ثم نهض ليحج إلى الأراضي المقلمة .

وظل بضع سنوات يتجول على ضر هدى ، وهو مستفرق اللب بفكرة تأسيس عقد جديد من الفروسية الدينية ، دون أن يدرى كيف يدأ هذا المشروع . وأخد يزداد إحساسا بأميته وجهله . وحظرت عليه محاكم التفتيش (inquisition) — وقد أتحدت "همّ بتصرفاته ــ أن يحاول تعليم الآخرين حتى يقضى ما لا يقل عن أربع

⁽¹⁾ أماديس ديجول أو (أماديس الغال) ؛ قمة رومانسية تصور الفارس المثال ألفت في المقرق ١٤ ١٤ في أسهانيا أو البيرتغال . (المرجم)

سنوات في اللراسة . وإن التاريخ ليلتي على كاهل عاكم التفتيش من موفور القساوات وعدم القسامح ما يلا لنا معه أن نسجل أنها في معابلتها أمر ذلك المتحمس الشباب العنيد الواسع الخيال ، أظهرت نفسها بمظهر العاطف عليه المنزن التصرف. ذلك أنها أدركت قوته وما يرجى منه من نفع ، ورأت أخطار جهالته . فجد في اللرس والتحصيل في سلامنكا وباريس وغيرهما . ونصب قسيسا (١٥٣٨) ، وبعد ذلك بسنة تأمست جميته التي طالما حلم بها تحت امم و جمعية يسوع ٤ . وقد رأت ـ شأن جيش الخلاص في انجلرة المصرية ـ انتهاج أقرب السبل لوضع التقاليد الكريمة لطريقة تنسيق الجيوش ونظامها في خدمة الدين .

كان عمر هــذا الرجل إغناطيوس لويولا مؤسس جعية الحزويت (اليسوعيين) ؛ سبعا وأربعين سنة ، وكان أبعد ما يكون وأشد حكمة وأثبت روية من ذلك الشاب الأحمق اللذي قلد أماديس دى جول تقليد المقردة وقام الليل كله في دير ماريسا ، وكانت الهيئة التبشرية والتعليمية التي أنشأها آلذاك ووضعها تحت تصرف البابا من أقوى الوسائل التي تهيأت للكنيسة .

كان هؤلاء الرجال يقدمون أنفسهم بكليتها مجتارين لتستخدمهم الكنيسة. وكانت جاحة اليسوعيين (الحزويت) هي التي حملت المسيحية إلى الصين المرة الثانية بعد سقوط أسرة منج ، وكان اليسوعيون أهم إرساليات المبشرين المسيحين في الهند وأمريكا الثهالية . ولسوف نشير من فورنا إلى ما بذلوه من جهود المشر الحضارة بين ظهراني الهنود في أمريكا الجنوبية ، ولكن أجل ما قاموا به من عمل ينحصر وفعهم مستوى التعليم عند الكاثوليك . فأصبحت مدارسهم – وظلت زماناً طويلا – خير المدارس في العالم المسيحي . يقول اللورد فحربولام (السير فرانسيس باكون) : « فأما حن المناحية المناحية المناجوجية (التربوية) فارجح إلى مدارس اليسوجين ، إذ لم يمارس في التعليم غيء أحسن مها » . رفعوا مستوى الذكاء ، وأثاروا ضمير أوربا الكاثوليكية التعليم غي مضار الصليم .

ولعلنا نشهد في أحد الآيام جمعية جديدة اليسوعيين ، عمن ينذرون أنفسهم لا لخلمة البايا ، بل لخلمة البشرية .

وفى نفس الوقت ويلذاء تلك الموجة العظيمة موجة انجهود التعليسي ، تنصلح نغمة الكنيسة وسمتها انصلاحاً عظیا بفضل ما قام به مجلس ترنت من تنقية المبادئ وما أدخله من إصلاحات في هيئتها ونظامها . كان هذا المجلس يجتمع بن الفيئة والفيئة إما في ترنت ولما فى بولونيا بن سنتى (١٥٤٥) و (۱۵۹۳) ، وكان عمله يضارع فى الأهمية حمل الحزويت فى إيقاف (شكل ١٠٨) لديدلا

الحرائم والأخطاء التي كانت تحمل الدولة تلو الدولة على الانفصال عن مجتمع الكنيسة الكاثوليكية . والتغيير الذى أحدثه الإصلاح الديني داخل كنيسة روما يضارع في عظمه التغير الذي حدث في الكنائس البرونستانيّة التي انفصلت عن الكنيسة الأم . فليس هناك منذ ذلك التاريخ أية فضائح علنية ولا أي صدع ولا انقسامات يسجلها التاريخ . ولكن مهما يكن من شيء فإن ضبق الأفق في مبادئ الدين قد اشتد ولم تعد أدوار الخيال الفتوى الناشط التي يمثلها جريجورى الكبير ولا ثلك المجموعة من البابوات المرتبطة بجريجورى السابع وإربان الثانى، أو المجموعة التي ابتدأت بإنوسنت الثالث ، تنعش قصة التاريخ الحادئ العادى . واستقرت الكنيسة إلى ما هي عليه اليوم بوصفها هيئة دينيـــة منفصلة عن السياسة ، وهيئة دينية بحنة كغيرها من الهيئات الدينية ، لقد رحل الصولحان من روما .

٦ - العلم يستيقظ من سباته

ينبغي ألا يظن القارئ أن النقد لللمر الذي وجه إلى الكنيسة الكاثو ليكية والمسيحية الكاثوليكية ، وأن طبع الكتاب المقدس ودراسته ، كانت المناشط الفكرية الوحيدة ً في القرنين الرابع عشر والخامس عشرولا هي كانت أهم عمليات النشاط الفكرى . فإن ذلك كله لم يكن إلا الناحية الشعبية البارزة بقوة فى الانتماش الفكرى فى ذلك الترمان . إذ كانت تجرى هناك خلف ذلك التيقظ البارز الشعبى الذى ألم بالفكر والبحث تطورات عقلبة أخرى أقل استرعاء مباشراً للأنظار ولكن أهميتها البائية أعظم . وسندلى إليك الآن بإشارة موجزة عن اتجاه تلك التطورات . فإنها ابتدأت قبل طبع المكتب بزمن طويل ، ولكن الطباعة هى التي نفضت عنها غاشية الظلمات وكشفها للأنظار .

ولقد أسلفنا لك كلمة عن ابتداء ظهوو الذكاء الطلبق أو الفطنة الحرة : روح التحرى والاستعلام ، والإدلاء الواضح الصريح بالرأى ... في الشيون الإنسانية . وهناك اسم يعد أساسباً في سجل تلك المحاولة الأولى الرامية إلى جميع المعرفة المنظمة ، وهو اسم الفيلسوف أرسطو . وهناك أيضاً كما لحظنا آنفاً فلك الدور الوجنز للإنتاج العلمي الإسكندرية . ومنذ ذلك الحين عاقت المنازعات الاقتصادية والسينية والدينية المعقدة في أوروبا وآسيا الغربية ، كل تقدم فكرى المنتور . فإن تلك المناطن كما رأينا ، وقعت أمد عصور طويلة تحت سلطان الملكيات ذات الطراز الشرق وسلطان التقائيد الدينية الشرقية . وقديماً جربت روما في الصناعة نظاماً عماده الرقيق ثم عادت فنبلته وفيها تطور أول الأنظمة الرأسالية ، ثم مزقته الفوضي بسبب ما جبل عليه من عيوب متأصلة . وارتدت أوربا إلى حالة عامة من عدم الاستقرار . وثار السامي على الآرى ، وأحل " ثقافة عربية على المدنية الهاينية في كل أرجاء آسيا الغربية ومصر . ثم وقعت آسيا الغربية ومصر . ثم وقعت آسيا الغربية ومصر . ثم وقعت آسيا الغربية كلها ونصف أوربا في قبضة الحكم المغولي ، ولم يحدث إلا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر أن الذكاء الآرى شرع يكافح من جديد العاماً للتعبر الواضح الصحيح عن ذات نفسه .

وإنا لنجد عند ذلك في جامعات باريس واكسفورد وبولونيا النامية قلمواً مرايداً من البحث الفلسية في جامعات باريس واكسفورد وبولونيا النامية قلمواً مرايداً الموضوعات المنطقية . والأساس الذي قامت عليه هذه الأيحاث إنما هو جزء واحد من تمالم أرسطو، وهو ومنطقه، فنحسب وليس مجموع ما طلح من كتابات . ثم زادت معرفة الناس فيا بعد بتواليفه بواسطة الترجات اللاتينية المنقولة عن الفسخة المربية التي علق علمها ابن رشد . وفيا علما هذه الترجات الأرسطو ... وكانت كلها رديئة الترجمة إلى

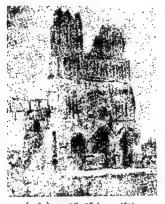
أبشع حد – لم يكن الناس يقرأون فى أوربا الغربية حتى القرن الحامس عشر إلا النزر الطفيف من الأدب الفلسني الإغربتي .

ولم يكد الناس يعرفون شيئاً عن أفلاطون ذى العقلية المبتكرة الحلاقة المختلفة نماماً عن أرسطو ذى النزعة الطفية نماماً عن أرسطو ذى النزعة الطفية وفي الروح والمنافع الإغريق . أجل إن بعض كتاب الفلسفة الأفلاطونية الحديثة كانوا معروفين بها ، ولكن شتان بين الأفلاطونية الحديثة وبين أفلاطون ، إذ أن شقة الخلاف بينهما كشقة الخلاف بينهما .

له جرت عادة الكتاب المحدث بالنشير بالأبحاث الفلسفية لعلماء القرون الوسطى الملوسانيين برميها بالإملال وعدم الفناء . ولكنها لم تكن كذلك بأى حال . وإنما كان لزاماً عليها أن تحتفظ بقالب في شديد الجمود ، لأن كبار رجال الكنيسة ، لواماً عليها أن تحتفظ بقالب في شديد الجمود ، لأن كبار رجال الكنيسة ، لهذا ، كان يعوزها ذلك الابعوقه خوف . وكثيراً لهذا ، كان يعوزها ذلك الابعوقه خوف . وكثيراً ما كانت تلك الأبحاث تلمح لل ما لم تكن تجرو أن تقوله صراحاً . على أنها كانت تعالج موضوعات جوهرية الأهمية ، وكانت كفاحاً طويلا ضرورياً لا بد منه لتصفية واصلاح حيوب معينة متأصلة في العقل البشرى، وإن الكثير من الناس اليوم ليخطفون وإصلاح حيوب معينة متأصلة في العقل البيرى، وإن الكثير من الناس اليوم ليخطفون وأحدى الأعطاء يسبب إهمالهم المسائل التي كان علماء القرون الوسطى المدرسائيون فيها .

وهناك ميل طبيعى في العقل البشرى إلى المبالغة في الفروق وأوجه الشبه التي تنبى طلبا عملية الترتيب والتصنيف ، وإلى الغلن بأن الأشياء ذوات الأسماء المختلفة متباينة مختلفة . وأن الأهـــاء المباة بنفس الاسم ، تكاد تكون متطابقة . وغي عن البيان أن هذا المبل إلى المبالغة في التصنيف ينتج ألف شر وظلم . في جال المتصر (Race) أو القومية (Mationality) مثلا ، كثيراً ما يعامل و الأوربي ، أخاه و الأسيرى ، كأنما هو حيوان مختلف ، على حن تراه يميل إلى اعتبار و أوربي ، المحافظة والروعة . وإنه لينضم تبعاً لهذا إلى الأوربين ضد الأسيويين . ولكار الواقع حكان يعرأن يدرك ذلك قارئ هذا الكتاب هذه الفوارق التي يدل عليها التضاد بين تلك الأسماء أمر لا وجود له . وإنما هو طيف فارق خيالى خلقه وجود الاسمين .

وكانت الحصومة الكبرى في القرون الوسطى قائمة بين الواقعين (Realists) و الاسمين (Nominalists) . ومن الضرورى أن نقيه القارئ أن كلمة « الواقعي » في أبحاث المصور الوسطى لما معني يكاد يكون مضادا على خط مستقيم الفظة « الواقعي » في استعالها في اللغة المادية للنقد العصرى . فإن « الواقعي » العصرى إنما هو من يصر هلي



(شكل ۱۵۹) كاندرائية ريس (رائس) خال رائع الكنائس القرطية الكبرى الى بنيت فى القرنين ۱۳ ، ۱۴

التفاصيل المادية ، بيبها كان « الواقعي » في القرون الوسطى أقرب كثيراً إلى ما قد نسميه · اليوم « بالمثالى » ، وكان احتقاره للتفاصيل العارضة شديداً وعميقاً . وكان الواقعيون أشد الناس تمسكاً بالمك المبل البشرى الشائع إلى المبالغة في أهمية والصنف clase الوالمية . وكانوا يعتقدون بأن هناك شيئاً في الاسم (أي في التسمية العامة) له بالضرورة ظل من الحقيقة . مثال ذلك أنهم كانوا يؤمنون بأن هناك و أوربيا ، نموذجياً ، أوربياً مثالياً ، وجوده حقيقي أكثر بكثير من أي أوربي مثال أكثر حمتاً يكون كل أوربي مثال المختيفة الأكثر حمتاً يكون كل أوربي عينة مصية ونكوساً ظاهراً ، وابتعاداً من تلك الحقيقة الأكثر حمتاً إن صبح هذا التعبير . ومن الناحية الأخرى ، كان الاسميون أصحاب المذهب الاسمي يرون أن الحفائق الوحيدة في الأمر إنما هي الأوربيون الأفراد ، وأن الاسم و أوربي . إنما هو مجرد اسم ، ولا يتجاوز أن يكون اسها ، يطبق على كل هاته الأفراد .

وليس هناك شيء أصعب من ضغط واختصار انجادلات الفلسفية التي هي بطبيعتها ضخمة الحجم مثوعة ، كما أنها مصطبغة بالصباغ العقلي لمجموعة منوعة من العقول . والقارئ العصرى غير الملم بالأبحاث الفلسفية ربما جنع ــ وقد قدمنا له الفارق بين الواقعين والأسمين عَلى هَذُه الشاكلة الساذجة الجوداء ــ إلى الوثوب من فوره إلى تأييد رأى الإسمين . ولكن ليس الأمر من البساطة بحيث يكنى مثال واحد المحكم عليه ، وقد تعمدنا هنا اختبار مثال متطرف . وتختلف الأسماء والتصنيفات في قيمتها وحقيقتها . فبينا ترى أنه من السخف أن يظن الناس أن مناك عمقاً كبيراً في الفارق الصنفي بين رجال اسمهم توماس وآخرين اسمهم وليم ، أو أن هناك مثلا أعلى أو خلاصة نقية لتوماس أو لموليم ، إلا أنه قد تكون هناك من الناحية الأخرى فوارق أعمق بكثير بن رجل أبيض وبين زنجي من الهوتنتوت ، فضلا عن أخرى عميقة بن الإنسان العادى (Homo Sapiens) وبين الإنسان النياندرتالي . وكذلك بينها التمبيز بين صنف الحيوان المدلل وصنف الحيوان النافع يعتمه على فوارق طفيفة في العادات والتطبيق ، فإن الفارق بـن القط والكلب من العمق بحيث يستطيع المجهر الميكروسكوب) أن يقفوه ويكتشفّه ولو فى قطرة دم أو شعرة مفردة . وبينا تكون بعض التصنيفات تافهة ، إذا بالبعض الآخر جوهري حقيقي . فإذا نحن تأملنا هذه الناحية من المسألة أمكننا أن نفهم كيف أن الاسمية و و الأسمين، اضطروا في النهاية إلى التخلي عن الفكرة القائلة بأنْ الأسهاء تعادل في قلة أهميّها ُ بطاقات الرجاجات ، وكيف أن تنقيح المذهب الاسمى وتصحيحه تمخض عن المحاولة المنظمة للعثور على التصنيف؛ الحق ، ــ أشد التصانيف أهمية وأعظمها فائدة ــ للأشياء والمواد وهو اللسي يسمى بالبحث العلمي .

ولسوف يقارب هذا في الوضوح أنه بينها ميل الواقعين والملدهب الواقعي الذي هو الميل الطبيعي لكل عقل غير مثقف ، كان متجهاً إلى الاعتقاد الحتمي (Dogma) والتقسيات الحشنة الفجة والأحكام الحشنة السافجة والمواقف والانجهاهات الحالية من كل تساهل ، فإن ميل الملدهب الاسمي والاسمين القدامي والمتأخرين كان متجهاً نحو الأقرال المصددة بالأوصاف ، ونازعاً نحو اختبار الأمثلة الفردية ونحو البحث والاستعلام والتجرية والتشكل.

وعلى ذلك فإنه بينا من فى الأسواق والحياة العامة من الناس يتشككون فى أخلاق رجال الدين وصلاحهم ومدى إخلاصهم فى عزوبهم وصدق يقيمهم فها ونقاء سيرتهم رجال الدين وصلاحهم فما إخلاق مسرتهم بها ، وميلغ العدالة فيا يفرضه البابا من ضرائب ، وبينها تنشغل أذهان من فى الدوائر اللاهوتية بمسألة الاستحالة ومسألة قلمية أو عدم قلمية الخبر والنبيل فى القداس ، كان يصدر عن دور الدراسة وقاعات الهاضرات نقد أوسع مدى لطرائق التعلم الكاثوليكية الهادية .

وليس في استطاعتنا أن نقدر في هذا المقام مبلغ الأهمية التي اجتمعت أثناء تلك المملية لأشخاص من أمثال يطرس أبيلارد(٢٥ (١٩٧٩ – ١٩٤٢) ، وألبرتوس المجنوس (١٩٣٩ – ١٩٧٩) ، وتوماس أكويناس (١٢٧٥ – ١٩٧٤) . فإن هوالاء الرجال حاولوا أن يعيدوا بناء العقيدة الكاثوليكية على أساس عقلي أسلم ؛ فاتجهو صوب مذهب الاسميين . ومن بين أبرز نقادهم وخطفاشهم دنزسكوتوس (٣ – ١٣٠٨) ، وهر راهب فرنسسكي من اكسفورد ، لن يشك القارئ في أنه اسكتلندي قمع لواطلع على اجهاده في التفكير وخفاء عباراته المتعمد ، ومن بينهم كذلك أكمام وهو إنجلزي (٢ – ١٣٤٧) .

وقد أقام كلاهلين الأخيرين — شأن ابن رشد ... حداً فاصلا مميزاً بين الحق اللاهوتى والحق الفلسى ، فوضعاً اللاهوت من فوق قبة هالية ، ولكنهما وضعاه حيث لم يستطع أن يعترض بعد ذلك طريق البحث: فأعلن دنز سكوتوس أن من المستحيل أن يثبت المرء بالتفكير العقلى وجود ائله أو وجود الثالوث أو إمكان تصديق عملية الملق ، وكان أكماً مشد إصراراً على فصل اللاهوت من الحق العملى ... وهو فصل مأطلق مراح البحث العلمي إطلاقاً بيناً من تحكم الاعتفادا لحتى (Dogma) . ولكن خلف من بعدهم جيل تال

⁽١) أنظر ، المترجم ، كتاب أعلام وأفكار (الهيئة العاء لتأليف والنشر) . (المترجم)

قاته وقد أخل بستميد من الحريات التي هدفت إليها جهود هؤلاء الرواد ، إدراك العلم بمصادر حريته ... فيلغ من كفرانه بالجميل أن يتخذ من اسم سكوتوس رمزاً للغباء ، ومن ثم نشأت كلمة (Dune) الإنجليزية التي معناها اللجي مشتقة من اسمه (Dune) . يقول الأستاذ پرنجل پاتيسون(۱) : و إن أكمام اللبي كان مع ذلك عالما مدرساتياً آآ ليهطينا التبرير المدرساني المروح الذي استولى بالفعل على روجر باكون ، والذي قدر له أن ينضج ويستكل نموه في أثناء القرنين الخامس حشر والسادس عشر ».

وروجر باکون هلما یقف وحیداً بارزاً لما له من عبقریة ممزة (قرابة ۱۲۱۰ – ۱۲۹۰) وکان کلمك إنجلزیاً . کانراهیاً فرنسکیاً من اکسفورد ، کما أنه فی الواقع رنجل إنجلزی نموذجی حقاً ، إذ هو سریع الهاج متسرع شریف حصیف العقل . وکان یسبق عالمه بقرنین من الزمان . یقول عنه ه . ا . تایلور ۳۲ :

«كانت حياة باكون مأساة ذهبية ، تطابق الأصول القديمة لفن المآسى : القاضية بأن تكون أخلاق البطل كريمة نبيلة ، وإن لم تمثل من العيوب ، وذلك نظراً لأن النابية القاضية المحتودة بجب أن تصدر من الحلنق ، وألا تحدث نتيجة المصدف . ومات شيخاً فى سن حالية . وكان فى شيخوخته شأنه فى صباه عباً مخلصاً الممرقة الملموسة . وكان طلبه الممرقة الى لا تصل إلى مرتبة العلم بمعناه التام ، يلتى احتراضاً من ثلك الحيثة التى انتمى إلى عضويتها وكان فيها عضواً تعسا ثائراً ؛ كما أضر به من الناحية الأخرى ، أن ما حصله من منجزات قد تحر فيه من الداخل المبادئ التي تقبلها نقلا عن عصره . ولكنه يعد مسئولا من قبوله للآراء السارية ؛ واستثارت آراؤه شكوك عصره . ولكنه يعد مسئولا من قبوله المقراء السارية ؛ واستثارت آراؤه شكوك المحوانه الرهبان ، كما جو عليه خلقه الهمتي الشموس عدامهم . فإن القدرة على إسخانه الرهبان ، كما جو عليه خلقه العمتي الشموس عدامهم . فإن القدرة على المؤتاع واللباقة شرطان ضروريان لمن رغب فى التأثير بمثل هذه الآراء الجديدة على

⁽١) الموسومة البريطانية ، العلبمة الثانية مشرة ، مادة المدرسانية Scholasticism . .

^{. (} ٢) كلمة للدرمان تطلق على معلىي القرون الوسطى وعلى كل فيلسوث متحالق ، بفلسفة العصود الوسطى التي تسمى أيضا بالفلسفة المدرسانية أو الإسكولائية . (المترجم)

⁽ The Med'eval Mind (r) تأليف منرى أوسهورن تايلود .

أقرانه ، أو لمن شاء القرار في القرن الثالث عشر من الاضطهاد لإذاحته إياها فقد هاجم باكون فوى المكافة والفضل من الرجال ، الأحياء منهم والأموات في خر حنكة ولا عدل وفي حاقة ونزق . ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياته البغة ، اللهم إلا من إشاراته إلى نفسه وإلى الآخرين ، وهي إشارات لا تكنى لتكوين صورة طفيفة متصلة الحلقات لحياته . ولد ودرس في أكسفورد عائبة ، ونحب إلى باريس ودرس وأجرى التجارب ، ثم عاد إلى أكسفورد كائبة ، وأصبح راهباً فرنسكيا ؛ وتابع دراساته ثم تولى التلويس وأصبح عند جماعته يمزلة المطنة والربية ، ثم يُبعَثُ به ثانية إلى باريس ، ويوضع تحت الرقابة ، يمزلة المطنة والربية ، ثم يُبعثُ به ثانية إلى باريس ، ويوضع تحت الرقابة ، ويتلني رسالة من البابا ، ويكنب ، ويكتب ، ويكتب — مؤلفاته الثلاثة الثلاثة ويطنت سراحه ويموت ، يموت كل الموت بجسده ويشهرته على السواء حتى يبعث بعث يبعث عنوا على المواء حتى يبعث

والمادة الرئيسية فى هذه و المؤلفات الثلاثة الأبعد شهرة ، إنما هى هجوم الاذع المبارة يكون فى الأحايين مقعماً بالسباب . ولكنه هجوم حادل تماماً على ما يريم على حصره من جهالة ، يخالطه مجموعة ثرية من المقرحات لزيادة المعرفة . وإن روح أوسطو لتتبدى فيه حبة من جديد فى إلحاحه الحار على الحاجة إلى التجربة وإلى جع للمارف . فلقد كانت الصيحة التى طالما حملها روجر باكون على عاتقه هى والتجربة ، التجربة ، .

ومع ذلك فإن روجر باكون اختصم أرسطو نفسه وهاجمه . اختصمه لأن الرجال بدل أن يواجهوا الحقائق في جرأة ، كانوا يجلسون في حجرات ويكبون على المرجات اللاينية الرديثة الديئة التي كانت عند ذلك كل ما يسطاع للوصول إليه عن و المعلم » . كتب يقول بلهجته غير المعتدلة و لو كان الأمر بيدى لأحرقت كل كتب أرسطو ، لأن دواستها لا يمكن أن تودى إلا إلى مضيعة الرقت وإنتاج الخطأ وزيادة الجمالة » ، وهو إحساس ما كان أوسطو في الراجع إلا لير دده لو أنه عاد إلى عالم لم . تكن فيه موافاته تقرأ قدر ما تُعبد — وكان ذلك التقديس كله موجها لهذه الرجمات غير الجديرة تماماً بأية ثقة كما بين ذلك روجر باكون .

وروجر باكون في كل مؤلفاته متنكر بعض التنكر بسبب ضرورة ظهوره في كل أموره بمظهر من يطابق بين آرائه وبين العقيدة السلفية الصحيحة خشية السجن أو ما هو شر من السجن ، لذا كان يصبح بالإنسانية من وراء هذا التنكر والتقية «أن كني عن أن تمكلك الاعتقادية (الدويما) والسلطات الاسستبدادية ، وانظرى إلى العالم ».

وقد شهر بأربعة أسباب للجهل هي : احترام السلطة ، والعرف والعادة ، وروح الجعمهور الجاهل ، وما حليه ميولنا من عدم قابلية للتعلم تنسم يالغرور والكبرياء . فلو تغلب الناس على هذه وحسدها لانفتح أمامهم عالم من اللقوة . والكبرياء . فلو تغلب الناس على هذه وحسدها لانفتح أمامهم عالم من اللقوة . وفإن في الإمكان أن توجد آلات المعلاحة البحرية تسير السفن من غير مجدفين أن يحيث أن سفنا ضخمة تناسب البحر والهر جميعاً ، ويقودها رجل فرد ، يمكن أن تسمير بسرعة أعظم مما لو كانت غاصة بالرجال . وعلى هذا النحو يمكن أن تسميع العربات الى تتحرك بلا حيوان يجرها الأقلمون فيا يقال . وفي الإمكان استحداث نات الطيارة ، حتى أن الرجل ليستطيع أن يجلس في وسطها يدير آلة ما فتضرب الحواء أجنحة اصطناعية على مثال جناحي الطائر » .

وإن أُكَّم وروجر باكون لهما البشران الباكران مجركة عظيمة في أوربا تنبذ الملاهب الواقعي (Realism) . وانقضت فهرة من الومن الملاهب المنتد فيها الصراع بين المؤثرات القديمة ويين و الطبيعية ع⁽¹⁾ عند أصحاب الملاهب الاسمي المديد. وفي (۱۳۳۹) حرمت كتب أكام وصدر قرار جدي وقور ياستنكار الملاهب الاسمي وتسفيه . وبلدلت في عام (۱۶۷۳) ، عاولة متأخرة فاشلة ، لحمل مملمي باريس على تعريس الملهب الواقعي بقمم يقسمونه . وفي القرن السادس عشر ابتدأ طبع الكتب وزاد الذكاء . وحدثة أصبحت حركة الانتقال من مذهب التجريد بمضهم مع بعض .

⁽١) الطبيعة أو الطبانية Naturalism عي ملحب مجاراة الطبيعة ومطابقتها . (المترجم) (١٦- معالم)

وكان التجريب على الأشياء المادية آخذاً بأسباب الزيادة طوال القرنىنالثالث،عشر والرابع عشر ؛ فأخذ الرجال يفوزون بكميات متنابعة من للعرقة ، ولكن لم يكن هناك تقدم تعاوني يقوم على العلاقة المتبادلة بين رجال العلم ، بل كان العمل يم بصورة اثعرالية متدابرة وخفية غير كريمة . فقد أخذت أوربا عن العرب تقالبد البحث للمتعرل ، وكان هناك قدر كبير من الأبحاث العلمية التي نَّم بشكل خاص وسرى والَّى يقوم بِهَا الكياويون القداى (Alchemists) الذين يجنح العصريون إلى المبالغة فى احتقارهم إلى حدما . على أن هؤالاء الكياويين القدامى كانوا على اتصال وثيق بصناع الزجاج والمعدن وبأصحاب صناعة الأعشاب والعقاقير وصناع الأدوية فى رْمَانِهُم ، وقد تلمسوا في أسرار كثيرة للطبيعة ، ولكن كانت نفوسهم مشبعة بفكرة و المنافع العملية ، ذلك أنهم لم يكونوا يطلبون المعرفة ، بل القوة . وكانوا يرغبون في أن يصطنعوا الذهب من المواد الأزهد منه ثمناً ، وأن يجعلوا الناس من أهل الخلود بوساطة إكسير الحياة ، وما إلى ذلك من الأحلام السوقية المبتدلة . وحدث أنهم عرفوا عرضاً أثناء أبحاثهم ، الشيء الكثير عن السموم والأصباغ وعلم المعادن وما إليها؛ واكتشفوا مواد منوعة تسبب إنكسار الأشعة ، وشقوا طريقهم صوب الزجاج الصانى، ومن ثم إلى العاسات والآلات البصرية . ولكن الواقع كما يخبرنا رجال العلم على الدوام ، وكما لا يزال العمليون ورجال الأعمال يرفضون أن يتعلموه ... هو أن المعرفة لا تحبو خدامها بهبات غالية وعطايا غير متوقعة في أى قدر من الوفرة إلا عندما تُطلب المعرفة من أجل المعرفة نفسها .

وما يزال عالم اليوم أميل كتمراً لما إنفاق المال على البحث الفي العمل (التكنيكي)
منه على العلم البحت . وما يزال نصف من في معاطنا وغتيراتنا العلمية من الرجال
يحلمون بالمخرعات المسجلة (Patenta) والعمليات السرية . وعن إنما نعيش اليوم في
معظم أمرنا في عالم الكياتين القدامي بالرغم من كل هزئنا بذكراهم . وما يزال و رجل
الأعمال » في عصرنا هذا يفكر في البحث بوصفه نوعاً من الكيمياء القديمة .

والمنجمون الذين كانوا يرتبطون بالكياويين القدماء ارتباطاً وثيقاً ، كانوا هم كذلك فئة تطلب «المنافع العملية ، فكانوا يدرسون النجوم لينينوا الناس بطوالعهم ، وكان يعوزهم ذلك الإخلاص والتفهم الأوسع ألفتاً اللذان يحملان الناس على مجرد دراسة النجوم فى حد ذاتها .

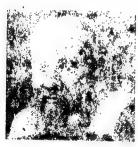
ولم تشرع الفكرات التي ترجم عنها روجر باكون في أن توتى تمارها الأولى من المعرفة الجديدة والنظرة الشاملة والأقق المتسع إلا في القرن الخامس عشر . ثم حدث على حين بفتة مع بزوغ فجر السادس عشر ، ومع قيام العالم من كبوته في عاصفة الفتن الاجتماعية التي أحقبت أوبئة القرن الرابع عشر ، أن تفجرت أوربا الفربية عن مجموعة من الأسماء الملألاءة كسفت بفيائها أصحاب أبعد الناس صيتاً طمياً في أزهى عصور الإغريق . وأمهمت في ذلك كل الشعوب تقريباً ، كما سوف يلحظ الفارئ ، وذلك لأن العام لا يعرف القومية .

ومن أبكر أفراد هذه المجموعة اللألاءة من الكواكب ، وأعظمهم جلالا ، ذلك الفاورنسي ليوناردو دافمنش (١٤٥٢ – ١٥١٩) ، وهو رجل تكاد تكون له و بالحقيقة ، يصمرة إصحارية . كان عالما بالطبيعة والتاريخ الطبيعي وبعلم التشريح ، وكان مهندسا ، كما كان فنانا عظم الشأن جداً ، وهو أول رجل عصرى أدوك الطبيعة الحقة للحفريات، فأنشأ دفائر مذكرات ملأها بملاحظات ما تزال تذهل ألبابنا إلى اليوم ، وهو يظهر اقتناعا بإمكان الطران الميكائبكي إمكانا عمليا وثمة اسم عظیم آخر هو اسم كوپرنيكوس وهو پولندى (١٤٧٣ – ١٥٤٣) ، قام بأول تحليل واضح لحركات الأجرام السياوية وأبان أن الأرض تدور حول الشمس . وقد رفض ثلك الفكرة تبخوبراهي (١٥٤٦ – ١٦٠١) وهو دانمركي كان يشتغل في جامعة پراج ، ولكن ملحوظاته عن الحركات السهاوية كانت على أقصى غاية القيمة لخلفائه ، وبخاصة للألماني كيلر (١٩٧١ - ١٦٣٠) . وكان جاليليو جاليلي (١٥٦٤ – ١٦٤٢) هو مؤسس علم اللَّبيناميكا . فكان الاعتقاد السائد قبل زمانه أن وزنا بكبر عن وزن آخر مئة مرة بسقط أسرع من الثاني بمئة مرة ﴿ فَأَنْكُو جَالِيلِيو ذَلِكَ ۚ وَبِلَّهُ مِنْ أَنْ يَنَاقَشَ الْأَمْرِ بِالْجَادِلَةُ عَلَى طَرِيقَةَ الملسرسانيين والحنتلمانية في عصره ، وضعه تحت الاختبار التجربيي الخشن بإسقاط كتلتين غير متعادلتين من طابق علوى من برج يهزا المائل - مثيراً بلك انزعاجا في قلوب كل الرجال اللوذعيين من علماء عصره . وأنشأ جاليليو ما يكاد يكون أول مرصاد (تلسكوب) ، وكذلك طور آراء كويرنيكوس الفلكية ، ولكن الكنيسة قررت ... وهى تكافح النور بشجاعة !! ... أن الاعتقاد في أن الأرض أصغر من الشمس وأدنى مها مرتبة ، لا يجعل للإنسان والمسيحية وزناً ؛ وللما حمل جاليليو على التراجع عن هذا الرأى ، وعلى ارجاع الأرض إلى مكانها الأول كركز ثابت الكون لا يتحرك !!! . . وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسبين ماة من الرمان ، وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال سنوات ثلاث .

ولد نيوتن (١٦٤٢ – ١٦٤٧) في السنة التي توفى فيها جاليليو . فأتم باكتشافه قانون الجاذبية ، إذاحة الستار تماماً عن عالم النجوم الذي بين أيلينا اليوم . على أن نيوتن يحملنا إلى صميم القرن الثامن عشر . فهو يحملنا إلى ما يتجاوز مدى الفصل الحالي كثيراً .

ومن بن أقدم الأسماء اسم الدكتور جلبرت (۱۵۶۰ – ۱۹۰۳) من كولشستر اللـى يـرز خالداً أبدياً . كان روجر

باكون قد بشر بالتجريب ، وكان جلرت من أوائل من مارسوه . ولا سبيل إلى الشك فى أن عمله ، الذى كان موجهاً فى جل شأنه إلى المناطيسية ، ساحد على تكوين فكرات فرتسيس باكون ، لورد قريولام (١٩٦١ – ١٩٢٦) ، وهو قاضى القصاة فى عهد جيمس الأول ملك إنجلرة ، ولقد سمى فرنسيس باكون هذا ياسم و أنى الشاسفة التجربيية ، ولكن ما أدر



(شكل ١٦٠) جاليليو

حول نصيبه في تطوير الجهد العلمي كان أعظم من حقه(١). يقول السير ر . ١ . جريجوري

⁽١) انظر كتاب « الاكتشاف Discovery ، تأليف جريجوري الفصل السادس .

د لم يكن المؤسس الطريقة الطمية بل الرسول المبشر بها ٤ . وكانت أعظم خدمة أداها المعلم ، كتاباً خيالياً حجيباً ، هو كتاب الأطلانطيس الجديد (The new Atlantis) . وفرنسيس باكون فى كتابه الأطلانطيس الجديد يصمح فى لغة كثيرة الزخوفة حاظة بالخيال شيئاً ما ، خطة قصر للاختراح > ومعبد عظيم العلوم ، حيث ينظم طلب المعرفة بجميع فروحها على أسس ومبادئ فى اللورة العليا من الكفاية ، . .

وعن ذلك الحلم اليوتوني المثالي نشأت الجمعية الملكية في لندن () ، التي تلقت مرسوماً ملكياً من شارل الثاني ملك أنجلترة في (١٣٦٧) . والقائدة ــ بل الميزة ــ الجوهرية لهذه الجمعية كانت وما تزال و نشر العلم وإذاعته » . ويسجل إنشاؤها خطوة محددة تفضل بالعلم من البحث المنحزل إلى العمل التعاوني بين العلماء ، ومن أبحاث الكياويين المقدامي المنزدة المن التقرير الصريح والبحث الجهرى ، الذي هو هصب الحياة في العلمية العلمية ، ذلك أن المنهج العلمي المني يقوم على : ــ وألا يفترض أي فرض لا ضرورة له ، ألا يقبل أي خبر أو بيان من غير تحقيقه ، أن تمتير كل الأشياء بأشد دقة مستطاعة ، ألا يحتفظ بأى أسرار ، ألا يحاول أحد أي الحتكار ، وأن يقدم الإيمان خبر ما لديه في تواضع ووضوح ، وألا يخدم أية أحرى ضر الموفة ».

وأنمش هارثى (١٥٧٨ -- ١٦٥٧) علم التشريع الذي طال نماسه ، كما كشف الدورة اللموية . وما لبث الهولندى ليشهوك (١٦٣٧ -- ١٧٧٣) أن استخدم أول عجمر (ميكروسكوب) ساذج في الكشف عن اللقائق الخفية العياة .

وما هوالاء إلا قليسل من كثير من أسطع النجوم فى ذلك الجمع الترايد من الرجال الذين لمهضوا منذ القرن الحامس عشر إلى زماننا هذا ، سمة وثابة ونشاط تعاونى إجماعي لم يعرحا يترايدان على كر الآيام ... لمضوا إيانارة الكون أمام ابصارنا ، وزادرا من سيطرتنا على ظروف الحياة .

 ⁽۱) هي أقدم جمية بهريطانية للملوم وأبرزها مكانة وتعد المائم؛ شرفا مظيماً.
 (۱) المنزجم)

٧ ــ النمو الجديد للمدن الأوربية

قد توسعنا في معالجة تجدد نشاط الدواسات العلمية في العصور الوسطى 4 لما له من أهمية قصوى في المشيون الإنسانية . ولا شك أن روجر باكون كان في جلة أمره أعظ أهمية للجنس البشرى من أي ملك في زمانه . ولكن العالم المعاصر ظل في معظم أهره لا يعرف شيئاً عن ذلك النشاط المتقد تحت الرماد في غرقات البحث كل أحوال الحياة . والواقع أن الكنيسة أدركت ما كان يجرى ، ولكن لم يعر يكن مرد ذلك إلا شعورها بعدم احترام قراراتها الحاسمة . فإنها كانت قررت أن الأرض هي مركز خليقة الله ، وأن البابا هو حاكم الأرض اللي نديته السماء لهذه المهمة . وقد أصرت الكنيسة على أن فكرات الناس عن هذه النقاط الجوهرية ، يجب ألا يعترضها أي تعلم يناقفها . ومع ذلك فإنها ما كادت تجبر جائليو على القول بأن الأرض لا تدخوك حتى قدعت بذلك ورضيت . والظاهر أنها علم تكن تدرك أن الأرض برخم كل ما تبلل كانت تتحرك فعلا وأن موقفها من تلك المائلة كان نادر ثبور علها .

ذلك أن أوربا الفربية كانت مسرحا لتطورات اجتاعية حظيمة جداً وأخوى للكرية فى كل هذه الفترة من العصور الوسطى المتأخرة . ولكن العقل البشرى يفهم الحوادث بمصورة أوضح كثيراً بما يفهم التغييرات ، كما أن الناس واصلوا الذاك كفعلهم اليوم – التمسك يتقاليدهم الخاصة بالرغم بما يلم بما حوثهم من المناظر من تفرات وتقلبات .

ومن المحال علينا في كتابتا هذا أن نكدس أحداث التاريخ المبراصة التي لا تبن يوضوح العملية الرئيسية لتطور الإنسان ، مهما بلغت من بريق وجمال . ولا بد أننا . من أن نسجل النمو المتواصل المدن كبيرها وصغيرها ، وانتصاض قوة التجارة والنقود ، وعودة القانون والعرف إلى تصاجماً شيئاً فشيئاً ، وانتشار الأمان ، والقضاء على الحرب الخاصة التي دامت في أوريا الغربية في الفترة بين الحرب العمليية وبين القرن السادس عشر .

وهناك أشياء كثيرة ، تتراءى لنا ضخمة فى تواريخنا القومية ولكننا سنضرب عنها صفحا

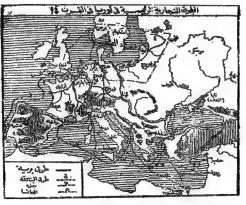
وليس للبينا مقسع نذكر فيه قصة الحاولات المتكررة التي يذلها الملوك الإنجليز لفتح المكتلندة وتنصيب أنفسهم ملوكاً لفرنسا ، ولا عن كيف استقر الإنجليز النورمانديون في إدلندة استقراراً غير وطيد في القرن الثاني عشر ، وكيف ألحقت ويلز بالتاج الإنجليزي (١٩٨٢) . وقد تواصل كفاح انجليرة مع اسكتلندة وفرنسا طوال العصور الوسطى جميعاً . وجاءت أزمان بلما فيها أن اسكتلندة قد أعضمت إخضاعاً نهائياً ، وحدث إيانها أن ملك انجليرة كان يتملك في فرنسا من الأرض أكثر من عاهلها الإسمى . وغالباً ما تصور كتب التاريخ الإنجليزية هذا الكفاح مع فرنسا في صورة محاولة حولت فيها إنجليزة بمفردها أن تقهر فرنسا وكادت أن تبلغ التوفيق . والواقع أنها كانت مشروعاً مشتركاً قامت به مجتمعة مع الفلمنك والباقاريين أولا ، ثم بعد ذلك كانت مشروعاً مشتركاً قامت به مجتمعة مع الفلمنك والباقاريين أولا ، ثم بعد ذلك مع ولاية برجنديا الفرنسية القوية لغزو تراث هيوكاييت واقتسامه . . .

ولسنا على أن نحدثك عن تشتيت فيل الإنجليز على يد الاسكتلنديين في باتوكبرن (١٣١٤) ولا عن وليم والاس وروبرت بروس البطلين الوطنيين الاسكتلنديين ، ولا عن ممارك كريسي (١٣٤٦) ويواتييه (١٣٥٦) وأجيتكور (١٤١٥) في فرنسا ، الي يشرق ضياوهما في الحيال الإنجليزي ، وهي معادك صغيرة قام فيا رماة تبال أقواء المراس في بعض الساهات المشرقة بإنزال هزيمة منكرة بالفرسان الفرنسيين في دوعهم السابغة ؛ ولا عن الأمير الأسود (١٤٥٠ هفري الفاسس ملك إنجليزة ، ولا عن كنت دفعت ثناة ريفية هي جان دارك ، علمراء أورليان ، الإنجليز مرة ثائية عن وطنها كيف دفعت ثناة ريفية هي جان دارك ، علمراء أورليان ، الإنجليز من الكي قطر مثل تلك الأحداث القومية التي يعتز بها . فهي طنافس التاريخ التي تعلق للزينة والمجر مثل تلك الأحداث القومية التي يعتز بها . فهي طنافس التاريخ التي تعلق للزينة والمجر والروسيا وأسبانيا وفارس والمدين تستطيع كلها أن تهاري أو تنز أقصي ما دار على مسرح التاريخ الأوربي الفرني من مفامرات رومانسية يظهر قها فرسان لا يقلون عن الأوربين مفامرة ، وأسرات لسن أقل من الأوربيات إقلماً ، وقتالا وصيناً لا يقل في شكيمة في هذه عن تلك .

وان تعدثك في أي تفصيل كيف أن لويس الحادي عشر الفرنسي (١٤٦١ - ١٤٨٧)،

 ⁽۱) هو إدوارد : الأمير الأمود (۱۳۳۰ - ۷۱) اين إدوارد الغالث ملك اتجائرة .
 (۱ائرج)

وابن شارل السابع صديق جان دارك ، أذل برجنديا ووضع أساساً لملكية مركزية يفرنسا . إذ أن الذي جمنا أكثر من ذلك أنه حدث في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أن البارود ، تلك الهية المغولية ، وصل إلى أوربا ، فاستطاع بفضله الملوك (يما فيهم لويس الحادي عشر) والقانون — محمدين على نصرة المدن النامية ، أن يحطموا قلاع الفرسان والباروتات العموص نصف المستطن في العصور الوسطى الأولى وأن يجمعوا في أيديم أشتات سلطان أشد تحركزاً .



(شكل ١٩١) خريطة الطرق التجارية الرئيسية بادريا بي القرن الرابع عشر

ويمتنى نبلاء وفرسان الفترة الهمجية المتقاتلون من التاريخ فى بطء أثناء تلك القرون ، ذلك أن الحروب الصليبة استنفائهم ، كما أنشهم أيضاً أمثال حرب الوردتين من الحروب بين الآسر المالكة ، فكانت الأسهم المرسلة من القسى الإنجليزية الطويلة

تتقد من أجسامهم ناشبة فيا وراهم بياردة ، وكان المشاة المسلحون بهذا الذي ر يجتاحونهم ويقذفون بهم لمل ميادين المزيمة ، فأخلوا يروضون انفسهم على النجاء: وغيروا من طيعهم . واختفوا من الوجود وزال كل أثر لهم إلا وجود اسمى في عرب، وجنوب أوربا . قبل أن اختفوا من ألمانيا . وذلك أن الفارس في ألمانيا ظلم عمارياً محترفاً حتى صعم القرن السادس عشر .

وحدث إيان الفترة المنصرمة بن القرنس الحادى عشر والحامس عشر في أوربا الفرية ، ويخاصة في فرنسا وإنجلترة ، أن نشأت كالزهرات باقة كبيرة من المبافى والكاتدوائيات والأديرة وما إليها طرلزها شديد النميز والجال وهوفن العارة القوطي. وقد صبق أن أشرنا إلى أهم خصائص ذلك الطراز . ويسجل هذا الازدهار البديع ظهور هيئة من أرياب الحرف ترتبط بدايات نشوشها ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة ، وشرع المالم الهمرة الثانية في إيطاليا وأسبانيا كلكك ، يكثر من تشييد المبانى بوفرة وجمال . وفي بداية الأمر كانت أموال الكنيسة وثروتها هي التي تقوم بمعظم هاتيك المبانى ، ثم أقبل المعلوك والتجار أيضاً على المبناء . ومن ثم فايل جوار الكنيسة والقلعة يظهر التصر المؤتل

وقد حدث فی کل أرجاء أوربا مع زیادة التجارة ، انصاض کبر فی حیاة المدن
سند القرن الثانی عشر فا تلاه . ومن أبرز هذه المدن البندقیة و تابعتاها راجوزا
وکررفو ، ثم چنوة و قدرونا وبولونیا ویوزا وظورنسا وناپولی ومیلانو ومرسیلیا
ولشیونة بربرشلونة وناربونه و تور واورلیان وبوردو ویارپس و خنت وبروچ وبولونی
ولندن واکسفورد وکبردچ وسوشهیتون ودو قر وانتورب وهمپورج وبریمن وکولونیا
وماینس ونورمبرج ومیونخ ولبزیج و جدبرج وبرسلاو وستمن ودانزج وکونجز برج
وریخا و پسکوف ونو فجورود وویسی و برجنن .

و وكانت المدينة بألمانيا الغربية بن على (١٤٠٠) ، (١٥٠٠)^(١) تضمكل ألوان التقدم الى اكتملت للناس فى ذلك الأوان ، وإن كانت... من وجهة النظر العصرية ...

⁽١) نفلا من الدكتور تيل في كتاب ۽ تاريخ العالم ۽ فلموت.

يعوزها الذي الخالب من الخشب، على حين كاد كل ساكن من سكان المدينة بمحفظ المنازل تبنى في الفالب من الخشب، على حين كاد كل ساكن من سكان المدينة بمحفظ بمشيته في مزله ، كما أن قطيع المنازير الذي يسوقه في كل صباح راعي المدينة إلى المرحي كان جزءاً لا يتجزأ من حياة المدينة ع . ويلكر شارلز ديكنز في كتابه ومذكرات أمريكية ع أن الحنازير كانت موجودة في برودواي ونيويورك في منتصف القرن التاسع عشر . وذلك بيناكان القانون يحرم ، في فرانكفورت على بهر المين بعد في المدينة الحديدة (نيوستاد) وفي ساخسهاوزن - كأمر عادي بحت . ولم تتمكن المسلطات من هدم حظائر الحنازير في المدينة المداخلية في لينزج إلا في (١٦٤٥) بعد عاولة فاشلة قامت بها في (١٥٥٦) بعد ما كانوا يشتركون في شركات التجارة العظيمة من أصحاب الآراضي الواسمي الثراء ع وكان المدينة الميدية . وكان أوسعهم ثراء عليكون تلك البيوت الضخمة الفاخرة الي ما نزال نعجب بها إلى يومنا هادا .

و ولكن جل بيوت القرن الخامس عشر قد اند رستى فى المدن القديمة نفسها ، ولم يعد باقياً إلا بناء هنا أو هناك يتجل فيه الخشب والطوابق البارزة بعضها فوق يعض ، كما فى مدينة بخاراخ (Bacharach) أو ملتفورج ، وهى تذكرنا بطراز المهارة المألوف آ تفاك فى يديوت سكان المدن فأما الأغلبية الغالية من الطبقة الدنيا من السكان ، الذين كانوا يعيشون عيش اللسول ، أو يحصلون على معاشهم بجارسة السكان ، الذنيا ، فكانوا يسكنون أكواغاً قلرة خارج الملدن . وكثيراً ما كانت أسوار المدينة هى الدعامة الوحيدة لهله المبافى التحسة . وتعمر تنظيات ومرافق المنزل المحارية المناطق المناف المحرية ، الداخلية حتى عند السكان الأغنياء ، ناقصة ومعية جداً من وجهة النظر المصرية ، كان المارز القوطى كان مكيفاً بشكل رائع لبناء الكنائس وقاعات البسلديات بقدر ما كان أقل الطرز صلاحية الإبراز التفاصيل المعفيرة فى وسائل الرف . على أن يقدر ما كان أقل الطرز صلاحية الإبراز التفاصيل المعفيرة فى وسائل الرف . على أن

و وشهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر يناء حدة كنائس المدن وقاهات المبلديات (1) قوطية الطزاز في كل أرجاء أوربا ، ما تزال في كثير من الحالات تخدم الغرض الأصلى المنشود منها . ولا أدل على قوة المدينة ورضدها من هده المهافى والتحصينات ، يما حوث من أبراج قوية وبوابات ضخمة . وما من صور لمدينة في المترن السادس عشر أو ما يقوه من قرون إلا وتظهر بشكل بين هسلم المنايات الأخيرة المبتناة لحاية المدينة وقدريفها .

وكانت للدينة تتولى المسائل الاجتهاعية أو يتولاها ما يقابل ذلك من مجالس بلدية . للدينة كانت تتولى المسائل الاجتهاعية أو يتولاها ما يقابل ذلك من مجالس بلدية . وكان تنظيم الحرف من اختصساص التقابات بالاتفاق مع المجلس ، على أن العنابة بالفقراء من شأن الكنيسة ، على حين كان من واجب الحجلس وقاية أسوار المدينة بواجبانه الاجتهاعة ، فإنه يشرف على مل عفارن الحبوب التابعة البلدية ، لكى يكون بواجبانه الاجتهاعة ، فإنه يشرف على مل عفارن الحبوب التابعة البلدية ، لكى يكون تمريبا إيان الفرن الخامس عشر . ولم يتقطى قط صدور تعريفات الأسمار بيع السلع تعربيا إيان الفرن الخامس عشر . ولم يتقطع قط صدور تعريفات الأسمار بيع المسلح كلها ، وهي على درجة من الارتفاع تكفل لكل صانع ماهر أن يكتسب رزقا طيباً ، وهي ملى درجة من الارتفاع تكفل لكل صانع ماهر أن يكتسب رزقا طيباً ، وهي ملى درجة من الارتفاع تكفل لكل صانع ماهر أن يكتسب رزقا الممول المول و والترامها بيع المرتبات السنوية على الحياة وعند المراث ، أصبحت تقوم بعمل البوك و تحطى بنقة لا حد لما . وكانت تحصل مقابل تلك المساحة على المال المالازم لا بكناء التحصينات أو الحصول على حقوق السيادة من المعلمات على المال المالازم لا بكناء التحصينات أو الحصول على حقوق السيادة من يعين أمر مفلس » .

وكانت هذه المدن الأوربية فى معظم شأنها جمهوريات أرستقراطية مستقلة أو شبه مستقلة . وكان معظمها يعترف بسيادة عليا مهمة من جانب الكنيسة ، أو الإمراطور أو أحد الملوك . على أن بعضها الآخركان جزءاً من ممالك، أو حتى عواصم

 ⁽١) قامة البلدية (Town Hall : سي مام يستمل لاجباع مجلس للدينة (المرجم)
 (المرجم)

دوقات أو ملوك . وفى مثل هذه الحالات كانت حرياتها الداخلية مكفولة الاستمرار بأمر ملكى أو إمراطورى . وفى انجلزة قامت على مر التلميز مدينسة وستمنسر الملكية ملاصقة تمام الملاصقة وندا مساويا لمدينة لندن المسورة ، التي كان الملك لا يدخلها إلا بإذن ومراميم خاصة .

وحكمت جمهورية البندقية المستفلة إسراطورية من الجنور التابعة والثغور التجارية ، على طريقة لتمارب طريقة الجمهورية الأثينية . كذلك كانت جنوا منفصلة وحدها .

وكانت المدن الأبانية فى منطقة البلطيق وبحر الشال من ربيحا إلى ميدئبرج فى هولندا ودرنمولند وكولونيا متحدة اتحادا كضدواليا مفككا ، هو اتحاد مدن ألهانسا ، ثمت زحامة هامبرج وبريمن وليويك ، وهو اتحاد كان ارتباطه بالإمبراطورية أضعف واشد تفككا . وقام هذا الاتحاد الذي يحتوى على أكثر من سبعين مدينة فى بجموعه ، والذى كانت له مستودعات فى نوڤجورود وبرجى ولندن وبروج ، يدل الجهد الكثير للاحتفاظ بالبحار الشهائية خالية من القرصنة ، تلك اللعنة التى ينك بالبحر المتوسط والبحار الشرقية .

وكانت الإمراطورية الشرقية إبان دورها الأحير بأكله ، منذ الفتح العراق لأراضها الأوربية بالبلقان في الفرنين الرابع عشر وأوائل الخامس عشر حتى سقوطها في (١٤٥٣) ، تكاد تقتصر على مدينة القسطنطينية التجارية ليس غير ، فكانت من ثم ه دولة مدينة ، مثل جنوا أو البندقية ، لا يفرقها عنهما إلا وجود بلاط إمراطوى فاسد يرهقها ويتقل كاهلها .

وقد بلفت حياة المدن تلك في العصور الوسطى المتأخرة ، أعلى ذرى تطورها وفضامتها في إيطاليا . فبعد انقراض أسرة هو هنشتاوفن في القمرن الثالث عشر ، ضعفت قبضة الإمبراطورية الرمانية المقلمة على شمال ووسط إيطاليا ، وإن ظل الأياطرة الألمان ــكما سنذكر فيا بعد ــ يتوجون ملوكاً وأباطرة الإيطاليا حتى زمان شارل الخامس (قرابة ١٩٣٠) ، ونشأ عدد من دول مدن شبه مستقلة ، إلى الشال

من روما العاصمة البابوية . ولكن جنوب إيطاليا وصقلية ظلتا مع ذلك تحت السيادة الأجنية . وكانت جنوة ومنافسها البندقية أكبر الثغور التجارية فى ذلك العصر ؟ وما تزال قصورهما الفضة وتقوشهما الفاخوة تحظى بإعجابنا . وانتحث كالمك ميلانو عند سفح مم سان جوثارد ففازت بالثراء والقوة . ولعل أسطع المدن ضياء فى كل حظيت المعمومة من النجوم الإيطالية ، مدينة فلورنسا ، وهي مركز تجارى مالى ، حظيت بمصر كعصر ه بريكليس يحت حكم عائلة ميديتشي شهه الملكى فى القرن الخامس عشر . على أن فلورنسا انتجت قبل زمان هوالاء و المكراء ع الميديتشين المختص عشر ، على أن فلورنسا انتجت قبل زمان هوالاء و المكراء ع الميديتشين المختفين ، الكثير من آيات الفن الجميل ، فإن برج جوثور (١٣٤٦ – ١٣٣٧) عهدهم . وقله أصبحت فلورنسا قرب نهاية القرن الرابع عشر ، مركز اكتشاف فهنون القدماء واسترجاعها وعاكاتها . على أن شهضة الفنون التي قامت فها فلورنسا في فسم تال .

٨ ـ الْهضة الأدبية

يرتبط منا التيقظ العام الحديد الذي للم بالذكاء الأوربي الغربي انفجار عظم في الآدب الابتداعي الحلاق. ولقد سبق أن لحظنا ظهور الأدب في اللغة الإيطالية بفضل مبادرات الإسراطور فردريك الثاني. وفي نفس الوقت كان المنشلون التروبادور صلاحات الإسراطور فردريك الثاني. وفي نفس الوقت كان المنشلون التروبادور في كل من شهال فرنسا وپروفانس سمي يعفون الناس إلى نظم الشعر بالهجات الشيالية والجنوبية ، ومنها أغاني الحب والأغاني القصصية وما شاكلها. وقد انفجرت هلم الأمور جميعاً ، إن صح لنا هذا التحبير ، كتيار سفلي يجرى تحت ميل إلى كتابة اللاتينية وقراءتها . وكان صدورها عن العقل الشعبي وعن العقل المنهون المرسل على سبعيته وليس عن العقل المتعلم . وولد بفلورتما في (١٢٦٥) ، دائي البيرى، الذي انهي أمره إلى

⁽۱) برج چوتو (Giottotower) : هو برج الحرس الكبير پكاتدائية تلورنسا . (الدجم)

⁽٢) الله وبادر : مننون جوالون في القررن الوسطى ينشدون أغاثي الحب . (المترجم)

⁽٣) پروڤانس : النَّسم الحنوبي من فرنسا المثل على البحر المتوسط . (المرجم)

المنى بعد نشاط سياسى صنيف ، ثم كتب بين ماكتب من أعمال ، قصيدة وصينة جولة في شعر إيطالى مُعَمَّقَى ، هي و الكوميديا ، ، وهي وشي من الإشارات الرمزية والأحداث المتقطعة غير المرابطة والبحث الديني . وهي تصف زيارة للجحم والمطهر والأحداث المتنبي أغاذ دانهي من قرجيل دليلا جديد في المناطق السفلي (أعني الجحم) . وهي في ترجماتها الإنجليزية المختلفة تسبب للقارئ مللا وسامة ، ولكن أهل الفكر اللين أوتوا من العلم ما يسمح لهم بالحديث في الموضوع لا يكادون لفرط إعجابهم يستطيعون أن يصروا عما يحسونه إزاء الجهال الرائع ، واللذة والحكمة التي تدجلي في الأصل . وقد كتب دانتي أيضاً بالملاتينية في المسائل السياسية وفي الدفاع عن حق اللسان الإيطالي بأن يعد لفة أدبية . فوجه إليه نقد لاذع لاستماله اللفة الإيطالية ، واتهم بعدم المقدرة على كتابة الشعر بالملاتينية .

وبعد ذلك بزمن وجير أخل بهرارك (١٣٠٤ – ١٣٠٤) كذلك يكتب الأهازيج (٢٥ (Souneta)) والقصائد الفتائية Ode واللغة الإيطالية بما أثار حمية جميم من بلغ من التفاقة حداً يمكنه من التأثير جما . مثال ذلك ماكتبه چون أدينجتون سيموندس : و إن (القافة في قصيدة حياة المادونا لورا ووفاتها (Vita e Morte di Madonna Laura) لا يمكن أن يتفادم عليها العهد مهما طال الزمن ، وذلك لأن الصيغة المروضية البالفة حد الكمال قد قرنت فيها إلى الألفاظ المتخلة الصافية » . علي أن القصائد تركنا في شك من أمر وجود المادونا لورا . وكان بتراك أحد جماعة من الإيطالين الذين دأبوا جمادين في استرجاع أمجاد الأدب اللاتيني . وإن كتاب معالم تاريخية كهذا قد لا تستطيع عيديه ثانية علي من الإيطالين أحد يفتح عيديه ثانية على ما البحمال الأدبي من روحة بهز الأنفس . ثم ذوت عملية الكتابة بالإيطالية ودحاً من الزمان انتمش أثناءه المتأليف باللاتينية . فكتب يترارك المدعة باللاتينية مي وهي ملاحم ومآدي (تراجيديات) زائفة ومهازل (كوميديات) زائفة باللاتينية ، لاشك

⁽١) الأعازيج أو السوئيتات : ضرب من القصائد الأوربية مكون من ١٤ بيعاً وله بحر شاس . (١) (المدجم)

في شبهها الكبير بالأشعار والنثر البياني المنعق الذي يصدر في الإنجليزية من بعضى الموويين من شباب الهنود . ولم يحدث أن عاد الشعر الإيطال من جديد إلى رفعته وتمزه إلا بعد ذلك بزمن ، بظهور بوياردو ثم آريوستو (١٤٧٥ - ١٥٣٣) . ولم تكن قصة آريوستو المساة (أورلاندو فوريوسو) إلا الآية المتوجّة لعدد جم من القصائد الرومانسية القصصية التي كانت تدخل البحة إلى تلوب قراء عصر البضة القليلي الاطلاع . وكانت هذه القصائد القصصية تعرف على الدوام بالفضل لذويه بإشارتها وعماكاتها بشكل ما لتقاليد الملحمة الفرجيلية المصلئة ، التي هي في حد ذاتها عمل جليل ينطوى على المحاكاة وموفور الاطلاع . وتتكون كتلة هذا الأدب من الكوميديات والقصائد القصيرة في أشكالها المتنوعة . ولم يبلغ النثر من التكلف والدمائة المدرجة التي تجعله موضع استحسان النقاد .

وكذلك رانت على تبقظ الحباة الأدبية في الهتم الناطق بالفرنسة ذكريات للأدب الملاتيني . وكان هناك بالفعل أدب من الأغاني المرحة كتب في فرنسا بلاتبينة المقرون الوسطى ، وهي أغاني الحان والطريق (وهي ما يسمى بالشعر الجولياردى في القرن الثالث عشر) ، وظلت روح هذه الكتابة الأصيلة تعيش في الأشعار الصادقة المتعبر الشعراء مثل فيون 1870 (١٤٦٧ – ١٤٣١) ؛ ولكن انتماش الدراسات الملاتيئية انتمل من إيطائيا وفرض التكلف على الناس عامة اللهم إلا أصحاب أقوى المقول وتأسس أسلوب محكم فيه شيء من جلال المبانى الحجرية الأثرية . وأنشلت قصائد فناخرة وروايات تمثيلية كلاسيكية قصد منها إلى استثارة إعجاب الحلف (الأجيال التألية) أكثر من إدخال السرور عليم . ومع هذا فإن عيقرية الحياة الفرنسية لم التألية) أكثر من إدخال السرور عليم . ومع هذا فإن عيقرية الحياة الفرنسية لم نقد ظهر . وكتب مونين (١٩٣٣) ؛ وهو أول كاتبي المقالات ، كتابات للطيفة عن الحياة وكربية عن الطياء ، وافهجر رابليه (١٤٩٠ ؟ – ١٥٠٣) كسيل من طياه الكرامة والمياقة .

فأما فى ألمانيا وهواندة فإن الدوافع/الفكرية الجديدة جاءت فى نفس الوقت تقريبا المدى تجلت فيه الآثار السياسية والدينية الضخمة للإصلاح الدينى ، كما أنهما أنتجنا أشكالا روحها الفنية أقل نقاء . يقول ج . أدينجتون سيموندس : إن ايراسموس (ايرازم) هو الممثل العظيم لعصر النهضة في هولندة مثلاً كان لوثر في ألمانيا ، ولكنه لم يكتب بالهولندية بإياللانينية .

وحدث في انجلئرة انفجار في النشاط الأدبي يرجع إلى القرن الرابع عشر. فأنتج جفری شومر (۱۳٤٠ ؟ ... ۱٤٠٠) شعراً قصصیاً ممتماً نهج فیه بشکل ظاهر نهج النماذج الإيطالية ، على أن قدراً كبراً من الشعر القصصي الرومانسي كان موجوداً من قبل . ولكن الحروب الأهلية وحروب الوردتين والوياء والمنازعات الدينية قضت على هذه البداية الأولى ، ومن نمة لم ينخل الأدب الإنجليزى مرحلة الحياة القوية إلا مع اسْبِلال القرن السادس عشر بعد عهد هنرى الثامن . فحدث في مسْبِل الأمر انتشار سريع للدراسات الكلاسيكية وسيل من الرجمات عن اللاتينية والإغريقية والإيطالية بعث الحصب في الأذهان . وظهر محصول فجأئي من الكتابات الإنجليزية المتازة . وأنعذ الكتاب يداعبون اللغة الإنجليزية ويختبرونها ويصقلونها . وكتب سهنسر قصته (الفسرى كوين) ، وهي عمل رمزى ممل له جمال زخرفي عظيم . ولكن الدراما في أيام الملكة إلىزابث ، كانت المضهار الذي وجدت فيه العبقرية الإنحليزية خير مجال للتعبير عن تفسها . لم تخضع قط التقاليد الكلاسيكية ، بل كانت الدراما في عصر إلىزابث شكلا أو قالباً أدبياً جديداً أ ـ د اكتمالا وأتم نحرواً وأعظم قوة وأحفل بالسمة الطبيعية التامة . ووجلت فى شكسبىر (١٥٦٤ – ١٦١٦) خير من مجلَّــها إلى أقصى حلد ؛ وهو رجل كان لديه لحسن الحظ ۽ القليل من اللاتينية والأقل من الإغريقية ۽ ۽ وكانت أجزل فقراته وأحفلها بالدراعة مستقاة من الحياة المتواضعة بل حتى السوقية ، كان رجلا ذا فكاهة حادة وحلاوة ذهنية عظيمة ، يحول كل جملة بكتها لحناً شجياً ، وولد ملتون (١٦٠٨ – ١٦٧٤) قبل وفاة شكسبر بثمانية أعوام . وقد أسبغت دراساته الكلاسيكية الأولى في صباه على كل من شعره ونثره سمـــة مختالة من الكبرياء والفخامة لم تزل منهما قط زوالا ناماً . رحل إلى إيطاليا وشهد روائم التصوير في عصر النهضة . وترجم تصاوير رافاييل وميشيل انجلو شعراً إنجلمزياً فاثقاً دوّنه في ملحمتيه العظيمتين والفردوس المفقود ، وو الفردوس المستعاد ، و من حسن حظ الأدب الإنجلزي أن شكسبر جاء ليوازن ملتون وينقذ قدراً كبراً من الروح الجوهري لذلك الأدب من التشبع بالروح الكلاسيكي . وأنتجت البرتفال بلسة نالها من الهضة الأديبة ، ملحمة اللوسيادة التي وضعها كاموينس (١٥٧٤ – ١٥٨٠) ولكن كان من حسن حظ أسبانيا – شأن أنجائرة ، أن وجدت رجلا ذا عبقرية فائقة ، لا يقتل فرط العلم كاهله ، يعبر لها عن روحها . فإن سر فانتيز (١٥٤٧ – ١٦١٦) تناول بسخريته الفكاهات والسخافات التي أثارها في رأس رجل هزيل فقير نصف بجنون ، نزاع نشب بين تقاليد الفروسية في العصر الوسيط وبين احتياجات الحياة السوقية ودوافعها . وإن بطلقية دون كيشوت وسافكو بانزا – شأن بعل شكلي القدم وبطولاته مدخلين وسافكو بانزا – شأن بطل شكسبر السير چون فالمناف وبطلة شوسر زوجة باث ، عليما الحرية والفحك . وإنهما ليقتحان كرامه الأدب الشكلي القدم وبطولاته مدخلين عليما الحرية والفحك . وإنهما ليقتحان خلالها كما اقتدم روجر باكون والرجال العلميون علم العلماء الملاسانين المحمد على الكتب وحدها ، وكما اقتدم المصورون علم العلماء الملاسانين المحمد على الكتب وحدها ، وكما اقتدم المصورون اللين سفتكلم عنهم فيا بعد ، القيود والتضييقات الزخرفية والنزام الاحتشام هي الروح الكلاسيكية بل إطلاق السراح وتحصلم القيود ؛ ولم يكن إسباء العلوم هي الروح الكلاسيكية بل إطلاق السراح وتحصلم القيود ؛ ولم يكن إسباء العلوم المدنية والإغريقية إلا إسهاماً في القيم الإيجابية لعصر النهضة ، الما لنظك القيم من تأثير مدمد النقاليد الكاثوليكية والقوطية والإمراطورية .

٩ _ النهضة الفنية

لاشك أن عما يتجاوز بهائنا وحدودنا أن نقفو الهضات المتعددة في الفنون المطلبة والزخرفية في هذه الفترة العظيمة من الانتعاش البشرى العام ؛ وأن ننبتك كيف كنَّب ألفن القوطى الشهالي لمباني البلديات والمباني الخاصة ، ثم كيف أدخلت عليه التعديلات ، واستبدل إلى حد كبير بأشكال مستقاة من الفن (الرومانسكي) الإيطائي ، ومن إحياء المتقاليد القديمة في إيطاليا . ولم يحدث قط أن مالت إيطائيا إلى الفن القوطى الذي اجتاحها من الشهال ، أو إلى الأشكال العربية التي دخلها من الجنوب. وفي القرن الخامس حضر ثم اكتشاف الكتابات اللاتينية التي مطرها قدر فيوس وفي القرن الخارة ، وكانت منها قوياً زاد في همات التغيير التي كانت تجرى فعلا.

فانتشرت الموثرات الكلاسيكية القديمة التيكانت تنهمر في الأدب بقوة ، منتقلة إلى عالم الحلق والابتكار الفني المتغزز بالنشاط آنفاً .

ولكن كما أن الانتماش الأدبى قد صبق إحياء الدراسات الكلاسيكية (إحياء العلوم القديمة) ، نقد جرى كذلك أن اليقظة الفنية بلغت أقصى مراتب تقدمها قبل اتجاه الأنظار إلى الفن التشيل (() الكلاسيكي . فإن أوربا أخذ يشتد فها على التلابيع منذ أيام شرلمان بروز الميل إلى الحاكاة التخيلية للطبيعة وإينارها على الفن الزعرف . فصدت بالمانيا إبان القرنين الثانى عشر والثالث عشر تطور قوى في فن التصوير ، وأعلى بد تصوير أشياء حقيقية على الحشب. فأما في إيطاليا ... حيث كانت الأشكال المعمارية تقيح لأهل الفن براحاً أرحب الما يتيحه القن القوطى ، فإن أهمية التصوير على الجمهران كانت تتزايد . وقامت أول مدرسة محددة التصوير الألماني في مدينة كولونيا (١٣٦٠ فنا تلاها) . وبعد زمن غير ظهر في هولندة الأخوان هوبارت. وجان قان آيك (قرابة ١٣٨٠ - ١٤٤٠) . وبمتاز عملهما بالإشراق والنضرة والمهجة وهو يشبه ما في كتاب القدام ((الحولاجي) من تصويرات . ولكها حية تنفس الهواء عني السطوح الأرحب الوحات المصورة ((Pazzela) .

وكان تشيابويه (Cimabue) يصور في القرن الثالث عشر ، وهو أستاذ چوتو (١٣٦٦ – ١٣٣٧) ، الذي يعرز بوصفه الشخصية الفبليعة المبكرة في تلك المرحلة الأولى من مراحل نهوض الفن إلى سابق عهده . وهي مرحلة بلفت ذروتها في شخص فرا أنجليكو دا فيسوني (١٣٨٧ – ١٤٥٥) وختمت به .

وحند ذاك ابتدأ في إيطاليا وبخاصة فى فلورنسا ، بحث علمى بالمعى الدقيق فى الوسائل الفنية للفن التثنيلي الواقعى . ولا حاجة بنا أن تؤكد بقوة أن جوهر التغيرات التى كانت تحدث فى الفن والنحت فى أوربا فى عصر الهضـــة هو التخلى عن الاحتبارات الحالية والاستمساك بالاحتبارات العلمية ، وهى حقيقة تجاهلتها على الدوام

⁽١) الغن التسليل Representative art : هو مجمومة فنون الرسم والتعموير والتشكيل وسمى بالتحقيل لأنه يحلل العليمة والحياة . (المترجم)

جميع الكتب التي تبحث في الفنون . فقط في مكان تصميم الحليات وصوخ اشكال الزخارف بما فيها من شكلية وتجريد وجمال ، يحث وراء الواقع كان في خير أحواله جريعاً بنيماً وغالباً ما كان خشاً صحيحاً إلى حد مولم . فعل الجدران والأحجار ظهر من جديد ما للجسم الإنساني في هيئته الساذجة من تمايس ولدو تة حركة بعد أن قفي عليهما الفن المرفى وجدها الفن البرنطى . فقد أخلت الحياة تدب ثانية في الفن وأعلت من فورها تنفس وتتحرك وتتصبب عرقاً وتؤدى الإشارات الميرة، ودرست مشاكل المنظور ووجدت لها الحلول ، وشرع المصورون الأول مرة مع التحكن والاطمئنان في أن يمثلوا والممتى » في الصورة . وأخذ الفنانون يدرسون التحكيين التشريحي للبدن دراسة استقصاء مدققة . وقد ظل الفن فمرة من الزمان تمكل محرة النثيل التشكيل . فأقبل المصورون على التفاصيل يظهرونها إظهاراً المفاقة . ووصل الفن إلى دور من الجمال الزخرق المتعلوف وتجاوزه .

وليس في إمكاننا أن نقفو هذا المضى المتواصل فحله الدوافع المبتعثة شلال المدارس المختلفة بمدن إيطاليا وهمال ألمانيا ، ولا أن تتأثر التفاعلات المتبادلة بين جاحات المصوورين الفلمنكيين والفلورنسيين والأمريانيين (۱) وهبرهم. وسنقتصر فقط على ذكر أسماء بعض كبار أساتلة القرن الخامس عشر الفلورنسين ، فيليهوليمي وبوتيشللي وغرلنداجو ، والأمريانيين : سنيورالي وبهروجينو ومانتايا . فأما مانتايا (۱۹۳۱ - ۱۹۰۳) فإنه يزهم جميعاً لأن الإنسان يلحظ في عمله وحده أكثر من أي معاصر له ، روح الفن القديم الكلاسيكي المسرجعة . وإن له في خير أحواله لهرامة لا تجاري .

وظهر مع القرن السادس عشر ليوناردو دافتتمى (١٤٥٢ - ١٥١٩) الذي أسلفنا لك القول فى آرائه العلمية . وكان هناك فى نورمبرج شخص ذوروح قريبة من روحه هو ألبرخت دورر (١٤٧١ – ١٥٧٨) . وارتقع فن البندقية إلى ذوة عجده ،

⁽ ۱) الأمبريانيون (Umbrian) : نسبة إلى أمبريا وهي مدانة يوسط إيطاليا . (المترجم)

بفضل كل من تثبان (۱۶۷۲ ؟ - ۱۹۷۳) وتنتورتو (۱۰۱۸ – ۱۰۹۴) وپول ڤىرونىزى (١٥٨٢ – ١٥٨٨) . ولكن ليس يعنى القارئ فى كثير ولا قليل أن نقوم بُسردُ الأسماء له ، ولن تستطيع أجود صور مستنسخة لهم ، نقلمها للقارئ ، أن تقلم إليه إلا إشارات قليلة عن ﴿ كنه وكيف؛هولاء الأسائلة ، وما نستطيع بواسطة المطبعة إلا أن ثلكر علاقتهم العامة بالفن والحياة بوصفهم عوامل فى أتجاه جديد نحو الجسم والأشياء الملموسة . ولا بد للقارئ الدارس من الرجوع إلى صورهم الأصلبة يطلب فها بنفسه إدراكاً واقعيا لسهامهم المميزة . وربما أشرنا له إلى صورة تثبان المعروفة بِالاسم غير المطابق لها ، وهو « الحب الطاهر والحب الدنس » ، أو إلى مختلف صور العرافات (Sibyla) وإلى « خلق آدم » التي رسمها مايكلا نجلو على سقف كنيسة السستين ، بوصفهن من أبدع أزاهير تلك الروضة فتنة وجمالا . وانتقل فن التصوير لِلَى الْجَائِرَةُ عَلَى يَدَ هَانَزُ هُولِمِنَ الْأَلَمَانِي (١٤٩٧ – ١٥٤٣) ، وذلك لأن انجَلَرَةُ قد بِلغ بِها التَّرْق في الحرب الأهليَّة حداً لم تستطع معه أن تظل ف كنفها أيَّة مدرسة للفن . كان مجيئه بجرد زيارة عابرة . بل إن عصر الملكة النزابث نفســـهــــ وناهيك بَّراثه في الأدب وبخصبه في الموسيق ــ لم ينتج أي تصوير أو نحت يمكن أن يقارنا يمثيابهما فى إيطاليا وفرنسا . ولم تلبث الحروب والشغب السياسي أن عوقت فن ألمانيا عن التندم ، واكن الدافع الفني الفامنكي استمر إلى روبينز (١٥٧٧ – ١٦٤٠) ، ورامبراندت (۱۲۰۶ – ۱۲۲۹) ، وإلى عدد عظم من مصورى الجنرى(١) البهيج والمناظر الطبيعية البرية اللبين أنتجوا صوراً زيتية في غرب أوربا الأقصى ، والدين كان إنتاجهم شبيها فى روحه وموضسوعه شبها عجيبا بطائفة من أقدم الصور الصينية دون أنَّ يكون هناك أي احيال لوجود علاقة أو نقل أو محاكاة . وربما كان هذا التماثل راجعا إلى وجود تماثل ما غامض في الظروف الاجتاعية ،

وأخلت عظمة مصورى إيطاليا تنحد وغير منذ بهاية القرن السادس عشر. فلوت حماسة الناس وإحساسهم بطرافة تصوير الجسم الإنساني المغمور بالضياء بكل ما يحتمل أن يحتويه من ثنيات، ومن امتداد ومن التقصير الأمالي (Exiension & Foreshortening)

⁽١) الحمزى (Genre) : نوع وطراز من تصوير مناظر الحياة العادية . (المترجم)

بين أحضان حلفيات (Backgrounds) لها نصاعة وإشراق يفوق ما للطبيعة من إشراق . كما أن معررات انخاذ النحت والأساطير (الميثولوچيا) للكلاسيكية موضوعات للهائيل التي تمثل التمرينات الجثمانية قد استنفدت أغراضها إلى حدكبىر . ولم تعد تستثير العقوا، الأصيلة الصور الى تقوم بتمثيل الفضائل والرذائل والفنون والعلوم والمدن والأمم وما إليها بأشكال نسائية مكشوفة كثفاً حراً ومقدمة في هيئة تسر الأعين ؛ وظهر طراز من المحترفين أقل ميلا للاجتهاد وأخذ في ممارسة الفن قانعاً بتصوير صور كانت ف خير أحوالها مجرد مطاولة لصور موجودة من قبل . فأما فن النحت الأوربي الذي تطور بهيئة بطيئة طبيعية في ألمانيا وفرنسا وشمال إيطاليا منذ القرن الحادى عشر فما أعقبه من قرون ، والمذي كان أنتج أعمالا ممتازة من أمثال ملائكة الكنيسة المقلسة بهاريس ، تمثال الفارس لكان جراندى في فرونا ، وتمثال كُليوني ف البندقية (الذي صنعه ڤيروتشيو وليوپاردى) ـــ فلم يلبث أن جرفته أمامها المحاولات التي أنفقت لإحياء الصفات الخاصة التي تمتاز بها صناعة القائيل الكلاسيكية التي كان الناس عند ذلك قد استخرجوها من الأرض وأخلوا ينظرون إلبها معجبين . فأنتج مايكلا نجلو وهو سكران بنشوة هذا الإلهام أعمالا بالغة النبووة في القوة والكرامة مع تمكن في تكوينها التشريحي لا يشق له خبار وهي أعمال أذهلت خلفاءه ودفعتهم إلى التقليد ، فأوردهم ذلك موارد التدهور . ومع تقدم الزمن بالقرن السابع عشر أُخَذْ فناً التصوير الأوربي والنحت يتخذان لنفسيهما سمة الرياضي الذي أفرط تمريناً حتى بلغ حد الإحياء ، أو الوردة الى أفرطت في التفتح .

على أن حاجات الناس المادية تدعم فن الهارة عندما تضمحل الفنون الأقل منه ضرورة ، وللملك تواصل إبان القرنن السادس عشر والسابع عشر إنتاج مستمر منوع لمبان رقيقة جيلة فى كل أرجاء أوربا . ولن نذكر لك إلا امم پالاديو (١٥١٨ ـ ١٥٨٠) ، الذي تمكأ أعماله ملينة فيشنرا مسقط رأسه ، والمندي نشرت كنه وتعاليمه فى كل أقطار أوربا تقريباً أسلوبه الكلاسيكي المبتمث حياً . وإنه ليحاكمي ينبوحاً عظها بفيض بالأنكار المهارية ، واسنا يستطيعن هاهنا أن نقص أثر التغريعات والتغيرات المقدة التي ألمت بعارة عصر الهضة والتي استمر تطورها استمر اراً طبيعاً ومعواصلا حتى زماننا هذا .

ولم يكن فن التصوير في أسبانيا نباتاً أصيلا في أراضها كما كان حاله في همال ألمانيا وليطالها . فإن المصورين الإسبان كانوا بيطون إيطالها للراسة ثم يعودون مها يفهم . ولكن حدث في التصف الأول من القرن السابع عشر ، في البلاط الإسبافي المتقلص الذي كان ما يزال محفظاً برائه ، أن ازدهر التصوير الإسبافي شخص فيلاسكويز (١٩٩٩ - ١٦٦٠) العظم الأصيل . فكانت له إلى الأشياء نظرة ممتاز بالطراقة واقصد المباشر إلى المفاية ، وكانت في مرقاشه قوة جديدة ؛ فهو – ويشاركه في قلل والمرائدت الهولندي – يعرز متفوقاً على يقية مصوري عصراتهمة في الروح والكيف كما أنه يسعر في طريق أقوى ما أنتجت أخريات القرن التاسع عشر وما أخرج زمانا علما من أعمال .

١٠ _ أمريكا تلخل التاريخ

سقطت القسطنطينية في (١٤٥٣) كما أسلفنا إليك القول . وظل الضغط التركي ، على أوربا طوال القرن الثالم قوياً لا يتقطع . فإن الحد الفاصل بين المغولي والآرى ، الملك كان يمتد في مكان ما شرق هضبة الهامر في أيام پريكليس ، تراجع عند ذلك إلى هنفاريا . وتحولت القسطنطينية ردحاً طويلا من الزمان إلى مجرد جزيرة من المسيحين تحيط بها شبه جزيرة الملقان اللي يمكم الترك : وأفضى سقوطها إلى عرقلة التجارة مم الشرق إلى حد كبير .

فأما مديننا البحر المتوسط المتنافستان چنوة والبندقية ، فكانت الأخيرة مهما على وجه الإجمال أحسن علاقة بالترك من الأولى . لذا كان كل ملاً ح چنوى ذكى مستاء من احتكار البندقية . خبارة في البحر المتوسط ، ويحاول أن يستنبط طريقة لاخراق نطاق ذلك الاحتكار أو الدوران من حوله . وظهرت عند ذلك شعوب جديدة كثيرة هويت التجارة البحرية ، ومالت إلى البحث عن طرق جديدة تودى إلى الأسواق القديمة ، وذلك لأن الطرق العيقة كانت مغلقة وجوههم .

فكان الرتفاليون مثلا يطورون تجارجهم بإزاء شواطئ المحسط الأطلسي . وبلنا أخذ ذلك المحيط يستيقظ من جديد بعد مدة إشمال مرامية ترجع إلى أوان 3 مقتل ؟ قرطاجة على يد الرومان . ومن العسير طينا الفصل فيا إذا كان الأوربى الغربى يتدفع إلى المحيط من تلقائه أم كان يدفعه الأثراك إليه دفعاً ، وهم الذين كانت تمم السيادة فى البحر المتوسط حتى يوم معركة ليهائنو (١٩٧١) . فإن السفائن المبندقية والجنوية كانت تلسلل بمحاذاة المشواطئ حتى تبلغ التورب(٢) ، وكان ملاحو مدن الهائن أخلوا يتحدرون جويا ويوسعون مجائم . وحدثت أثناء ذلك تطورات ضحمة فى فنون الملاحة وبناء السفن . ولا يخفى أن البحر المتوسط بمر قوادس (٢) وملاحة ساحلية . ولكن المحيط الأطلسي وبحر الشهال ، أكثر رياحاً وأشد موجا والشواطئ فيها فى كثير من الأحيان مصدر خطر أكثر منها كفا يحتمى به . فاستدحت البحار العالية وجود السفينة الشراعية المضحمة ، ومن ثم يتم ظهورها فى القرنين الرابع عشر والحاس عشر ، وعخر البحر مسترشلة في طريقها بالبوصلة والنجوم .

وكان تجار الهانسا عندما وافي القرن الثالث عشر يقلعون بانتظام عبر البحار الباردة الشهباء ، من يرجن إلى أهل الشهال سكان أيسلندة . وعرف الناس من أيسلندة خمر جرينلندة ، وكان الرحالة للظامرون قد وجدوا من زمان مديد أرضاً أخرى خلقها ، هي فينلندة ، حيث للناخ لعليف معتدل وحيث يستطيع الناس أن يترلوا ويستقروا إن آثروا أن يقطعوا المصلة بينهم وين يقية لجفس البشرى . وفينلندة هذه إما أن تكون نوفاسكوتفيا أو ، نيوانيلند؟ وهو الأرجع .

وكان النجار والبحارة فى كل بقاع أوربا فى القرن الحامس عشر يقلبون الفكر فى شأن طرق جديدة تفضى إلى الشرق . وكان البرتغاليون يتساءلون غير عالمين بأن الفرعون نحاو قد حل المشكل قبل زمانهم يعصور مديدة : أليس فى الإمكان أن يصل الناس إلى الحنسد بالدوران حول ساحل أغريقيا ؟ . واتبعت سفهم (1820) نفس الطريق الذى سلكه هانو إلى رأس شردى ، فانطلقوا فى البحر غربا ووجعوا جزائر الكانارى و ماديرا والأزورس . وكانت تلك خطوة طويلة توحاً ما عبر الأطلسى . يقول السير هارى چونستون متحلقاً عن هذه المغامرات البحرية فى الهيط الأطلسى . الشرق و يحواذاته الشاطي "الإفريق الغربي : a إن البرتغالين قد سبقهم فى القرنين

 ⁽١) وهي باللرنسية أنفرس ، وتقع الآن أن بلجيكا . وكانت لها أهمية تجارية عظيمة . (المترجم)
 (٢) المقادس أو الفليون Qalley : طراز قدم مؤالسفينة الشراعية الكبيرة ذات الحاديث . (المترجم)

 ⁽٣) هر الإسم الذي يطلق حل المنطقة الشالية الشرقية من الرلايات المتحدة ويضم ولايات: ما يأن ونيوهشير وفرمونت وساماؤوستس ، ودود _ آيائنه ، وكوليكتيكت .
 (المدجم)

الثالث عشر والرابع عشر وأوائل الحامس عشر كل من النورمان والقطالونيين والجنويين. ولكن مناشط البرتغالين سمت إلى الماروة في القرنين الرابع عشر والحامس عشر ، ومهما يكن الأمر فهم وحدهم اللين ثبتوا المكتشفات، وركزوها بعد أن كانت حتى ذلك الحين عجرد زبارات مهمة عارضة . فكاتوا رواد علم الفلك البحري ، . وفي (١٤٨٦) أعلن برتغالى اسمه برثولوميو دياز أنه دار حول جنوب أفريقيا . وبلدك انفتح السيل أمام مفامرة فاسكودا جاما الكبرى بعد ذلك بإحدى عشرة سنة . وقبل أن يتبعه الأسسبان إلى الفرب كان البرتغاليون ينشئون طريقهم إلى المشرق فسلا .

وشرع چنوى اسمه خرستوف كولمبس يمعن فى التفكير فيا نعتبره الآن مشروعاً واضحاً وطبيعاً جداً ، ولكنه مشروع أجهد خيال القرن الخامس عشر إلى أقصى حد ، وهو الإيجاد نحو الغرب مباشرة عبر الأطلسى. ولم يكن أحد يعرف فى ذلك الزمان بوجود أمريكا بوصفها قارة منفصلة . كان كولمبس يعرف أن العالم كروى الشكل ، ولكنه أخطأ فى تقدير حجمه ، فزعمه أقل من حقيقته ، وذلك لأن رحلات ماركوپولو أدلت إليه بفكرة مبالغ فيها عن مدى اتساع آسيا ، فظن تبعاً للملك أن البابان بما لما من صيت بعيد فى ثروة عظيمة من الدهب كانت تقع عبر الأطلسى فى ما يقارب موقع المكسيك . وقد قام برحلات متنوعة بالمحيط الأطلسى ، ووصل إلى أيسلندة ولعله سمع هناك شيئاً عن فينلندة ، وهو أمر لا بدأنه شجع فى نفسه فكراته تلك ، وأصبح خلك المشروع ، مشروع السفر إلى مغرب الشمس الهدف الأسمى المللف الأسمى

كان رجلا بملقاً ، تقول بعض الروايات عنه إنه كان مفلساً ، ولم تكن أمامه من وسيلة للحصول على سفينة إلا أن يحمل أحد الناس على أن يسند إليه قيادة سفينته . فلمهب بادى و فى بدء إلى الملك چون الثانى البرتغالى ، فأصغى إليه وأقام فى سبيله الصحاب، ثم دير أمر رحلة تقوم بغير علم منه ؛ وتكون رحلة برتغالية صرفة ، وأخفقت الحماولة المفرقة في « اللابلوماسية » الملتوية والتي قصد بها استراق السبق إلى السفر خفية عن رجل عبقرى أصيل ، وعنى ما أخفقت ، فإن الملاحن تمردوا ،

وفقسه الربان شجاعته وعاد أدراجه (١٤٨٣) . عند ذلك أتجه كولميس إلى البلاط الأسباني .

ولكنه لم يتمكن في بادي الأمر أن مجمل لا على سفن ولا على تفويض. وذلك المبانيا كانت بهاجم غرناطة ، آخر معقل المسلمين في أوربا الغربية . وكان المسيحيون قد استردوا معظم أسبانيا إبان الفيرة بين القرن الحادى عشر والقرن الخالث عشر ، ثم تلاذلك فترة توقف. فلما أن أصبحت كل أسبانيا المسيحية كتلة واحدة بزواج فرديناند الأرجوني من ايز ابلا القشتالية ، شهنت لاستكمال الفتح المسيحي. حتى إذا غلب اليأس على ففس كولميس من مساعدة أسبانيا له ، بعث بأخيه بارقولوميو إلى همرى السابع ملك انجلرة ، ولكن المفامرة لم ترق في عين ذلك الملك الحلير . وأعيراً سقطت غرناطة (١٤٩٧) . وهي شيء طفيف من التعويض عن فقلان المسيحية لمدينة القسطنطينية قبل ذلك همسين سنة . وما هم كولميس أن حصل على سفائته بمساعدة بعض تجارمدينة بالوس ، وهي ثلاث سفن لم يكن مها إلا واحدة ذات سطح هي و السائتاماريا ، وحورتها مئة طن . وكانت السفيتان الأخريان زورقين لما نصف الحمولة .

وانحدرت الحملة الصغيرة ـــ وكان مجموع عدد أفرادها ثمانية وثمانين رجلا ا ـــ جنوباً إلى جزائر الكتارى ، ثم انطلقت تعبر البحار المجهولة ، في جو جميل وتحت ربح مواتية .



(شكل ١٩٢٧) خريطة العالم تبين رحلات الامتكشاب الرئيسية إلى سنة ١٥٢٢

ولا بد القارئ من أن يقرأ بالتفصيل قصة تلك الرحلة الجليلة الشأن الى دامت شهرين وتسعة أيام حى يقدرها قدرها . كانت نفوس البحارة تفيض بالمخارف والشكوك ؛ فكانوا يحشون أن يظلوا يسرون فى البحر إلى الأبد، ولكن رويهم بعض الطيور وعثورهم على قضيب من الحشب فيه آثار بعض الآلات ، وعلى غصن يحمل بعض ثمار غرية أدخلت الطمأنينة على أفتاسهم . وفى الساعة الماشرة من ليلة المكوير ١٤٩٧ آنس كولمبس أمامه نوراً ؛ وفى الصباح التالى شوهلت الأرض ، وفى السباح التالى شوهلت الأرض ، وفئ السباح التالى شوهلت الأرض ، عمل راية أسبانيا الملكية .

وعاد كولمبس إلى أوربا في مستهل (١٤٩٣) ، عبتلياً معه ذهباً وقطناً وحيوانات وطيوراً غريبة وهندين هائمين منقوشي الجسم ما ليث أن عمدهما في الكنيسة ، ورزم أنه لم يميد اليابان ، بل وجد الهند. والملك سميت الجزر التي اكتشفها باسم جزر الهند الفريبة . وفي نفس السنة رحل مرة أخرى تصحيم حملة عظيمة من سبع عشرة سفينة وألف وخسمة رجل ، بإذن خاص من اليابا بأن يتملك تلك الأراضي الجليلة للتاج الأسباني .

. ويضيق بنا المقام عن الحديث عما مرّ به من الحوادث وهو حاكم لهامه المستعمرة الأسبانية ، ولا عن كيف عُزل وكبل بالأصفاد . ولم يمض زمن طويل حى كان حشد من المفامرين الأسبان يرتادون الأراضي الجديدة . ولعل من الشائق أن تسجل أن كرلميس مات وهو يجهل أنه اكلشف قارة جديدة . فإنه ظل يعتقد حتى يومه الأعرار أنه دار حول العالم إلى آسيا .

وأحداث أخبار اكتشافاته هزة عظيمة كل أرجاء غرب أوربا . وحفرت البرتفاليين أن يجلدوا محاولاتهم الوصول إلى الهناد يطويق جنوب إفريقيا . وق (١٤٩٧) أقلع فاسكودا جاما من لشبونة إلى زنجبار ، ثم سارمن هناك بهداية دليل عربي فاخترق المحيد الهندى إلى قاليقوط في الهند .

وأصبحت للبرتغال (١٥١٥) سفائن في جاوه وجزر مولوقا(1) (مُلككًا) . وق

 ⁽١) جزر مولوقا أو جزر البادات : مجاميغ من الجزر البركانية تقع في المدينسها الشرقية .
 وتشهر-بالتوابل .

(١٥١٩) سار ملاح برتغالى اسمه ماجلاً ن، يعمل فى خدمة ملك أسباتيا جنوياً عادياً لشاطئ أمريكا الجنوبية ، فاجتاز و مضيق ماجلاً ن، المظلم المخيف ، وبلما وصل إلى المحيط المادى الذى سبقه إلى مشاهدته المكتشفون الأسبان اللذين عبروا برزخ بها .

وواصلت بعثة ماجلان سيرها قدُماً إلى الغرب عبر الهيط الهادى. وكانت تلك رحلة يتجلى فيها من آيات البطولة قلو أوق كثيراً بما في رحلة كولمبس ، إذ ظلى ماجلاً ن و تسعين وثمانية من الأيام ، يسبر بسفائنه غير هياب ولا مردد على أمواه فلك المحيط الهائل المذالى المترامى الأطراف، دون أن يرى فيه شيئاً إلا جزيرتين صغيرتين. وتفشى مرض الإسخربوط وعمل عمله فى البحارة ، ولم يبق إلا القليل الفاسد من الماء والتالف من البسكوت. وكان البحارة يصيدون الفئران بلهفة شديئة ويقرضون جلود المقر ويلهمون نشارة الخشب لكى يقيفوا عضات الجوع فى أحشائهم . وصلت البعثة ليل جزائر اللادرون وهي على هذه الحال السيئة وفاكتشفوا جزر الفلين ، وهناك قتل ماجلاً ن أثناء عراك مع الأهالى . وقتل كذلك كثير من الربابنة . وقد خرج ماجلاً ن في أصطس (١٩٥٩) بخمس سفن عليها مثنان وعلها البقية الباقية وعددها واحد وثلاثون رجلا . عادت مصعدة فى الحيظ الأطلمي وعلها البقية الباقية وعددها واحد وثلاثون رجلا . عادت مصعدة فى الحيظ الأطلمي حول هذا الكركب .

فأما الإنجليز والفرنسيون والهولنديون ونوتية منن الهانسا ، فإنهم هبطوا إلى ميدان بغامرة الارتياد هذه متأخوين نوحاً ما . إذ لم يكن يخالجهم نفس الاهمام الشدياء بالتجارة مع الشرق . فلما أن انحدوها إلى الميدان فعلا ، اتجهت أوائل جهودهم إلى المسير بسفهم حول همالى أمريكا ، مثلاً ساد ماجلاً ن حول جنوبها ، وإلى الاتجار من حول شمالى آسيا ، كما أبحر فاسكودا جاما حول جنوب أفريقية . ولكن طبيعة الأشياء قضت على هذين للشروعين بالإضاف التام . فسبقت كل من البرتغال وأسباتيا في أمريكا والشرق ، إنجائرة وفرنسا وهولندة بنصف قرن .

ولم تبدأ ألمانيا قط ، ذلك أن ملك أسبانياكان إمبراطوراً على ألمانيا في تلك السنن الحاسمة ، وكان البابا أعطى احتكار أمريكا لأصبانيا إلا أنه لم يمنحها لأسبانيا نفسها بل لمملكة قشتالة ، وبدسمى أن يكون لهذا الأمر أثره في اعتباق كل من ألمانيا وهولندة بادى بده عن النزول إلى ساحة المتامرات الأمريكية . وكانت مدن الهانسا شبه مستفلة ، فلم يكن من خلفهم ملك يعتملون على مسافلته ، ولم تربطهم وحدة تستطيع البوض بالمشروعات الكبار كعملية ارتياد الهيطات مثلا . ومن سوء حظ ألمانيا ، بل لهله من سوء حظ العالم أجمع ، أن استنفدت قواها عاصفة هوجاء من الحروب ؛ كما سنين ذلك من فورنا ، على حين كانت الدول الغربية بأجمها تنطلق إلى المدرسة المقتوحة حديثاً وراء البحار العالمية(١) ، تتحلم فها التجارة والإدارة .

وأحد طالع قشتالة الماثل الميمون يتكشف في بطء إبان القرن السادس عشر أمام عيون أوربا المنهرة. ذلك أنها اكتشفت عالماً جديداً ثرياً بموفور ذهبه وفضته حافلا بعجيب احالات استيطانه والمقام فيه . كان كله ملك يميها ، لأن البايا قال بللك . وكان بلاط روما وهو في إحدى نوبات أربحيته قد قام تحف به الفخامة والجلال ، بهتسم عالم الأراضي العجيبة الجديد ، الذي كان يتبدى آنذاك أمام الحيال الأورفي ، بين الأسبان الذين جعل لم كل الأراضي الواقعة غربي خط يقع على ١٣٧٠ فرسخاً عرفي جزائر رأس قردى ، وبن الرتغالين الذين منحوا كل شيء يقع إلى الشرق من خلك الحيال .

وفى بادى الأمركان الناس الوحيدون الذين لقيهم الأسبان فى أمريكا متوحشين من أكلة البشر. ومن الطراز شبه المغول (٢). وكان الكثير من هؤلاء المتوحشين من أكلة البشر. ومن سوء حظ العلم أن كان أول من بلغ أمريكا من الأوربيين ، هم هؤلاء الأسبان القليلو الاستطلاع ، المجردون من أية رغبة علمية والظامئون إلى الله هب ، والمشبعون بروح التعصب العمياء الراجعة إلى حرب دينية قريبة العهد. لم يصدر عهم غير ملاحظات

 ⁽١) البحار العالية : ما تحاوز من البحار الثقة الإقليمية الساحلية الدول . (المترجم)
 (٢) شبه المغيرل (Mongolotd) : انظر ج ! ص ١٧٥ من المالم ط ٣ . (المترجم)

قليلة ذكية عن طراتق هذا الشعب البدائي وفكراته . وقد أعملوا فيهم السيف، وسرقوهم ثرواتهم ، واستعبدوهم وعمدوهم مسيحيين ، ولكهم ثم يدركوا إلا قليلا المرف والعادات والأفكار الأصلية التي تغيرت واختفت أمام هجمهم . كانوا في تدميرهم وحدم مبالاتهم وقلة تقليرهم أشبه شيء بالنازلين العريطانيين الأول في تسهانيا ، الذين كانوا يطلقون الرصاص عند روتهم رجال العصر الحجرى القديم الذين كانوا ما يزالون باقين هناك ، ويضمون لهم اللحم مسما لمأكلوه .

وكانت مساحات عظيمة من الأراضي الداخلية في أمريكا أرض برارى ، كانت قبائلها الرحل الضاربة فيها تعتمد في معاشها على قطمان ضمعة من (البرون) الجماموس الدى الذى انقرض الآن أو كاد . وكان هنود الرارى هوالاء على تشابه عظيم في طريقة حياتهم ، وفي ثبامه المنقوشة وفي إسرافهم في استبال الصباغ وفي عوام خصائصهم الجمائية برجال المصر الحبرى القدم في عهده الثاني الأخير الملين عاشوا في العصر السوئيوثرى بأوربا . ولكن لم تكن لنسهم خيل . ويلوح أنهم لم يتقمموا تقدم في د كون هي الحالة التي يتقمموا تقدم في ذكر من تلك الحالة البدائية ، التي يرجح أن تكون هي الحالة التي وصل عليها أجدادهم إلى أمريكا . ومهما يكن من شيء فقد كانوا على علم بالمعادن .

وبيهاكان الأسبان يتوغلون فى القارة ، وجدوا بأمريكا حضارتين منفصلتين ومتطورتين فهاجوهما وانتهبوهما وقضوا عليهما ، ولعلهما تطورتا بمعزل تام عن المدنيات القائمة فى العالم القدم . وكانت إحداهما مدنية المكسيك الأزتيكية ، والأخرى حضارة يهرو . ولعلهما نشأتا عن مرحلة و شبه المدنية ، للمصر الحجرى الحديث ، التى انتشرت عبر الهيط الهادى من جزيرة إلى جزيرة ، خطوة فخطوة ، وهصراً بعد عصر ، مبتدئة من أرض أروسها الأصلية حول البحر المتوسط وبالقرب منه . . , لقد سبق أن ذكرنا بضع نقاط مشوقة فى هذين التطورين القريدين فى نوعهما . وهما ، تأخران عن بلاد المشرق والبحر المتوسط بالاف السنن . وقد بلغ هذان الشعبان الأمريكيان للترخضران دارجين فى طريقهما الخاص مرتبة توازى موازاة خشسنة ، ثقافة

مصر قبل الأسرات وثقافة لملدن السومرية الباكرة . وكانت هناك قبل الأزتيك والهروزين(أى أهل يدو) بدايات حضارات أقدم مهما ، إما أن خلفاءهم دمووها ، أولها أن تكون أخفقت وذهبت من تلقاء نفسها .

ويبدو أن الأزتيك كانوا شعباً فاتما أقل تمدناً ، يتسلطون على مجتمع أكثر مهم مدنية ، شأن الآريين في تسلطهم على بلاد الإغريق وشال الهند ، وكانت ديانتهم نظماً بدائيا معقداً وقاسياً ، كانت القرابين الإنسانية وأكل لحوم البشر أثناء الطقوس تلعب فها دوراً كبيراً . وكانت تملأ عقولم فكرة الحطيثة والحاجة إلى استرضاء الآلمة بسفك اللماء . فكانت ديانتهم أشبه شيء بصورة كاريكاتورية فظيعة كاملة لليانات العالم القدم البدائية ذات القربان .

وقد دمرت الحضارة الأزتيكية حملة حسكرية بقيادة كورتيز . كانت لليه إحساس حصارة وقوة مكونة من أربعمئة أوربي ومثنى هندى وستة عشر حصارة وأربعة عشر حصارة وأربعة عشر مدفعة . ولكنه التقط من يوقطان رجلا أسبانيا شارداً . ظل أسراً لدى الهنود بضع سنين ، فتعلم إلى حدما عدة لفات هندية ، وعرف أن الحكم الأزتيكي كان مثار استياء حميق لدى الكثيرين من رعاياه . ويتحالفه مع هوالاء الحانفين تقدم كورتيز قوق الجبال حتى دخل وديان المكسيك (١٥١٩) .

فأما كيف دخل إلى المكسيك ، وكيف قُدُّل مونتروما وثيسها وقائدها في الحرب على يد مواطنيه لمالأته الأسبان ، وكيف حوصر كورتيز في المكسيك ، ثم هرب عفلها وراءه مدافعه وخيله ، وكيف استطاع بعد تفهقر رهيب إلى الساحل أن يعود ويخضع البلاد بأكملها ، لل فقصة رومانسية جيلة لا نستطيع حتى أن نحاول أن نقصها عليك هاهنا . وما يزال اللم الهندى يغلب على سكان المكسيك إلى يومنا هذا ، ولكن اللغة الأسبائية حلت هناك على اللغات القومية القديمة ، غير أن الثقافة الموجودة الآن ثقافة كاثوليكية وأسبانية .

فأما دولة بيرو الإعجب شأنًا فقد وقعت فريسة بين براثن مغامر آخر هو پيزارو . فإنه أقلع من برزخ بها في ۱۵۳۰ ، ومعه حلة مكونة من ۱۲۸ أسبانيا . فحدًا حلموكورتيزيان أفاد من الاختلافات الداخلية بين الأهالى وضمن بدلك الاستيلاء على تلك الدولة المنكودة الحظ. وعلى غرار ما فعله كورتيز أيضاً حين النحاذ موثيروما أسيراً وألموية فى يده ، فإنه قبض على « إلكا ١٦٥» بيرو بالخليعة وحاول أن يحكم لليلاد باسمه .

وهذا أيضاً لا نستطيع أن نوفى الأجداث المقدة التي تلت ذلك ، حقها من الإيضاح ، أو نسهب القول في الفتن الفاشلة السيئة التدبير التي قام بها الوطنيون ، و وصول مدد أسباني جديد من المكسيك ، ثم تمويل الدولة إلى مقاطعة أسبانية . كذلك لسنا بمنتطيعين أن نزيلك بياناً عن انتشار المفامرين الأسبانيين انتشاراً مريماً فوق يقية أمريكا خارج منطقة البرازيل التي كان المرتفاليون بمنفظون بها الأنفسهم . وكانت قصدة كل مها تكاد تكون في كل الحالات قصة مغامرين وقساوة وسهب واستلاب. وكان الأسباني ويشامها ، كانا منهم بمناة تحد شهوراً بل سنوات ، فلم ينتقل دور المنف والمنتقب النظام المنف والفتح إلى دور حكم واستقرار إلا بغاية البطء . ولكن قبل أن يستقب النظام برمن مديد في أمريكا ، أعد فيض متواصل من الدهب والفضة ينهم عبر الهيط برمن مديد في الأسبان حكومة وشعباً .

وبعدما انتهى طور اصطياد الكتوز العنيف الأول ، جاء طور الزراعة وفتح المناجم وبذلك نشأت أول المشكلات العالية في العالم الحديد . فاستُدَّب الهنود بادئ الأمر في شيء كثير من الوحشية والظلم ، ولكن تما يشرف الأسبان أنهم لم يلحوا الموضوح يمر بلا انتقاد . فوجد الوطنيون أنصاراً يعطفون عليهم ، أنصاراً عامرة أفتاسهم بالشهامة ، في هيئة الرهبان المدومينيكين وفي شخص قسيس علماني هو و لاس كاساس حمد و عزه ضميره ، وابعداً أيضاً استراد العبيد الزوج من أفريقية الغربية في وقت مبكر جداً من القرن السادس عشر . وبعد فرة غير طويلة أخلت المكتبك

⁽١) إنكا : لقب ملك بيرو قبل أن فصمها الأسهان . (المترج)

والبرازيل وأمريكا الجنوية الأسبانية تتحول إلى بلاد مالكة للعبيد منتجة للثروات ،

ولسنا بمستطيعين أن تحدثك هناكما نشهى : عن الجهود الحضارية الممتازة المي قام بها في أمريكا الجنوبية ، وبوجه أخص بين الوطنيين ، الرهبان الفرنسسكيون ثم المسوعيون (الجنوبيت) اللين هبطوا أمريكا في النصف الثاني من القرن السادس عشر ربعد ١٩٤٩) .

وهكذا سمت أسبانيا من الشتون العالمية إلى مرتبة موقوتة من القوة والتبريز في



(شكل ١٦٣) الكسيك وبيرو

شتون العالم . كان ارتفاعها فجائياً جممهاً باوزاً ومرموقاً . وكانت تلك الشبه الجزيرة القحلة الموعرة التضاريس ، منقسمة على نفسها منذ القرن الحادى عشر ، كما أن سكائما المسيحين ظلوا في كفاح مستمر مع العرب ؛ ثم حدث يطريقة تكاد تشبه الصدفة المحضة أنها أحرزت الوحدة في أنسب الأوقات لحنى أول ثمار اكتشاف أمريكا . وقبل خلك الزمان ، كانت أسبانيا على الدوام قطراً فقيراً ، وهي ما تزال عتى الموم قطراً فقيراً ، وتكاد تكون ثروها الوحيدة منحصرة في مناجمها . ومهما يكن من شيء المؤنما ظلت قرناً من الزمان صيدة العالم بسبب احتكارها للهب أمريكا وفضها .

وكانت ظلال رايات الأتراك والمغول ما تزال ترفرف على شرق أوربا وجنوبها وتهددها ؛ وكان ا كلشاف أمريكا في حد ذاته نتيجة الفتوح التركية . وإلى الاختراحين المغولين ، البوصلة والورق ، وإلى الأثر المنبه الراجع إلى الرحلات في آسيا ، وإلى الأثر المنبه الراجع إلى الرحلات في آسيا ، وإلى الأثر المنبه المهم المراجع في حدوث ذلك التخرم (التأجيع) الملحش في الطاقات العقلية والجهائية والاجهاعية التي تأجيجت على وحافة المحيط الأطلسي» . ذلك أن فراسا وانجلترة دخلتا المينان عُقيب دخول المرتغال وأسبانيا مباشرة ، ثم تلهما للفور هوائدة ، فقامت كل واحدة من الثلاثة في حيها يدور التوسع وتكوين إمبراطورية وراء البحار .

وعندئد ينتقل مركز الاهمام في التاريخ الأوربي الذي كان محصوراً في بلاد المشرق Levant ، متحولاً عن جال الآلب والبحر المتوسط إلى الهيط الأطلميي . وانقضت بضمة قرون انجدرت فها الإمبراطورية التركية ، والروسيا وآسيا الوسطى والصين إلى منزلة ثانوية نسيياً على المسرح حتى أهملها المؤرخ الأوربي ولم يعد يسلط عليا أنواره الوهاجة . ورخم هذا فإن مناطق العالم المركزية هلمه تظل مركزية على اللوام ، وتظل وفاهيها ومشاركها ضروريتين لسلام البشرية الدائم .

١١ ـــ رأى ماكياڤللي في العالم

الآن سنلى نظرة إلى النتائج السياسية المعرقية على هذا التحور الهائل ، وهذا التوسع الضمخم اللذين ألما بالفكرات الأوربية إبان القرنين الرابع عشر والحامس عشر ، تقيجة التطور الحديد العلم ، وارتياه العالم والاتساع العظم للمعرفة يوساطة الورق والطباعة ؛ والانتشار تبافت جديد على الحرية والمساواة . فكيف كان تأثير الله الحال في عقلية البلاطات والملوك التي كانت تدير الشئون الرسمية البشرية ؟ القد سبق أن أريناك كيف أخط الفسمف يدب إلى قبضة الكنيسة الكاثوليكية على ضائر الناس في ذلك الأوان ولم يبق أحد على أي حظ كبير من الحياسة المكنيسة إلا الأسبان ، وذلك القرب المهد بخروجهم من حرب دينية طويلة النهت آخر الأمر بالنصر على الإسلام . وكان من آثار الله وح التركية مع زيادة واتساع القدر المعروض من العالم أن حرمت الإمراطورية الرومانية من كرامها التعليدة التي أضفت علمها صفة الشمول العالمية ، ذلك بأن لظام أوربا العقل والحلق القدم كان قد شرع يتحظم . فماذا كان عيدث لدوقات وأمراء وملوك النظام القدم إبان عصر التغير هذا ؟

في إنجائرة كما سنخبرك فيا بعد ، كانت هناك نزعات خفية وشائقة جداً تدفع بالناس صوب طريقة جديدة فى الحكم ، هى طريقة الحكم البرلمانى ، التى قدر لها أن تتشر فيا بعد فى كل يقاع العالم تقريباً . ولكن العالم فى جملته لم يكد يحس بوجود هذه الدرعات فى القرن السادس عشر .

وقل من الملوك من تركوا لنا يرميات تتجل فيها الصراحة والإخلاص ؛ فإن الملكية والصراحة والإخلاص ؛ فإن الملكية والصراحة أمران لا يجتمعان ؛ والملكية في فأنها و وضعة ع(1) تتخذ . ومن ثم فالمؤرخ مضطر لمل أن يعمل فكره حلساً وتحميناً فيا تحويه الرأس التي تلبس التاج بقدر ما يستطيع . ولا مراء في أن سيكولوجيا الملوك تفيرت تغيراً كبيراً مع تقدم المصور . ومهما يكن الأمر ، فإن لدينا كتابات رجل من رجال ذلك الأوان بالغ فاية الاقتدار تعب نفسه لدراسة وبسط و أساليب الحكم الملكي ؛ على ما كانوا يفهمونه في أواخر القرن الخامس عشر .

ذلكم الرجل هو الفلورنسي البعيد الذكر نيقولو ماكياڤلي (١٤٦٩ ـــ ١٥٢٧) ، نشأ في أسرة طيبة و تربي في مجبوحة معقولة من العيش ، ودخل الحدمة العامة للجمهورية وهو في الحامسة والعشرين . وظل يعمل في الوظائف الدبلوماسية الفلورنسية تمانية عشر ، عاماً ؛ فأسند إليه عدد من السفارات. وفي (١٥٠١) أرسل إلى فرنسا لينفاهم مع الملك

 ⁽١) الوضمة : Pose كا أن التصوير ، وضع نحاس يتخله الناس الانفسيم ، وكثيرًا ما يكون متكلفا . (للقريم)

الفرنسي . وظل من ١٥٠٧ إلى ١٥١٧ اليد المحق (لرئيس ظلورنسا مدى الحياة) سودريني (Soderini) . وأحاد ماكيالحالى تنظيم الجيش الفلورنسي ، وكتب الحسلب للرئيس مدى الحياة (gentalonier) ، وكان في الواقع هو الذكاء المسيطر على الشتون الفلورنسية . وحند ما تغلبت أسرة ميديشي التي كان الأمهان يناصرونها على سودريني اللك كان يعمد ما تغلبت أسرة ميديشي التي كان الأمهان يناصرونها على سودريني الظافرين ولكنه عند بن ما المطاطق (C) ، ثم طرد من الخدمة . فاتحذ لنسم مقاماً في الظافرين ولكنه عند بن مل المطاطق (C) ، ثم طرد من الخدمة . فاتحذ لنسم مقاماً في أيخلا على مقربة من سان كاستشانو ، تبعد عن فلورنسا التي حشر ميلا تقريباً ، وهناك أخذ ليروح عن نفسه من ناحية أخرى بكتابة كتب في السياسة الإيطالية ، التي أحد أصدقائه في روما ، ومن ناحية أخرى بكتابة كتب في السياسة الإيطالية ، التي المحد يستطيع أن يقوم فيها بدوو . وكما أننا مدينون بكتاب رحلات ماركوبولو لو إلى نسجته ، فإنا ندين لكتب ماكيافللي و الأمير — والثاريخ الفلورنسي — وفن الحوب ، فإنا ندين لكتب ماكيافللي و الملام في سان كاستشانو .

وتنحصر القيمة الدائمة لهدائمة لمكتب فى الفكرة الواضحة التي تعرضها علينا عن نوع العقول التى كانت تحكم ذلك العصر ، والتحديدات التى كانت تفلها . فإن جوها كان جوه الذى فيه يعيش . فإذا كان أدخل ذكاء حاداً مفرطاً إلى عبط أعمالهم ، فإنه لم يزد عن مجرد وضعها نحت ضياء أسطع .

وقد تأثر ذهنه الحساس تأثراً عظيا بمكر سيزار بورجيا وقسارته وجرأته وأهامه ،
وهو دوق قالنتيتو الذى قضى ماكياقالى فى مسكره بضمة شهور مبعوثاً من قبل مولاه
فصور ذلك الشخص الباهر فى صورة مثالية فى كتابه و الأمر ع . وينبغي للقارئ أن
يفهم أن سيزار بورجيا (١٤٧٦ – ١٤٧٧) كان ابن البابا اسكندرالسادس : رو دريجو
بورجيا (١٤٩٢ – ١٤٩٢) . وربما دهش القارئ من وجود بابا له ولد ، ولكن
لا بد لنا من تذكر أن هسلما اليابا كان من البابوات السابقين على الإصلاح
لا بد لنا من تذكر أن هسلما الأوان فى حال تراخ حلى ، ومع أن اسكندر ،
كان بوصفه قسيساً قد نلر أن يعيش أعرب ، فإن ذلك لم يمنه من أن يعيش صراحاً

⁽١) ألطالة أو العاراء . آلة النعليب بمثل الجسم والأطراف . ﴿ لِلْتُرْجِمِ ﴾

مع نوع من الزوجة بلازوجية ، ومن توجيه موارد العالم المسيحي لرفع شأن عائله .
وكان سيز ار شاباً قوى الطموح والجرأة ، بدرجة تكاد تتجاوز طاقة الزمان الذى عاش فيه ، وقد دير هنة وقت مبكر مقتل أخيسه الأكبر ، وكذا زوج أخته لوكريشيا . والواقع أنه غدر بعدد من الناس وقتلهم . وأصبح بمساعدة والده دوقاً على شقة كبرة من وسط إيطاليا حيث زاره ماكيالهالي . ولم يظهر إلا الشيء القليل من المقدرة المسكرية ، وإن أبدى مهارة فائقة وقدرة إدارية جسيمتن . وكانت عظمته من ذلك النوع العارض غير المستدم إلى أقمى حد . فما أن مات والده حي أنهاوت كما تهار كرة منفوخة وخزها دبوس . ولكن ماكيالهالي لم يتبن ماكان يصم ولك العظمة من ضعف وعدم سلامة . والحق أن أعظم دواعي اهيامنا بسيزار بورجية ينحسر في أنه حقق أعظم مثل أعلى ارتاه ماكيالهالي عن أمير فائق ناجع .

وقد كرت الموافقات التى حاول كتابها أن يبينوا أن ما كيا قالى كان برى من وراء كتاباته السباسية لمل مقاصد عريضة الآفاق شريفة الأهداف: بيد أن كل أمثال هذه الهاولات التى يقصد بها رفعه إلى موضع النبل ، تمرمه من تمحس والهمام القارئ المنشكك المصر على قراءة السطور ذاتها فى سفر ما كيا قالى بدل قراءة أشياء خيالية بين السطور ، ومن الجلل أن الرجل لم يكن يوثمن البتة بأى تقوى ولا صلاح ، بين السطور ، ومن الجلل أن الرجل لم يكن يوثمن البتة بأى تقوى ولا صلاح ، فهم تقوة الضمير وسلطانه على الرجال . ولم يكن ثمن يوثمنون بروى النظام الإنساني فهم تقوة الضمير وسلطانه على الرجال . ولم يكن ثمن يوثمنون بروى النظام الإنساني يريد مثل هاته الأشياء . وكان يلوح له أن الحصول على القوة ، وإشباع رغبات المرء وحاجاته المحسية وأحقاده ، والنرنح بنشوة الظفر في العالم ، يجب أن تكون الحال الا أمير . وواضح أن مصحة من الجنن ، أو إحساساً يحقارة مدعياته الشرعمية ينحل عن مثل تلك الأعراء ، وأن يشارك في الشرعية المضاح ، ولمله يتمام على الثوق من الحبد ، والن يشارك في الشرعة من الحبد ، وأن يشارك في المانم والسلب واللدات الحسية والنزعات الشريرة المشبعة . ولحله يستطيع أن يجمل المنانم والسلب واللدات الحسية والنزعات الشريرة المشبعة . ولحد يستطيع أن يجمل المانم والسلب واللدات الحسية والنزعات الشريرة المشبعة . ولحد يستطيع أن يجمل المانم والسلب واللدات الحسية والنزعات الشريرة المشبعة . ولحد يستطيع أن يجمل المنانم والسلب واللدات الحسية والمزعات الشريرة المشبعة . ولحد يستطيع أن يجمل المنانم والسلب واللدات الحسية والمزعات الشريرة المشبعة . ولحد يستطيع أن يجمل

من نفسه شخصاً لا يستغيى عنه ! ومن ثم نصّب نفسه لطلب التعمق والحبرة في فن الإمارة ، فساعد سودريي حتى أورده موارد القشل . فلما مطه المديتشيرن في المطاطة ونبلوة ، وانقطع به ما بني لديه من أمل حتى في أن يكون في البلاط طفيلاً ناجعاً ، كتب هذه الكتب الصغيرة المدائرة حول الدهاء ليظهر أي خادم ماهر نقده بعض الأمراء ! ! . والفكرة المقبطة على عقله ، التي هي مدار مساهمته العظيمة في الأدب السياسي ، تتلخص في أن الالترامات الحلقية على الرجال العادين ، لا يمكن أن تقيد الأمراء .

ومن الناس من يميلون إلى نسبة ففيلة الوطنية إلى ماكيافللى ؛ لأنه فكر في أن إيطاليا بجوز أن تنحد وتتقوى، وهى التي كانت ضعيفة منفسمة على نفسها إذ غزاها الأكراك ولم ينقسلها من فتحهم إياها إلا موت السلطان محمد الثانى ؛ كلك افتتت على امتلاك أرضها الجيوش الفرنسية والأسبانية كأنما كانت شيئاً فاقلد الحياة ؛ ولكنه لم ير في هلما الاحيال إلا فرصة عظيمة تتاح لأمير. ولم يطالب بوجود جيش قومي إلا لأنه رأى طريقة الإيطالين في القيام بالحرب بوساطة استشجار رجال من المرتزقة الأجانب ، طريقة لا يرجي من ورائها خير . فإن الجند في مثل رجال من المرتزقة الأجانب ، طريقة لا يرجي من ورائها خير . فإن الجند في مثل التي في حماها . وقد أثرت انتصارات السويسرين على أهل ميلان في نفسه تأثيراً عيمةً ، ولكنه لم يسبر قط سر الروح الحرة التي مهدت السبيل لتلك الانتصارات. وأخففت المبليشيا الفلورنسية التي أنشأها إخفاقاً تاماً . وكأني به رجلا ولد ضريراً وعيمت عيناه عن الصهات التي تجمل الشعوب حرة والأم عظيمة .

ومع هذا فإن هذا الرجل الضرير من الناحية الأخلاقية ؛ كان يعيش بين ظهر أنى عالم صغير كل رجاله صم وعميان من الناحية الحلقية . وواضحأن أسلوب تفكيره ، إنما هو أسلوب تفكير كل بلاط في أيامه ، نقد كان هناك في كل مكان من خلف أمراء الليول الصغيرة التي تبقت عن تحطم الإمبراطورية وقشل الكنيسة ، مستشارون وسكر تعرون ووزراء مو تمنون من الله كيا فللي . فإن توماس كرومويل مثلا ، وزير هبرى التامن الإنجليزى بعد انفصاله عن كنيسة روما ، كان يعد كتاب ما كيا فللي و الأمير ، وبدة كافية من الذكاء والأمير ، وبدة كافية من الذكاء والأمير ، فيهذا الحكية السياسية . فإذا كان الأمراء أنضهم على درجة كافية من الذكاء تاب

والمهارة ، أصبحوا هم كذلك ماكيافللى النزعة . وإذا هم يدبرون الخطط ليتفوق أحدهم على الآخر ، وليسلبوا معاصرتهم الأضحفن ، وليدمروا أندادهم ومنافسهم ، لكى يصعروا خدهم تها فترة قصيرة من الزمان .. ولم يدر بخلاهم في قليل ولاكثير - أية خطة لتنظيم مصائر الإنسانية ، تعظم قلك اللعبة التي كانوا يلعبونها فيا بينهم ،

١٧ ــجهورية سويسرا

من الشائق الممتع أن يلحظ المرء أن هذه والمشاة ، السويسرية التي أثرت في ماكيا لهلى إلى هذا الحد ، لم فكن تنسب إلى نظام الأسراء في أوربا . إذ نشأ في المنطقة



(شكل ١٦٤) خريطة لسويسرة توضع أم الطرق والممرات

المركزية نفسها من النظام الأوربي ، اتحاد كوتفدرالى صغير من الدول الحرة ، هو الاكتاد الكونية المجارة ، هو الاكتاد الكونفدرالى السويسرى، الذىما لبث أن تحول صراحاً فى (1899) إلى النظام الجمهورى بعد بضعة قرون من الاستبساك بالدولة الرومانية المقدسة أسمياً . فنى زمن

مبكر برجم إلى الفرن الثالث عشر ، اعترم الفلاحون الساكتون في الوديان الثلاثة المجاورة لبحيرة لوسرن ، أن يستفنوا عن كل سيد يسودهم ، وأن يدبروا شئوتهم الحاصة ، على طريقتهم الحاصة . وكان أكبر مصدر لمتاعهم مدعيات عائلة نبيلة في وادى الآر ، هي أسرة هابسبرح . وفي (١٧٤٥) أحرق رجال شويتز (Schwyz) قلعة و هايسبرج الجديدة » ، التي كانت أقيمت قرب لوسرن الإرهابهم ، وما تزال أطلالا باقية هناك إلى اليوم .

كانت عائلة هابسرج هذه عائلة نامية ميالة إلى زيادة ممثلكاتها ، فكانت لما الأراضي والمستلكات في كل أرجاء ألمانيا ، وفي (۱۷۷۳) بعد انفراض بيت هوهنشتاوفن ، انتخب رودلف آل هابسرج إمبراطوراً على ألمانيا ، وهو احياز أصبح آخر الأمر وراثياً في عائلته . ومع ذلك فإن رجال أورى (Uri) وشسوينز وأثر قالدن (Uri) وشسوينز على الم معموا على ألا يمكهم أي هابسرجي ، قكوتوا فيا بيهم حلقا دائماً في (۱۲۹۱) ، ثم صعوا على ألا يمكهم أي هابسرجي ، قكوتوا فيا فكانوا في يادى الأمر أعضاء أحراراً في الإمبراطورية ، ثم أصبحوا أتحاداً كونفلوالياً كللك ليس لدينا متسم نعقب فيه اتساع الاتحاد الكونفلولي تدريجياً إلى حدوده الراهنة . ولم تل ، كللك ليس لدينا متسم نعقب فيه اتساع الاتحاد الكونفلولي تدريجياً إلى حدوده الراهنة . ولم تلب ثبي ماده المجموعة المسهورية المستمرة الباسلة . وقد أصبح علم العمليب الأحمر وهو على خيف من حبي المناه على عدد على اللدوام ملتجاً قرجال وملاذ الأحرار الفارين من جميع أنواع المثلالة . والاستبداد .

١٣ _ (١) حياة الإمبراطور شارل الخامس

إن معظم الشخصيات التي تبرز في التاريخ ، إنما يم لها ذلك بسبب إتصافها بيعض الصفات الشخصية الاستثنائية ، سواء أكانت حسنة أم سيئة ، وهي الي تجعل لمم وزناً يرجع وزن قرنائهم . ولكن ولد في غنت من أعمال بلجيكا في (١٥٠٠) رجل عادى المتدرة سوداوى المزلج ، أمه امرأة ناقصة العقلية ، تزوجت الأغراض سياسية ،

⁽١) الرومانسية هي الهجات الموجودة في أعالى نهر الراين . ﴿ الْمَرْجُمِ ﴾

وقدر له - ولم يكن ذلك نتيجة خطأ منه ولا فضل له - أن يصبح محط أبصار أوربا وأن توضع على كاهله متاصها المتكلسة . والمؤرح ملزم أن يعيره عظمة عارضة لا يستحقها يأية حال ، وأن يضعه إلى جوار أفراد ناجين مرموقين من أمثال الإسكندر وشرابان وفردريك الثانى . ذلك هو الإمبراطور شارل الحامس . وقد ظل زمانا والحو الذي يحيط به يوحى بأنه أعظم من تولى الملك فى أوربا منذ أيام شرابان . على أن الواضح أنه هو وعظمته الوهمية ثمرة سياسة الزواج التى انهجها جده الإمبراطور مكسميليان الأول (1804 - 1914) .

وذلك بأن بعض العائلات بلغت المجدد قتالا ، كما دبرت بعضها الأخرى للوامرات للوصول لملى السيطرة الدنيوية ، أما أسرة هابسبرج فلها شقت طريقها إليها زواجاً . ايتدأ مكسميليان حياته بميراث هابسبرج المكون من النمسا واستبريا وجزه من الألزاس وتواح أخرى ، فتزوج الأراضى المنخفضة وبورجئديا — إذ أن اسم السيدة لا يكاد يعنينا . ولكن أفلت منه معظم برجئديا يعد وفاة زوجته الأولى ، على أنه احتفظ الإمراطورية بعد أبيه فرديك الثالث (١٤٩٣)) ثم تزوج دوقية ميلانو . وأخيراً الإمراطورية بعد أبيه فرديك الثالث (١٤٩٣)) ثم تزوج دوقية ميلانو . وأخيراً عرفناهما مع كولميس ، واللذان لم يمكما فقط أسبانيا الجديدة الموحدة ، وسردينيا ، ومملكة الصقليت بل أصبحا — محكم المنح اليابوية لأسبانيا — حاكمن على كل أمريكا غربي الدرازيل . وهكلما اتفت أن خيده شارل ورث معظم القارة الأمريكية ، وبين ثلث ونصف ما لم يستول عليه الأتراك من أوريا . ومات والد شارل في (١٠٠١) دوبلال مكسميليان قصاراه ليضمن انتخاب حفيده العرش الإمبراطوري .

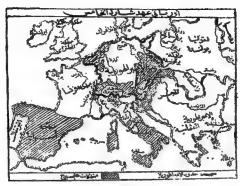
وتولى شارل حكم الأراضى المتخفضة فى (۱٤٠٦) ، وأصبح بالفعل ملكاً على الممثلكات الإسبانية المترامية (لأن أمه كانت بلهاء) عند ما نوفى جده فرديناند فى (١٥٦٠) . فلا أن مات جده مكسميليان (١٥١٩) ، انتخب فى (١٥٢٠) إمبر اطوراً وهو ما يزال فى العشرين تلك السن الغضة نسبياً .

واعترض على انتخابه إميراطوراً الملك الفرنسي للشاب الذكي فرنسيس الأول ،

الذي تولى العرش الفرتسي في (١٥١٥) وهو في الحادية والعشرين . وكان يعضد فرنسيس في ترشيحه البابا ليو العاشر (١٥١٣) ، الذي يقتضي منا أن تلقبه يلقب الذكري هو أيضاً . كان ذلك العصر في الحق عصر ملوك أذكياء . فهو عصر بابر (Baber) في الهند (١٥٢٠) ، ١٩٧٠) وسلبان القانوني في تركيا (١٥٢٠) ، وكان كل من ليو وفرنسيس يمشي تركز مثل هذا القدر الفسخ من القوة في يد رجل واحد ، الأمر الذي ينفر به انتخاب شارل . وكان للك الآخر الوحيد الذي يبدو في الثامنة عشرة . وقد رشع نفسه هو أيضاً المنسب الإمبراطوري . ويسطيع القارئ في الإعام على المناشط الحيال أن يسل نفسه باستناج المواقب التي كان يحتمل ترتبا على ذلك الانتخاب .

واتسع مجال المنساط الدبلومامي بين هــذا التالوث الملكي . وقد عرج شارل وهو في طريق عودته من أسبانيا إلى ألمانيا على إنجلترة واستطاع أن ينال مساهدة هنرى ضــد فرنسيس بقديمه الرشوة لوزيره الكردينال ولزى. وكلك قام هنرى بمظاهرة عظيمة للمســداقة بينه وبين فرنسيس ، فأدبت بغرنسا الملكوب ، وأقيمت ألماب الفروسية وما إلى ذلك من ضروب الشهامات التي أكل طبها الدهر وشرب ، في تزهة ملكية يعرفها المؤرخون بامم ه ميدان التي أكل طبها الدهر وشرب ، وكالت الفروسية قد أخلت تصبح تصنعاً جملافي القرن الماذس عشر. وما يزال مورخو الألمان يسمون الإمبراطور مكسميليان الأول يامم والمنرسان » با

ويجدر بنا أن نلاحظ أن انتخاب شارل إنما تم يعد بلك قدر عظم من الرَّشَى . وكان أكبر مناصريه ودائنيه ، دار الأعمال الألمانية العظيمة التابعة لأمرة فاجار . ذلك أن المعالجة للواسعة النطاق لشئون المال والاثبان ، وهي التي نسمها ياسم المللية ، ، والتي ولت من الحيساة الأوربية السياسية مع أسيار الإمراطووية الرومانية ، قد أخذ يدب في عروقها آمالك دبيب الفرة . ولا شك أن ظهور ، . اللين كانت ديارهم وقصورهم تنز ما الأباطرة من ديار وقصور ، .



(شكل ١٦٥) أوريا في عهد شارل الماس

يسجل حركة إلى أعلى لقوى جديدة ابتدأت قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة بكاهور في فرنسا وفلورنسا ومدن إيطالية أخرى. وتعود النقود والديون العامة ، والتقلقل الاجماعي والتلمر ، إلى الظهور على مسرحنا الصغير ، في هذه المعالم ، . ولم يكن شارل الحامس إمير اطرراً هابسرجياً قدر ما كان فاجارياً

وظل هذا الشاب الأهقر الذى لا يبدو عليه سياء الذكاء الكثير ، والذى له شفة عليا غليظة وذقن طويل قبيح ، رذحاً من الزمان ألعوبة في أيدى وزرائه للم حد كبير . فإن رجالا مقتدرين طبعوا على غرار ماكبافللى كانوا في البداية برشدونه ويوجهونه في فنون الملكية ، وأساليها ثم أنشأ يظهر ذاتيته بطريقة بطيئة ولكها فعالة وكان أول ما واجهه بألمانيا منذ بداية حكمه الحلافات المربكة الناشبة في المسيحية . فإن الثورة على الحكم البايوى التي لم تقطع متذ أيام هس وويكليف ، قد أجج لهيها من عهد قريب العودة من جديد إلى بيع صكوك الغفران بيعاً تشجلي فيه

الاسبانة والجرأة المفرطة ، وذلك لجمع المال لإنمام كنيسة القديس بطرس في روما .

فإن راهبا اسمه لوثر ، تكرس قسيساً ، وحكف على الكتاب المقدس يقرؤه ،

فلد انزهج أيما انزعاج هند زيارته روما لبعض شئون طائفته لما رآه من خفة البابوية

وبلنحها الدنيوى ، فانهرى في ويتنبرج (١٥١٧) ، ينحى باللائمة على هذه الوسائل

الى ياجاً إليها البابا رافعاً ضدها علم الخصومة شارخاً بعض المباحث الدينية ،
ونشبت تليجة للملك معركة جداية ذات شأن .

وقد خاض لوثر في بادئ الأمر ثلث الحصومة باللغة اللانينية ، ثم انقلب لوقته إلى الألمانية ، وسرحان ما دخل الشعب كله في وطيس الحومة . وألمني شارل هذا النزاع متأجمة عندما عاد من أسبانيا إلى ألمانيا . فدعا إلى حقد (دايت Diet) أى جمعة إمبر اطورية يمدينة ورمس على نهر الراين . واستدعى لوثر إلى مجلس الدايت هذا ، وكان البابا ليو العاشر طلب إليه أن يسحب آراءه فأنى أن يضل ذلك . فحضر إلى الحلمس ، ولكنه و في نفس روح هس تماماً ، أبى أن يسحب أقواله ، إلا أن يقع بخطته بالمناقشة المنطقة أو بسلطان من الكتب المقلمة . ولكن حماته من الأمراء كانوا أقوى من أن يصيبه ما أصاب چون هس .

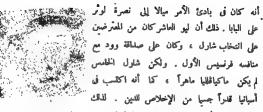


(شكل ١٦٧) فرانسيس ألارل (بريشة تيميان)



(شكل ۱۹۹) الامبراطور شاول الحامي (نصوير تيتيان)

وكان في ذلك موقف محير للإمبر اطور الشاب ، وهناك أسباب تحملنا على الظن



(فكل ١٦٨) مترى الثابن (تصوير هوليون)

وقف ضد لوثر . فانضم إلى المصلح الديني كثير من الأمراء الألمان ويخاصة منتخب سكسونيا . واختفي لوثر عن الأنظار تحت حاية المنتخب السكسوني ، وألني شارل نفسه أمام بدايات الصدح الذي قد ّر له أن يشق المسيحيه إلى معسكرين متناحرين .

وجاه على أثر هذه الاضطرابات ، والراجع أنه كان ذا صلة بها ﴿ حصيانُ واسع الانتشار بن القلاحين في كل أرجاء ألمانيا . على أن هذه الاضطرابات ملأت فؤاد لوثر بالخوف الشديد . إذ هاله ما رأى فيها من إسراف القتل والعنف . ومنا ذلك الحين كف الإصلاح الديني الذي كان يدعو إليه عن آن يكون إصلاحاً بوساطة الشعب وأصبح إصلاحاً بواسطة الأمراء . وذلك أنه فقد ثقته في ذلك و الحكم الحر ، الذي قام يناضل عنه برجولية تامة .

وفي الوقت ذاته أدرك شارل أن إمر اطوريته الضخمة كان يمدق مها خطر عظم جداً من ناحيتها الغربية والشرقية . فكان إلى الغرب منه منافسه الناشطالقوى فرنسيس الأول ، وكان الترك إلى الشرق يحتلون هنفاريا وقد تحالفوا مع فونسيس ، وأخلوا يطالبون صاخبين بموخرات من الحزية على الممتلكات البسوية . وكان جيش أسبانيا وأموالها رهين إشارة شلول ، ولكن كان من أعسر الأمور عليه أن يحصل على أى عون مالى فعال من ألمانيا . وقد أنشأ جـــده جيشاً من المشاة الألمان على الطراز السويسرى ، يغلب عليه الأصول التي يبسطها كتاب ماكياڤللي (فن الحرب، ولكن كان لا بد لهذه الجنود من الأعطيات ، وكان لا يد لمواوده الإسراطورية من أن

تستكمل بقروض بغير ضهانات ، وترتب عليها آخر الأمر أن جرّت نصراء. آل فاجار إلى وهدة الإفلاس .

وجملة القول أن شارل تقد وفق بتحافه مع هنرى الثامن ، لما التظب على فرنسيس الأول والأثراك . وكان معتركهما الرئيسي هو شيال إيطاليا ، واتسمت القيادة في كل من الجانبين بالغباء ، فكان ما يقوم به الطرفان من التقدم والتنقيقر متوققاً في أعظم شأله على وصول الأمداد ، واجتاج الجيش الألماني فرنسا ، وأخفق ، دون الإستيلاء على مرسيليا ، ثم ارتد إلى إيطاليا ، وخسر ميلان ، وحوصر في پاڤيا . وضرب على مرسيليا ، ثم ارتد إلى إيطاليا ، وخسر ميلان ، وحوصر في پاڤيا . وضرب فرنسيس الأول على باڤيا حصاراً طويل الأمد لم يكال بالنجاح ، ثم قطمت السيل عليه قوات ألمانية جديدة وهزمته وجرحته وأخلته أسيراً ، فأرسل إلى زوجته الملكة ببلغها و أنه فقد كل شيء إلا المشرف » ، وعقد صلحاً مهيئاً ثم نقضه يمجرد أن أخلى سراحه – فكأن خلاص الشرف نفسه لم يكن إلا شيئاً وقدياً . ا ! ا . . .

وعند ذلك انضم هنرى الثامن والبابا - هملا منهما بقواعد الاستراتيجيا الماكيا للله الله جانب فرنسا ، لمنع شارل من أن يصل إلى حد بالغ من القوة . أما الجيوش الألمانية في ميلان تحت إمرة كونستابل بوريون ، فإنها لما لم تلسلم أصلياتها ، قامت على روما بغارة كانت فيها أدنى إلى دفع قائدها أمامها منها إلى السبر تحت إمرته . ففتحوا المدينة قسرا وأعملوا فيها انتهاباً (١٩٥٧) . واعتصم البابا يقلمة سان أتجلو بيها كان النهب والقتل يعملان عملهما في الناس . واشترى رحيل القوات الألمانية آخر الأسر بلغم أربعمئة ألف دوقية . ودامت تلك الحروب الحمقاء المربكة عشر سنوات ، بلغم أربعمئة ألف دوقية . ودامت تلك الحروب الحمقاء المربكة عشر سنوات ، فعادت على أوربا كلها بالفقر والحسران وخلفت الإمراطور وفي يده ميلانو. وفي فعادت على أوربا كلها بولونيا ، وكان آخر إمراطور ألماني توجّبة المبابا . ولايسع المرء إلا أن يفكر في ذلك الوجه الأشقر المذى يممل التعبر الموقور تعبير من يشجله فيه من الشفة الطبيطة والذفن الطويل ، والملدى يحمل التعبر الموقور تعبير من يشجله إذاء مراسم مربية وإن جاز أن تكون شريفة .

وفي الوقت ذاته كان الأثراك يشقون طريقهم في بلاد المجر بقوة عظيمة ،

ظهم كانوا هزموا ملك المجر فى (١٥٧٦) وقتلوه ، واستولوا على مدينتي بوداوپست فى (١٥٧٦) ، وكما ذكرنا آنفاً أوشك سليان القانونى أن يستولى على قمينا . وقلق الإمبراطور قلقاً عظيا لهذا التقدم ، وبلك قصارى جهده لصد غائلة الأتراك ، ولكنه لنى أعظم الصعوبة فى حمل الأمراء الألمان على الاتحاد ، حتى وهذا العدو المرعب على أبواجم .

وظل فرنسيس الأول ردحاً من الزمان حاقداً حائقاً ، ثم شبت حرب فرنسية أشرى ، ولكن شارل استطاع في (١٥٣٨) أن يفوز بجمل منافسه على أن يتخذ موقفاً أقرب إلى المودة بإعماله النهب والتخريب في جنوب فرنسا . وعندل عقد قرنسيس أقرب إلى المودة بإعماله النهب والتخريب في جنوب فرنسا . وعندل عقد قرنسيس وشارل بينهما غالفة ضد الأثراك ، ولكن الأمراء البروتستانت ، وهم الأمراء الألمان اللين عقدوا العزم على الانفصال عن روما ، كوّنوا فيا بينهم عصبة على الإمبر اطور ، هى المصبة الشهالكلدية (نسبة إلى مدينة شهالكالمان الصغيرة من أهمال هيس ، المي وضع فها دستور المصبة) ، وبدلا من أن يقوم شارل بحملة لاسترداد المجرائي أحضان المسيحية ، اضطر أن يوجه فكره إلى الكفاح الداخلي الملى أخلت بوادره تتجمع في ألمانيا . بيد أنه لم يشهد من ذلك الكفاح إلا حرب الافتتاح . كان كفاحاً قوامه مناوشات دموية حقاء بين الأمراء ، اللين كانوا يطلبون لأنفسهم الموفعة والمجد ، وكان يندلع ميناً وتدميراً ، ويتعلى آونة إلى المؤامر اتوالديلو، اسيات الدنيئة ، وكان يندلع مليناً بأفاعي السياسات الماكيا لملية الني قدر لما أن تواصل تلوبها حتى صميم القرن التاسع عشر ، وأن تجر الماد والخواب على أوربا الوسطى مرة بعد أخرى .

والظاهر أن الإمراطور لم يدرك قط القوى الحقيقية التي كانت تعمل في هده المتاعب المتجمعة . كان بالفسية لزمانه ومرثبته رجلا طبياً طبية استثنائية ، ويبدو أنه كان يعتقد أن الخلافات الدينية التي كانت تمزق أوريا بدد المل معسكرات متفاتلة ويما هي خلافات دينية حقا . فطفق يجمع الدايت بعد المدايت والمجلس أثر المجلس في محاولاته غير المجدية لإصسلاح ذات البين . ونظرت من جديد قوانين الإيمان والاعترافات . ولا بد لدارس التاريخ الألماني من أن يكب على دراسة تفاصيل

العملح الدينى الذى عقد فى نورمبرج ، والقسوية التى تمت فى دايت راتسبون وصلح أوجز برج وما إليها . ولن نتجاوز هنا حد ذكرها بوصفها تفاصيل فى حياة الهموم والقلق التى كان يحياها ذلك الإمبراطور الفاخو الجليل .

والواقع أن أحداً من هذه الكثرة الكبرة من الأمراء والحكام في أوربا لا يبدو أنه كان يعمل بنية صحيحة وإخلاص. فقد كانت الاضطرابات الدينية الفسيحة الانتشار في المعلم ، ورغبة عامة الناس في المعدق والصلاح الاجهامي، والعلم الآخد في الانتشار في ذلك الزمان ، كانت كل هذه الأشياء تعد في عبلة الأمراء ودبلوماسياتهم مجرد أضداد تناصبهم العداء . وانضم همرى الثامن ملك إنجلترة الذي ابتدأ حياته العملية بكتاب كتبه مناهضاً المرطقة ، والذي كافأه البابا بأن أنم عليه بلقب « حاى الدين » ، إلى جماحة الأمراء المروتستانت في (١٩٠٣) ، لاهمامه يطلاق زوجته الأولى لعقمها ، وشفقاً منه بشاية مرحة اسمها آن بولين ، ولرغبته كذلك في الانقلاب على الإمبراطور والانجياز له فرنسيس الأول ؟ وأن يتهب ثروة الكنيسة الهائلة في إنجلترة . وكانت السويد والذانجارك والنرويج ، انضمت من قبل إلى الجانب البروتستاني .

ونشيت الحرب الدينية الألانية في (١٥٤٦) بعد موت مارتن لموثر يبضعة شهور . وما نحن بماجة إلى الاحمام بأحداث الحملة وتفاصيلها . لقد هزم الجيش البروتستائي السكسوفي هزيمة منكرة في لوشاو . وقبض على فيليب أمير هنر (Hesse) الحصم الأكبر الباقي للإمبراطور بطريقة تقارب نكث العهد ثم سجن ، واستبعد شبح الأبراك بدفع جزية سنوية . وفي (١٥٤٧) مات فرنسيس الأولى فأراح الإمبراطور راحة عظيمة . ولذا فإن شارل وصل في (١٥٤٧) إلى نوع من التسوية ، وقام ببلل التحر جهد لديه الإنشاء سلم حيث لا سلم ولا سلام .

وفى (۱۹۵۲) عسم الحوب كل أرجاء ألمانيا مرة أخرى، ولم يتقد شاول من الأسو إلا هر به سريعاً من إنسبروك، وجاءت معاهدة پاسكو (Passau) فأوجدت ألميلاد توازناً غير مستقر . وكان التهرم بمتاعب وضخامة الإمبراطورية، قد بلغ بنفس شاول شهايته القصوى، فإنه لم تتوفر له في أى يوم من الآيام بلية كاملة المسلامة، وكان بطبعه كسولا متراخياً ، وكان يقامى عظم الآلام من النقرس . فتنحى عن العرش ، ونقل كل حفوقه الملكية في ألمانيا إلى شقيقه فرديناند ، ونتازل عن أسبانيا والأراضى المنخفضة لولده فيليب . ثم تقاعد في أحد الأديرة في يوست وفي قلبه نوع من الحقد المدنى الفاخر ، بين غابات البلوط والقسطل في التلال الواقعة إلى الشهال من وادى التاجه ، وهناك توفي (١٥٥٨) .

ولقد أكثر الكتاب من الكتابة في نغمة عاطفية عن هذا التقاعد ، ذلك الاعتزال للعالم الذي أتجه إليه ذلك الجار المتعبِّ الفاخر ، الذي سُم العالم ، وأنحذ يطلب صلامه مع الله في وحلة تقشف صارم . ولكن تقاعده لم يكنُّ بالمنعزل ولا المتقشف ؛ إذ كان معه ما يقارب المئة والحمسين من الأتباع؛ وكان مُقامه يحوى كل ملذات البلاط دون متاعبه ، وفضلا عن ذلك فإن فيليب الثانى كان ابناً باراً ، نصالح أبيه للديه أوامر واجبة الطاعة . فأما تقشفه وزهده فخبر شاهد علمهما هو بريسكوت حيث يقول : و لا يكاد يوجد في المراسلات اليومية تقريبًا المتبادلة بين تابعيه كويكسادا أوجاز تلو وبين الوزير المقيم في بلد الوليد ، رسالة لا تدور قليلا أوكثيراً حول طعام الإسراطور أو مرضه ٤ . ويلوح طبيعياً ، أن يجيء أحد الأمرين كأتما هو تعليق مستمر على الآخر . ويندر فى التاريخ أن لكون منل هاته الموضوعات قوام مراسلات تليادل مع إدارة الدولة . ولا بدأنه لم يكن من الهين على الوزير أن يحافظ على وقاره أثناء تلاوته الرسائل التي كانت فيها السياسة وفن الطهمي والمائدة مختلطين معاً يمثل تلك الدرجة . وأمر الساعى القادم من بلد الوليد إلى لشبونة أن يعدل طريقه بجيث يمر على بلدة جاراتدلا ، ليحضر المؤن للمائدة الملكية . وكان عليه في أيام الحميس أن يحضر السمك لتقديمه في « يوم الصيام jourmaigre ، الذي يتلوه وكان شارل يرى أن سمك الشُّقط في المنطقة المجاورة صغير جداً ؛ وللماكان من اللازم أن ترسل أسماك أخرى ذات حجم أكبر ، من بلد الوليد . وكانت الأسماك على اختلاف أنواعها "روقة وتلذه ، وكذا كل شيء يقارب السمك في طبيعته وعاداته . ومن ثمة احتلت ثعابين البحر والضفادع وأم الحلول مكماناً علياً في قوائم طعام الإمبراطور وكانت الأسماك

المحقوظة وبخاصة الأنشوجة تلتي منه قيولا كپيراً ؛ وأبلى أسفه لأنه لم يحضرمعه مع الأراضي المنخفضة صنفاً أجود ، وكان مشغوفاً بوجه خاص بفطيرة ثعبان الماء()، .

وحصل شارل فى (١٥٥٤) على مرسوم من البايا يوليوس الثالث، يمتحه إعفاء من العميام، ويسمح له بأن يفعلر فى بكرة العمباح حتى ولوكان ينوى أن يتناول القربان.

8 فأما أن شارل لم يقس مطالقاً وهو في يوست بزة ثبابه ، فأمر يمكن استتاجه من الحقيقة الواقعة ، وهي أن دولاب ثبابه لم يكن يحتوى أقل من ستة عشر ثوياً من الحقيقة الواقعة ، وهي أن دولاب ثبابه لم يكن يحتوى أقل من ستة عشر ثوياً من الحرر والقطيفة المطنة بغرو القاقم أو زغب البط ، أو الشعر النام العنز الدريري? ، فأما أثاث جناحه الحاص وتنجيده و ويجب ألا نعتمد هلى الشائعات المتداولة ها في غير تحفظ و مأد يكم أنها كريكسادا وجاز تلو ، بعيد وفاة سيدهما . فنجد من يبنا أبسطة وسجاجيد من بعلاد الترك وألكاريز (Alcarea) ومنطلات من القطيفة وما ماثلها من أقشة ، وأستاراً من القباش الأسود البديع ، الذي اختزاره منذ وفاة أمه لحجرة نومه الخاصة ، بيها كانت الشقق الأخرى مفروضة بما لا يقل من خسة وعشرين طاقا من الطنافس المعلقة من الطنيعة .

و وإنّا لنجد فيا نجد من الأطباق مجموعة صنعت من اللهب الحالص ، وأخرى ملحوظة بصفة خاصة لغراية صناحها . ولما كان عهده عصراً ارتفع فيه فن صناحة الممادن النفيسة إلى أسمى درج الكمال ، فليس لدينا خلجة شك في أن كثيراً من أبدح الانواع صنعاً كانت ملك عمن الإسراطور . ويتراوح وزن جميع الأطباق بين النمي عشرة ألف أوقية (٤) .

^() فقلا من تغييل ريسكوت على كتاب روبرتسون « تاريخ شارل الحالس » .

⁽٢) المنز البرين . أى المترب بمرامى بلاذ البربر . (المترحم)

⁽٣) الكارز . مدينة بأسبانيا . (اللَّدْجم)

^(؛) نقلا عن تأييل پريسكوت على كتاب دو پرتسون، تاريخ شارل الخاس ؛ . (؛) - معالم)

ولم يكتسب شارل قط عادة القراءة ، واكنه كان يستمع إلى قارى يقرأ عليه أثناء تناوله طعامه على طريقة شركان ، وكان يدلى بما يصفه أحد الرواة بأنه و تطيقات حلوة مماوية » . كالمك كان يسلى نفسه باللعب الفتية وبالاسماع إلى الموسيور أو المواحظ ، وبالالتفات إلى الشئون الإمراطورية التي كانت ما تزال تعوارد عليه ي وجاءت وفاة الإمراطورة ، التي كان متعلقاً بها عظم المعلق ، فحولت ذهنه إلى الملين تحويلا تجلى فيه التعلق به الشاهية والشام ، فكان يتجلله نفوي يلغ عليه أيام الجمعة من الصوم الكير ومعه بقية الرهبان بعزم قوى يبلغ حد استزال اللماء .

وكان من أثر هذه المارسات ومعها انتقرس أن انطاق في نفس شارل حوامل المصب دينى ، كانت تصده عنها حتى ذلك الحين الاعتبارات السياسية ، فاستثار حقه لمل أقصى حد ظهور التعاليم البروتسانتية في المنطقة الحباورة لبلد الوليد . و مر رئيس محاكم التفتيش وعلسه نقلا عنى بأن يتولوا أعملم وأن يعملوا الفأس في جامور الشرقبل أن يستضعل ب . . . و عبر عن شكه في أن لا يكون من المستحسن في مثار الهد المسألة القائمة ، أن يستضى عن عاكم العدالة العادية ، وأن يبطل استهال الشفقة الكيلا تكون أمام المجرم إذا عنى عنه فرصة لتكرار جرمه ، . وضرب المثل مشيداً بطريقة تصرفه في الأراضي المنخفضة ، وحيث أحرق حياً كل من تمسك بخطئه عناداً ،

و اهيام شارل بالجنازات يكاد يكون رمزاً إلى مكانه ودوره فى التاريخ. وكأنى به كان يشعر بالحاجة إلى كتابة كلمة ه انتهى الى ما لا نجاية . فإنه لم يكتف فقط عضور كل جنازة فعلية تقام فى يوست ، بل كان يأمر بإقامة الصلاة على الموقى الغائيين وكان يقم صلاة جنازة كاملة فى يوم الله كرى السنوية لزوجته ، وانتهى بالأمر أن أقام حفلة جنازته .

و فجالت حوائط الكنيسة بالأستار السوداء ، ولم يكد و همج مئات الشموع
 يكني لإزاحة دياجير الظلمات التي أطبقت على المكان ، واجتمع الرهبان في ثيابهم

الديرية ، وكل أتباع الإمراطور ، يرتدون ثباب الحداد القاعة ، حول نعش ضخم ، وقد كسى هو أيضاً بالسواد ، ورفع فى وسط الكنيسة . ثم أقيمت صلاة دفن الموتى ، وارتفعت بين ولولة الرهبان الحزينة أصوات الصلوات لأجل الروح الراحلة ، ابهالا إلى الذات الإلحية أن تنزلها منازل الأبرار . وذابت تفوس الحضور الحزائي أمى ودموعاً ، إذ طاف بهم خيال ممات سيدهم ، أو قل إن أفتدتهم ربحا الحزائي أمى ودموعاً ، إذ طاف بهم خيال ممات سيدهم ، أو قل إن أفتدتهم ربحا أسود ، حاملا فى يده شمعة مضاءة ، يشارك أفراد حاشيته ، ويشهد جنازته ومأتمه ، وانهى الاحتفال الحزين بوضعه الشمعة فى بد القسيس ، رمزاً إلى تسليمه روحه إلى نقوى القادر » .

وتجعل بعض الروايات شارل برتدى كفناً وبرقد فى التابوت ، ثم يبتى فيه وحيا.ً. حتى يغادر الكنيسة آخر المشيعين .

ومات شاول فى مدى شهرين من مهزلته هذه . وماتت بموته عظمة الإمبر اطورية الرومانية المقدسة . حقاً إن الإمبر اطورية الرومانية المقدسة واصلت بعده حياتها بعسر كبير حيى أيام ناپليون ، ولكن بوصفها شيئاً عليلا على فراش الموت . وما نزال تقاليدها غير المدفونة تسم إلى يومنا هذا جونا السياسي .

١٣ ــ (ب) بروتستانت إذا رغب الأمير في ذلك

حلى فرديناند شقيق شارك الخامس لواء الوحدة الذي تخلى عنه أخوه والتقى بالأمراء الألمان في أو جزبرج (١٥٥٥) . وهنالك حدثت محاولة أخرى لإقامة سلام دينى . ولا أدل على روح تلك التسوية ، وعماية الأمراء ورجال السياسة القائمين بها عن أحداث ذلك الزمان الآكثر عمقاً الساماً : ن الموفقة . عن أحداث ذلك الزمان الآكثر عمقاً الساماً : ن الموفقة . يتمرر أن يرجع الاعتراف بنا إن الاين الله الداطنين . إلى الدر لوليس إلى أفراد المواطنين . و المرعية تدبين بلين الملك Casjus regio ejus relicio .

١٣ _ (ح) التيار الفكرى السفلى المضاد

لقد وجهنا ما وجهنا من الالتفات الكبير إلى كتابات ماكياڤللي وإلى شخصية شاول الخامس ، لما يلقيانه من فيض الضياء على خصومات الفترة التالية من تاريخنا : وقد تحدث هذا الفصل بقصة الاتساع الضخم في الآفاق الإنسانية ، والزيادة العظيمة والانتشار الكبر للمعرفة ؛ فرأينا ضمير عامة الناس يستيقظ وشهدنا بوادر تشير إلى ظهور عدالة اجتماعية جديدة أشد عمقاً تنتشر بصورة عامة في كل أرجاء الحضارة الغربية . ولكن إشاعة النور والفكر هاته كانت تغادر البلاط وحياة العالم السياسية دون أن تمسهما بأى تغيير . وقل إن يوجد بين كتابات ماكياڤللي شيء لم يكن ليستطيع أن يكتبه أحد مهرة الوزراء في بلاط كسرى الأول أو شي هوالج تي أُوحْتَى سرجُونَ الأُولُ أَوْ يَبِينِي فَرَعُونَ مَصْرٍ . فعلى حين كان العالم يتقدم إلى الأمام كل شيء آخر ، فإنه كان يقف جامداً لا يتحرك من حيث الفكرات الساسية ، والفكرات المتعلقة بعلاقة الدولة باللمولة وعلاقة الملك بالمواطن ، بل الواقع أنه كان ىرجم القهقرى ، ذلك أن الفكرة العظيمة القائلة بجعل الكنيسة الكاثو ليكية مدينة الرب العانية ، قد دمر بها الكنيسة نفسها فى أذهان الناس ، واتحذ الحايم بالسيادة الإمبر اطورية العالمية ممثلا في شخص شارل الخامس ، شكل دمية ، ومرٌّ من خلال أورباكلها ثم هوى إلى مثواه الأخبر . وبدأ على العالم من الناحية السياسية دلائل الرجوع لل الملكية الشخصية المستبدة ذات الطراز الأشوري أو المقدوني

وليس معنى هذا أن الطاقات الفكرية الخديثة التيقظ في شعوب أوربا الغربية ، كانت من الإسماك في إعادة الشئون اللاهوتية إلى نصابها ، وفي إجراء البحوث العلمية ، وفي الارتياد الاستكشافي والتطور التجارى ، يحيث جعلت القوم لا يستطيعون أن يلقوا بالا إلى مدعيات الحكام ومستولياتهم . إذ لم يقتصر عامة الرجال فقط على أن ينهوا من الكتاب المقتس ، اللاي أصبح في متناول الأيدى ، أشكاراً من نظم الحكم تكون كينوتية (ثيوتراطية) أو جيهورية أو شيوعية الطاج بل ترنب على المودة اللاهودة الخصية الكلاسيكة ، أن عادت روح أغلاطون الخلاقة الخصية إلى دراسة الآخرية في المقتل الغرية .

فأنتج السمير توماس مور عاكاة غريبة و لجمهورية ، أفلاطون هي كتابه والميوتوبيا ، الذي جعل الأساس فيه نوعاً من الشيوعية الاستبدادية . وبعد ذلك يقر ن من الزمان أظهر راهب اسمه كامهاتللا في نابولى ، مثل ما أظهر مور من الحراة بكتابه و مدينة الشمس ، ولكن لم يكن لمثل هاته الأبحاث أي تأثير مباشر في النظم السياسية الجارية : ولو قورن هذان الكتابان بضخامة العمل المرجو مهما ، لبدت فهما غلبة المزمات الشاعرية والمنزال . (ومع هذا فقد قُددً و الموتوبيا ، أن تؤتى تمارها فيا بعد في و قوانن الفتراهات الإنجازية) .

وظل التطور الفكرى والحلق للعقل الغربي وهذا الإنجاه صوب الملكية الما كبا قلماية فى أوربا ، يسيران ردحاً من الزمان جنباً لمل جنب فى نفس العالم ، ولكنهما كمانا يتسايران مستقلين تقريباً . وظل رجال السياسة يديرون الخطط ويقومون بالمعلورات (المناورات) ، كأنما ليس هناك شيء ينمو إلا قوة الملوك الحلوين المعظوظين .

ولم يحدث إلا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أن هلمين التيارين من النزعات ــ تيارا الفكراثالهامة وحركة الدپلوماسية الملكية التقليدية الأنانية ــ تداخلا بعضهما فى بعض واشتجر بينهما النزاع .

⁽١) قوانين الفقراء . للقوانين الحاصة بإعالة المتشردين . (المتحجم

تم الكتاب السابع

ويليه الثامن .

التاريخ الحديث

ه عصر الدول العظمي ،

فهرس أبحدى للكتاب

(1) 471 : 471 : 471 : 374 أدينجتون سيمولاس (ج) ١٠١٩ أياميا هاو أذينة ٤١١ ، ٢٨٧ أعدية ٨٧٨ الآرامين ٥٠٩ ، ٨٨١ إبرامام (إبراميم) ١٩٤ أديات الماد ١٨٨ د ١٨٨ مادها تاويا این رشد گفرطین ۲۰ ۸۹۹ ۸ ۵ ۸۹۹ ، ۲۰۰ 444 c 417 c 411 أبن سينا ٢٠٥ إريان البادس ١١٤ أبريكر ۸۸۷ ، ۲۹۰ ،۸۰۵ ،۸۰۵ ، ۲۰۸ ، أرجون ٩٣٩ * 1 A > 71 A > 774 أيو العياس ٢٢٨ أردشر الأول ١٤٠ ، ٧٤١ أير القضل ٩٥٩ أرسلو ۸۲۸ ، ۸۲۰ ، ۸۹۸ ، ۵۰۸ ۸۹۸ ، الأبيقررية ٢٠٠ 1 . . E . 114 الأرشكية ٢٧٨ أتحاد ملن الملهما ١٠١٦ الأكراك ٢٤٧ ، ٧٧٨ ، ١٨٤ ، ١٩٤٧ ، ١٩٥٠ الأرشكيين البارثية ٧٤٠ الأتراك السلجوقيون ٨٧٦ ، ٩٤١ أرض اليودية ٢٩١٠٦٨٩ ، ٢٩١٠٦٩٧ ، ٣٠٠ الأتراك المُألين ٧٣٩ ، ٩٤١ ألأزفل ٩٢١ AYA : YOU JAYA آرلس ۲۲۹ ، ۲۲۰ VY۰ الأثر التسطوري ٧٦٣ التاسيوس ۲۱۱ ، ۷۲۰ ، ۸۷۰ VA · C VYY E, YY · C Y15 C Y17 أثنا ٧٧٧ الأريوسية ٧١١ أجالتا ١٧٧ الأريوسيين ٧١٧ أجرت ١٥٠ آریستو ۱۰۱۹ أجزرسيس 481 الأزتيك ١٠٣٤ أجليارد ٢٥٨ ء ٨٥٨ء الأزتيكة ١٠٣٢ لپينكورت ١٠١١ الاستحالة ٢٠٠٢ الأحياش ٧٨٧ أستويا ٩٦١ 497 Jul أستيقن ١٧٥ إحياء العلوم ١٠٢١ ، ١٠٢٢ الأسر ١٨٨ 1.19 4.19 أرء تفو ٧٧٧ - الأدب اللاتيني ٢٣٤ أسرة صنيع ٩٧٤. الأدياء ١٧٧ أمرة المالفو ١٤٨ الأدرية ١١٠ الإسكندر الأكبر ٢٠٥ ، ٧١٧، ٧٢٨، ٧٤٠ الأدرون ٢٢٧ 1 - SE C ATT C AAR & AER C VOT "

AYA June 1

آل هاپسپرے ۹۱۲ اسكندر الثالث ٩١١ آل هوهنشتارفن ۹۹۲ إسكتدر ألسادس ١٠٣٩ أل أرسلان ٨٧٧ الاسكندية ٢٧٤٠ ألرتوس ٢٠٠٢ الإسكيليون ٥٥٥ ٤ ٩٧٠ ألدغت دورز ١٠٢٣ (A176 A11 6 A.T 6 A.1 6 YOL 971A) الأليهجالسيان ١٠٧ ٥ ٩٠٧ ATT & ATT & ATT & ATT أَلْشَرِيدُ الْأَكْبِرِ ٢٥٧ ، ٩٧٥ 107 4 470 6 47E ألكسيوس كومنينوس ٧٧٨ الإحميون ١٠٠٠ ٢٠٠٢ ألكرين ٥٠٨ إسرس ۸۰۷ ۰ VYY LILI أسركا ٥٥٠ ء ٨٧٨ ء ١٩٥٧ : ١٩١٩ الألمانية الدنيا والملية (اللغة) ٢٤٨ اسا ۱۱۹ آلهة تيتوى ويابل الأقدمين ٧٥٠ آسية للوسطى ١١٨ ألزاييث ١٠٢٠ ۽ ١٠٢٤ أسيس (دير) ۱۰۷ الكسيوس ٢٧٦ ، ٨٨٠ ، ٨٨٤ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨ الأسينيين ٧٣٠ ALT SWY The L VAF 1.77 154.1 الإصلام النيق ٨٠٠ ٥ ١٩٠ ٥ ١٩٢ ٥ ١٩٩٠ أم قسطنعاين (هياينا) ٧٤٧ AB . الإصلاح آلدين المضاد ١٠٠٩ آمادیس دی جول ۹۹۰ ، ۹۹۲ الاعتقاد الحسى ٢٥٧ إمارات لاتينية ٨٨٠ الاعتقادي ٢١٢ الإمبر اطورية البولالطية ٥٠٩ ، ١١٨ ، ٢٧٨ ، إغناطيوس ليولا ٩٩٤ ، ٩٩٠ ، ٩٩٦ VYA 2 TOA 2 VOA 2 FFA 2FFA 2 والأغلسطيين ٧٧٧ A4. C AVV C AV. الأقار ١٤٠٠ الإمبر اطورية الخوارزمية ٩٢٧ ، ٩٢٧ الإقالين دد٧ د ٧٧٨ إمبر أطورية خيوه ١٢٥ الريقيا ١١٥٨ أفلاطون ۲۶۲ ، ۹۹۹ ، ۲۰۰۱ ، ۹۰۰۶ لإسراطورية الرومالية ٧٢٧ ، ٧٣٧ ، ٧٤٠ . الأفلاطونية الجليفة ٧١٠ ، ٩٩٩ S AV. CATT CARE CAPE C YET أقتيون ١٩٤٤ : ٩٤٧ : ٩٤٧ ، ٩٧٥ 1 - 4 - 5 1 - 7 A - 3 - 5 7 4 4 1 أقيسوس ٢٧١ الإمبر أطورية الرومانية اللاثينية ٢٢٩ الإضاح ٨٣٩ Hami you a need الإنطاعي ٨٧٨ In it care over a very fine إضاع ٢٣١ الصينية ٧٤٧ 1 -- 6 9 - 4 6 1 - 4 7 LATE & ATA & YTO & YTE ATA اکير ۲۵۶ م ۲۵۷ م ۹۹۹ م ۹۹۹ AVY أمبر اطورية القسطنطيلية ٩٤٧ آ ل کومتین ۸۷۳

الكن ١٢٤ ، ٢٩٩

أبريكا ١٠٣٧ أوقسطوس ٧١٧ ، ٨٥٨ إسراطورية الحسيا عهه ، ١٩٧٨ الأمبر ياليين ١٠٢٣ AYA C Ast C VY! CY1 آمرن ۲۲۱ أوليج ٨٧٧ الأمير الأسود ١٠١١ إيراموس ١٠١٩ ألما كومنينا ١٨٨ إيرلندة ٢٧٧ الأتبار ١٦٠ ايز أيلا ١٠٤٤ الأنجل والا AAE James ا بطاليا ۲۷۷ أنملو ه١٨ إيثاث الرابع ٧٥٠ الأنجلوسكسون 474 الإيلمائية ٢٩٧ ، ٩٢٧ ، ٨٤٨ ، ٢٥٢ الأناجيل الأربعة ١٩٠، ١٩٧، ٢٧٠ الإين (الإيسن) معركة ١٤٥ أللدوتيكوس ٩٤٣ إينهجو لوينز دى ريكالدي ١٩٤ الالسيام ١٧٠ الناكية ١٩٤٠ م ١٩٤٠ م ٨٨٤ أتطيوعوس ١٨٨ اليايا ١٩٠٤ مده ١ ١٩٠ الانكشارية ١٩٤٧ ، ١٥٤ البايدية مهم ١ ٢٩٩ ، ١١٤ أنوسلت الثالث ٤٨٩١ ٤٨٩٧ ٤٨٩٧ ، ٩٠٩ ، ger a gen als 4 4 11 E 4 . A . A . V . 4 . V . 4 . E Vog Jele 444 6 414 البارثين ٤٠ ٧ ألوستت الرايم ١٨٩٠ ١٨٩٩ ٩٣٣ البارسيون ۲۵۰ ، ۹۹۱ اليارود ٢٠١٥ ، ١٠١٢ ، ١٠١٢ انكا ١٠٣٠ أمرمان ۲۵۰ ۹۷۹ و۷۹ باریس ۱۰۱۳ أمل الفيال ٧١٨ ياسار ١٠٥١ آوتو ۸۹۹ ياقيا ١٠٤٩ IREG WIA > AVA > +12 الباقارين ٥٥٨ MIL VEA باكثريا ٩٥٣ م العالث ٨٩٧ yea lully بالادير ١٠٢٠ أوجز إرج ١٠٥١ أرجداي ٩٧٩ باسیکی ۷۴۰ أردن ١١٨ بالوكاران (معركة) ١٠١١ أودواكر ١٥٧م يانونيا ٢٣٦ أيرانتزيب ٢٥٦ يانييات ٥٥٠ بايزيد الثافى ٩٤٦ أورمان 117 يين الأرل ١٧٤ أورهليم ۱۹۸ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۲ ، ۱۹۸ ، يين القصير ٢٥٨ ، ٢٥٨ ، ٢٥٨ Y . Y يترارك ١٠١٨ أرزليان ۲۲۱ ، ۲۴۱ اليتشنج ٥٧٥ > ٧٧٨ أوستر اسيا ٥٤٥

اليلوتو قراطية ٧٧٨

بلدوين القلاندري ٨٩٠ البحر المتراط ٨١٨ ٢ ٨١٩ بليساريوس ٧٣٧ عيرة الحليل ٧٠٧ باش ۲۲۸ ALC YAY 3 YAA التادقة ٥ ٢٩ برغرية ٧٧٧ البناقية ١٠٧٩ م ١٠١٧ م ١٠١٧ م ١٠١٧ م **پرتولومیودیاز ۱۰۲۸** بند کت ۷۴۱ ، ۷۲۷ ، ۷۲۷ ، ۷۴۷ يرج جيوتو ١٠١٧ 41 - 6 AYA يرقنايا ١٠١٢ البندكير ٢٢٧ الرغندين ٢٢٦ ATT : ATT : ATE : ATT 3. يرقار الأم الفرنسكي ٩٠٧ براتيه ١٠١١ يرنجل باتيسون ١٠٠٣ WAS CANA SAN يوليثيوس ٨٣٠ 401 - 7A4 day الدر خمالية ٥٠٥ ، ٨٧٨ برتيشلى ١٠٧٢ البروتستانتية ٧٧ ، ٩٨٩ ، ٩٩٢ يررقانس ١٠١٧ 6 444 6 400 6 444 6 440 6 440 13-26 يروكوب العظيم ٩٨٠ YAA البرونز ۲۷۲ البرزية دوم ، ۸۷۸ ، ۱۹۸۶ ، ۹۸۸ ، ۹۵۹ برونیلسکو ۱۰۱۷ بوربون (كونستابل) ۹۰۴۹ بريسترجون ۱۹۸ اليورسلان ٩٥٠ بریسکون ۱۰۵۲ البوصلة ١٠٢٧ بريسكوس ۸۴۸ بوريس ١٧٤ بريطانيا د٧٧ البرصله ١٠٣٧ اریکلیس ۹۱۹ ، ۱۰۱۷ ، ۱۰۲۹ البوشن ٧٧٤ البريطون ه٧٧ يولس ۷۰۱ : ۷۰۷ : ۷۰۹ : ۷۰۸ : ۷۱۹ ، 444 البطالة يجمح يول ١٠٧٤ ٔ بطرس أبيلار د ١٠٠٧ · APA Je و الناسك ١٨٨ ، ١٨٨ 1001 (IT) 1001 بطوطة (اين) ۹۸۱ بوتيقاس ألثامن ١٢٥ يعل ماردوع ٧٢١ AAY MAN بمليك ٧٨٧ بوياردو ١٠١٩ AYO : AYY ship بياستزا ١٨٨ بلاد العرب ٧٨٧ Street south بلاد المودية ١٨٥ ع ٧٨٥ ، ٥٠٠ ٢ ٢٨٨ بيت القبس ٨١٠ البلغار ۷۲۷ ، ۱۹۸ 171 200 بلوتارك ٧١٧ يشتيا ١١٨

ARA 6 YYS ARA

برنظة ٢٢٨ 1.76 272 پار وچيتو ۱۰،۲۳ ينز اربر ١٠٣٤ يكن ١٥٧ بيلاطس ألبتلي ٢٠٧ ، ٢٠٧ (°). تاج عل ۹۹۲ تاعرف ۹۷۹ تاكسلا ٧٧٧ THE YOU S OFF S 1574 S 754 S 354 S STT 4 VYT تانكريد ٨٨٧ تأی تسنیم ۲۲۱، ۷۲۲، ۷۷۲ ، ۹۷۲، ۹۲۳، تايلور ۲۰۰۳ تتيان ٢٠٧٤ التجريث ٢٠٠٦ ، ١٠٠٨ التجرية هددا VAY : YEA : YEO : YEY : YAY ترابهان ۴۰ یا ۸۹۷ یا ۲۸۷ الترسل ۹۲۲ ، ۹۲۷ ، ۹۲۹ 16. E FYY 1 FYN 1 YYN 1 YYP 2 0 FP التركستان ٧٢٧ ، ٢٥٧ التركرفنلندية (اللغة) ٥٧٨ الترويادور ۹۲۰ ، ۱۰۱۷ تساليا ١٠٢٢ تين إن ٧٧١ التشكيل العمثيل ٩١٨ تقو (أبرة) ٧٧٢ التصرير ١٠٢٥ : ١٠٢٢) ٢٠٢٥ و الحداري ۱۱۸ التسينين ۸۸۱ ، ۹۸۱

ألتميينات ٨٧٩

مثيل الطبيعة (فن) ٩١٩

تشوریت ۱۰۲۶ توماس آگویناس ۲۰۰۲ توماس آگویناس ۲۰۰۲ تومریوس جراکوس ۲۰۹ تیمورانی ۲۰۰۱ تیمورانی ۲۰۰۷ تیمورانک ۲۰۹۵ ۲۰۲۲ م ۹۸۲ م

(4)

الخالوث ١٩٢ التفائد المراية ١٢٧ التفائد المراية ٨٩٨ التررة القلاحين م٩٨ المرود اللاحين م٩٨ المودريك الأول ٩٧٠ م٣٠ المودريك الأول ٩٧٢ م٣٩ المودرسيوس الأكبر ٩٧٩ المودرسيوس الأول ٩٧٢ ٩٧٢

ایطا کری ۱۹۸۶ جالیر یوس ۷۱۰ جالیلر جالیل ۲۰۱۷ ، ۱۰۱۰ جاست سالرند ۸۲۹ چان دارگ ۲۰۱۱ ، ۱۰۱۲ چان فان ایک ۲۰۲۱ جبال البر انس ۸۱۸

(ج)

جشيماني ٧٠٣ جراكوس ٩٧٤ جر اندی ۱۰۲۵ جر څوري ۲۲۷ ، ۲۳۵ ، ۲۷۷ ، ۸۵۸ جریجوری (ر . ۱) ۱۰۰۸ ، ۲۳۲ جريجوري الأول الطليم ٩١٠ چرپچوری التاسم ۸۹۲ : ۸۹۸ : ۸۹۹ ، ۵۷۹ القادي مشر ١٩٤ ٥ ٨٤٨ Bally VVA + FVA > 3 PA > 0 PA > 997 6 91 . المزويت ٩٤٨ ة ٩٩٦ جسکتهان ۷۲۷ د ۲۲۶ د ۲۲۷ کم۲۸ ۴۲۸۶ 444 2 444 2 434 2 004 2 704 2 922 جفری شوسر ۲۰۲۰ جلوت ۸۰۰۸ جلجثة ٧٠٢ الحلول ٤٠٤ ء ٢٠٩ المسة الملكة وووو حية يسوع (اليسوميون) ٩٩٤ القبهورية الرومائية ٥٠١ - ٩٠١ - ٩١٦ -1.71 0 30 جلدهارا ٢٢٧ چنکار خان ۹۲۹ ، ۹۲۹ ، ۹۲۹ ، ۹۲۹ ، . 107 . 100 . TEA . 120 . 177 ATT & NOV & NOE 1077 6 1017 6 1017 34 جوثرام ۲۵۸ الحريثا ه ١٩٧٠ م الحوت ٢٢٥ جوتامابوذا ۹۹۱ ، ۷۰۴ ، ۹۰۹ ، ۲۰۹ جوڙير ۾ ٧٨٠ جودقري البريوق ١٨٨ الحولهادي ١٠١٩

چون ۸۹۰ ۱۰۲۸ ت جون أدينجتون سيمونلس ١٠١٨ جون بال ۹۸۳ ، ۱۸۶ جون القورنسية. ٩٢٠ جون الياني ه٨٥ 449 6 44A 6 910 mm 2 --چوپسکارد ۸۸۷ TA 6 VET C VYY C VIA C VIO DELLE 15A 1 55A 1 3VA 1 0AA 1 15A جيزوم البراجي ٩٧٩ چيس الأرل ۲۰۰۸ جيش الخلاص ٩٩١ جيان (شاء) ١٦٢ جيهان جير ١٥٦ جهرتو ۱۰۲۲ (5) المبر النظم ٢٢٤ VYY TALL سرب سليبية (التار حلة) ٩٧٩ د ٩٧٩ القرب السليبية الأول ٨٨٩ AA4 BELLE PAA السايعة ١٩٨ الحروب الصليبية ٨٨١ / ٨٩٣ / ١٠١٢ حروب القلامين ٩٨٣ سرب آلورديون ١٠٢٢ - ١٠٢٠ المركة الافتراكية ٩٨١ الحسن بن على ١١٦ الحسن ٨١٦ المشاء اللميس وه و ع ٢ ه و ٢ م ٩ م الحقيارة (الظر مالية) ٧٩٦ حضارة بيرور ٢٠٣٣ حكومة ديلية ٨٧٨ و مالية ٢٠١٠ د ١٠١

الحكم للإسلاق ١٠٣٨

ألولة الصليبية المعرية ١٧٤ **410 Jan** الدولة الرومانية ١٤٧٠ حلة صليبة ٨٨٨ الولة الرومائية للقلمة ١٠٤٧ الحملة العملينية الأولى ١٨٨٤ ، ٨٨٨ الدرلة السلجرقية ٢٧٧ و الرابعة ١٩٨٠ الدرئة البصرية ٩٦٧ ه ٩٧٤ اللاسة ١٩٨ دومازليك (سركة) ٩٨٠ السادسة ٨٩١ درميليك الأسهاني ٧٠٠ ، ٨٠٥ ، ٥٠٩ لثمية ٢٨٨ الدرمينيكين ٨٠٨ ، ٩٠٩ حلة سليبة للأطفال ٨٩٠ درن کیشوت ۹۹۰ ، ۱۰۷۱ ديكيوس ۲۱۴ (3) دعوقر اطية ٢٧٠ شالد ه ۱۸ م ۸۰۸ (i) عدجة ٧٩٨ المزر ٥٧٨ قبع البيد ٧٧٧ اللزث ۹۵۰ ، ۷۷۳ الذكاء الطليق ١٩٨٨ الخلافة الفاطسة ٢٦٨ خلقدون ۲۷۱ (5) الميعان ١٩٢٤ ، ١٩٧٩ رابيليه ٢٠٢١ راقاييل ١٠٢٠ (3) رأسزالنت ۱۰۲۵ ، ۲۰۲۵ aty a Avy i pla ر أتسبون ١٠٥١ دللاشا ٢٧٧ TAA 43 دانق المهجري ١٠١٧ ربرية تيمر ٧١٢ الدراما ١٠٧٠ ومتم ۸۰۹ : ۸۰۹ درغونه ١٠١٦ رستشانو ۹۳۸ ، ۹۳۸ الرق ۲۰۷ الدردتيل ، يه الرهبان الترمينيكين ١٠٢٥ دقلدیانوس ۷۱۳ ، ۷۱۹ ، ۷۱۷ ، ۸۱۸ الرضان السود ٩٩٣ VY1 4 V15 الرهبان الفرنسكيون ١٠٣١ دلي وه و ألرهيئة ٢٣٠ دىشق ۱۹۹ روبرت پروس ۱۰۱۱ دمياط ١٩٨ رویرت جویسکارد ۹۹۱ ، ۹۹۱ دنزسکوتوس ۲۰۰۲ ، ۲۰۰۴ دویاز ۲۰۲۱ دوحماتية (انظر امتقاد) ۹۰۷ روج الأول ١٩٧٨ دررائه ۲۷۷ روجر باكون ه ٠٠٠ ، ٢٠٠٧ ، ١٠١٠ ، ٢٠١١ اللولة ٢٠٥١ روس القدس ٧٧٣

السكسونية (الأسرة ٨٧٧ سكسوليون ١٤٨ الطبرتية (الشيرة) ٨٧٨ السلاجقة ... مليوق ٢٧٨ ، ٨٨٨ ، 461 4 AAE البلاف (انظر صقالية) ٧٤٠ السائي (الماهب) ٧١٢ الطوقيين ١٨٧ سليم ٩٤٦ : ٩٤٧ سليمان (اين حيد الملك) ٨١٢ ملهمام بن الوليد ٨١٩ الماث القانوني لايه ، وورو ، وورو 400 6 406 325 200 منبوق ۲۰۲۴ السنيون ٨١٥ مولسون ١٤٥ مو بوقای ۳۰ مولوليوس ٧١٧ مودران، ۱۰۲۹ تا ۱۰۱۱ YAV HOLD السولترى ١٠٣٣ 404 + 444 men السربرية (الطاقة) ١٠٣٤ سرى (أسرة) ٧٩٠ 1 - 24 1 , 14 2 1 السويسرى (الاتماد) ۲۰۶۲ السويق ٢٢٦ سیان قو ۲۷۹ سيرايس ۱۸ ، ۹ ، ۹ ، ۹ ، ۲۲۹ ، ۲۲ ميزاد يورجيا ١٠٢٩ ، ١٠٤٠ ميمايير ١٠٢٢ (10)

شاءول الطرسوسي ه. ي

رودولف المايسيرجي ٩١٧ ، ١٠٤٣ دوريك ۲۷۷ رولف ۲۵۸ رولف المداء 201 TAA Lees TAV DILE JA الرومالس و ١٠ الرومانسكي (القن) ٨٦١ الرومانشية (الغة) 334 ريتشارد ٨٨٨ ريتشارد العاني عمه (;) زر ادشت ۲۹۱ ، ۷۰۰ ، ۲۰۱ الزرادفتية ٠٥٠ ١ ٥٧ ، ٢٠١ ٨٠٠٨ الزرامة ٢٧٨ زرواستر (انظر زرادشت) ۲۵۰ الزلد ألمينا وها زوسيموس ٧١٧ 949 563 (0) سايور الأول ٢٤١ ، ١٥٨ الساسالية ١٤٠ ، ٢٢٨ الساسائيين ، ٧٤ سائرتو ۲۰۰ الماليانية (الأسرة) ٨٩٧ السامية ٢٨١ الساميون ٩٧٣ ميلس ١٠٢٠ السبيلية ٧١١ سرجون الأول ١١٧ ، ١٥،٠ سرفالتيز ٩٦٦ ، ١٠٢١ السكسون و٢٧٠ ٥٥٨

سور ۱۸۸ شارل الثاني ١٠٠٩ صوفيا عهه شارل الخامس و ۹۹ ، ۹۹۶ ، ۱۰۱۲ ۱۰۶۶ ALL YOU : YOU DING 1 - EA 4 1 - EV 4 1 - EV 4 1 - ED P1 - 1 - 70012 14 - 1 2 0 0 - 12 / 4 - 1 (ض) شارل دیکنز ۱۰۱۶ شارل السايم ١٠١٢ الضفيرة ١٩٤٩ شارل ماركل ۸۹۸ شامانیه ۹۳۳ ، ۱ ه ۹ (4) شاني (أسرة) ٢٠٢ فاه جمال ۲۵۹ طامون ۱۸۹ الشرقيين ٧٧٦ الطب ١٣١ شر لمات ۲۰۱۰ ، ۲۲۷ ، ۲۸۹۹ ، ۸۵۰ ، ۲۰۸ ، HALLS YYA : YAP : AAP : APP : ATO P 70A 2 30A 2 00A 2 76A 2 VeA 2 الظراز البزنطي ١٧٥ الطراز القوطي ٩٦٦ ، ١٠١٤ 4 44A 4 4FF 4 41Y 4 51+ 4 ATE الطوائث ٧٧٧ 1 . at 4 1 . 22 4 4 4 4 4 4 1 . الطوراتين ٨٧٠ الغموب التركية ٨٦٩ طيبريوس الثاني ٧٠٧ الثمرب المبجية ٤٧٧ طيريوس قيصر ١٨٩ شكسير ١٠٢٠ ، ١٠٢١ الكالدن ١٠٥٠. (8) الثبب ١٩٢ مالشة ١٨١٤ مالم شورتز ۸۰۲ المالم السيحي ٢٢٥ - ١١٩ شوسر ۹۰۲۱ عالم السيحية ٧٢٧ ۽ ٩٠٩ الشيعة ١٥٥ م ٢٢٨ عالم السيحية التربية ١٧٥ في هولِج أي ١٠٥١ الماهل ٩٦٩ ألمياس ٨٧١ (m) المياميون ٢٢٨ ء ٨٦٩ ميد اللك ١١٩ الصدع الكير ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٧٨ المير اليون ٧٨١ ألضارتيون ٩٨٩ 410 CA18 CA17 0 CA المبندية ٣٥٧ المرب ۲۲۴ : ۲۲۰ ، ۲۲۰ ، ۲۷۸ ألستالية ١٠٤٠ ، ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٥٨ العصر الحجرى الحديث ٩١٩ ء ٢٠٣٢ الصقليتان ١٠٤٤ النصر الحجر القدم ٢٠٢٢ صكوك النفران ٥٠٥ ٤ ٢٠٤٦ المصر الروماليي ١٦٩ صلام ألدين ٨٨٩ ، ٩٢٣ مصر الولايات العثر ١٧٤ السليب ۲۶۲ ، ۲۶۳ ، ۲۹۸ المقيدة النيقية ٢٧٠ السليبين ٨٢٧ المسلم ۹۹۷ علم العلم ۸۷۸ 444 6 471 6 474 6 415 ----

4 417 5-411 6 4-4 6 411 c 4.. AL ANY : BIA : VIA : YAA 4 484 4 490 4 480 6 484 4 411 المارة ٨٦١ ء ١٠٢٥ ASY CASTCASE CARRESTON قردريك الثالث ١٠٤٤ 900 360 قردريك مارجريف برانتجرج ٩٧٩ 41Y capeall قرديناند الأرجواني ١٠٢٩ - ١٠٤٤ - ١٠٥٢ ع A 19 34.00 عهي (پيرج) ۲۰۷، به ۱۹۲،۲۹۲،۲۹۲،۱۹۲، 1 . . . الدرغية ٢٧٧ ، ٨٣٩ ، ٨٨٥ VIT . VII . VI. . V.T . V.E الفرنجة البورخنتين ٨٤٩ 1. Y . 4. . . 4. . . 4. Y لرئسین ۹۰۷ د ۹۰۹ د ۱۰۶۴ ۲ ۵ ۱۰۴۹ فرتبيس الأول ١٠٤٨ ، ١٠٤٩) ١٠٥٠ ، البيلامين ٩٢٣ 1401 (3) قرئسيس الأسيس ١٩٠١ ، ٩٩٠ فرنسيس ياكرن ١٠٠٨ العال ٢٢٦ الفرنسيسكانية ٩٠١ النجر ۹۹۲ ء ۹۹۳ الفرنسيسكاتيون (الفرنسيسكيون) ٩٠٩١٩٠٨ ، ٩٧٠ القريميان ٧٧٦ 1 . 74 264 4 تريدريو الطم ٩٠٠ غليوم الثاق ٨٥٨ لقريسيون ١٨٨ قليوم دی لوجاريه ۹۱۲ يربيا (الربة) ٨٤٧ عالاليل ٢٠١ فسازيان ١٨٨ (2) قىيتساء « ۷۲ الفطئة الحرة ٩٦٩ فاتيبو سيكرى ٩٥٩ النلاسنة ٢٤٧ 1-69 4 1-60 1-15 الاقيوس يوسي غارس ۲۲۷ الناك ٢٧٨ القرنجيان ٨٧٢ قاسكودا چاما ۱۰۲۱ ، ۱۰۲۰ ۱۰۳۱ قلمتج ١١٠ فاطبة ١١٨ ظور نسا ۱۲ ه و ۲۰ ۱۷ ه و آلنن (تنون) ۲۰۱۰ ۲۰۱۱ ۸ ۲۰۱۹ ۲ ۷۷۱ ۲ الفاطبيون ٢٨٨ ء ١٨٨ قالريان ٢٤١ 1.44 . 1.41 . 412 . 441 . 444 فترونيوس ١٠٢١ الغن البوذي ٩٦٢ فرانكفورت ١٠١٤ نن التشكيل ٩١٩ فرا أنجليكو دانيسول ١٠٢٢ القن التحقيل ٢٠٢٢ قردريك الأول ١٨٨٩ ٥٠٠١ الفن الرومانسكي. ١٠٢١ ، ١٠٢١ قردريك بربروسا ١٩١٧ ، ٩٠٠ ، ٩١١ الذن السيئي ٩٤٩ قردريك الثانى ۸۹۷ ، ۸۹۱ ، ۸۹۱ ، ۸۹۷ ،

قسطنطين الأكبر ٧١٧ د ٧١٧ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، القن المرق ٨٣٣ 174 - 474 - 474 - 444 - 444 - 471 فن المارة ١٠١٣ التسلطينية ١٩١٩ : ٩٧١ : ٩٧١ و ٧٢٠ قن النيارة الإسلام ٨٦٢ . A.V . YES . YES . YES . YES الفن القوطي ٩١٧ ، ١٠٣١ ، ١٠٢٢ TIA > AIA - AIA - AIA - AIA - AIT الفن الخليف ١٨٢٤ 6 1 - 17 6 481 > 48+ 6 484 6 48A الفن الحندي ٩٦١ 1-74 - 1-73 401 414 A فقطالة ١٠٢٧ الفنوراد ٧٦١ قصر اللاتيران ٨٩٨ ، ٨٧٨ ، ٩٠٤ ، ٩٠٤ فنون اليونان ٧٤٦ القطالونيين ١٠٢٨ V11 6 V11 36 کتب ۱۹۲۵ فوستا ٧١٧ تطينا ۹۲۲ ، ٥٥ القلس ق ده و قبروشيو ١٠٢٥ قو لای خان ۹۴۱ ، ۲۴ تبريولام ١٩٢ C REV C RYR > RYV C RYT C R'O قيقي ٥٥٩ 4V+ L 4EA الايك أنبز ١ ٥٨ ، ٧٧٧ قورش ۱۹۱۷ ، ۵۰ فيلا سكويز ١٠٢١ القرزاق ١٥١ ليليب ١٠٥٤ ، ١٠٥١ ، ٢٠٥٢ القرط ۲۲۷ ، ۲۲۷ ، ۲۳۹ ، ۲۷۹ 1: TF July July ألقوط ألتربيان ٢٧ ، ٨٣ 1-19 000 القومية ١٩٨ Y.Y ULS (0) التيمر الرب ٧١٧ (4) القانون الدانيمركي ٢٥٨ قاليقرط ٢٠٣٠ الكائدرائيات ١١٦ A. O VA1 4 VES SLE الكاثارين ١٠٤ القيماق ٧٣٢ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٤ 41. 4 444 will قيدرقية ١٩٨ الكاثوليكية ٩٦٧ ، ٩٧٧ القدس ٤٢٤ کار ای ۷۴۰ القديس بطرس ٩١٣ الكارارفتيين ١٨٥ القديس لويس ٨٩٣ كاريا هغلا القرآن ١٢٠ ١٢١٨ کاسپوددراس ۲۲۴ ، ۸۲۸ ، ۲۳۸ طاجنة ١٠٢٧،١٨ كاكستن ۹۸۷ قرطبة ٨٢٩ ، ٨٣٥ کامالوك ۹۲۷ ، ۹۱۰ قره قورم ۹۵۷

كاماتللا ١٠٥٧

(the - Ye)

قریش ۷۸۹ م

کور تیز ۱۰۳۱ ، ۱۰۳۰

كامونس ١٠٢١ كوستر ٩٨٧ کائٹربری ۸۶۸ ک شان ه ۷۰ کوکای تشیه ۷۷۲ كانوسا ١٠٩ الكولوزيوم ٥٣٠ كانوت الأكبر ٢٧١ كولميس (خرستوف) ۱۰۲۸ ، ۱۰۳۰ ، ۱۰۹۶ کانیشکا ۲۰۰ ۱ ۸۷۸ کرمایس ه ۱۷ الكاهن ٩٦٨ كونراد التالث ٨٨٨ کیار ۱۰۰۷ كوثراد الثاق ٨٦٧ الكتابة ۲۲۷ ، ۲۲۹ ، ۲۷۷ كولستاس ٩١٠ ، ٩١٥ کراسوس ۲۴۰ ، ۸۰۷ كوتفوشوس ١٩٩ ، ٧٤٧ ، ٥٥٧ AVE : AOY = 3YA الكيماريون ٢٠٠١ کیف ۹۲۸ ، ۹۲۹ كرومويل ١٠٤١ 1011 my (0) VIV کریسیوس VIV الارتران ٥٠١ ، ٨٧٩ ، ٨٠١ ، ٢٤٩ ، ٢١٨ كسرى الأول ۲۴۲ ، ۲۰۵۹ لاس كاساس ١٠٣٥ كبرى الثانى ٢٤٢ ، ٨٨١ ، ٥٠٨ ، ٢٤٨ لاهوتس ۲۹۹ ، ۲۹۰ ، ۲۹۹ ، ۲۹۹ الكعية ٢٨٧ النات الألمانية ٢٤٨ الكلت ٢١٨ ألغات المسقلية ٢٧٦ الكلدانيون ٢٨٧ التركونسندية ه٧٨ كلينت الخامس ٩١٤ كلمئت السايع 418 1-12 6 1-17 044 کلیرمولت ۲۸۰ لوتز د ۸۸۰ الكان ٢١ 1 - EA + 1 - EV + 1 - Y - 1 - E الکن ۲۲۱ ، ۸۲۸ الرحة المبورة ٩١٨ الكنيسة ۲۲۷ ، ۱۹۸۵ ، ۱۹۸۹ ، ۲۰۴ ، ۲۰۴ أأوسادة ٢٠٢١ . 414 . 414 . 411 . 414 . 4.4 " لوشاء ١٠٥١ . 441 . 447 . 44. . 4A4 . 4Ye الوميارد ۷۲۷ ، ۷۲۳ ، ۲۳۹ 1 . TA & 44V LEW TAS SER S ARR S STP الكنيسة الأرثوذكسية ٧٧٣ لویس الحادی عشر ۱۰۱۱ الإنجليزية ١٩٩١ ليبالتو (معركة) ٩٩٦ ، ١٠٢٧ التربية ٧٢٧ ليجاز (معركة) ٩٢٩ ، ١٧٩ الكاثوليكية ١٠٥٢ ، ٢٠٥١ ليكيا ١١٨ كهنوتية ٧٢٠ ليو الإيسودي ١٩٨ کوپرٹیکوس ۱۰۰۷ ليد الثالث ٢٥٨ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ١٩٠

ایو الباشر ۱۰۵۸ تا ۱۰۵۸ تا ۱۰۵۸

ليوقبوك ١٥٠٩ أقيلس الإمبر اطوري ووو ليرتاردو دا گئش ٢٠٠٧ ۽ ١٠٢٣ محلس بال ٩٨٠ ليويو ٧٦١ ه ترثت ۹۹۷ ه شيوخ (سناتو) ۷۱۸ (0) 2 (کشی مالی) ۲۲۰ « كوتىتالس ٩٧٨ مأجلان ١٠٢١ مسم بازل ۱۹۹ ماجتوس ۲۰۰۲ مجسم نيقيا ٧٢١ مارتن الخامس ۹۱۰ ، ۹۱۸ ، ۹۷۸ ، ۹۷۹ أفيوس ١٠١ ٤ ٢٠٨ مارتن لوثر ۹۹۲ ، ۱۰۵۱ عاكاة الطبيعة (التشكيل التعثيل) ١٩ مارك سايكس ٧٤٣ ، ٢٧٨ عاكم التفتيش ودو ، ووو ، ووو ، ووو مارکر پرلو ه ۹۹ ، ۹۷۹ ، ۸۹۹ ، ۹۶۰ ، عكة التفتيش البابرية ٨٠٨ L+85 4 1+YA عمد (صل الله طبه وسنق) ۹۹۰ ، ۷۰۰ ، ما كيافل ١٠٢٧ م ١٠٢٨ م ١٠٢١ م ١٠٤٠ PRY 2 TEY 2 TAY 2 TAY 2 PAY 2 1 . a 2 4 1 . E 2 4 1 . E 7 4 1 . E 1 6 A10 6 A17 6 A+2 6 A+1 6 V4+ ماتتيا ١٠٧٢ FIA - AYA - AYY - AY- - AIT مالكو خان ١٣١ ، ١٣٤ Ask المالدين ۲۲۸ ، ۲۲۹ ، ۲۷۱ عبد (ألفاتع) مع ١٠٤١ (الفاتع مالای ۱۹۲۷ مالزیکوت (معرکة) ۸۷۷ عبد بن موسی ۲۳۰ المانشو (أسرة) ١٩٨ عبد الثاني ١٩٤١ مان ۱ ه ۷ ۲ ۲ ۲ ۸ ۱ ۱ ۹۰۶ القالفون ٩٩٣ للاله ١٥٧ ء ٢٠٨ الخط طات ١٦٤ الماتويان ۲۲۲ UNITE YET YET STALL للبعوثون المائويون ٢٥٣ المدرسانيون (الطاء) ١٠٠٧، ١٩٩٩ المترحلة (الشموب) ۹۲۹ ، ۹۲۹ 1-17 041 39. المهشون ۱۰۴۱ مقراس ۲۹۳ المدنية الصيلية ٧٧١ المرائية ٢٠١ ، ٧٠٨ ، ١٥٧ 4A7 :440 : 414 : 407 : 44. 224 الحالدن ۲۰۷ ، ۲۱۳ للبيئة ١٨٧ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ١٨٨ ، ١٨٨ 1 - 14 - 1 - 1T - AT-عجسم للمزمة والإدادة ٩٩٧ مدينة الرب ٩١١ ، ٢٠٥١ • و العقيدة والطاعة ٧٦٧ ، ١٧٨ مديئة الشس ١٠٥٧ عِصمات الإرادة ٩٩٩ عـ ٩٧٧ ه ٩٧٩ مدينة أقد ١٠١ مجتمات الطاعة ووو المديون ٧٢٧ مؤهب الإحميين هددو

المذهب الاعتقادي (الحسي) ٩٠٧ ، ٩٠٢ ، أ ميخائيل سكوت ٩٩٩ مهایتش ۱۰۱۷ و ۱۰۲۹ 1 - + A . 1 - + 0 للبر وقنجين ١٤٨ إلملهب الراتبي ه٠٠٠ للزوزو ٩٦٧ 48Y also ميشيل أنجلو ١٠٢٥،١٠٧٤،١٠٢٠ مرتمن ۹۹۰ سکلا جارد ۸۰۲ 4.9 00 مهير اجرلا ه ه٧ الزدكية ۲۰۲ ، ۸۰۳ يسيا ه٠٧ (0) المهم ٥٠٧٠ LATE CALL CALL CALL CALL نايليون الأول ١٠٥٠ ، ٥٥٠١ الناصريون (الناصري) ٧٠٦ AVE 6 STO C AOT C AD. YYY LUYU السيحين ٨٢٠ النبط ٢٤٧ 144 النحت (انظر ان) ۱۰۲۵ مماء عة ١٨٨٨ تخاو ۱۰۲۷ مسركة الإيسن ١٨٥٠ التناطرة ١٢٨ ع ٢٩٠ ATT CATE JULI اللمطورية ٧٤١ ة ٩٧٤ القتر ٨٧٣ التبطوريان ۷۲۲ ، ۹۳۸ مكابين ١٨٨ لظام الإقطاع ٢٧٨ AT . & ATE & YAT 35. لظام الانتسان ٧٦٩ مكسميليان ١٠٤٤ نظام تعليمي ٩٩١ ملتون ١٠٢٠ نظام الشرائث ٢١٩ 944 ISL نقنرر ۲۰۹ الماليك ١٥٤ التقرد ٥٩٧ علكة الساء ١٩٢ ، ١٩٤ منير (أسرة) ١٩٤٤ ، ٢٧٩ ، ٩٣٥ ، ٩٤٨ ، 4 17 deplet للتورمان ١٠٢٨ 401 6454 التورمالفيين ٢٧٨ ، ٧٧٨ ، ٤٨٨ المصور ١٢٣٨ موالي أرش ۱۹۷۹ م ۹۸۳ م ۹۸۳ م ۹۸۳ لورمزي ١٠٥١ البقة ٢٠٢١ الموت الأسود ٩٨١ توستريا ۸۶۳ ، ۸۴۵ مونت (مدينة) ٩٧٩ الموسيق ٢٣٦ ، ٩١٩ توقيرورد الكري ١٠١٣ ، ١٧٨ ، ١٠١٣ ، مولكز وما ١٠٧٤ 1:13 مولتان ١٠١٩ 471 . V.V . 5330 مونتي كاسينو ٢٣١ نيقولاس للبرى ١٩٩ **۷۱۹ - ۷۱۸ - ۷۱۶** کور میڈیا ۲۱۶ - ۷۱۸ مرهاكس ١٤٧ نيقية (أنظر مجسم). سيخاكيل باليولوجوس ١١٤ VIF . YI. 450 ه آلسايم ۸۷۷

نیو تن ۱۰۰۸ هرپارت ۲۰۲۲ مولا کو ۹۳۱ ، ۹۲۲ ، ۹۲۲ ، ۹۳۹ ، ۹۵۳ ۵ (A) . SAY & SAE هرمايون ۱۹۶ هایسبری ۸۲۸ ، ۲۰۱۳ ، ۱۰۶۶ 479 ألمون 479 هادریان ۲۳۰ هون أتيار ه ه ٧ هارق ۲۰۰۹ هارون آلرشید ۲۲۳ ، ۲۲۸ ، ۸۲۱ هو توريوس الثالث ٨٩٨ هوهاشتار قن ۸۱۸ ، ۱۰۱۲ و ۲۰۱۲ و ۱۰۶ هاری چونستون ۱۰۲۷ ALC VOY & YOU & TAN هير وهوت ۸۳۸ تا ۷۷۶ د ۸۰۸ هافتر هوليهن ٢٠٧٤ المانسا ۱۰۲۷ ، ۱۰۳۱ ، ۱۰۲۷ اسالما الميرودين ۱۸۸ ، ۱۹۷ مالم ۲۰۲۷ الميروديين المهلتين ١٩٧ هالاس ۱۸۸ المجرة ١٩٩٠ ، ١٩٩ A41 c VIV 4Na المراطقة ٢٠٠ عيلينا ٢٤٧ المرطقة ٧١٢ هوكابيت ١٠١١ 4.4 . 444 . 454 . 454 . 444 . 444 . 443 6 A5+ () هرمز ۷۰۱ تا ۷۵۱ تا ۷۳۷ 1+27 6 1+27 pm وات تيار ١٨٤ 991 ألمسيون الرائمون ١٠٠٠ و ٢٠٠٢ مشام (این) ۲۶۹ والتوعية عاديه المكسوس ٧٨١ الوائدوتيون عده طديران ۸۷۹ ، ۹۱۰ وباه ۲۲۹ المليلية ١٨٧ الرثلين ٢٠٨ الحبجية ه ٧٧ الحند ٧٧٧ Res 774 - 746 - 746 - 774 f ومصليةر ١٠١٦ الهندر إسكيديين ٧٤٠ ، ٧٥٥ ولزی ۱۰٤٥ المندوس وهو AYS CASS AYA الهندركية هه٧ متری الثانق ۲۰۱۰ و ۱۹۰۹، ۱۹۰۹، ۱۹۰۹، وليم ۸۷۱ وليم ثل ١٠٤٣ متری المامس ۱۰۱۱ وليم والاس ٢٠١١ متری الزایم ۱۱۰ AAA AL مترى السادس ٨٨٧ ویسهی ۱۰۱۳ هنر السايم ١٠٢٩ ديکلف ۹۰۹ ، ۹۱۶ ، ۹۱۶ ، ۹۷۷ ، ۹۷۸ عزى المسيآد ٨٩٧ ، ٨٧٤ 1+81 (44)

(3)

یائج تشر ۹۳۹ یثرب ۷۸۷ ، ۷۸۹ البرمراک ۷۸۸

یسوع (عیسی) الناسری ۱۸۵ ، ۱۸۹ ، ۱۹۹۶ ۸۰۲ : ۷۰۶

اليسوميون ه ١٩٠٤ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠١ ، ١٩٩١ ، ٢٩٩

الیوتوپیا ۱۰۵۷ یلیویشوتزای ۹۲۸ الیس ۷۹۲

پهود ۷۹۶ ، ۸۲۰ ، ۹۷۲ پهود آسیانیا ۸۳۷

عود التفتت ۱۸۸

البردی ۸۲۸ البردیة (ق أرض أو یلاد البردیة) پران ۱۹۷۳ - ۱۹۳۵ - ۱۹۶۹ پران تشرانج ۹۷۷ - ۹۷۷ - ۹۷۷ - ۹۲۸ - ۹۲۸ پرانشرانج ۹۷۷ - ۹۷۷ ، ۹۷۷ و ۹۸۸ - ۹۲۸ پرستا

> یرحنا الثانی مشر ۸۲۰ ، ۸۷۸ ، ۹۱۰ یوحنا الحادی مشر ۸۲۵ ، ۹۱۰ یوحنا العاشر ۸۲۵

> > يوميقوس ٢٧٦ يوفوسائق ٢٤٠ اليويفور ٢٧٦ يوليوس الطائك ١٠٨٢ يوليوس قيصر ٨٤٩

پوسيوس ۲۱۹

التعريف بالمترجم

هو عبد العزيز محمد توفيق عزيز جاويد .

ولد بالقاهرة سنة ١٩٠٧ : وحصل على ليسانس في التربية والآداب من المعلمين العليا (١٩٢٩) ، واشتغل بالتدريس ، حتى رقى وكيلا لمدرسة مصر الجديدة الثانوية (١٩٥٩) ، فدراً للمركز الرئيسي للتدريب بوزارة الثربية والتعلم (١٩٦٣) . وشغف منذ حدائته بالثقافة وآداب العربية والإنجليزية والفرنسية . واهم بنوع خاص بالترجة ، فنقل الكتب الثالية إلى العربية 1

(أولا) فى التاريخ وفلسفة التاريخ :

- ١ ومعالم تاريخ الإنسانية ١ ه . ج . ولز ـ (بلحنة التأليف)
- ٧ • موجز تاريخ العالم [الألف كتاب] ه . ج . واز _ (مكتبة النهضة)
- ٣ ٥ أعلام وأفكار ٥ للمؤرخ الهولندى هويزنجا (الهيئة المصرية العامية)
- 2 و التاريخ وكيف يفسرونه ، ألبان ويدچرى (الهيئة المصرية العامية)

(ثانياً) في تاريخ الحضارات :

- الأسلام ؛ [الألف كتاب] لجوستاف فون جرونيباوم .
 (مكتبة مصر)
- ٣ ـ و الحضارة البيزنطية ، [الألف كتاب] رنسيان . (مكتبة النهضة)
- ٧ د الحضارة الهاينستية ، [الألف كتاب] تارنّ . . . ر مكتبة الأنجلو)
- ٨ • ميلاد العصور الوسطى، [الألف كتاب] موص . . (عالم الكتب)
- ٩ ... و اضمحلال العصور الوسطى ؛ هويزنجا (المجلس الأعلى)

(ثالثاً) في علم النفس والتربية :

۱۰ ــ و مدخل إلى علم النفس الحديث؛ [الألف كتاب] زانجويل (مكتبة الآداب) ۱۱ ــ و الحضين والطفل في ثقافة اليوم؛ : [الألف كتاب] جزل (الكرنك) ۱۷ ــ و الطفل من الحاسة إلى العاشرة؛ : و جزل (لحنة التأليف)

(رابعاً) كتب في السياسة والثقافة العامة والفنون :

١٦ ــ و آسيا والسيطرة الغربية »: السردار بانيكار الهنادى (الهيئة المصرية العامة)
 ١٧ ــ و حول منع الحرب » چون اسراتشى (الهيئة المصرية العامة)
 ١٨ ــ و التطور فى الفنون » توماس موثرو (الهيئة المصرية العامة)
 ١٩ ــ و الربية عن طويق الفن » : [الألف كتاب] هربرت ريد (لجنة العلمية)

٢٠ ــ و أليس في أرض العجائب و لويس كارول (لجنة الرواد)
 ٢١ ــ و أحلى كنوز الأقدمن ٥ . (قصص للأطفال تحت الطبع)
 ٢٢ ــ و مدينة الملاهي و قصص عالمة) أرنولد بينيت

وذلك عدا ترجمة مقالات في كتاب وتاريخ العالم لهمرتون ، ومكتبة النهضة ، ونشر أبحاث في بعض المجلات الأدبية .

مطابع العيشة المصرية العامة للكتناب

رثم الايداع بدار الكتب LS.B.N 977-01-3993-9

هذا الكتاب - هكما يحل عليه اسمه - موسوعة تاريخية شاملة مهجزة للحجنارة الإنسانية عبر عصورها ويروه قصتها الأحيب الإنجليزه الشهير ج. هـ ويلز والطبعة العربية من هذا الكتاب سوف تصحر فق أربعة أجزاء يتناول الجزء الأول منها نشاة الكوق والنظريات العامية المختلفة التم تفسر تطوره ثم ظهور الإنساق والأجناس القديمة المنحرة، ويعرض لفكر الإنساق البحاثي ومعتقداته الحينية ونشاة اللغة وتقسيماتها ثم لأقدم الحضارات فع مصر والعراق والهند. أما الجزء الثاني فيعرض للحضارة الأغريقية والهلينستية والرومانية. ولحد عن تاريخ العبرانيين. أما الجزء الثالث فيعنع بحضارات العجر الوسيط والجزء الرابع يتناول التاريخ الحديث.

